

ذلك أن المؤمن في الآخرة يذكر مُعْطَيَاتِ الْأَشْيَاءِ ، ويجعلهم الحق سبحانه إخواناً : قَرُبَ أَخٍ لَكَ لَمْ تَكُنْهُ أُمُّكَ ، والحق سبحانه هو القائل في موقع آخر :

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا... (١٠٣)﴾

[آل عمران]

وقد يكون لك أخ لا تكرهه ولا تحقد عليه ؛ ولكنك لا تجالسُه ولا تُسامره ؛ لأن الأخوة أنواع^(٢) . وقد تكون أخوة طيبة ممثلة بالاحترام لكن أياً منكما لا يسعى إلى الآخر ، ويجمعكم الحق سبحانه في الآخرة على سُرُرٍ متقابلين .

وسال سائل : وماذا لو كانت منزلة أحدهما في الجنة أعلى من منزلة الآخر ؟ ونقول : إن فضل الحق المطلق يرفع منزلة الأدنى إلى منزلة الأعلى ، وهما يتزاوران .

وهكذا يختلف حال الآخرة عن حال الدنيا ، فالإنسان في الدنيا يعيش ما قال عنه الحق سبحانه :

﴿يَأْيُهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ^(٣) إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦)﴾ [الانشقاق]

(١) شفا الشيء : حَرَفَهُ وطرَفَهُ . شفا كل شيء : حَرَفَهُ . وأشفى على الشيء - أشرف عليه . [لسان العرب - مادة : شفى] .

(٢) يفهم من خواطر الإمام أن الآخرة إما أخوة نسبية ، وإما أخوة إيمانية ، وأخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب حيث يقول الحق : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ... (٥٠)﴾ [الحجرات] فكل مؤمن أخ ، وليس كل أخ مؤمناً .

(٣) الكَدْحُ : هو السعي والحرص والدؤوب في العمل . كدح الرجل : جَدَّ وكَدَّ في العمل وبذل فيه جهداً كبيراً . [القاموس القويم ١٥٥/٢] .

ولكن الحال فى الآخرة يختلف ، وينطبق عليه قول الحق سبحانه
فى الآية التالية :

﴿ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (٤٨)

وحياتك فى الآخرة - إن أصلحت عملك وكنت من المؤمنين -
تختلف عن حياتك فى الدنيا ؛ فأنت تعلم أنك فى الدنيا تحيا مع
أسباب الله الممدودة لك ؛ وتضرب فى الأرض من أجل الرزق ،
وتجتهد وتتعب من أجل أن يهبك الله ما فى الأسباب من عطاء .

وحينئذ تصبح من المفلحين الذين يهديهم الله جنته . يقول الحق
جل علاه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴾ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

[البقرة]

وشاء الحق سبحانه أن يأتى بلفظ المفلح كصفة للمؤمن فى
الجنة ، لأن المؤمن قد حرث الدنيا بالعمل الصالح وبذل جهده ليقيم
منهج الله فى الأرض ، ونصب قامته ، ونعلم أن نصب القامة يدل
على أن من يعمل قد أصابه التعب ، وذلك فى الحياة الدنيا .

أما فى الجنة ، فيقول الحق :

﴿ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (٤٨)

[الحجر]

(١) النصب : الإعياء والتعب والمشقة والأذى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٥٣/٢) .

أى : لا يصيبهم فيها تعب ، ولا يُخْرَجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ ، ذلك أنهم قد نَالُوا فيها الخلود .

وهكذا تَكَلَّمُ سبحانه عن الغَاوِينَ ، وقد كانوا أَخْلَاءَ فى الدنيا يَمْرَحُونَ فيها بالمعاصى ؛ وهم مَنْ يَنْتَظِرُهُمْ عِقَابُ الْجَحِيمِ . وتَكَلَّمُ عن العِبَادِ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ سَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اخْتَلَفَتْ رُؤَاؤُهُ فى الدنيا ، ولم يربط بينهم تَأَلُّفٌ أَوْ مَحَبَّةٌ ؛ لَكِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَتَتَصَافَى قُلُوبُهُمْ مِنْ أَىْ خِلَافٍ قَدْ سَبَقَ فى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته ؛ ولا يقال (نبى) فى خبر بسيط . وسبق أن قال الحق سبحانه عن هذا النبأ :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) ﴾

[النبأ]

وقال سبحانه أيضاً عن هذا النبأ :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ﴾

[ص]

ونفهم من القول الكريم أنه الإخبار بنبأ الآخرة وما سوف يحدث فيها . وهنا يأتى سبحانه بخبر غفرانه ورحمته الذى يختص به عباده المخلصين الْمُتَّقِينَ الذين يدخلون الجنة ، وَيَتَمَتَّعُونَ بخيراتها خالدين فيها .

ولقائل أن يسأل : أليست المغفرة تقتضى ذنباً ؟

ونقول : إن الحق سبحانه خلقنا ويعلم أن للنفس هواجس : ولا يمكن أن تسلم النفس من بعض الأخطاء والذنوب والوسوسة : بدليل أنه سبحانه قد حَرَّمَ الكثير من الأفعال على المسلم : حماية للفرد وحماية للمجتمع أيضاً ، ليعيش المجتمع في الاستقرار الأمن .

فقد حَرَّمَ الحق سبحانه على المسلم السرقة والزنا وشرب الخمر ، وغيرها من الموبقات^(١) والخطايا ، والهواجس التي تقوده إلى الإفساد في الأرض ، وما دام قد حَرَّمَ كل ذلك فهذا يعني أنها سوف تنقح ، ونزل منهجه سبحانه مُحَرِّماً ومُجَرِّماً لمن يفعل ذلك ، كما يلزم كل المؤمنين به بضرورة تجنب هذه الخطايا .

وهنا يُوَضَّح سبحانه أن مَنْ يغفل عن المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، عليه ألاَّ يُورِّق نفسه بتلك الغفلات : فسبحانه رءوف رحيم .

ونحن حين نقرأ العربية التي قد شَرَّفَ الله أهلها بنزول القرآن بها ، نجد أقسام الكلام إما شعراً أو نثراً ، والشعر له وَزْن وقافية ، وله نَغَم وموسيقى ، أما النثر فليس له تلك الصفات ، بل قد يكون مَسْجُوعاً أو غَيْرَ مَسْجُوع .

وإن تكلمت بكلام نثرى وَجِئْتَ في وسطه ببيت من الشعر ، فالذي يسمعك يمكنه أن يلحظ هذا الفارق بين الشعر والنثر . ولكن القرآن كلام ربٍّ قدير : لذلك أنت تجد هذه الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها وتقرؤها وكأنها بيت من الشعر فهي موزونة مُقَفَّاة :

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات ، وأوبق : أهلكه . [لسان العرب - مادة : وبق] .

« نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

ووزنها من بحر المُجْتَث^(١) . ولكنها تأتي وَسَطُ آيات من قبلها
ومن بعدها فلا تشعير بالفارق ، ولا تشعير أنك انتقلت من نثر إلى
شعر ، ومن شعر إلى نثر ؛ لأن تضامن المعاني مع جمال الأسلوب
يعطينا جلال التأثير المعجز ، وتلك من أسرار عظمة القرآن .

ثم يقول الحق سبحانه فيما يخص الكافرين أهل الفجوة :

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

وهكذا يكتمل النبأ بالمغفرة لِمَن آمنوا ؛ والعذاب لِمَن كفروا ،
وكانوا من أهل الفجوة . ونلاحظ أنه سبحانه لم يُشَدِّد في تأكيد
العذاب ، ذلك أن رحمته سبقت غضبه ، مصداقاً لقوله ﷻ :

« إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده
تسعاً وتسعين رحمة ، وأرسل في خلقه كُلَّهم رحمة واحدة ، فلو
يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم يبيئس من الجنة ؛
ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب ؛ لم يامن من
النار »^(٢) .

ونلاحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قَوْل الحق سبحانه :

(١) سمي هذا البحر بِالمُجْتَث ؛ لأنه مجتث أي مقتطع من بحر الخفيف بتقديم (مستقطن)
على (فاعلاتن) ، ولم يستعمل إلا مجزوءاً ، وله عروض واحدة صحيحة تقطيعه : مستفع
لن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن انظر كتاب (في علمي العروض والقافية) - د. أمين على
السيد - طبعة دار المعارف ١٩٨٢ م .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٩) ، وأخرج مسلم بعضه في صحيحه (٢٧٥٥)
كتاب التوبة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾ (٦)

[الرعد]

ولذلك نرى أن الآيتين قد نُبِهتا إلى مقامَي الرجاء والخوف ،
وعلى المؤمن أن يجمعَ بينهما ، وألا يُؤجلَ العملَ الصالح وتكاليف
الإيمان ، وأن يستغفرَ من المعاصي ؛ لأن الله سبحانه وتعالى
يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطوية . لذلك يقول
الحديث :

« لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن
رحمتي سبقت غضبي »^(١) .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية
والجمالية في الغفران والرحمة والانتقام إلى مسألة حسية واقعية
تُوضِّح كل تلك الصفات ، فيتكلم عن إبراهيم - عليه السلام - ويعطيه
البُشْرَى ، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة ، ويُنزلُ بآله
العقاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١)

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لقَرَى^(٢) أو استئناس ،
ويُسَفَّوَنَهُ^(٣) الْمُتَضَوَّى ، لأنه ينضوى إلى غيره لطلب القرى ، ولطلب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٥١) ، والبخاري في صحيحه (٢١٩٤) من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه ، وفي لفظ : « غلبت » .

(٢) قرى الضيف قرى وقراء : أضاف . واستقراني : طلب منى القرى . والقرى : طعام

الاضيف . [لسان العرب - مادة : قرى] .

W19000000000000000000

وكان الكرماء من العرب من أهل السماحة ؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يَطْرُقُون بَابَهُمْ ، ولكنهم يُعْلِنُونَ عن أنفسهم بالنار ليراها مَنْ يَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ لِيَهْتَدِيَ إِلَيْهِمْ .

أَوْقَدَ النَّارَ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قُرْ^(١)
وَالرَّيْحُ يَا غُلَامُ رِيحٌ حَسْرَ^(٢)
إِنْ جَلِبْتَ لَنَا ضَيْفًا فَانْتَ حُرْ

وكل ذلك لأن كلمة « ضيف » قامت مقام المصدر . ولكن هناك من أهل العربية من يجمعون « ضيف » على « أضيف » : ويجمعون « ضيف » على « ضيوف » ، أو يجمعون « ضيف » على « ضيفان » .

(١) القَر : البرد . والقَرُ : اليوم البارد . وكل بارد : قَر . [لسان العرب - مادة : قَرر] .
(٢) الريح الصبر والصرصر : الشديدة البرد ، والشديدة الصوت العاصفة : [لسان العرب - مادة : صرر] .

جاء ومعه غيره ، وإذا جاءت جماعة ، ثم تبعتهَا جماعة أخرى نقول :
وجاءت ضيف أخرى .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنَا عنها نعلم أَنهم ليسوا
ضيفًا من الآية التي تليها ؛ التي قال فيها الحق سبحانه :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ (٥٢)

ونلاحظ أَن كلمة (سلامًا) جاءت هنا بالنَّصْب ، ومعناها نُسَلِّمُ
سلامًا ، وتعني سلامًا متجددًا . ولكنه في آية أخرى يقول :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (٢٥) [الذاريات]

ونعلم أَن القرآن يأتى بالقصة عبر لقطات مُوزَّعة بين الآيات ؛
فإذا جمعتها رسمتُ لك ملامح القصة كاملة .

ولذلك نجد الحق سبحانه هنا لا يذكر أَن إبراهيم قد رُدَّ
سلامهم ؛ وأيضًا لم يذكر تقديمه للعجل المشوَّى لهم ؛ لأنه ذكر ذلك
في موقع آخر من القرآن^(١) .

إذن : فمن تلك الآية نعلم أَن إبراهيم عليه السلام قد رُدَّ السلام ،
وجاء هذا السلام مرفوعًا ، فلماذا جاء السلام في الآية التي نحن
بصدد خواطرنَا عنها منصوبًا ؟

أى : قالوا هم : ﴿ سَلَامًا ﴾ (٥٢) [الحجر]

وكان لا بُدَّ من رُدِّ ، وهو ما جاءت به الآية الثانية :

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَهُ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود] .

[الذاريات]

﴿ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (٢٥)

والسلام الذي صدر من الملائكة لإبراهيم هو سلام مُتَجَدِّد ؛
بينما السلام الذي صدر منه جاء في صيغة جملة اسفوية مُثَبِّتة ؛
ويدلُّ على الثبوت .

إذ كان رَدَّ إبراهيم عليه السلام أقوى من سلام الملائكة ؛ لأنه
يُوضِّح أن أخلاق المنهج أن يردَّ المؤمنُ التحيةَ بأحسنَ منها ؛ لا أن
يردَّها فقط ، فجاء رَدُّه يحمل سلاماً استمرارياً ، بينما سلامهم كان
سلاماً تجديداً ، والفرق بين سلام إبراهيم - عليه السلام - وسلام
الملائكة : أن سلام الملائكة يتحدد بمقتضى الحال ، أما سلام
إبراهيم فهو منهج لدعوته ودعوة الرسل .

ويأتى من بعد ذلك كلام إبراهيم عليه السلام :

[الحجر]

﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ (٥٢)

وجاء في آية أخرى أنه :

[هود]

﴿ وَأَوْجَسَ^(١) مِنْهُمْ خِيفَةً .. ﴾ (٧٠)

وفي موقع آخر من القرآن يقول :

[الذاريات]

﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (٢٥)

فلماذا أوجس منهم خيفة ؟ ولماذا قال لهم : إنهم قوم مُنْكَرُونَ ؟

ولماذا قال :

(١) أوجس في نفسه : اضمر الخوف في نفسه . وأجس بالفتح . [القاموس القويم

﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ (٥٢)﴾

[الحجر]

لقد جاءوا له دون أن يتعرف عليهم ، وقدم لهم الطعام فرأى أيديهم لا تصل إليه ولا تقربه كما قال الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ^(١) وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)﴾

[هود]

ذلك أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنه إذا قدم ضيفاً وقدم إليه الطعام ، ورفض أن يأكل فعلى المرء ألا يتوقع منه الخير ؛ وأن ينتظر المكاره .

وحين علم أنهم قد أرسلوا إلى قوم لوط ؛ وطمانوه بالخبر الطيب الذي أرسلهم به الله اطمأنت نفسه ؛ وفي ذلك تأتي الآية القادمة :

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَالِمٍ^(٢) (٥٣)﴾

هكذا طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام ، وعدأت من روعه ، وأزالت مخاوفه ، وقد حملوا له البشارة بأن الحق سبحانه سيرزقه بغلام^(٣) سيصير إلى مرتبة أن يكون كثير العلم .

(١) نكر الشيء نكراً ونكراً : جهله . نكره : جهله واستوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٧٠)﴾ [هود] أي استوحش منهم لأنه لم يعرف حقيقتهم . [القاموس القويم ٢٨٥/٢] .

(٢) التوجل : الفزع والخوف . [لسان العرب - مادة : وجل] .

(٣) المقصود بالغلام هنا هو إسحاق عليه السلام . قال تعالى : ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَفَرَأَاهُ قَائِمَةً فَاهْتَضَمَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ [هود] قال ابن كثير في تفسيره (٤٥٢/٢) : من ههنا استدلل من استدلل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل . وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده .

ويستقبل إبراهيم عليه السلام الخبر بطريقة تحمل من الاندهاش الكثير ، فيقول ما ذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بَشِّرُونَ ٥١ ﴾

ونعلم أن الحق - سبحانه وتعالى - يخلق الخلق على أنحاء متعددة : حتى يعلم المخلوق أن خلقه لا ضرورة أن يكون بطريقة محددة : بل طلاقة القدرة أن يأتي المخلوق كما يشاء الله .

والشائع أن يُولد الولد من أب وأم : ذكر وأنثى . أو بدون الامرين معاً مثل آدم عليه السلام ، ثم خلق حواء من ذكر فقط ، وكما خلق عيسى من أم فقط ، وخلق محمداً ﷺ من ذكر وأنثى .

وفى الآية التي نحن بصددنا نجد إبراهيم عليه السلام يتعجب كيف يبشرونه بغلام ، وهو على هذه الدرجة من الكبر ، في قوله تعالى :

﴿ عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ٥٢ ﴾ [الحجر]

يعنى أن « على » هنا جاءت بمعنى « مع » أى : أنه يعيش مع الكبر : ويرى أنه من الصعب أن يجتمع الكبر مع القدرة على الإنجاب .

وأقول دائماً : إن كلمة (على) لها عطاءات واسعة فى القرآن الكريم ، فهي تترك مرة ويأتى الحق سبحانه بغيرها لتؤدى معنى معيناً : مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا صَلَبَكُمْ فِي جُلُوعِ النَّحْلِ ٧١ ﴾ [طه]

والصَّلْبُ إنما يكون على جذوع النخل ؛ ولكن الحق سبحانه جاء
بـ (فى) بدلاً من (على) ليدلُّ على أن الصَّلْبَ سيكون عنيفاً ،
بحيث تتداخل الأيدي والأرجل المصلوبة فى جذوع النخل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَبَشِّرْهُمْ عَلَىٰ أَن مِّنِي الْكِبَرُ ۖ ٥٤ ﴾ [الحجر]

أى : أتبشروننى بالغلام العليم مع أنى كبير فى العمر ؛ والمفهوم
أن الكِبَر والتقدم فى العمر لا يتأتى معه القدرة على الإنجاب .

وهكذا تاتى « على » بمعنى « مع » . أى : كيف تبشروننى
بالغلام مع أنى كبير فى العمر ، وقد قال قوله هذه مؤمناً بقدرة
الله ؛ فإبراهيم أيضاً هو الذى أورد الحق سبحانه قولاً له :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي
لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ٣٩ ﴾ [إبراهيم]

وكان الكِبَر لا يتناسب مع الإنجاب ، ويأتى ردُّ الملائكة على
إبراهيم خليل الرحمن :

﴿ قَالُوا أَبَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَاطِئِينَ ٥٥ ﴾

وكان الملائكة تقول له : لسنا نحن الذين صنعنا ذلك ، ولكننا
نُبلغك ببشارة شاءها الله لك ؛ فلا تكن من اليائسين .

ونفس القصة تكررت من بعد إبراهيم مع زكريا - عليه السلام -
فى إنجابه ليحيى ، حين دعا زكريا ربّه أن يهبه غلاماً :

﴿يُرِثْنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦﴾ [مريم]

وجاءته البشارة بيحيى ، وقد قال زكريا لربه :

﴿قَالَ رَبِّ اَنْتَ بِكُوْنِ لِي غُلَامًا وَكَانَتِ امْرَاَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨﴾ [مريم]

وإن شئت أن تعرف سرَّ عطاءات الأسلوب القرآنى فاقرا قول الحق سبحانه رداً على زكريا :

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ ١١﴾ لَهُ زَوْجَةٌ ١٠﴾ [الانبياء]

ولم يَقُلِ الحق سبحانه اصلحناكم انتم الاثنين ؛ وفى ذلك إشارة إلى أن العطبَ كان فى الزوجة ؛ وقد أثبت العلم من بعد ذلك أن قدرة الرجل على الإخصاب لا يُحدِّدها عمر ، ولكن قدرة المرأة على أن تحملَ مُحدَّدة بعمر مُعين .

ثم إذا تأملنا قوله الحق : ﴿وَوَهَبْنَا ١٠﴾ [الانبياء]

نجد أنها تُثبت طلاقة قدرة الله سبحانه فيما وَهَبَ ؛ وفى إصلاح ما فسد ؛ فسبحانه لا يُعْوزُهُ شَيْءٌ ؛ قادرٌ جَلُّ شأنه على الوَهْبِ ؛ وقادر على أن يُهَيِّئَ الأسباب ليتحقق ما يَهْبُهُ .

وهنا تقول الملائكة لإبراهيم :

(١) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر . كانت عاقراً لا تلد . فولدت . [تفسير ابن كثير ١٩٢/٢] وأصلح الأمر [إصلاحاً] . أزال فسادَه . [القاموس القويم ٢٨١/١] .

﴿بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ.. (٥٥)﴾

[الحجر]

أى : أنهم ليسوا المسئولين عن البشارة ، بل عن صدق البشارة ؛ ولذلك قالوا له من بعد ذلك :

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)﴾

[الحجر]

ويأتى الحق سبحانه بما رَدَّ به إبراهيم عليه السلام :

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ^(١) مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾

وهنا يعلن إبراهيم - عليه السلام - أنه لم يقنط من رحمة ربه ؛ ولكنه التعجب من طلاقة القدرة التى توحى بالوحدانية القادرة ، لا لذات وقوع الحدث ؛ ولكن لكيفية الوقوع ، ففى كيفية الوقوع إعجاب فيه تأمل ، ذلك أن إبراهيم - عليه السلام - يعلم علم اليقين طلاقة قدرة الله ؛ فقد سبق أن قال له :

﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى (٢٦٠)﴾

[البقرة]

ولنلاحظ أنه لم يسأله « أتحيى الموتى » ، بل كان سؤاله عن الكيفية التى يُحيى بها الله الموتى ؛ ولذلك يسأله الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ تُوْمنَ.. (٢٦٠)﴾

[البقرة]

وكان رَدَّ إبراهيم - عليه السلام - :

﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.. (٢٦٠)﴾

[البقرة]

(١) القنوط اليأس . وفى التهذيب اليأس من الخير . [لسان العرب - مادة . قنط] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٧٢٧

وحدثت تجربة عندما أمر إبراهيم بأن يأخذ^(١) أربعة من الطير ثم يقطعهم ويلقي على كل جبل جزءاً ، ثم يدعوهم فيأتيه سعيًا ، لذلك فلم يكن إبراهيم قانطاً من رحمة ربه ، بل كان متسائلاً عن الكيفية التي يجري الله بها رحمته .

ولم تكن تلك المحادثة بين إبراهيم والملائكة فقط ، بل اشتركت فيه زوجته سارة : إذ إن الحق سبحانه قد قال في سورة هود :

﴿ يَا وَيْلَتَى أَلُمْتَنِ آلَ اللَّهِ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي^(٢) شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ [هود]

وهكذا نجد أن القرآن يكمل بعضه بعضاً ؛ وكل لقطة تأتي في موقعها ؛ وحين نجمع اللقطات تكتمل لنا القصة .

وهنا في سورة الحجر نجد سؤالاً من إبراهيم - عليه السلام - للملائكة التي حملت له بشرى الإنجاب عن المهمة الأساسية لمجيئهم ، الذي تسبب في أن يتوجس منهم خيفة ؛ فقد نظر إليهم ، وشعر أنهم قد جاءوا بأمر آخر غير البشارة بالغلام ؛ لأن البشارة يكفي فيها ملكٌ واحد .

(١) قال تعالى : ﴿ فَخَذَّ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَفَ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْأً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة] فعمد إبراهيم إلى أربعة من الطير ، فذبحهن ثم قطنهن وفتق ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وأخذ رموسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهم فدعاهن ، كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم حتى قام كل طائر على حذته واثبه يمشين سعيًا . [ذكره ابن كثير في تفسيره ٢١٥/١] .

(٢) البعل الزوج والزوجة . قال الأزهري . سمي زوج المرأة بعلًا لأنه سيدها ومالكها . باعل القوم قومًا آخرين مبايلة : تزوج بعضهم إلى بعض . [لسان العرب - مادة بعل] .

أما هؤلاء فهم كثيرون على تلك المهمة ، فيقول سبحانه هذا السؤال الذي سألته إبراهيم - عليه السلام - :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٥٧)

أى : ما هو الأمر العظيم الذى جئتم من أجله : لأن الخطب هو الحدث الجلل الذى ينتاب الإنسان ؟ وسُمي خطباً لأنه يشغل بال الناس جميعاً فيتخاطبون به ، وكلما التقت جماعة من البشر بجماعة أخرى فهم يتحدثون فى هذا الأمر .

ولذلك سُميت رغبة الزواج بين رجل وامرأة وتقدمه لاهلها طلباً لبيدها ، خطبة ، : لأنه أمر جلل وهام : ذلك أن أحداً لو نظر إلى المرأة : ورأه واحداً من اهلها لثار من الغيرة : ولكن ما أن يدق الباب طالباً يدها ، فالامر يختلف : لأن اهلها يستقبلون من يتقدم للزواج الاستقبال الحسن : ويقال : « جدد^(١) الحلال أنف الغيرة » .

وهنا قال إبراهيم - عليه السلام - للملائكة : ما خطبكم أيها المرسلون ؟ أى : لاي أمر جلل أتيتم ؟

ويأتى الجواب من الملائكة فى قول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (٥٨)

ونعلم أن كلمة « القوم » مأخوذة من القيام ، وهم القوم الذين يقومون للأحداث : ويقصد بهم الرجال ، دون النساء لأن النساء لا يقمن للأحداث : والحق سبحانه هو الذى يفصل هذا الامر فى قوله :

(١) الجدد - القطع . وقيل - هو القطع البائن فى الأنف والأنثى واليد ونحوهما . [لسان

العرب - مادة : جدد] .

﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۚ ۝١١ ﴾

[الحجرات]

فلو أن كلمة « القوم » تُطلق على النساء ؛ لوصفَ بها الحق سبحانه النساء أيضاً ؛ وذلك كي نعلم أن الرجال فقط هم الذين يقومون للأحداث ؛ ولنعلم أن للمرأة منزلتها في رعاية أسرتها ؛ فلا تقوم إلا بما يخص هذا البيت .

وهنا أخبرت الملائكة إبراهيم - عليه السلام - أنهم مُرسكون إلى قوم مُجرمين^(١) ؛ وهم قوم لوط الذين أرمقوا لوطاً بالتكذيب وبالمعاصي التي أدمنوها .

ولكن الحق سبحانه يستثنى آل لوط من جريمة قوم لوط ، فقد كانت أغلبية قوم لوط من الفاسدين ، فيقول سبحانه :

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۚ ۝١٢ ﴾

وهذا استثناء لآل لوط من المجرمين^(٢) . والمُجرِم هو المُنْقَطِع عن الحق ، والجريمة هي الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، وغلب اسم

(١) جرم الشيء جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . وأجرم الرجل : أذنب وعصى وكفر وعاند فهو مجرم . [القاموس القويم ١/ ١٢١] .

(٢) يقول الفخر الرازي متسائلاً : هل هذا استثناء متصل أو منقطع ؟ يقول صاحب الكشاف : إذا كان هذا الاستثناء من قوم كان منقطعاً ؛ لأن القوم موصوفون بالإجرام وآل لوط ليسوا مجرمين ، فاختلف الجنس . وهنا يكون الاستثناء منقطعاً ، وإن كان الاستثناء من الضمير في مجرمين كان متصلاً كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم (راجع الفخر الرازي في تفسير الآية) .

القوم على الجماعة المجرمين ، وهكذا كان الاستثناء من هؤلاء المجرمين . الذين أجرموا في حق منهج الله ، والقيم التي نادى بها لوط عليه السلام .

وهكذا كان الإرسال للإنجاء لمن آمن والإهلاك لمن أعرض ونأى بجانبه في مهمة واحدة .

ثم يأتي استثناء جديد ؛ حيث يقرر الحق سبحانه أن امرأة لوط سيشملها الإهلاك ، فيقول سبحانه :

﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَقَدْ رَأَىٰ بِهَا غَيْرَ بَشَرٍ﴾

ونعلم في اللفظة أنه إذا توالى استثناءات على مُستثنى منه ؛ نأخذ المُستثنى الأول من المُستثنى منه ، والمستثنى الثاني نأخذه من المستثنى الأول ، والمستثنى الثالث نأخذه من المستثنى الثاني .

والمثل أن يقول لك من تدينه ، لك عشرة جنيهاً إلا أربعة ، أى : أنه أقر بأن لك ستة جنيهاً ؛ ولكنك تنظر إليه لعله يتذكر كم سدد إليك ؟ فيقول : « لك إلا درهماً » وهكذا يكون قد أقر بسبعة دراهم كدّين ؛ بعد أن كان قد أقر بستة ؛ ذلك أنه قال : « لك عشرة جنيهاً إلا أربعة » ، ثم أضاف : « إلا درهماً » .

وهكذا يكون قد استثنى من الأربعة الجنيهاً التي قال إنه سدها لك جنيهاً آخر ؛ وبذلك يكون ما سده من دين ثلاثة جنيهاً ، وبقي عنده سبعة جنيهاً .

والحق سبحانه هنا يستثنى امرأة لوط من الذين استثناهم من

(١) الغابرون : الباقون المتخلفون في القرية للهلاك ، أو كانت من الماضين الذاهبين أى من الهالكين . [القاموس القويم ٤٧/٢] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٧٣١

قبل للنجاة^(١) ، وهم آل لوط ، والملائكة التى تقول ذلك لم تُقدّر الامر
بإهلاك امرأة لوط ؛ بل هى تُنفذ التقدير الأعلى ؛ فسبحانه هو مَنْ
تدّر وأمر :

﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٦٠) [الحجر]

والغابر هنا بمعنى داخل ؛ أو هو من أسماء الأضداد ؛ وهى لن
تنجو ؛ لأن مَنْ تقررت نجاتهم سيتركون القرية ؛ وسيهلك مَنْ يبقى
فيها ، وامرأة لوط من الباقيين فى العذاب والاستثناء من النفى إثبات ؛
ومن الإثبات نفى ، فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين .
وتنتقل السورة من إبراهيم إلى لوط - عليه السلام - فيقول الحق
سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٦١) قَالَ
﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّتَكَبِّرُونَ﴾ (٦٢)

وهكذا قال لوط - عليه السلام - للملائكة عندما وصلوا إليه ، فقد
كان مشهودهم غاية فى الجمال ؛ ويعلم أن قومه يعانئون من
الغلمانية^(٢) ، ويحترقون الفاحشة الشاذة ؛ لذلك نجد الحق سبحانه
يقول عن معاملته للملائكة فى موقع آخر من القرآن :

﴿سَاءَ بِهِمْ ذَرْعًا..﴾ (٧٧) [هود]

(١) قال صاحب الكشاف : هذا استثناء من الضمير المجرور فى قوله (لمنجوعهم) وليس ذلك
من باب الاستثناء من الاستثناء (راجع الفخر الرازى) .

(٢) الغلمانية : حب إتيان الغلمان والذكوان من العالمين ، والفظة شدة الشهوة .

ذلك أن لوطاً علم أن قومه سيظلمون في هؤلاء المرء^(١) ، لذلك ما أن جاءوه حتى أعلن لهم أنه غير مرغوب فيهم ؛ ولم يرحب بهم ، ذلك أنهم قد دخلوا عليه في صورة شبان تضيء ملامحهم بالحسن الشديد ؛ مما قد يُسبب غواية لقومه .

كما أنهم قد دخلوا عليه ، وليس على ملامحهم أى أثر للسفر ؛ كما أنهم ليسوا من أهل المنطقة التى يعيش فيها ؛ لذلك أنكروهم .

ويقول سبحانه ما جاء على لسان الملائكة لحظة أن طمانوا لوطاً كشفوا له عن مهمتهم :

﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ^(٢) ﴾

وهكذا أعلنوا للوط سبب قدومهم إليه ؛ كي يُنزلوا العقاب بالقوم الذين أرمقوه ، وكانوا يشكّون فى قدرة الحق سبحانه أن يأخذهم أخذً عزيز مقتدر ، وفى هذا تسرية عنه .

ثم يؤكدون ذلك بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ^(٣) ﴾

أى : جئنا لك بأمر عذابهم الصادر من الحق سبحانه ؛ فلا مجال للشك أو الامتراء ، ونحن صادقون فيما نبلغك به .

(١) غلام امرء . والمرء : التمليس . وقال ابن الأعرابي : المرء : نقاء الخنثى من الشعر ونقاء الفصن من الورق . والامرء : الشاب الذى بلغ خروج لميته وطراً شارباً ولم تيد لميته . [لسان العرب - مادة : مرد] .

(٢) امترى فى الشيء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى فى الشيء : تشكك فيه . والعريّة

الجدل والشك . [القاموس القويم ٢٢٤/٢] .

ويقولون له من بعد ذلك :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُكَ

مِنْكَ أَحَدٌ وَآمَضُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ ﴾ (٦٥)

أى : سر أنت وأهلك فى جزء من الليل . ومرة يُقال « سرى » . ومرة يُقال « أسرى » : يلتقيان فى المعنى . ولكن « أسرى » تاتى فى موقع آخر من القرآن ، وتكون متعدية مثل قول الحق :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا .. (١) ﴾ [الإسراء]

وقولهم هنا (أسر بأهلك^(١)) هو تعبير مُهَذَّب عن صُحْبَةِ النساء والابناء . ونجد فى ريفنا المصرى مَنْ لا يتكلم أبداً فى حديثه عن المرأة أو البنات : فيقول الواحد منهم « قال الأولاد كذا » ، فكان اسم المرأة مبنياً على السُّتْر دائماً ، وكذلك نجد كثيراً من الاحكام تكون المرأة مَطْمُورَة فى حكم الرجل إلا فى الامر المُتعلِّق بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ .. (٦٥) ﴾ [الحجر]

وكلمة « قِطْع » هى اسم جمع^(٢) ، والمقصود هو أن يخرج لوطاً

(١) الأهل هم الذين اتبعوا لوطاً فى منهج الله ، ويخرج من الأهل امرأته لمصبيانها كما نفيت الأهلية عن ابن نوح بمصيانته . قال الله تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّ نِسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ

صَالِحٍ ﴾ [هود]

(٢) اسم الجمع هو اسم يدل على الجمع ، ولكنه ليس جمعاً سالماً سلمت فيه بنية المفرد من التفسير . وليس جمع تكسير . تغيرت فيه بنية المفرد ، ويفرق بينه وبين مفردة بالفاء ، مثل (تمر) فهذا اسم جمع مفردة (ثمرة) ، و (عنب) مفردة (عنبية) ، كذلك قطع هنا اسم يدل على الجمع مفردة (قطعة) ، وليس من أنواع الجموع المعروفة .

بأهله فى جُزء من الليل ، أو من آخر الليل ، فهذا هو منهج الإنجاء الذى أخبر به الملائكة لوطاً ، ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به ، وأوصوه أن يتبع أدبار قومه بقولهم :

﴿وَاتَّبِعْ أَذْيَارَهُمْ.. (٦٥)﴾

[الحجر]

أى : أن يكون فى المؤخرة ، وفى ذلك حثٌ لهم على السرعة .
وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ويرحلون منه : فكل منهم يحمل رَحْله على ناقته : وأهله فيها - فوق الناقة - ويبتدون السير ، ويتخلف رئيس القوم ، واسمه « مُعَقَّب » كى يرقب إن كان أحد من القوم قد تخلف أو تعثر أو ترك شيئاً من متاعه ، ويسمون هذا الشخص « مُعَقَّب » .

وهنا تأمر الملائكة لوطاً أن يكون مُعَقَّباً لأهله والمؤمنين به : ليحثهم على السير بسرعة : ثم لينفذ أمراً آخرَ يأمره به الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَلْبِثْ مِنْكُمْ أَحَدٌ.. (٦٥)﴾

[الحجر]

وتنفيد الأمر بعدم الالتفات يقتضى أن يكون لوط فى مؤخرة القوم : ذلك أن الالتفات يأخذ وقتاً ، ويقلل من سرعة مَنْ يلتفت : كما أن الالتفات إلى موقع انتمائهم من الأرض قد يُثير الحنين إلى مواقع التذكار وأرض المنشأ ، وكل ذلك قد يُعطّل حركة القوم جميعهم : لذلك جاء الأمر الإلهى :

﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)﴾

[الحجر]

أو : أن الحق سبحانه يريد ألا يلتفت أحدٌ خلفه حتى لا يشهد العذاب ، أو مقدمة العذاب الذى يقع على القوم ، فتأخذه بهم شفقة .
ونحن نعلم قول الحق سبحانه فى إقامة أى حدٍّ من الحدود التى أنزلها :

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ لِّ دِينِ اللَّهِ ۖ ﴾ (٧)

[النور]

فلو أن أحداً قد التفت إلى العذاب ، أو مقدمة العذاب ؛ فقد يحزن إليهم ، أو يعطف عليهم رغم أن عذابهم بسبب ذنب كبير ، فقد ارتكبوا جريمة كبيرة ؛ ونعلم أن بشاعة الجريمة تبهر ؛ وقد يبقى فى النفس عظم ألم العقوبة لحظة توقيعها على المجرم .

أو : أن الحق سبحانه يريد أن يعجل بالقوم الناجين قبل أن يوجد ، ولو التفريع الذى هو مقدمة تعذيب القوم الذين كفروا من هول هذا العذاب القادم .

ومكذا كان الأمر بالإسراء بالقوم الذين قرر الحق سبحانه نجاتهم ، والكيفية هى أن يكون الخروج فى جزء من الليل ، وأن يتبع لوطٌ أدبارهم ، وألا يلتفت أحد من الناجين خلفه ؛ ليمضى هؤلاء الناجون حيث يأمرهم الحق سبحانه . وقيل : إن الجهة هى الشام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَهُمْ هَؤُلَاءِ ^(١)

مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۖ ﴾ (٦)

(١) دابر الشيء آخره . وقطع الله دابرهم أى آخر من بقى منهم . [لسان العرب - مادة دبر] والتعبير كناية عن استئصالهم وإهلاكهم عن آخرهم . فالدابر التابع ، وقطع التابع قطع لهم جميعاً . [القاموس اللغوي ١ / ٢٢٠] .

وقوله الحق : ﴿ وَقَضَيْنَا... (٦٦) ﴾ [الحجر]

أى : أوحينا . وسبحانه تكلم من قبل عن الإنجاء للمؤمنين من آل لوط ؛ ثم تكلم عن عذاب الكافرين المنحرفين ؛ والأمر الذى قضى به الحق سبحانه أن يُبِيدَ هؤلاء المنحرفين . وقَطَعَ الدَّابِرَ هو الخَلْع من الجنود .

ولذلك يقول القرآن :

﴿ قَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا... (٤٥) ﴾ [الأنعام]

وهكذا نفهم أن قَطَعَ الدابر هو أن يأخذهم الحق سبحانه أَخَذَ عزيز مقتدر فلا يُبْقَى منهم أحداً . وموعِد ذلك هو الصباح ، فبعد أن خرج لوط ومن معه بجزء من الليل وتمت نجاتهم يأتى الأمر بإهلاك المنحرفين فى الصباح .

والأخذ بالصُّبْح هو مبدأ من مبادئ الحروب ؛ ويُقال : إن أغلب الحروب تبدأ عند أول خيط من خيوط الشمس .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ^(١) فَسَاءَ مَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأخذهم وهم فى استرخاء ؛ ولا يملكون قُدْرَةَ على المقاومة .

وقول الحق سبحانه هنا :

(١) السَّاحَةُ : الناحية والفضاء بين النُّور . جمعها سَاحٌ وسُوحٌ وساحات . [القاموس القويم

[الحجر]

﴿أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

لا يتناقض مع قوله عنهم في موقع آخر :

[الحجر]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

فكان بدء الصيحة كان صُبْحًا ، ونهايتهم كانت في الشروق .
وهكذا رسم الحق سبحانه الصورة واضحة أمام لوط من قبل أن يبدأ التنفيذ : فهكذا أخبرت الملائكة لوطًا بما سوف يجرى .

ويعود الحق سبحانه بعد ذلك إلى قوم لوط الذين لا يعرفون
ما سوف يحدث لهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وعندما علم أهل المدينة من قوم لوط بوصول وفد من الشبان
الحسان المرؤد عند لوط جاءوا مُسْتَبْشِرِينَ فَرَحِينَ . وكان حُسْنُهُم
مضرب الأمثال : وكان كلاً منهم ينطبق عليه قوله الحق عن يوسف
عليه السلام :

[يوسف]

﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

وقوله سبحانه :

[الحجر]

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(١) مشرقين وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس . أى : أضاءت . وأشرق القوم .
أى دخلوا في وقت شروق الشمس . [تفسير القرطبي ٢٧٦٥/٥] .

يجمع لقطات مُركَّبة عن الأمر الفاحش الشائع فيما بينهم ،
وكانوا يستبشرون بفعله ويُفرحون به ؛ فهم مَنْ ينطبق عليهم قوله
الحق :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ ^(١) عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾

[المائدة]

وكان لوط يعلم هذا الأمر فيهم ، ويعلم ما سوف يَحِقُّ بهم ؛
وأراد أَنْ يجعلَ بينهم وبين فعلِ الفاحشة مع الملائكة سَدًّا ؛ فهم في
ضيافته وفي جواره ، والتقاليد تقضى أَنْ يأخذَ الضيف كرامة
المُضيف ، وأى إهانة تلحق بالضيف هي إهانة للمُضيف ، فيقول
الحق سبحانه ما جاء على لسان لوط :

﴿ قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾

والفضيحة هي هُتَاءُ المساتير التي يستحي منها الإنسان ،
فالإنسان قد يفعل أشياء يستحي أَنْ يعلمها عنه غيره . والحق -
سبحانه وتعالى - حين يطلب منا أَنْ نتخلَّق بخُلُقِه ؛ جعل من كُلِّ
صفات الجمال والجلال نصيباً يعطيه لخلقه .

ولكن هناك بعضاً من صفاته يذكرها ولا يأتى بمقابل لها ؛ فهو
قد قال مثلاً « الضَّارُّ » ومقابلها « النافع » . وقال « الباسط »
ومقابلها « القابض » ، وقال « المُعِزُّ » ومقابلها « المُذِلُّ » . ومن

(١) تنهوا عن الأمر وعن المنكر . نهى بعضهم بعضاً . فكان بنو إسرائيل لا ينهى بعضهم
بعضاً عن منكر فعلوه ، فاستحقوا اللعنة . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٧٢٩﴾

أسمائه . الستار .^(١) ولم يأت بالمقابل وهو . الفاضح . : لماذا
لم يأت بهذا المقابل ؟

لأنه سبحانه شاء أن يحمى الكون ؛ لكي يستمتع كل فرد
بحسنات المُسِيء ؛ لأنك لو علمت سيئاته قد تبصق عليه ؛ لذلك شاء
الحق سبحانه أن يستر المُسِيء ، ويُظهر حسناته فقط .

وقد قال لوط لقومه بعد أن نهام عن الاقتراب الشائن من
ضيوفه :

﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾

أى : ضَعُوا بينكم وبين عقاب الحق لكم وقاية ؛ ولا تكونوا سبباً
فى إحساسى بالخزى والعار أمام ضيوفى بسبب ما ترغبون فيه من
الفاحشة .

والابتقاء من الوقاية ، والوقاية هى الاحتراس والبعد من الشر ،
لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ﴾ (٦)

أى : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، واحترسوا من أن تقعوا فيها ،
بالابتعاد عن المحظورات ، فإن فعل المحذور طريق إلى النار ،

(١) قال القرطبي فى « الاسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » (١٦٧/١) : « من أسماء الله
الستار والساتر . هذان الاسمان لم أر من ذكرهما . ولا من جعلهما فى عداد الاسماء . إلا
أن الفعل منهما وارد فى غير ما حديث . منها حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « من ستر
مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة » خرجه مسلم . »

والابتعاد عنه وقاية منها ، ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم - والقرآن كله كلام الله .

يقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة]

ويقول : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١) ﴾ [آل عمران]

كيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التي سيعذب فيها الكافرون ؟

والمعنى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذبوا في النار ، فكانك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصي ، وإن فعلت المأمورات ، ورضيت بالمقدورات ، وابتعدت عن المحذورات ، فقد اتقيت الله .

ولكنهم لم يستجيبوا له ، بدليل أنهم تَعَادَوْا في غِيهِم وقالوا ما أورده الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) ﴾

أي : أَلَمْ نُحذِرْكَ مِنْ قَبْلِ مِنْ ضَيَافَةِ الشَّيَآنِ الَّذِينَ يَتَمَيِّزُونَ بِالْحُسْنِ ، ولأنك قُمتَ باستضافة هؤلاء الشباب ؛ فلا بد لنا من أن نفعل معهم ما نحب من الفاحشة ، وكانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء .

وحاول لوط أن ينهزم قدر استطاعته ؛ ولكنهم رفضوا أن يُجير ضيوفه من عدوانهم الفاحش ، وطلبوا منه أن يتركهم وشأنهم ، ليفسدوا في الكون كما يشاءون ، فلا تتكلم ولا تعترض على شيء مما نفعل ، وهذه لغة أهل الضلال والفساد .

وحاول لوط عليه السلام أن يثنّيهم عن ذلك بأن قال لهم ،
ما جاء به الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) ﴾

أى : أنكم إن كنتم مُصرّين على ارتكاب الفاحشة : فلماذا
لا تتزوجون من بناتى ؟ ولقد حاول البعض أن يقولوا : إنه عرض
بناته عليهم ليرتكبوا معهن الفاحشة : وحاشا لله أن يصدر مثل هذا
الفعل عن رسول ، بل هو قد عرض عليهم أن يتزوجوا النساء .

ثم إن لوطاً كانت له ابنتان اثنتان ، وهو قد قال :

﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي.. (٧١) ﴾ [الحجر]

أى : أنه تحدث عن جمع كثير : ذلك أن ابنتيه لا تصلحان إلا
للزواج من اثنين من هذا الجمع الكثيف من رجال تلك المدينة ، ونعلم
أن بنات كل القوم الذين يوجد فيهم رسول يُعتبرن من بناته^(١) .

ولذلك يقول الحق سبحانه ما يوضح ذلك فى آية أخرى :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء]

أى : أن لوطاً أراد أن يردّ هؤلاء الشبوان إلى دائرة الصواب ،
والفعل الطيب . وذيل كلامه :

(١) أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي.. ﴾ (٧٨) [مود] قال : ما عرض لوط عليه السلام بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً إنما
قال : هؤلاء بناتى نساؤكم ، لأن النبى إذا كان بين ظهري قوم فهو أبوهم . [أورده
المصطفى فى الدر المنثور ٤/ ٤٥٧] .

[الحجر]

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)﴾

ليوحى لهم بالشك في أنهم سيُهينون ضيوفه بهذا الأسلوب الممجوج والمرفوض .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . و « عَمْرُكَ » معناها السنُّ المُحدَّد للإنسان لاستقامة الحياة ، ومرة تنطق « عَمْرُكَ » ومرة تنطق « عَمْرُكَ » ، ولكنهم في القَسَم يختارون كلمة « عَمْرُكَ » ، وهذا يماثل قولنا في الحياة اليومية « وحياتك » .

ومن هذا القول الكريم الذي يُحدِّث به الحق سبحانه رسوله استدُلُّ أهل الإشراف والمعرفة أن الحق سبحانه قد كَرَّم سيدنا رسول الله ﷺ : بأنه حين ناداه لم يُنَادِهِ باسمه العَلَنِيَّ « يا محمد » ، أو « يا أحمد » كما نادى كل رُسُلِهِ ، ولكنهُ لم يُنَادِ الرسول ﷺ إلا بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٦٧)﴾

[المائدة]

أو : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١٢)﴾

[المتحنة]

وفي هذا تكريم عظيم ، وهنا في هذه الآية نجد تكريماً آخر ، فسبحانه يُقسم بحياة رسوله ﷺ . ونعلم أن الحق سبحانه يُقسم

(١) السكرَةُ : الفُشْبَةُ . أى كانوا في غُشْبَةِ شهواتهم على عقولهم وغفلتهم واختاراهم بالدنيا اغتراراً يُضلُّهم فيعمون عن الحق [القاموس القويم ١/ ٢٢٠] والعمه . التحيُّر والتردد ، أى : يتردد متحيِّراً لا يهتدى لطريقه ومذهبه . [لسان العرب - مادة : عمه] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٧٤٣

بما شاء على ما شاء ، أقسم بالشمس وبمواقع النجوم وبالنجم إذا هَوَى .

فهو الخالق العليم بكل ما خلق ؛ ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألا نُقسِم إلا به ؛ لأننا نجهل حقائق الأشياء مُكْتَمَلَةٌ .

وقد أقسم سبحانه بكل شيء في الوجود ، إلا أنه لم يُقسِم أبداً بأى إنسان إلا بمحمد ﷺ ؛ فقال هنا :

﴿لَعَمْرُكَ (٧٢)﴾ [الحجر]

بحياتك يا محمد إنهم فى سَكْرَةٍ يعمهون ،

والسُّكْرَةُ هى التخدير العقلية التى تحدث لمن يختل إدراكهم بفعل عقيدة فاسدة ، أو عادة شاذة ، أو بتناول مادة تثير الاضطراب فى الوعي .

و ﴿يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ [الحجر]

أى : يضطربون باختيارهم .

ويأتى العقاب ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣)﴾

وسبق أن أخبرنا سبحانه أنه سيقطع دابرهم وهم مصبحون ،

(١) الصيحة : العذاب ، وأصله من الصباح . والصيحة : الفارة إذا فوجئ الحى بها . [لسان العرب - مادة . صبح] . قال فى القاموس القويم (٢٨٦/١) . « الصيحة : العذاب الذى يصحبه صوت شديد » .

وهنا يخبرنا أن الصيحة أخذتهم وهم مُشْرِقُونَ ، ونحن نرى هذه الأيام بعضاً من الألعاب كلعبة « الكاراتيه » تصدر صيحة من اللاعب في مواجهة خَصْمِهِ لِيزِيدَ مِنْ رُغْبِهِ .

كما نرى في تدريبات الصاعقة العسكرية : نوعاً من الصرخات ، هدفها أَنْ يَدْخُلَ الْمُقَاتِلُ الرُّغْبَ فِي قَلْبِ عَدُوهِ .

وكل ما يتطلب إرهاب الخَصْمِ يبدأ بصيحة تُفْقِدُهُ تَوَازُنَهُ الْفِكْرِي ؛ ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ ^(١) الْمُحْتَظِرِ ^(٢) ﴾

[القمر]

ومرّة يُسمِّيها الحق سبحانه بالطاغية ؛ فيقول :

﴿ فَأَمَّا نُمُودُ فَأَهْلِكُوا ^(٣) بِالطَّاغِيَةِ ^(٤) ﴾

[الحاقة]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ^(٥) ﴾

(١) الهشيم المحتظر . أى كالحطب والخشب المحطم فى يد المحتظر صانع العظيرة أو حامل الحطب فيها . [القاموس القويم ٢٠٢/٢] .

(٢) الطاغية : طغيانهم . أى : أهلكوا بطغيانهم . [لسان العرب - مادة : طفا] . قال قتادة هى الصيحة التى أسكتتهم والزلزلة التى أسكتتهم . وقال السدى : فاهلكوا بالطاغية يعنى ماطر الناقة . [تفسير ابن كثير ٤١٢/٤] .

(٣) السجيل : الطين المتحجر . قال ابن كثير فى تفسيره (٤٥٤/٢) . . . هى بالفارسية حجارة من طين . قاله ابن عباس وغيره . وقال بعضهم : أى : من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين . .

وما دام عاليها قد صار أسفلها ، فهذا لَوْنٌ من الانتقام المُنظَّم
المُوجَّه : ولو لم يكن انتقاماً مُنظماً : لانقلب بعضُ ما فى تلك المدينة
على الجانب الايمن أو الايسر .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يأتى لنا بصورة ما حدث ، ليدلنا
على قدرته على أن يفعلَ ما شاء كما يشاء . وأمطرهم الحق سبحانه
بحجارة من سجيل : كتلك التى أمطر بها مَنْ هاجموا الكعبة فى عام
ميلاد رسول الله ﷺ .

وهى حجارة صُنعتْ من طين لا يعلم كُنْهَهُ إلا الحق سبحانه ،
والطين إذا تحجَّر سُمِّيَ « سجيلاً » .

والحق سبحانه هو القائل عن نفس هذا الموقف فى سورة
الذاريات :

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ (٢٢)

[الذاريات]

وقد أرسل الحق سبحانه تلك الحجارة عليهم ليبيدهم ، فلا يُبقى
منهم أحداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥)

وهكذا كان العذاب الذى أنزله الحق سبحانه بقوم لوط آية
واضحة للمتوسمين . والمتوسم هو الذى يُدرك حقائق المسطور
بمكشوف المظهر . ويُقال « توسمتُ فى فلان كذا » أى : أخذ من
الظاهر حقيقة الباطن .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ سِجَاهُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مَنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. ﴾ (٢٩) [الفتح]

أى : ساعة تراهم ترى أن الملامح توضح ما فى الاعماق من إيمان .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ^(١) .. ﴾ (٢٧٣) [البقرة]

وهكذا نعرف أن المتوسم ^(٢) هو صاحب الفراسة التى تكشف مكنون الاعماق . وها هو ﷺ يقول : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ^(٣) .

وتحمل الذاكرة العربية حكاية الأعرابى الذى فقد جملة ، فذهب إلى قِيَمِ الناحية - أى : عمدة المكان - وقال له : « ضاع جملى ، وأخشى أن يكون قد سرقه أحد » . وبينما هو يُحدِّث القِيَمِ جاء واحد ، وقال له : أجملك أعور ؟ أجاب صاحب الجمل : نعم ، وقال له : أجملك أيتَر ؟ أى : لا ذيل له ، أجاب صاحب الجمل : نعم .

(١) ألحق السائل فى سؤاله . ألح وأكثر الإلحاح . أى : لا يلحون فى طلب الصدقات . [القاموس القويم ١٩٠/٢] .

(٢) قال ثعلب : « الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك . وأصل التوسم - التثبيت والتفكير . وذلك يكون بجودة الفريضة وحدة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره . وتفريغ القلب من حشو الدنيا . وتطهيره من أدناس المعاصى . وكدورة الأخلاق ، وفطول الدنيا » نقله القرطبي فى تفسيره (٢٧٦٦/٥) .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٢١٢٧) وقال . حديث غريب ، وفيه مصعب بن سلام . قال المناوى فى . فيض القدير . (١٤٢/١) : « أورده الذهبى فى الضعفاء . وقال ابن حبان : كثير الغلط فلا يحتج به » . والحديث عن أبى سعيد الخدرى .

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٧﴾

فسأل الرجل سؤالاً ثالثاً : أجملك أشول ؟ أى : يعرج قليلاً عندما يسير ؟ فاجاب الرجل : نعم ، والله هو جملى .

وأراد قيّم الحى أن يعلم كيف عرف الرجل الذى حضر كل هذه العلامات التى فى الجمل ، فسأله : وما أدراك بكل تلك العلامات ؟

قال الرجل : لقد رأيته فى الطريق ، وعرفت أنه أعور ، ذلك أنه كان يأكل العُشْبَ الجاف من جهة ، ولا يلتفت إلى العُشْبِ الأخضر فى الجهة الأخرى ، ولو كان يرى بعينه الاثنتين لراى العُشْبَ الأخضر .

وعرفت أنه أبتز مقطوع الذئيل نتيجة أن بعره لم يتبعثر مثل غيره من الجمال التى لها ذئيل غير مقطوع .

وعرفت أنه أشول : لأن أثر ساقه اليمنى أكثر عمقاً فى الأرض من أثر ساقه اليسرى . وهكذا شرحت الذاكرة العربية معنى كلمة « المتوسم » .

ثم يبيّن الحق سبحانه مكان مدينة قوم لوط ، فيقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّهَا لِبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ (٧٦)

أى : أنها على طريق ثابت تمرّون عليه إن ذهبتم ناحية هذا المكان ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ (١٢٧) [الصافات]

فهذه المدينة إذن فى طريق ثابت : لن تُضيّعه عوامل التّعرية أو الاغيار ، ولن تُضيّعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه له أن

يكون مُحْكَمَ التكوين ومُحْكَمَ التثبيت . وهو ما يُسَمَّى « سدوم » .
ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٧)

وقد قال من قبل :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٧٥) [الحجر]

فكان من مسئوليات المؤمن أن يتفحص في أديار الاشياء ، وأن يتعرف على الاشياء بسيماها ، وأن يمتلك فراسة الإيمان التي قال عنها ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » .

وهكذا ينهى الحق سبحانه هنا قصة قوم لوط : وما وقع عليهم من عذاب يجب أن يتعظ به المؤمنون ؛ فقد نالوا جزاء ما فعلوا من فاحشة .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك نَقْلَةً أُخْرَى : إلى أهل مَدِين ، وهم قوم شُعَيْب . وهم أصحاب الايكة ، يقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ ﴾ (٧٨)

و «الأيك» هو الشجر المُلْتَف الكثير الأغصان . ونعلم أن شعيباً - عليه السلام - قد بُعِثَ لأهل مَدِين وأصحاب الايكة ، وهي مكان قريب من مَدِين ، وكان أهل مَدِين^(١) قد ظلموا أنفسهم بالشرك .

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢٣١/٢) : « مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز » وقال أيضاً (٤٥٥/٢) : « هم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان » .

وقد قال الحق سبحانه :

[الأعراف]

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ (٨٥) ﴾

وقال عن أصحاب الايكة :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

[الشعراء]

وهكذا نعلم أن شعيباً قد بُعثَ لأمتين متجاورتين^(١) .

ويقول سبحانه عن هاتين الأمتين :

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ لِقَاءَ إِبْرَاهِيمَ (٧٦) وَإِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ (٧٧) ﴾

ويقال : إن ما كان يفصل بين مدين وأصحاب الايكة هو هذا الشجر الملتف الكثيف القريب من البحر . ولذلك نجد هنا الدليل على أن شعيباً عليه السلام قد بُعثَ إلى أمتين هو قوله الحق :

[الحجر]

﴿ وَإِنَّمَا ۖ (٧٩) ﴾

وقد انتقم الله من الأمتين الظالمتين : مدين وأصحاب الايكة .

ويقول الحق سبحانه :

(١) مضمون كلام الشيخ - رحمه الله - أن مدين وأصحاب الايكة هما أمتان مختلفتان بُعثَ إليهما شعيب عليه السلام . ويدل لهذا حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ أورده السيوطي في الدر المنثور (٩١/٥) من حديث عبيد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن مدين وأصحاب الايكة أمتان . بعث الله إليهما شعيباً » وعزاه لابن مردويه وابن عساكر . ولذلك فقد أرجع الشيخ للضمير في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ (٧٩) ﴾ [الحجر] إلى هاتين الأمتين . أما القرطبي وابن كثير فقد عابا بالضمير إلى قوم لوط . وقوم مدين على اعتبار أن أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الايكة . راجع القرطبي (٢٧٦٨/٥) وابن كثير (٥٥٦/٢) .

﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (٧٦) [الحجر]

والإمام هو ما يؤتم به في الرأي والفتيا : أو في الحركات والسكنات :
أو : في الطريق الموصول إلى الغايات ، ويُسمى « إمام » لأنه يدل على
الاماكن أو الغايات التي نريد أن نصل إليها ، ذلك أنه يعلم كل جزئية من
هذا الطريق .

وفيما يبدو أن أصحاب الأيكة قد تَمَادَوْا في الظُّلْم والكُفْر^(١) ، وإذا كان
سبحانه قد أخذ أهل مَدْيَن بالصيحة والرجفة ؛ فقد أخذ أصحاب الأيكة بأن
سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام لا يُظْلَمُ منه ظلٌّ ؛ ثم أرسل سحابة وتمنَّوْا
أن تمطر ، وأمطرت نارا فاكلتهم ، كما قالت كتب الأثر^(٢) .

وهذا هو العذاب الذي قال فيه الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٨٩) [الشعراء]

وهكذا تكون تلك العِبَر بمثابة الإمام الذي يقود إلى التَّبَصُّر بعواقب
الظلم والشرك .

وينقلنا الحق سبحانه إلى خبر قوم آخرين ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾

وأصحاب الحجر هم قوم صالح ، وكانت المنطقة التي يقيمون فيها

(١) كان ظلم قوم شعيب بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . [تفسير
ابن كثير ٥٥٦/٢] .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٩٢/٥) من قول قتادة . وعزاه لعبد بن حميد وابن
جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .

كلها من الحجارة : ولا يزال مقامهم معروفاً في المسافة بين خيبر
وتبوك . وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ أَتَيْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ^(١) آيَةً تَعْبَثُونَ ^(٢) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ^(٣) لَكُمْ
تَخْلُدُونَ ^(٤) ﴾ [الشعراء]

وهم قد كذبوا نبيهم « صالح » وكان تكذيبهم له يتضمن تكذيب كل
الرسل : ذلك أن الرسل يتواردون على وحدانية الله ، ويتفقون في الأحكام
العامة الشاملة ، ولا يختلف الأنبياء إلا في الجزئيات المناسبة لكل بيئة من
البيئات التي يعيشون فيها .

فبيئة : تعبد الأصنام ، فيثبت لهم نبيهم أن الأصنام لا تستحق أن
تُعبد .

وبيئة أخرى : تُطْفَف الكيل والميزان : فيأتي رسولهم بما ينهاهم عن
ذلك .

وبيئة ثالثة : ترتكب الفواحش فيُحذِّرهم نبيهم من تلك الفواحش .

وهكذا اختلف الرسل في الجزئيات المناسبة لكل بيئة : لكنهم لم
يختلفوا في المنهج الكلي الخاص بالتوحيد والمنهج ، وقد قال الحق
سبحانه عن قوم صالح أنهم كذبوا المرسلين : بمعنى أنهم كذبوا صالحاً
فيما جاء به من دعوة التوحيد التي جاء بها كل الرسل .

(١) الريح . الجبل أو ما يشبهه من المباني المرتفعة أو المكان المرتفع . [القاموس القويم
٢٨٢/١] .

(٢) المصانع : أبنية عالية وقصور متينة تحسنون صنعها راجين أن تخلصوا فيها ولستم
بخالدين . [القاموس القويم ٢٨٤/١] .

ويقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك :

﴿وَأَيِّنَّا لَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٨١)

وهنا يُوجز الحق - سبحانه وتعالى - ما أرسل به نبيهم صالح من آيات تدعوهم إلى التوحيد بالله ، وصدق بلاغ صالح عليه السلام الذي تمثل في الناقة ، التي حذرهم صالح أن يقربوها بسوء كيلا يأخذهم العذاب الاليم^(١) .

لكنهم كذبوا وأعرضوا عنه ، ولم يلتفتوا إلى الآيات التي خلقها الحق سبحانه في الكون من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، واختلاف الأنس والألوان بين البشر .

ونعلم أن الآيات تأتي دائماً بمعنى المُعْجَزَات الدالة على صدق الرسول ، أو : آيات الكون ، أو : آيات المنهج المُبَلِّغ عن الله ، تكون آية الرسول من هؤلاء من نوع ما نبغ فيه القوم المُرسَل إليهم ؛ لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها .

وعادة ما تثير هذه الآية خاصية التحدي الموجودة في الإنسان ، ولكن أحداً من قوم الرسل - أي رسول - لا يُفلح في أن يأتي بمثل آية الرسول المرسل إليهم .

ويقول الحق سبحانه عن قوم صالح :

﴿وَأَتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٨١)

[الحجر]

(١) قال تعالى : ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ أَهْلَهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتُكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هِنَالِكَ اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ مَا خَذَكُمُ عَذَابُ آلِهَةٍ﴾ (٧٣) [الأعراف] .

أى : تَكْبَرُوا وأعرضوا عن المنهج الذى جاءهم به صَالِح ،
والإعراض هو أَنْ تُعْطَى الشَّيْءَ عَرْضَكَ بِأَنْ تَبْتَغِدَ عَنْهُ وَلَا تُقْبَلَ عَلَيْهِ ،
ولو أنك أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ لَوَجَدْتَ فِيهِ الْخَيْرَ لَكَ .

وَأَنْتَ حِينَ تُقْبَلُ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ سَتَجِدُ أَنَّهَا تَدْعُوكَ لِلتَّفَكُّرِ ، فَتُؤْمِنُ
أَنْ لَهَا خَالِقًا فَتَلْتَزِمُ بِتَعَالِيمِ الْمَنْهَجِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ .

وَأَنْتَ حِينَ تُفَكِّرُ فِي الْحِكْمَةِ مِنَ الطَّاعَةِ سَتَجِدُ أَنَّهَا تُرِيحُكَ مِنْ
قَلْقِ الْاعْتِمَادِ عَلَى أَحَدٍ غَيْرِ خَالِقِكَ ، لَكِنْ لَوْ أَخَذْتَ الْمَسَائِلَ بِسَطْحِيَّةٍ ؛
فَلَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْإِيمَانِ .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿وَكُنَّا مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٩) [يوسف]

وفى هذا تكليفٌ للمؤمن - كُلِّ مُؤْمِنٍ - أَنْ يُمَعِّنَ النَّظَرَ فِي آيَاتِ
الْكَوْنِ لَعَلَّهُ يَسْتَنْبِطُ مِنْهَا مَا يَفِيدُ غَيْرَهُ .

وَأَنْتَ لَوْ نَظَرْتَ إِلَى كُلِّ الْمُخْتَرَعَاتِ الَّتِي فِي الْكَوْنِ لَوَجَدْتَهَا نَتِيجَةً
لِلْإِقْبَالِ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ عَالِمٍ أَرَادَ أَنْ يَكْتَشِفَ فِيهَا مَا يُرِيحُ غَيْرَهُ بِهِ .

والمثل فى اكتشاف قُوَّةِ الْبَخَارِ الَّتِي بَدَأَ بِهَا عَصْرٌ مِنَ الطَّاقَةِ
وَاخْتِرَاعِ الْمُعْدَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ بِتِلْكَ الطَّاقَةِ ، وَحَرَكَ بِهَا الْقِطَارَ
وَالسَّفِينَةَ ؛ مِثْلَمَا سَبَقَهَا إِنْسَانٌ آخَرٌ وَاخْتَرَعَ الْعَجَلَةَ لِیُسَهِّلَ عَلَى الْبَشَرِ
حَمْلَ الْأَثْقَالِ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي أَمْرِ الْكَوْنِيَّاتِ ؛ فَهَاجَتْ أَيْضًا إِذَا تَامَلْتَ آيَاتِ

الاحكام فى « افعل » و « لا تفعل » ستجدها تقيّدك فى حياتك ،
ومستقبلك ، والمثل على ذلك هو الزكاة ؛ فانت تدفع جزء يسيراً من
عائد عملك لغيرك مَعْنً لا يَقْوَى على العمل ، وستجد أن غيرك يعطيك
إن حدث لك احتياج ؛ ذلك أنك من الاغيار .

ويتابع الحق سبحانه قوله عن قوم صالح :

﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾

وهنا يمتنّ عليهم بأن منحهم حضارة ، ووهبهم مهارة البناء
والتقدّم فى العمارة ؛ وأخذوا فى بناء بيوتهم فى الاحجار ، ومن
الاحجار التى كانت توجد بالوادي الذى يقيمون فيه ، وقطعوا تلك
الاحجار بطريقة تُتيح لهم بناء البيوت والقصور الآمنة من اغيار
التقلّبات الجوية وغيرها .

ونعلم أن مَنْ يعيش فى خَيْمة يعانى من قلّة الامن ؛ أما مَنْ
يبنى بيته من الطوب اللبن ؛ فهو أكثر أَمْنًا مَعْنً فى الخيمة ، وإن
كان أقلّ أماناً من الذى يبنى بيته من الاسمنت المسلّح ، وهكذا
يكون أَمْنُ النفس البشرية فى سكنها واستقرارها من قوة الشيء
الذى يحيطه .

وإذا كان قوم صالح قد أقاموا بيوتهم من الحجارة فهى بالتأكيد
أكثر أَمْنًا من غيرهم ، ونجد نبيهم صالحاً ، وقد قال لهم ما أورده
الحق سبحانه فى كتابه الكريم :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ^(١) فِي الْأَرْضِ تَسْخَدُونَ
مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ^(٢) اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا^(٣) فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾

ولكنهم طَفَرُوا وَبَقُوا وأنكروا ما جاء به صالح - عليه السلام -
فما كان من الحق سبحانه إلا أن أرسل عليهم صيحة تأخذهم .

وقال الحق سبحانه :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٢)﴾

وهم إذا كانوا قد اتخذوا من جبلية الموقع أمنا لهم : فقد جاءت
الصيحة من الحق سبحانه لتدك فوق رؤوسهم ما صنعوا ، وقد قال
الحق سبحانه عنهم من قبل في سورة هود :

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ (٦٧)﴾

[هود]

وقال سبحانه عنهم أيضا :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ (٧٨)﴾

[الاعراف]

والرَّجْفَةُ هي الزلزلة ، والصَّيْحَةُ هي بعض من توابع الزلزلة ،

(١) بواه في الأرض - مَكَّنَ له فيها . وأباهه منزلا وبوأكه إياه : هياه له وأنزله ومَكَّنَ له فيه .

[لسان العرب - مادة : بوا] .

(٢) الآلاء - النعم . مفرد لها - إلي . أو إلى بكسر الهمزة وفتحها . [القاموس القويم ٢٧/١] .

(٣) عَتَا عَتَوْا : أفسد أشد الإفساد . [لسان العرب - مادة : عتا] .

(٤) جثم . لزم مكانه لاسقا بالأرض ، قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ (٦٧)﴾ [هود] .

ذلك أن الزلزلة تحدث تموجاً في الهواء يؤدي إلى حدوث أصوات قوية تعصف بمن يسمعها .

وهم حسب قول الحق سبحانه قد تمتعوا ثلاثة أيام قبل أن تأخذهم الصيحة كوعد نبيهم صالح - عليه السلام - لهم :

﴿ فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (٦٥)

[هود]

ويقول الحق سبحانه عن حالهم بعد أن أخذتهم الصيحة :

﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٤)

وهكذا لم تنفعهم الحصون في حمايتهم من قدر الله ، ونعلم أن قدر الله أو عقابه لا يمكن أن يمنعه مانع مهما كان : فهو القاتل :

﴿ أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ (٧٨)

[النساء]

وهكذا لا يمكن أن يحمي الإنسان نفسه مما قدره الله له ، أو مما يشاء الحق أن ينزله على الإنسان كعقاب .

وسبحانه القاتل :

﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (١٥٤)

[آل عمران]

وهكذا خروا جميعاً في قاع الهلاك ، ولم تحصيهم حصونهم من العذاب الذي قدره سبحانه .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الآيات الكونية ! فيقول :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَبِيلِ﴾ (٨٥)

والحق هو الشيء الثابت الذي لا تتغيره الاغيار ، والمثل هو نظام المجرات وحركة الشمس والقمر ؛ تجدها منضبطة ؛ ذلك أن الإنسان لا يتدخل فيها ، وليس للإنسان - صاحب الاغيار - معه أى اختيار .

ولذلك نجد أن الفساد لا ينشأ فى الكون من النواميس العليا ، ولكن من الامور التى يتدخل فيها الإنسان ، وليس معنى ذلك أن يتوقف الإنسان عن الحركة فى الأرض ؛ ولكن عليه أن يرفع منهج الله ، ويمتنع عما نهى عنه وأن يطيع ما أمره به .

وأنت لو طبقت أوامر الحق سبحانه فى « افعل » و « لا تفعل » لاستقامت الدنيا فى الأمور التى لك تدخل فيها كاستظام الأمور التى ليس لك دخل فيها .

واقرا إن شئت قوله الحق :

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ (٤) الْبَيَانَ (٥)﴾

(١) البيان - النطق . قاله الحسن وقال الضحاك وقتادة وغيرهما يعنى الخير والشر ، قال ابن كثير فى تفسيره (٢٧٠/٤) « قول الحسن ههنا احسن واكوى ، لان السياق فى تعليم تعالى القرآن وهو أداء تلاوته . وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الخلق واللسان والشفوتين على اختلاف مخارجها وأنواعها .. »

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا
وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴿ [الرحمن]

فإن كنتم تريدون أن تنتظم أموركم في الحياة الدنيا ؛ فلا تطغوا
في ميزان أي شيء .

وهنا يُذكرنا الحق سبحانه ألا نقع في خطأ الوهم بأننا سناخذ
نعم الدنيا دون ضابط أو رابط ؛ فالحساب قادم لا محالة ، ولذلك
قال الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّمَا نَذِيرُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ تُرِينَا الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ﴾ [الزخرف]

أي : ما قدره الله سيقع دون أن يصُدّه شيء مهما كان ، وإما
ترى ذلك في حياتك ، أو تراه لحظة البعث .

والدليل هو ما حاق بمن كفرُوا وظلموا وكذبوا الرسل ، وعاثوا
في الأرض مفسدين . وأهلكهم الحق سبحانه بعذابه تطهيراً للأرض
من فسادهم ، هذا جزاؤهم في الدنيا ، وهناك جزاء آخر في اليوم
الآخر .

وفي هذا القول تسلية لرسول الله ﷺ ، فهو حين يعلمه الله
ما حاق بالأمم السابقة التي كذبت الرسل ؛ هانت عليه المتاعب
والمشاق التي عاناها من قومه ، وليسهل عليه من بعد ذلك أن
يتذرع^(١) بالصبر الجميل ، حتى يأتي وعده سبحانه ، وليس عليك
يا محمد أن تحمّل نفسك ما لا تطيق .

(١) الذريعة : الوسيلة والسبب إلى الشيء . وقد تذرّع فلان بذريعة أي : توسل . [لسان

العرب - ملحة : ذرع] .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦)

وقد جاء سبحانه هنا بالاسم الذى خلق به من عَدَم ، وأمد من عَدَم . وقِيُومِية الربوبية هى التى تمدُّ كل الكون برزقه وترعاه ؛ فسبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الكون ، وهو الذى يرعاه .

وكلمة : ﴿رَبُّكَ﴾ (٨٦) [الحجر]

تُوحى بأنه إن أصابك شىءٌ بسبب دعوتك ، وبسبب كنود^(١) قومك أمامك وعدائهم لك ، فربُّكَ يا محمد لن يتركهم .

والربُّ - كما نعلم - هو مَنْ يتولَّى تربية الشىء إلى ما يعطيه مناط الكمال ، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط ، ولكنه ينطبق على الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿الْخَلْقُ﴾ (٨٦) [الحجر]

مبالغة فى الخلق ، وهى امتداد صفة الخلق فى كل ما يمكن أن يخلق ، لانه سبحانه هو الذى أعدَّ كل مادة يكون منها أى خلق ، وأعدَّ العقل الذى يُفكِّر فى أى خلق ، وأعدَّ الطاقة التى تفعل ، وأعدَّ التفاعل بين الطاقة والمادة والعقل المُخطَّط لذلك .

وما يفعله الإنسان المخلوق هو التوليف بين ما خلقه الله من

(١) الكنود الجحود . كند النعمة جحدها ولم يشكرها . قال تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦) [الماعيات] أى كنور شديد الجحود . [القاموس القويم ١٧٥/٢] .

مواد ، وإنْ وُجِدَ خلاق من البشر ؛ فهو وحده سبحانه الذى يهب إنساناً ما أفكاراً لينفذها ، ثم يأتى مَنْ هو أذكى منه لِيُطَوِّرَها .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ^(٧٦) ﴾

[يوسف]

وهكذا رأينا كل المخترعات البشرية تتطور ؛ والمثل على ذلك هو آلة الحياكة التى صارت تعمل الآن آلياً بعد أن كانت المرأة تجلس عليها لتكُدْ فى ضَبْطِها ، وكذلك غَسَّالة الملابس ، وغَسَّالة الأطباق والسيارات والطائرات .

ونلاحظ أن كل ما خلقه الله يمكن أن يُستفاد من عادمه مثل رَوث البهائم ؛ الذى يُستخدم كسماد ، أما عادم السيارات مثلاً فهو يُلَوِّث الجو . وشاشة التلفزيون تُصدر من الإشعاعات ما يضر العين . وتَمَّ بحثُ ذلك لتلافي الآثار الجانبية فى مثل تلك الأدوات التى يسهل الإنسان بها حياته .

أما ما يخلقه الله فلا توجد له آثار جانبية ؛ فسبحانه ليس صاحب عِلْمٍ مُكْتَسَبٍ أو ممنوح ؛ بل العلم صفة ذاتية فيه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ^(١) ﴾

(١) المثنى من القرآن ما نُقِىَ مرة بعد مرة . قال أبو عبيد : سُمى القرآن مثنى لأن الانباء والقصص ثنيت فيه ، ويسمى جميع القرآن مثنى أيضاً لاقتران آية الرحمة بآية العذاب . [لسان العرب - مادة : ثنى] .

وهنا يمتنُ الحق سبحانه على رسوله ﷺ بأنه يكفيه أن أنزلَ عليه القرآن الكتاب المعجزة ، والمنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فالقرآن يضمُّ كمالات الحق التي لا تنتهي : فإذا كان سبحانه قد أعطاك ذلك ، فهو أيضاً يتحملُ عنك كُلَّ ما يؤلمك .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (٩٧)

[الحجر]

ويقول له الحق أيضاً :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ . ﴾ (٣٣)

[الانعام]

وأزاح الحق سبحانه عنه هموم اتهامهم له بأنه ساحر أو مجنون ؛ وقال له سبحانه :

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَئِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٣٣)

[الانعام]

ويكشف له سبحانه : إنهم يؤمنون أنك يا محمد صادق ، ولكنهم يتظاهرون بتكذيبك .

ويتمثل امتنانُ الحق سبحانه على رسوله أنه أنزلَ عليه السَّبْعَ المثاني ، واتفق العلماء على أن كلمة « المثاني » تعنى فاتحة الكتاب ، فلا يُثنى في الصلاة إلا فاتحة الكتاب .

(١) أى بما تسمعه من تكذيبك وردَّ قولك ، وتناوله ويناله أصحابك من أعدائك . [تفسير

ونجده سبحانه يَصِفُ الْقُرْآنَ بِالْعَظِيمِ : وهو سبحانه يحكم بعظمة القرآن على ضَوْءِ مَقَائِيْسِهِ الْمُطْلَقَةِ : وهي مقاييس العظمة عنده سبحانه .

والمثل الآخر على ذلك وَصَفَهُ سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

وهذا حُكْمٌ بِالمقاييس العُلْيَا للعظمة ، وهكذا يصبح كُلُّ متاع الدنيا أَقْلُ مَعًا وَهَبَهُ الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، فلا يَنْظُرُنَّ أَحَدٌ إِلَى مَا أُعْطِيَ غَيْرُهُ : فقد وهب سبحانه لرسوله ﷺ .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد عطف القرآن على السَّبْعِ المثاني ، وهو عَطَفَ عام على خَاصٍّ : كما قال الحق سبحانه :

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ (٢٣٨)﴾ [البقرة]

ونفهم من هذا القول أن الصلاة تَضُمُّ الصَّلَاةَ الْوُسْطَىٰ أيضًا ، وكذلك مثل قول الحق ما جاء على لسان رسوله ﷺ :

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (٢٨)﴾ [نوح]

(١) اختلف العلماء في تحديد الصلاة الوسطى على ثلاثة أقوال :

القول الأول : الصبح ، حكاه مالك في الموطأ بلاغا عن علي وابن عباس .

القول الثاني : الظهر ، قاله زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة .

القول الثالث : العصر ، قال القرطبي والبغوي هو قول أكثر علماء الصحابة . [انظر

تفسير ابن كثير ٢٩٠/١ - ٢٩٢] قال الشيخ سيد سابق في فقه السنة (٧٧/١) : قد

جاءت الأحاديث الصحيحة مصرحة بأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى . . . وقيل : إن

كل صلاة من الصلوات الخمس تعتبر وسطى ، وذلك لِدَوَامِ المحافظة على الصلوات

الخمس ، وفي الكل خير .

WVTR

أو : أَنْ نَقُولَ : إِنَّ كَلِمَةَ « قُرْآن » تُطْلَقُ عَلَى الْكِتَابِ الْكَرِيمِ الْمُنْزَلِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ فِيهِ ، وَيُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْقُرْآنِ ؛ فَقَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :

هي آية من القرآن : وتُسَمَّى أيضاً قرآنا .
ونجده سبحانه يقول :

ونحن في الفجر لا نقرأ كل القرآن ، بل بعضاً منه ، ولكن ما نقرؤه يُسمَّى قرآنًا ، وكذلك يقول الحق سبحانه :

وهو لا يقرأ كل القرآن بل بعضه ، إذن : فكل آية من القرآن قرآن .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٤٧٤/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله : ﴿وَرَأَى الْفَجْرَ إِذْ قُرْآنُ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء] قال : « يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » .

(٣) الحجاب المستور : طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة وقيل : نزلت في قوم كانوا يذنون رسول الله ﷺ (إذا قرأ القرآن) وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبي لهب وحويطب ، فحجب الله سبحانه رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن . [تفسير القرطبي ٢٩٩٨/٥] .

وقد أعطى الحق سبحانه رسوله ﷺ السُّبُّعَ المثنى والقرآن العظيم ، وتلك هي قِمةُ العطايا ، فلكه عطاءاتٌ متعددة : عطاءات تشمل الكافر والمؤمن ، وتشمل الطائِعَ والعاصي ، وعطاءات خاصة بمن آمن به : وتلك عطاءات الالهية لمن سمع كلام ربّه في « افعل » ، و « لا تفعل » .

وسبحانه يمتد عطاؤه من الخلق إلى شربة الماء ، إلى وجبة الطعام ، وإلى الملابس ، وإلى المسكن ، وكل عطاء له عُمْرٌ ، ويسمو العطاء عند الإنسان بِسُمو عمر العطاء ، فكل عطاء يمتدُّ عمره يكون هو العطاء السعيد .

فإذا كان عطاء الربوبية يتعلّق بمُعْطَيَاتِ المادّة وقوام الحياة : فإن عطاءات القرآن تشمل الدنيا والآخرة : وإذا كان ما يُنْغِصُ أيُّ عطاء في الدنيا أن الإنسان يُفَارِقَهُ بالموت ، أو أن يذوى هذا العطاء في ذاته : فعطاء القرآن لا ينفد في الدنيا والآخرة .

ونعلم أن الآخرة لا نهاية لها على عكس الدنيا التي لا يطول عمرُك فيها بعمرها ، بل بالأجل المُحدّد لك فيها .

وإذا كانت عطاءات القرآن تحرس القيم التي تهبُّك عطاءات الحياة التي لا تفنى وهي الحياة الآخرة : فهذا هو أسمى عطاء ، وإياك أن تتطلّع إلى نعمة موقوتة عند أحد منهم من نعم الدنيا الفانية : لأن مَنْ أُعْطِيَ القرآن وظنَّ أن غيره قد أُعْطِيَ خيراً منه : فقد حقر ما عَظُم الله .

وما دام الحق سبحانه قد أعطاك هذا العطاء العظيم ، فيترتب عليه قوله :

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

وَالْمَدُّ : هُوَ مَطُّ الشَّيْءِ وَزِيَادَتُهُ . وَلِلْعَيْنِ مَسَافَاتٌ تُرَى فِيهَا
الْمَرَاثِي : كُلُّ عَيْنٍ حَسَبَ قُدْرَتِهَا ، فَهَنَّاكَ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِبَصَرٍ قَوِيٍّ
وَحَادٍ ، وَهَنَّاكَ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ .

وَيَتَرَاوَحُ النَّاسُ فِي قُدْرَةِ إِبْصَارِهِمْ حَسَبَ تَوْصِيفٍ وَضَعَهُ
الْأَطْبَاءُ : لِيَعَالِجُوا ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ اسْتَطَاعَتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ . وَفِي الْمَثَلِ
الْيَوْمِيِّ نَسْمَعُ مَنْ يَقُولُ : « فُلَانٌ عِنْدَهُ بَعْدَ نَظَرٍ ، أَيْ : يَمْلِكُ قُدْرَةً عَلَى
أَنْ يَقْيِسَ رُدُودَ الْأَفْعَالِ ، وَيَتَوَقَّعَ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى
نَتَائِجِ أَيْ فِعْلٍ .

وَالْمُرَادُ بِمَدِّ الْعَيْنِ لَيْسَ إِخْرَاجُ حَبَّةِ الْعَيْنِ وَمَدُّهَا : وَلَكِنْ الْمُرَادُ
إِدَامَةُ النَّظَرِ وَالْإِمْعَانِ ، وَلَكِنْ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَبَّرَ فِي الْقُرْآنِ هَذَا
التَّعْبِيرَ ، وَكَأَنَّ الْإِنْسَانَ سَيُخْرِجُ حَبَّةَ عَيْنِهِ لِيَجْرِيَ بِهَا ، وَلِيُفْهَمَ
النَّظَرَ ، وَهَذَا مَا يَفْهَمُ مِنْ مَنْطُوقِ الْآيَةِ ، وَالْمَنْطُوقُ يُشِيرُ إِلَى الْمَفْهُومِ
الْمُرَادِ ، وَهَذَا عَيْنُ الْإِعْجَازِ .

وَكَلِمَةُ « مَتَّعَ » تَقِيدُ أَنْ شَيْئًا يُتَمَتَّعُ بِهِ وَيَنْتَهَى ، وَلِذَلِكَ يُوصَفُ
مَتَاعُ الدُّنْيَا فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ مَتَاعُ الْغُرُورِ ، أَيْ : أَنَّهُ مَتَاعٌ مَوْقُوتٌ
بِلَحْظَةٍ .

(١) خَفِضْ هَبْطَ بِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الْحَجَرِ] كَنَائِيَةٌ عَنْ
الرَّحْمَةِ وَالتَّوَاضُّعِ لَهُمْ وَلِئِنْ الْجَانِبَ مَعَهُمْ [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١/ ١٩٩] .

وقول الحق سبحانه :

﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ.. (٨٨)﴾

[الحجر]

هي جَمْعُ زَوْجٍ ، وسبق أن أوضحنا أن كلمة « زوج » هي مفرد ، والذكر والانثى حين يتلاقيان يصبح اسمهما زوجين ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿سَبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا.. (٣٦)﴾

[يس]

والازواج كلها تعنى الفرد ، ومعه الفرد من كل صنف من الأصناف . والمراد بكلمة أزواج هنا أن المخالفين لرسول الله ﷺ كانوا مثلاً شللاً : ضال ومضل : وضال آخر معه مضل .

ولحظة الحساب سيقول كل منهم :

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ^(١) (٥١)﴾

[الصافات]

وهكذا كانت كلمة « أزواج » تدل على أصناف متعددة من الذين يقفون معاندين لرسول الله ﷺ ومُتَكِرِينَ لمنهجه .

وفى موقع آخر من القرآن يكشف سبحانه عَمَّنْ أَغْوَتْهُم الشياطين ، ويحشرهم الحق سبحانه مع الشياطين فى نار جهنم :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ^(٢) (١٢٨)﴾

[الأنعام]

﴿الأنس.. (١٢٨)﴾

(١) قارئ الشرء الشرء : اقترن به وصاحبه . والقربين : المصاحب . والقربين يكون فى الخير والشر . [لسان العرب - مادة : قرن] .

(٢) استكثرتم : اغويتم كثيرين منهم وسيطرتهم عليهم . [القاموس القويم ١٥٥/٢] .

أى : يا معشرَ الجنِّ قد استطعتم أن تُوحوا لكثير من الإنس بالغواية والمعصية ، ليكونوا أولياءكم ، وهكذا نجد أن كل جماعة تتفق على شيء تُسميهم أزواجاً .

وهنا يوضح الحق سبحانه : إياك أن تَمُدَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، لأننا أعطيناك أعلى عطاء ، وهو معجزة القرآن حارس القيم ، والذي يضمُّ النهج القويم .

ويتابع سبحانه :

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ۖ (٨٨)﴾

[الحجر]

ويُقال : حَزَنْتَ منه ، وَحَزَنْتَ عليه ، وَحَزَنْتَ له : فَمَنْ نَالَ ما يُحْزَن ، ولم يَصُدِّرْ عنك هذا السبب في حزنه : فأنت تقول له « حَزَنْتَ لك » .

وآخر ارتكب فعلاً يُسِيء إلى نفسه : فأنت تحزن عليه . ورسول الله ﷺ حَزَنَ عليهم : فقد كان يُحِبُّ أن يؤمنوا ، وأن يتمتعوا بالنعمة التي يتمتع هو بها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ۖ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾

[التوبة]

فَمَنْ رَأَفْتَهُ ﷺ صَعِبَ على نفسه أن ينال قومه مشقةً ، فالرحمة

(١) العنت : دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة . قال ابن الأثير العنت : المشقة والفساد والهلاك والإثم والغلط والخطأ . [لسان العرب - مادة : عنت] .

والرافة مصدرها ما وهبه الله إياه من فهم لقيمة نعمة الإيمان .

وفى آية أخرى يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَكَ بِأَخِي^(١) نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا^(٢) ﴾
[الكهف]

أى : أنه لن ينقص منك شيء فى حالة عدم إيمانهم ، ولن يزيدك إيمانهم أجراً ؛ ذلك أن عليك البلاغ فقط ؛ فلماذا تحزن على عدم إيمانهم ؟

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ^(٣) ﴾
[الحجر]

دليل على أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على أن يؤمن قومه ، محبة فيهم ، وليتعارفوا على حلاوة الإيمان بالله . وكان ﷺ يتالم ، ويحز فى نفسه عدم إيمانهم ، لدرجة أن الحق سبحانه قال له فى آية أخرى :

﴿ لَمَّا كَانَ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ^(٤) إِنْ تَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً^(٥) فَظَلَّتْ أَعْقَابُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ^(٦) ﴾
[الشعراء]

وهنا يوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن إيمانهم ليس أمراً

(١) بخر نفسه قتلها غيظاً أو غماً . باخى : أى مهلك نفسك بحزنك عليهم . أى . لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن امتدى ل نفسه ، ومن خيل فإنما يضل عليها . [تفسير ابن كثير ٧٢/٣] .

(٢) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . [القاموس القويم ٤٧/١] .

صعباً عليه سبحانه ؛ ذلك أنه قادر أن ينزل آية من السماء تجعلهم خاضعين ؛ مؤمنين ؛ لكنه سبحانه يحب أن يأتيه خلقه محبة ، وأن يُحسنوا استخدام ما وهبهم من خاصية الاختيار .

فسبحانه لا يقهر أحداً على الإيمان به ؛ فالإيمان عمل قلوب ، وسبحانه لا يريد قوالب ، وإنما يريد قلوباً خاشعة ، ولو شاء سبحانه من خلقه أن يأتوه طواعية ؛ فالقهر من القاهر يُثبت له القدرة ، ولكن أن يأتى الخلق إلى خالقهم طواعية ؛ فهذا يُثبت له المحبوبة .

والحق سبحانه يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبية العابد للمعبود ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ۖ (٨٨) ﴾ [الحجر]

ثم يُوجّه له الأمر بأن يُوجّه طاقة الحنان والموَدّة التي في قلبه إلى مَنْ يستحقها ، وهم المؤمنون برسالته ﷺ ؛ وعليه أن يخفض جناحه للمؤمنين .

فكلُّ حركة من الإنسان هي نزوع يتحرك من بعد وُجْدان ، والوُجْدان يُولّد طاقة داخلية تُهيء للنزوع وتدفع إليه ، فإن حزن الرسول ﷺ لعدم إيمان صناديد قريش برسالته ؛ فهذا الحُزن إنما يخضع ويأخذ من طاقته ؛ فبياتيه الأمر من الحق سبحانه أن يوفر طاقته ، وأن يُوجّهها لمن آمن به ؛ وأن يخفض جناحه لهم .

وخفض الجناح هو التواضع ؛ ذلك أن الجناح هو الجانب ، فحين

يَأْتِيكَ إِنْسَانٌ تَرِيدُ أَنْ تُتَكَبَّرَ عَلَيْهِ ؛ فَهُوَ يَقُولُ « فَلَانُ لَوْى عَنَى جَانِبِهِ » .

وهكذا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يتواضع مع المؤمنين ؛ وأن يتوجه إليهم لا باستقامة قلبه ، بل أن ينزل هذا القلب قليلاً .

وكلمة : ﴿ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ ۖ ۞ (٨٨) ﴾ [الحجر]

ماخوذة من خَفِضَ جناح الطائر ، فالطائر يرفع جناحه عند الطيران ، ولكن ما أن يلمسَ هذا الطائر فَرَخَهُ الصغير حتى يَخْفِضَ جناحه له ليضمه إليه .

إذن : فالطاقة التي كُنْتَ تُوجِّهُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ؛ عَلَيْكَ أَنْ تُوجِّهَهَا لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا ، فَيَكْفِيكَ أَنْ تُبَلِّغَ النَّاسَ جَمِيعاً بِرِسَالَتِكَ ؛ وَمَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ هُوَ مَنْ يَسْتَحِقُّ طَاقَةَ حَنَانِكَ وَرَحْمَتِكَ .

وخفض الجناح لِمَنْ آمَنَ برسالتك لا يورثه كِبَرًا عَلَيْكَ ؛ بل يزيده أدباً معك .

وقد جاء في الأثر : « إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَسَهَّنْهُ » أَيْ : أَنْكَ إِذَا رَأَيْتَ أَخَاكَ فِي وَضْعٍ يَعْزُّ عَلَيْكَ ، فَهَنْ لَهُ أَنْتَ .

ومن قبل الإسلام قال الشاعر العربي^(١) :

(١) هو : الفند الزماني ، واسمه سهل بن شيبان . شاعر جاهلي . من أهل اليمامة . سُمِّيَ الفند لعظم خلقته ، تشبيهاً بفند الجبل . وهو القطعة منه . توفي نحو ٧٠ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلي ١٧٩/٢] .

وَقُلْنَا الْقَوْمَ إِخْوَانُ	صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذَهَلٍ
مَنْ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا	عَسَى الْآيَامُ أَنْ يَرْجِعَ
فَأَمْسَى وَفَوْعُورِيَانُ	فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ
غَدَا وَاللَّيْثُ غَضَبَانُ	مَشِينًا مَشِيَةَ اللَّيْثِ
وَتَخَضَّيْعُ ^(١) وَإِقْرَانُ	بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينُ
غَدَا وَالزُّقُ ^(٢) مَلَانُ	وَطَعْنٍ كَفَمِ الزُّقِ
مَنْ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ	وَفِي الْبَشَرِ نَجَاةٌ حَيْثُ
لِللَّذَلِ إِذْعَانُ ^(٣)	وَبَعْضُ الْحَلَمِ عِنْدَ الْجَهْلِ

ونجد القرآن حينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهج ؛ لا يطبعه بطابع واحد يتعامل به مع كل الناس ، بل يجعل طَبْعَهُ الْخُلُقِيَّ مطابقاً لموقف الناس منه ، فيقول :

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . (٥٤) ﴾ [الماشية]

ويقول أيضاً في وصف المؤمنين :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهكذا لم يطبع المؤمن على الشدة والعزة ، بل جعله يتفاعل مع المواقف ؛ فالموقف الذي يحتاج إلى الشدة فهو يشتد فيه ؛

(١) التخضيع : تقطيع اللحم . والإقران : قوة الرجل على الرجل .
 (٢) الزق : السقاء ، وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وتزقيقه سلقه من قبل رأسه .
 [لسان العرب - مادة : زقق] . والسلخ : الكشط .
 (٣) لورد الآبيات أبو على القالى فى أماليه (٢٠٩/١ ، ٢١٠) .

والموقف الذى يحتاج إلى لينٍ فهو لينٍ فيه^(١)

والحكمة الشاعرة تقول :

وَوَضَعَ النُّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَى مَضِر
كَوَضَعَ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النُّدَى

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾

ونعلم أن الرسل مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ؛ ولسائل أن يقول : ولماذا
تأتى صيغة الإنذار دائماً ؟ وأقول : إن مَنْ يُؤْمِنُ هُوَ مَنْ يَتَقَى
البشارة ؛ أما مَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَقَّعَ النَّذَارَةَ فهو الكافر المُنْكَرِ .

وفى الإنذار تخويفٌ بشيء ينالُ منك فى المستقبل ؛ وعليك أن
تَعُدَّ الْعُدَّةَ لتبتعد بنفسك أن تَكُونَ فِيهِ ، والتبشير يكون بأمر تتمناه
النفس . وبالإذار والتبشير يتضح الموقف بجلاء ، ويحاط الإنسان
بكل قضايا الحياة ؛ ويتضح مسار كل أمرٍ من الأمور .

بذلك يكون الحق سبحانه فى الآيتين السابقتين قد امتنَّ على
رسوله ﷺ بأنه قد آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم ؛ ولذلك يوصيه
الأ تطلع نفسه إلى ما أوتى بعض من الكفار من جاه ومال ، فالقرآن
عزُّ الدنيا والآخرة .

ويوصيه كذلك بالآ يحزنَ عليهم نتيجة انصرافهم عن دعوته ،
فليس عليه إلا البلاغ ، وأن يتواضع ﷺ للمؤمنين ليزداد ارتباطهم به ،

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٧٠/٢) . هذه صفات المؤمنين الكمل ان يكون أحدهم
متواضعا لأخيه ووليه ، متمسكاً على خصمه وعدوه .

فهم خير من كل الكافرين برسالته ﷺ .

ثم يُوصيه الحق سبحانه أن يُبلغ الجميع أنه تنذير وبشير ،
يوضح ما جاء في القرآن من خير يُعمّ على المؤمنين ، وعقاب ينزل
على الكافرين .

وقد قال ﷺ : « إنما مثلي ومثلي ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى
قوماً فقال : يا قوم ، إني رأيتُ الجيشَ بعينى ، وإني أنا النذير
العريان^(١) ، فالنجاه النجاه ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا^(٢)
فانطلقوا على مهلهم فَنَجَوْا ، وكذبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم
فصَبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى فاتَّبِع
ما جئتُ به ، ومثل من عصانى وكذَّب بما جئتُ به من الحق^(٣) ،

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾

ونعلم أنه سبحانه قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ ، واستقبله
الناس استقباليين : فمنهم من استمع إلى القرآن فتبصّر قول الحق
وآمن ، وفى هؤلاء قال الحق سبحانه :

(١) خسر العريان لأنه أبين للعين وأغرب وأشنع عند المبصر ، وذلك أن ربيضة القوم وعينهم
يكون على مكان عال ، فإذا رأى العدو وقد أقبل نزع ثوبه وإلاح به لينذر قومه ويبقى
عرياناً . [لسان العرب - مادة : عرا] .

(٢) أدلجوا : ساروا من آخر الليل . والدُّلْجَةُ : سير الليل . [لسان العرب - مادة : دلج] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٢ ، ٧٢٨٢) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٨٢) من

حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٨٣) [المائدة]

والصنف الآخر استمع إلى القرآن ، فكانت قلوبهم كالحجارة ، وفيهم قال الحق سبحانه :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا^(١) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٦) [محمد]

ذلك أن قلوبهم مُتَلَفَةٌ بالكفر ؛ وقد دخلوا ومعهم حكم مُسَبِّق ، فلم يقيموا ميزان العدل ليقيسوا به فائدة ما يسمعون .

ولذلك أوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألا يحزن ، فالمسألة لها سوابق مع غيرك من الرسل ؛ فقد نزل كل رسول بكتاب يحمل المنهج ، ولكن الناس استقبلوا تلك الكتب كاستقبال قومك لما نزل إليك بين كافر ومؤمن ، واختلفوا في أمور الكتب المنزلة إلى رسلهم .

وكان انقسامهم كانقسام قومك حول الكتاب المنزل إليك ، فلا تحزن إن اتهموك بأنك ساحر ، أو أن ما نزل إليك كتابٌ شعر ؛ أو أنك تمارس الكهانة ؛ أو فقدوا القدرة على الحكم عليك واتهموك بالجنون .

وهكذا قَسَمُوا القرآن المنزل من الله سبحانه إلى أقسام هي : السُّحَر ، والكهانة ، والشعر ، والجنون ، كما فعل من قبلهم أقوام أخرى :

(١) أى : سابقاً في الوقت القريب . [القاموس القويم ٢٨/١] .

فمنهم^(١) مَنْ قَالَ ، وَاثَبْتَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِمْ :

﴿إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٧٧) [الشعراء]

وهكذا تعلم يا رسول الله أنك لست بدّعا من الرسل^(٢) ، ذلك أن الرسل لا يأتون أقوامهم إلا وقد طُمّ الفساد والبلاء ، ولا يوجد فساد إلا بانتفاع واحد بالفساد بينما يضرّ بالآخرين .

وإذا ما جاء رسول ليصلح هذا الفساد يهبُ أهل الاستفادة من الفساد ليقاوموه ويضعوا أمامه العراقيل ؛ مثلما حدث معك يا رسول الله حين قال بعضهم :

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ (٧٦) [فصلت]

ومثل هذا القول إنما يدلُّ على أنهم لو صفُّوا نفوسهم ، واستمعوا للقرآن لاهتدوا ؛ لذلك يقول لهم سادتهم :

﴿وَالْغَوَا^(٣) فِيهِ لَمَلَكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٧٦) [فصلت]

أى : شوّشوا^(٤) عليه .

(١) هم قوم فرعون ، والقول لفرعون عندما واجهه مرسى عليه السلام بأنه ليس إلهاً ولا رباً ، وذلك في محاورته ذكرها القرآن في قوله : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥) قال ربُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٦) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قال إنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) [الشعراء] .

(٢) قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢١) [الاحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فإنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ٥٧/١] .

(٣) اللغو : اللغط أى : شوشوا على قاربه باللغو من القول ، أو : اطعنوا فيه واختلقوا له العيوب لتصرفوا الناس عنه . [القاموس القويم ١٩٦/٢] .

(٤) التشويش : التخليط ، وقد تشوش عليه الأمر . قاله الجوهري في مادة شيش . وقال أبو منصور لا أصل له في العربية ، وإنه من كلام المولدين ، وأصله التهويش وهو التخليط . [لسان العرب - مادة : شوش] .

وهكذا فالإقتسام الذي استقبل به الكفار القرآن سبق وأن حدث مع الرسل الذين سبقوك^(١) .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۚ ﴾

وكلمة (عِضِينَ) تعنى القطع : فيقال للجزار حين يذبح الشاة أو العجل أنه قد جعله عِضِينَ . أى : فصل كلُّ ذراع عن الآخر . وكذلك قطع الفخذ : أى : أنه جعل الذبيحة قطعاً قطعاً بعد أن كانت أعضاء متصلة .

وكذلك كان القرآن حينما نزل كيئاً واحداً : فأراد بعض من الكفار أن يقطعوه إلى أجزاء . والمقصود هنا هم جماعة من اليهود

(١) اختلف فى المقتسمين على سبعة أقوال

الأول : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقترسوا الطرق المؤدية إلى مكة يقولون لمن سلكها : لا تفتروا بهذا الخارج فينا يدهى النبوة . فإنه مجنون . قاله مقاتل والفراء .

الثانى : قوم من كلبار قريش اقترسوا كتاب الله . فجعلوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة . وبعضه أساطير الأولين . قاله قتادة .

الثالث : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . قاله ابن عباس .

الرابع : أهل الكتاب - أيضاً - سموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين . فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . قاله عكرمة .

الخامس : أهل الكتاب - أيضاً - قسموا كتابهم ففرقه وبددوه وحرفوه . قاله قتادة .

السادس : المراد قوم صالح . تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين . قاله زيد بن أسلم .

السابع : هم قوم اقترسوا أيماناً تحالفوا عليه . قاله الأخفش .

[ذكر هذه الأقوال القرطبي فى التفسير ٢٧٨٢/٥]

سُورَةُ الْحَجَرِ



وجماعة من النصارى الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأرادوا أَنْ يَقْطَعُوا الْقُرْآنَ كما فعلوا مع الكتابين اللذين نزلَا على موسى ، وهما التوراة ؛ والإنجيل الذى جاء به عيسى .

وقد قال الحق سبحانه فيهما :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا^(١) مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ.. (١٣) ﴾ [المائدة]

أى : أن بعضاً من اليهود قد نَسُوا بعضاً من التوراة ، وكذلك نسى البعض من أتباع عيسى بعضاً من الإنجيل الذى نزل عليه .

وإن وجدنا لهم العذر فى النسيان ؛ فماذا عن الذى كتموه من تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى بذلوه وحرفوه من كلمات تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى أضافوه عليه . ولم ينزل من عند الله ؟ وقد فضح سبحانه كل ذلك فى القرآن^(٢) .

أو : أن اليهود استقبلوا القرآن استقبالَ مَنْ يُصَدِّقُ بعضه مِمَّا

(١) الحظ : النصيب . والمقدار المخصص من الخير . [القاموس القديم ١/ ١٦١] .

(٢) تعامل أهل الكتاب مع القرآن بطرق مختلفة :

- ١ - الكتمان : يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٥٥) ﴾ [البقرة] .
- ٢ - التبديل والتحريف . يقول تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (٦٩) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرُفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَفَا عَنْهُمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٢) ﴾ [البقرة] .
- ٣ - لى اللسان . يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [آل عمران] .
- ٤ - الإضافة . يقول تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُتْرَكُوا بِهِ لِمَنَا قَوْلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة] .

لا يتعيبهم ، وكذبوه فى البعض الذى يتعيبهم ، فقد كذبوا مثلاً أن كتابهم قد بشرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام .

وهكذا نرى كيف حاولوا أن يجعلوا القرآن عِصِينَ ، أى : قطعاً مفصولة عن بعضها البعض ، وقد حاولوا ذلك بعد أن تبين لهم أن القرآن مؤثر وفاعل .

وشاء الحق سبحانه للقرآن أن يحمل النذارة والبشارة ؛ فالرسول نذير بالقرآن المبين الواضح لِمَنْ اقتسموا الأمر بالنسبة لمحمد - عليه الصلاة والسلام - فقسّم منهم تفرّغ للاستهزاء بمحمد ومَنْ آمنوا معه ؛ وجماعة أخرى قسّمت أعضائها ليجلسوا على أبواب مكة أثناء موسم الحج ، ويستقبلون القادمين للحج من البلاد المختلفة ليحذروهم من الاستماع لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ومن هؤلاء مَنْ وصف الرسول ﷺ بالجنون ؛ ومنهم مَنْ وصف القرآن بأنه شعر ؛ ومنهم مَنْ وصف الرسول بأنه ساحر .

ثم يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَنَّهُمْ بَشَرًا جَمِيعًا ۝٩٢﴾

وهنا يُقسِم الحق سبحانه بصفة الربوبية التى تعهدتُ رسوله بالتربية والرعاية ليكون أهلاً للرسالة أنه لن يُسلمه لأحد ، وهو سبحانه مَنْ قال :

﴿وَلَتُصَعِّعَ عَلَى عَيْنِي ۝٢٩﴾

[طه]

أى : أن كل رسول هو مصنوع ومَحْمَى بإرادته سبحانه ؛ وتلك

عناية الحماية للمنهجية الخاصة ، وعناية المصطفين الذين يحملون رسالته إلى الخلق : فقد رزق سبحانه خلقه جميعاً ؛ والرسول إنما يأتون لمهمة تبليغ المنهج الذي يُدير حركة الحياة ؛ لذلك لا بد أن يُوفّر لهم الحق سبحانه عناية من نوع خاص .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٧)﴾ [الحجر]

يُبين لنا أنه سيسألهم سبحانه عن أدق التفاصيل ؛ ومجرد توجيه السؤال إليهم فيه لوّن من العذاب .

ويحاول البعض ممن يريدون أن يعثروا على تعارض في القرآن أن يقولوا : كيف يقول الله مرة :

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسَأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن]

ويقول في أكثر من موقع بالقرآن أنه سيسأل هؤلاء المكذبين ؛ فكيف يُثبت السؤال مرة ، وينفيه مرة أخرى ؟

ونقول لهؤلاء : أنتم تستقبلون القرآن بسطحية شديدة ، فهذا الذي تقولون إنه تعارض إنما هو مجرد ظاهر من الأمر ، وليس تعارضاً في حقيقة الأمر .

ونحن نعلم أن السؤال - أي سؤال - له مهمتان ، المهمة الأولى : أن تعلم ما تجهل . والمهمة الثانية : لتقرّ بما تعلم .

والحق سبحانه حين ينفي سؤالاً فهو ينفي أن أحداً سيُخبره بما لا يعلم سبحانه ؛ وحين يثبت السؤال ؛ فهذا يعني أنه سيسألهم سؤال الإقرار .

وهكذا نعلم أن القرآن إذا أثبت حدثاً مرة ونفاه مرة أخرى ،
فاعلم أن الجهة مُنْفَكَّة ، أى : أن جهة النفى غير جهة الإثبات ، وكلُّ
منهما لها معنى مختلف .

وقوله هنا :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ لَمْ يَمْلِكُوا كُفَّاتٍ يَخِفُّونَ ۚ ﴾ (٩٢)

[الحجر]

يعنى أن الضَّالَّ والمُضِلَّ ، والتابع والمتبوع سيُسالون عما
عملوا . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ ﴾ (٩٣)

والعمل كما نعلم هو اتجاه جارحة إلى مُتعلِّقها : فجارحة العين
مُتعلِّقها أن ترى : وجارحة اللسان مُتعلِّقها أن تتكلم ، وجارحة اليد
إما أن تُرَبِّت ، وإما أن تَبْطِش .

وهكذا فكلُّ ما تصنعه ملكات الإدراك فى النفس البشرية تُسمِّيه
عمالاً . وسبق أن علمنا أن العمل ينقسم إلى قول وفعل .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ ﴾ (٧٤)

[البقرة]

أى : تذكروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ، وأن كل ما
تعملونه يعلمه ، وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَأَصْدَغَ بِمَاتُومَرُّوْا عَرِضٍ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۚ ﴾ (٩٤)

(١) صدغ بالامر جهر به فى قوة كانه يشق جدار الصمت والنسكون والصدغ : الشق فى

الشيء الصلب لو فى غيرة كالارض مثلاً . [القاموس القويم ٢٧٠/١] .

أى : افرغ لمهنتك : فالصدع تصنع شقاً فى متماسك ، كما نشق زجاجاً بالمشرط الخاص بذلك ، أو ونحن نصنع شقاً فى حائط .
والرسول ﷺ قد جاء ليشق الكفر ويهدم الفساد القوى المتماسك الذى يقوى بقوة صناديد قريش .

وقد شاع ذلك المصطلح « الصدع » فى الزجاج : لأن أى شق فى أى شىء من الممكن أن يلتئم إلا فى الزجاج : لأنه يصعب أن يجمع الإنسان الفتافيت والقطع الصغيرة التى تنتج من صدعه ، وقد جاء الإيمان ليصدع بنيان الكفر والفساد المتماسك .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ [الحجر]

أى : أعطهم عرض كتفك ، ولا تسال عنهم ؛ فهم لن يسلموا لك ، ذلك أنهم مستفيدون من الفساد الذى جئت أنت لتهدمه ، ولكنهم سيأتون لك تبعاً بعد أن تثبت دعوتك ، وتصل قلوبهم إلى تيقن أن ما جئت به هو الحق .

والمثل هو إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؛ فقد قالوا : « لقد استقر الأمر لمحمد ، ولم تعد معارضتنا له تقيده أحداً »^(١) ، ودخل الإسلام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

(١) أورد الكاندهلوى معنى هذا فى كتابه « حياة الصحابة » (١٤٠/١) فى قصة إسلام خالد بن الوليد أنه قال « إنما نحن كأضراس وقد ظهر محمد على العرب والمجم . فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فإن شرف محمد لنا شرف »

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

فبعد أن قال له :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١١)

[الحجر]

وبعد أن ثبت لكل مَنْ عاش تلك الفترة أن كل مُسْتَهْزِئٍ بمحمد ﷺ قد ناله عقاب من السماء . فما هو ذا الوليد بن المغيرة الذي يتبختر في ثيابه ؛ فيسير على قطعة من الحديد ، فيأثف أن ينحني ليخلص ثوبه الذي اشتبك بقطعة الحديد ؛ فتُجرح قدمه وتُصاب بالفرغرينا ويقطعونها له ، ثم تنتشر الفرغرينا في كل جسدِهِ إلى أن يموت .

وها هو الثاني الأسود بن عبد يغوث يُصاب بمرض في عينيه ؛ ويُصاب بالعمى ، وكذلك الحارث بن الطلائة ، والعاص بن وائل^(١) .

وكل مُسْتَهْزِئٍ برسول الله ﷺ قد ناله عقابٌ ما ، وَمَنْ لم تُصِبْهُ عامة أو آفة صرَعَتْه سيوف المسلمين في بدر ، لدرجة أن رسول الله ﷺ قد حدد المواقع التي سيلقى فيها كل واحد من صناديد قريش حتفه ؛ فقال : هنا مصرع فلان ، وهناك مصرع فلان^(٢) .

وقد أوضح ﷺ تلك المواقع من قبل أن تبدأ المعركة ، ونعلم أن الحرب تتطلب كراً وفرّاً ، ولكن ما تنبأ به رسول الله ﷺ قد حدث بالضبط .

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٢٧٨٥/٥) بعض هذه الوقائع عن عاقبة هؤلاء المستهزين برسول الله ﷺ .

(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال . إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول . « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله » قال عمر - فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٣) ؛ وأحمد في مسنده (٢١٩/٢) .

وَيُحَدِّدُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ نَوْعِيَّةَ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِقَوْلِهِ :

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

أى : أن هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَهْزِءُونَ بِكَ لَهُمْ عَذَابُهُمْ : ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَحِينَ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

[الحجر]

فَفِي هَذَا الْقَوْلِ اسْتِيعَابٌ لِكُلِّ الْأَزْمَنَةِ ، أَيْ : سَيَعْلَمُونَ الْآنَ وَمِنْ بَعْدِ الْآنَ ، فَكَلِمَةُ « سَوْفَ » تَتَّسِعُ لِكُلِّ الْمَرَاهِلِ ، فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ لَمْ يَأْخُذْهُمْ جَمِيعًا فِي مَرَحَلَةٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ أَخَذَهُمْ عَلَى فُتْرَاتٍ .

فَحِينَ يَأْخُذُ الْمُتَطَرِّفُ فِي الْإِيذَاءِ : قَدْ يَرْتَدِعُ مَنْ يُؤْذِي ، وَيَتَرَاوَعُ عَنِ الْاسْتِمْرَارِ فِي الْإِيذَاءِ ، وَقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ؛ فَمَنْ كَانَتْ شِدَّتُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَصْبِيحُ تِلْكَ الشَّدَةِ فِي جَانِبِ الرَّسُولِ ﷺ .

وَهَا هُوَ الْمَثَلُ وَاضِحٌ فِي عِكْرَةِ بَنِ أَبِي جَهْلٍ^(١) ؛ يُصَابُ فِي مَوْقِعَةِ الْيَرْمُوكِ ؛ فَيُضْمَعُ رَأْسُهُ عَلَى فَخْذِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَيَسْأَلُهُ : يَا خَالِدُ ، أَهَذِهِ مِيتَةٌ تُرَضَّى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَيُرِدُّ خَالِدٌ : « نَعَمْ » . فَيُسَلِّمُ الرُّوحَ مُطْمَئِنًّا .

(١) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ (٢٥٨/٤) : « كَانَ كَأْبِيهِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَسْلَمَ عِكْرَةَ عَامَ الْفَتْحِ وَخَرَجَ إِلَى الْمَدِينَةِ ثُمَّ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ الرَّدَةِ وَوَجَّهَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ إِلَى جَيْشِ نَعْمَانَ فَظَهَرَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ رَجَعَ فَخَرَجَ إِلَى الْجِهَادِ عَامَ وَفَاتِهِ فَاسْتَشْهِدَ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ » .

وهؤلاء المستهزون : قد أشركوا بالله : فلم تنفعهم الآلهة التي
أشركوها مع الله شيئاً ، وحين يتأكد لهم ذلك : فهُمْ يَتَأَكَّدُونَ من
صدق رسول الله ﷺ فيما أبلغ عن الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (١٧)

وفى هذا القول الكريم يتجلى تقدير الحق سبحانه لمشاعر
النبوة ، فالحق يُكَلِّفُهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا ، وسبحانه يعلم أيضاً
ما يعانیه ﷺ فى تنفيذ أوامر الحق سبحانه .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَئِنْ
الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٣٣)

[الأنعام]

فأنت يا رسول الله أكرم من أن تكذب ، فقد شهدوا لك بحسن
الصدق عبر معاشتهم لك من قبل الرسالة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (١٧)

[الحجر]

ومعنى ضيق الصدر أن يقلُّ الهواء الداخل عبر عملية التنفس إلى
الرئتين ؛ فمن هذا الهواء تستخلص الرئتان الأوكسجين ؛ وتطرد ثانى
أوكسيد الكربون ؛ ويعمل الأكسجين على أن يُؤكْسِدَ الغذاء لينتج
الطاقة ؛ فإن ضاق الصدر صارت الطاقة قليلة .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٧٨٥

وَالْمَثَلُ يَتَضَحُّ لِمَنْ يَصْعَدُونَ السُّلْمَ إِلَى مَنْزِلٍ أَوْ إِلَى
مَكَانٍ ؛ وَيَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ يَنْهَجُونَ^(١) ؛ وَالسَّبَبُ فِي هَذَا النَّهْجِ هُوَ أَنَّ
الرِّثَّةَ تَرِيدُ أَنْ تُسْرِعَ بِالنَّقَاطِ كَمِيَّةٍ مِنَ الْهَوَاءِ أَكْبَرَ مِنْ ظَكَ الَّتِي تَصِلُ
إِلَيْهَا ، فَيَعْمَلُ الْقَلْبُ بِشِدَّةٍ أَكْثَرَ كَيْ يُتِيحَ لِلرِّثَّةِ أَنْ تَسْحَبَ كَمِيَّةً أَكْبَرَ
مِنَ الْهَوَاءِ .

أَمَّا مَنْ يَكُونُ صَدْرُهُ وَاسِعًا فَهُوَ يَسْحَبُ مَا شَاءَ مِنَ الْهَوَاءِ الَّذِي
يُتِيحُ لِلرِّثَّةِ أَنْ تَأْخُذَ الْكَمِيَّةَ الَّتِي تَحْتَاجُهَا مِنَ الْهَوَاءِ ، فَلَا يَنْهَجُ
صَاحِبُ الصَّدْرِ الْوَاسِعِ .

فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ كَانَ يُكَذِّبُهُ أَحَدٌ ، أَوْ يَسْتَهْزِئُ بِهِ أَحَدٌ
كَانَ يَضِيقُ صَدْرُهُ فَتَضِيقُ كَمِيَّةَ الْهَوَاءِ الْلازِمَةَ لِلْحَرَكَةِ ؛ وَلِذَلِكَ
يُطْمَئِنُّ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنْ مَدَّهَ لَهُ لَا يَنْتَهَى .

وَأَنْتَ تَلْحَظُ عَمَلِيَّةَ ضَمِيقِ الصَّدْرِ فِي نَفْسِكَ حِينَ يُضَايِقُكَ أَحَدٌ
فَتَتَوَسَّلُ عَلَيْهِ ؛ فَيَقُولُ لَكَ : لِمَاذَا يَضِيقُ صَدْرُكَ ؟ وَسَعَ صَدْرُكَ قَلِيلًا .

وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ فِي مَوْقِعٍ آخَرَ :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ .. ﴾ (١٢٥) [الأنعام]

أَيُّ : يُوسِّعُ صَدْرَهُ ، وَتَزْدَادُ قُدْرَتُهُ عَلَى فَهْمِ الْمَعَانِي الَّتِي جَاءَ
بِهَا الدِّينُ الْحَنِيفُ .

وَيَقُولُ أَيْضًا :

(١) نهج الرجل نهجا في النفس . هو ترائر النفس من شدة الحركة . [لسان العرب - مادة
نهج] .

﴿وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا^(١) كَأَنَّمَا يَصْعَدُ^(٢) فِي السَّمَاءِ...﴾ (١٢٥)

[الأنعام]

وهنا نجد أن الحق سبحانه يشرح عملية الصعود وكان فيها مجاهدة ومكابدة ، وهذا يخالف المسألة المعروفة بأنك إذا صعدت إلى أعلى وجدت الهواء أكثر نقاء .

وقد ثبت أن الإنسان كلما صعد إلى أعلى في الفضاء فلن يجد هواء . ويدل الحق سبحانه رسوله ﷺ على علاج لمسألة ضيق الصدر حين يحزنه أو يؤلمه مكذب ، أو مُستهزئ ؛ فيقول سبحانه :

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨)

وهكذا يمكن أن تذهب عنك أى ضيق ، أن تسبح الله . وإذا ما جافاك البشر أو ضايقتك الخلق ؛ فاعلم أنك قادر على الأنس بالله عن طريق التسبيح ؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه ، وأنت حين تُسبِّح ربك فأنت تُنزهه عن كُلِّ شيء وتحمده ، لتعيش في كَنَفِ رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول في موقع آخر :

﴿قُلُوا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُنْفَخُونَ (١٤٤)

[الصفات]

ولذلك إذا ضاق صدرك في الأسباب فاذهب إلى المُسَبِّب .

(١) الحرج : الضيق . وحرج صدره : ضاق فلم يشرح لخبر . [لسان العرب - مادة : حرج] .
(٢) يصعد : أى يرتفع في السماء . والصَّعْدُ : المشقة . ويقال : تصعد الأمر إذا شق عليه وصعب . [لسان العرب - مادة : صعد] .

ونحن دائماً نقرن التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص
فى الذات أو فى الصفات أو فى الأفعال ، وسبحانه كامل فى ذاته
وصفاته وأفعاله ، فذاته لا تُشبه أى ذات ، وصفاته أزلية مُطلقة ، أما
صفات الخلق فهى موهبة منه وحادثة .

وأفعال الحق لا حاكمَ لها إلا مشيئته سبحانه ، ولذلك نجده جلّ
وعلاً يقول فى مسألة التسبيح :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ۖ ﴾ (٣٦)

[يس]

وهو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (١٧)

[الروم]

وكلُّ من المساء والصباح آية منه سبحانه ! فحين تغيب
الشمس ، فهذا إذن بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذن
بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذى
لا يشارك الله فيه أحدٌ من خلقه أبداً .

فكان سلكى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أن يفرغ إلى
ربه من قسوة الخلق : ليجد الراحة النفسية : لانه يأوى إلى رُكنٍ
شديد .

ونجد بعضاً من العارفين بالله وهم يشرحون هذه القضية
ليوجدوا عند النفس الإيمانية عزاءً عن جفوة الخلق لهم : فيقولون :
إذا أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به .

وإنت حين تُسبِّح الله فإنت تُقرِّ بأن ذاته ليست كذاتك ، وصفاته

ليست كصفاتك ، وأفعاله ليست كأفعالك ؛ وكل ذلك لصالحك أنت ؛
فقدرك وقدرتك غيرك من البشر هي قدرة عَجَزَ وأغيار ؛ أما قدرته
سبحانه فهي ذاتية فيه ومُطلقة وأزلية ، وهو الذي يأتيك بكل النعم .

ولهذا فعليك أن تصحب التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه
مُنَزَّهُ عن أن يكون مثلك ، والحمد لله واجب في كل وقت ؛ فسبحانه
الذي خلق المواهب كلها لِتُخَدِّمَكَ ، وحين ترى صلح موهبة وتغبطه
عليها ، وتحمد الله أنه سبحانه قد وهبه تلك الموهبة ؛ فخيرُ تلك
النعمة يصل إليك .

وحين تُسَبِّح بحمد الله ؛ فسبحانه لا يُخلف وعده لك بكل الخير ؛
فكلنا قد نُخلف الوعد رغماً عنا ، لانتنا أغيار ؛ أما سبحانه فلا يُخلف
وعده أبداً ؛ ولذلك تغمرك النعمة كلما سَبَّحْتَ الله وحمدته .

وزِدْ خضوعاً للمُنعم ، فاسجد امتثالاً لأمره تعالى :

﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٩٨)

[الحجر]

فالسجود هو المظهر الواسع للخضوع ، ووجه الإنسان - كما
نعلم - هو ما تظهر به الوجاهة ؛ وبه تُقْفَى الناس ؛ وهو أول ما تدفع
عنه أي شيء يُلَوِّثه أو ينال من رضاك عنه .

وَمَنْ يسجد بارقي ما فيه^(١) ؛ فهذا خضوع يُعطى عِزَّة ، وَمَنْ
يخضع لله شكراً له على نعمه فسبحانه يعطيه من العزة ما يكفيه كل

(١) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : لا صلاة لمن لم يضع أنفه على الأرض ، أخرجه
الدارقطني في سنته (٢٤٨/١) والماكم في مستدركه (٢٧٠/١) وقال : صحيح على
شرط البخاري ولم يخرجاه . وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢٢/١١) من
طريق آخر بلفظ : من لم يلزق أنفه مع جبهته بالأرض إذا سجد لم تجز صلاته .

أَوْجُهُ السُّجُود ، وَكَلَّمْنَا نَذَكِرَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

وَالسُّجُودَ الَّذِي تَجْتَوِيهِ^(١) فِيهِ مِنْ أَلْوَفِ السُّجُودِ نَجَاةٌ

والسجود هو قمة الخضوع للحق سبحانه . والإنسان يكره لفظ العبودية ؛ لأن تاريخ البشرية حمل كثيراً من المظالم نتيجة عبودية البشر للبشر . وهذا النوع من العبودية يعطى - كما نعلم - خَيْرَ العبد للسيد ؛ ولكن العبودية لله تعطى خَيْرَهُ سبحانه للعباد ، وفى ذلك قِمة التكريم للإنسان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ١١

ونعترف أن العبادة هى إطاعة العابد لأوامر المعبود إيجاباً أو سلباً ، وتطبيق " افعل " و " لا تفعل " ، وكثيراً من الناس يظنون أن العبادة هى الأمور الظاهرية فى الأركان الخمسة من شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الصلاة ؛ وإيتاء الزكاة ؛ وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

ونقول : لا ، فهذه هى الأسس التى تقوم عليها العبادة . أى : أنها البنية التى تقوم عليها بقية العبادة ، وهكذا تصبح العبادة هى ، كُلُّ ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب ، أى : أن حركة الحياة كلها - حتى كُنُس الشوارع ، وإمطة^(٢) الأذى عن الطريق - هى عبادة ،

(١) يُقال اجتويت المكان . إذا كرهت المقام فيه وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب - مادة . جوا] .

(٢) إمطة الأذى . إبعاده وتنحيته جانباً . [المعجم الوجيز - مادة . ميط] .

وكل ما يُقصد به نفع الناس عبادة ، كى لا يصبح المسلمون عالة على غيرهم .

وفى إقامة الأركان إظهار لقوة المسلمين ، حين يُظهرون كامل الولاء لله بإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فيترك المسلم عمله فور أن يسمع النداء بـ « الله أكبر » فيخرج المسلم من صراعات الحياة ، ويعلن الولاء للخالق المنعم .

وحين يصوم المسلم شهراً فى السنة ؛ فهو يُعلن الولاء للخالق الأكرم ، ويصوم عن أشياء كثيرة كانت مُباحة ؛ وأول ما يأتى موعد الإمساك من قبل صلاة الفجر بقليل ؛ فهو يمتنع فوراً .

وهذا الامتنال لأوامر الحق سبحانه يُذكرك بنعمه عليك ؛ فأنت فى يومك العادى لا تقرب المحرمات التى أخذت وقتاً أثناء بدايات الدين إلى أن امتنع عنها المسلمون ، فلا أحد من المسلمين يُفكر فى شرب الخمر ؛ ولا أحد منهم يُفكر فى لعب العيسر ، وانطبعَت تلك الأمور ؛ وصارت عادة سلوكية فى ألف ورتابة عند غالبية المسلمين ممن يُنفذون شريعة الله ، ويُطبِّقون « أفعل » و « لا تفعل » .

وعندما يأتى الصوم فانت تمتنع عن أشياء هى حلال لك طوال العام ، وتقضى أى نهار فى رمضان وتفسك تستشرف سماع أذان المغرب لتُفطر .

وهكذا تمتثل للأمر بالامتناع والإمساك والأمر بالإفطار ، وذلك ليعودك على الكثير من الطاعات التى تصير عند المؤمنين عادة ؛ وسبحانه يريد أن يُديم عليك لذة التكليف العبادى .

وبعض من الناس يذهبون مذاهب الخطأ عندما يفسرون بأهوائهم
قوله الحق :

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ [الحجر]

ويقول الواحد من هؤلاء مخادعاً الغير « لقد وصلت إلى مرتبة
اليقين » ، ويمتنع عن أداء الفروض من صلاة وصوم وزكاة وحج
إلى بيت الله الحرام رغم استطاعته ، ويدعى أن التكليف قد سقط
عنه ! لأن اليقين قد وصله .

ونقول لمن يدعى ذلك : اتُخِذَ الله ورسوله ؟ وكُلُّنا يعلم أن
رسول الله ﷺ ظَلَّ يُؤَدِّي الفرائض حتى آخر يوم في حياته . وكُلُّنا
يعلم أن اليقين المتفق عليه والمُتَيَقَّن من كل البشر ، ولا خلاف عليه
أبداً هو الموت .

أما اليقين بالغيبيات فهو من خصوصيات المؤمن : فما أن بلغه
أمرها من القرآن فقد صدَّقها ، ولم يسأل كيف يتأتَّى أمرها ، والمثل
الواضح هو أبو بكر الصديق حينما كانوا يُحَدِّثُونَهُ بالأمر الغريب من
رسول الله ﷺ ، فكان يقول « ما دام قد قال فقد صدق » .

أما الكافر - والعياذ بالله - فهو يشكُّ في كل شيء غيبيٍّ أو حتى
ماديٍّ ما لم يكن محسوساً لديه ، ولكن ما أن يأتيه الموت حتى يعلم
أنه اليقين الوحيد .

ولذلك نجد عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رأيت يقيناً أشبه
بالشكِّ من يقين الناس بالموت » ^(١) .

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٢٧٨٧/٥) وتمام الاثر : « ثم لا يستعدون له » .

وكلنا نتيقن أننا سوف نموت ؛ لكننا نُزحزح مسألة اليقين هذه بعيداً عنا رَغْمَ أنها واقعةٌ لا محالة . فإذا ما جاء الموت ، نقول : ها هي اللحظة التي لا ينفع فيها شيء إلا عمل الإنسان إن كان مؤمناً مُؤدِّياً لحقوق الله .

ولذلك أقول دائماً : إن اليقين هو تصديق الأمر تصديقاً مؤكداً ، بحيث لا يطفو إلى الذهن ليُناقش من جديد ، بعد أن تكون قد علمته من مصادر تثق بصدق ما تبلغك به .

أما عَيْنُ اليقين : فهي التي ترى الحدث فتتيقنه ، أو هو أمر حقيقى يدخل إلى قلبك فتُصدقه ، وهكذا يكون لليقين مراحل : أمر تُصدقه تصديقاً جازماً فلا يطفو إلى الذهن ليُناقش من جديد ، وله مصادر علم ممن تثق بصدقه ، أو : إجماع من أناس لا يجتمعون على الكذب أبداً ؛ وهذا هو « علم اليقين » : فإن رأيت الأمر بعينيك فهذا هو حق اليقين .

والمؤمن يُرتب تصديقه وتيقنه على ما بلغه من رسول الله ﷺ .

وما هو الإمام على - كَرَّمَ الله وجهه وأرضاه - يقول : « ولو أن الحجاب قد انكشف عن الأمور التي حدثنا بها رسول الله غيباً ما ازددت يقيناً » .

وما هو سيدنا حارثة - رضى الله عنه - يقول : « كأننى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذبون ، فيقول له رسول الله ﷺ : « عرفت فالزم » ^(١) .

وذلك هو اليقين كما آمن به صحابة رسول الله ﷺ .

(١) أورده ابن حبان فى المجروحين (١/١٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . فى ترجمة أحمد بن الحسن بن أبان المصرى . قال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به .

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ
وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ١

هكذا تبدأ السورة^(١) الجليلة : مُوضحة أن قضاء الله وحُكمه بنصر
الرسول والمؤمنين لا شك فيه ولا محالة ؛ وأن هزيمة أهل الكفر
قادمة ، ولا مفر منها إن هم استمروا على الكفر .

(١) سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة . وهي قوله تعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَكُمْ صَبْرٌ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٧٩) وأخبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٧٧) ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١٨٠) [النحل] قال القرطبي في تفسيره (٢٧٨٩/٥) . . وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده . . . جاء في تفسير أبي السعود بتصريف في قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ (١) [النحل] قال : إنها الساعة وما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة ، فقد عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل ولابد أن يحققه في نفسه وإثباته منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب وإتيانه عبارة تدل عن دقته واقتضائه بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ (٢) [النحل] وفيه بلاغة . كلمة ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ﴾ (٣) [النحل] فعل ماضٍ يدل على زمن مضى ولكن قوله : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ (٤) [النحل] يشير إلى أن أمر الله سابق وواقع لا محالة وله وقته المحدد ، والتعبير بالماضي عن المضارع والعكس ضرب من بلاغة القول في الاستمارة التبعية في الأفعال « المنهاج الواضح في البلاغة » .

سُورَةُ الْجِنِّ

٧٧٩٦

وقد سبق أن أنذرهم الرسول ﷺ بما نزل عليه من آيات الكتاب ؛
أنذرهم في السورة السابقة ببعض العذاب الدنيوي ، كنصر الإيمان
على الكفر ، وأنذرهم من قبل أيضاً ببعض العذاب في الآخرة ، كقول
الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا نُرِّيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ^(١) ﴾ فَإِنَّا
يُرْجِعُونَ (٧٧) ﴿

[غافر]

وكذلك قوله الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾

[القمر]

وهكذا وعد الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يهزم معسكر الكفر ،
وأن ينصر معسكر الإيمان ؛ وإما أن يرى ذلك بعينه أو إن قبض
الحق أجله فسيراها في الآخرة .

وعن حال الرسول ﷺ قال سبحانه :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ﴾

[الحجر]

وأنذر الحق سبحانه أهل الشرك بأنهم في جهنم في اليوم
الآخر ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. (١) ﴾

[النحل]

وهذا إيضاحٌ بمرحلة من مراحل الإخبار بما يُنذرون به ، كما قال

مرة :

(١) توفي الله فلاناً أماته وقبض روحه . ويسند التوفى لله عز وجل . أو يسند للملك . ﴿ قُلْ
يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١٦) ﴾ [السجدة] وقد يُسند التوفى إلى الموت نفسه .
قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاكَ الْمَوْتُ .. (٦٥) ﴾ [النساء] . [القاموس القويم ٢٤٧/٢] .

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ ﴾ [القمر]

أى : اقتربت ساعة القيامة التى يكون من بعدها حسابُ الآخرة والعذاب لمن كفر ، والجنة لمن آمن وعمل صالحاً ، فاقترابُ الساعة غير مُخيف فى ذاته ، بل مُخيف لما فيه من الحساب والعقاب .
وقيل : إن أهل الكُفر لحظة أن سَمِعوا قول الحق سبحانه :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ۝١ ﴾ [القمر]

قالوا : « فلننتظر قليلاً : فقد يكون ما يُبلِّغ به محمد صحيحاً ، وبعد أن انتظروا بعضاً من الوقت ، ولم تأت الساعة كما بشر الرسول الكريم ﷺ قالوا : انتظرنا ولم تأت الساعة ، فنزل قول الحق سبحانه :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١ ﴾ [الانباء]

وهذا حديث عن الأمر الذى سيحدث فورَ قيام الساعة ، فهادئوا وانتظروا قليلاً ، ثم قالوا : أين الحساب إذن ؟ فنزل قوله تعالى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ۝١ ﴾ [النحل]

وساعة سَمِعَ الكلُّ ذلك فزِعوا : بمن فيهم من المسلمين : وجاء الإسعاف فى قوله من بعد ذلك :

﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١ ﴾ [النحل]

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فاراهم القمر شقيين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٢٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٢) كتاب المناقب .

أى : أن الأمر الذى يُعلنه محمد ﷺ لا يعلم ميعاده إلا الله سبحانه ! وأطمأن المسلمون^(١) .

وكلُّ حدث من الأحداث - كما نعلم - يحتاج كُلُّ منها لظرفين : ظرف زمان ؛ وظرف مكان . والأفعال التى تدلُّ على هذه الظروف إما فعل ماضٍ ؛ فظرفه كان قبل أن نتكلّم ، وفعل مضارع . أى : أنه حَلٌّ ، إلا إن كان مقروناً بـ « س » أو بـ « سوف » .

أى : أن الفعل سيقع فى مستقبل قريب إن كان مقروناً بـ « س » أو فى المستقبل غير المحدد والبعيد إن كان مسبقاً بـ « سوف » ، وهكذا تكون الأفعال ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذى يُخبرك به - وهو الله سبحانه - إنما يُخبرك بشيء قد حدث قبل الكلام ، وهو يُخبر به ، والبشر قد يتكلّمون عن أشياء وقعت ؛ ويُخبرون بها بعضهم البعض .

ولكن المتكلّم هنا هو الحق سبحانه ؛ وهو حين يتكلّم بالقرآن فهو سبحانه لا ينقص علمه أبداً ، وهو علم أزلى ، وهو قادر على أن يأتى المستقبل وفق ما قال ، وقد أعدّ توقيت ومكان كل شيء من قبل أن يخلق ؛ وهو سبحانه خالق من قبل أن يخلق أى شيء ؛ فالخلق صفة ذاتية فيه ؛ وهو مُنزّه فى كل شيء ؛ ولذلك قال :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ .. (١) ﴾ [النحل]

أى : أنه العليمُ بزمان وقوع كلِّ حدث ، وقد ثبت التسبيح له ذاتاً من قبل أن يوجد الخلق ؛ فهو القائل :

(١) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٥٩) . والقرطبي فى تفسيره (٢٧٩٠/٥) وعزواه لابن عباس رضى الله عنهما .

[الانبيا]

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(١) (٢٠)

ثم خلق السماوات وخلق الأرض وغيرهما .

أى : أنه مُسَبِّح به من قَبْلُ خَلَقَ السماوات والأرض ، وهو القائل
سبحانه :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (١) [الحشر]

ولكن هل انتهى التسبيح ؟ لا ، بل التسبيح مُسْتَمِرٌّ أبداً ، فهو
القائل :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (١) [الجمعة]

إذن : فقد ثبتت له « السُّبْحَانِيَّة » فى ذاته ، ثم وجد الملائكة
يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَلَا يَفْتُرُونَ ، ثم خلق السماء والأرض ، فسَبِّحَ
ما فيهما وما بينهما : وجاء خَلْقُهُ يُسَبِّحُونَ أيضاً - فَمَا مَنُ آمَنَتْ بِاللهِ
إِلَهًا سَبَّحَ كَمَا سَبَّحَ كُلُّ الْكُونِ .

ولقائل أن يسأل : وما علاقة « سبحانه وتعالى » بما يُشركون ؟
ونعلم أنهم أشركوا بالله آلهة لا تُكَلِّفُهُمْ بِتَكْلِيفٍ تَعْبُدِي ، وَلَمْ تُنْزَلِ
منهجاً : بل تُحَلِّلُ لَهُمْ كُلُّ مُحَرَّمٍ ، وتنهاهم عن بعض من الحلال ،
وتخلوا بذلك عن اتباع ما جاء به الرُّسُلُ مُبْلِغِينَ عن الله من تكليف
يحمل مشقة الإيمان .

وهؤلاء هم مَنُ سَبَّلَقُونُ الله ، وتسالهم الملائكة : أين هم
الشركاء الذين عبدتموهم مع الله ؟ ولن يدفع عنهم أحدٌ هؤلاء ما
يلاقونه من العذاب .

(١) لا يفترون : لا يقطعون عن التسبيح ، والفترة - الانكسار والضعف ، وفترو الشيء . سكن
بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب - مادة : فتر] .

وهكذا تعرّفنا على أن تنزيه الله سبحانه وتعالى ذاتا وصفاتا وأفعالا هو أمر ثابت له قبل أن يُوجد شيء ، وأمر قد ثبت له بعد الملائكة ، وثبت له بعد وجود السماوات والأرض . وهو أمر طلب الله من العبد المُخَيَّر أن يفعله ؛ وانقسم العبادُ قسمين ، قسم آمن وسبح ، وقسم لم يسبح فتعالى عنهم الحق سبحانه لأنهم مُشركون . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ^(١) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝١﴾

وساعة نقرأ قوله ﴿ يُنْزِلُ ﴾ فالكلمة تُوحى وتوضّح أن هناك علواً يمكن أن ينزل منه شيء على أسفل . والمثل الذي أحب أن أضربه هنا لأوضح هذا الأمر هو قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

أى : أقبلوا لتسمعوا منى التكليف الذى نزل لكم ممن هو أعلى منكم ، ولا تظّلوا فى حضيض الأرض وتشريعاتها ، بل تساموا وخذوا الأمر ممن لا هوئى له فى أموركم ، وهو الحق الأعلى .

أما مَنْ ينزلون فهُم الملائكة ، ونعلم أن الملائكة خلق غيبى آمنّا به ؛ لأن الله سبحانه قد أخبرنا بوجودهم . وكلّ ما غاب عن الذهن

(١) بالروح . أى : بالوحى وهو النبوة . وقيل : أرواح الخلق . قاله مجاهد . لا ينزل ملك وإلا ومعه روح . وقيل . بالرحمة . قاله الحسن وقتادة وقيل : بالهداية ، لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالارواح والابدان . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . [تفسير القرطبي ٢٧٩١/٥] .

سُورَةُ النُّحْلِ

٧٨٠١

ودليله السماع ممن تثق بصدقه ، وقد أبلغنا ﷺ ما نزل به القرآن
وأنبأنا بوجود الملائكة ، وأن الحق سبحانه قد خلقهم ؛ ورغم أننا
لا نراهم إلا أننا نُصدِّق ما جاء به البلاغ عن الحق من الصادق
الصدوق محمد ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .. (٢)﴾

[النحل]

فنحن نعلم أنه لا يمكن أن ينزل شيء من أعلى إلى الأدنى إلا
بواسطة المقربات .

وقد اختار الحق سبحانه ملكاً^(١) من الملائكة ليبلغ رُسُلَهُ بالوحي
من الله ، والملائكة كما أخبرنا الحق سبحانه :

﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾

[الأنبياء]

ويقول في آية أخرى :

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾

[التحريم]

وهم من نور ، ولا تصيبهم الاغيار ، ولا شهوة لهم فلا
يتناكبون ولا يتناسلون ؛ وهم أقرب إلى الصفاء . وهم من يُمكنهم
التلقي من الأعلى ويبلغون الأدنى .

(١) المقصود هنا جبريل عليه السلام . قال تعالى : ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ (١٨٢)﴾ [الشعراء] قال
ابن كثير في تفسيره (٢٤٧/٢) . . هو جبريل عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف ،
وهذا مما لا نزاع فيه . .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن القرآن :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾

[الشعراء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ .. (٢) ﴾

[النحل]

والآية الإجمالية التي تشرح ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي^(١) مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

بَصِيرٌ (٧٥) ﴾

[الحج]

أى : أنه سبحانه يختار ملائكة قادرين على التلقى منه ليعطوا المصطفين من الناس ؛ ليبلغ هؤلاء المصطفين عن الله لبقية الناس .

ذلك أن العلويات العالية لا يملك الكائن الأدنى طاقة ليتحمل ما تنزل به الأمور العلوية مباشرة من الحق سبحانه .

وسبق أن شبهت ذلك بالمحول الذي نستخدمه فى الكهرباء لينقل من الطاقة العالية إلى الأدنى من المصابيح ، وكُلُّنا يعلم ما حدث للرسول ﷺ حين تلقى الوحي عبر جبريل عليه السلام ، فضمنى حتى بلغ منى الجهد ، وتقصد^(٢) جبينه الطاهر عرقاً ، وعاد إلى بيته ليقول « زملونى زملونى » و « دثرونى دثرونى »^(٣) .

(١) اصلها : اختاره وآثره وفضله . قال تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٧) ﴾ [آل عمران] ، [القاموس القويم ٢٨٠/١] .

(٢) تقصد عرقاً : سال عرقاً . [لسان العرب - مادة : قصد] .

(٣) زمله بالشوب : لفه به فتزمل به وتلف به . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ (١) ﴾ [المزمل] نداء يذكر الرسول بقوله « زملونى » عند بدء الوحي . ذكره الله تعالى للإيقاظ والملاطفة . وفيه توجيه إلى ترك النوم وترك الراحة والقيام بواجبات الرسالة . [القاموس القويم ٢٩٠/١] . وحديث بدء الوحي أخرجه البخارى فى كتاب « بدء الوحي » من صحيحه « حديث رقم ٤ » من حديث عائشة رضى الله عنها .

ذلك أن طاقة علوية نزلت على طاقة بشرية ، على الرغم من أن طاقة رسول الله هي طاقة مُصْطَفَاة . ثم يَأْلَفُ الرسول الوحي وتخفُّ عنه مثل تلك الاعباء ، وينزل عليه قوله الحق :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾

[الشرح]

ثم يفتر^(١) الوحي لبعض من الوقت لدرجة أن النبي ﷺ يشتاق إليه ، فلماذا اشتاق للوحي وهو مَنْ قَالَ « دُثْرُونِي دُثْرُونِي » ؟
لقد كان فتور الوحي بسبب أن يتعود محمد ﷺ على متاعب نزول الملك : فتزول متاعب الالتقاء وتبقى حلاوة ما يبلغ به .
وقال بعض من الاغبياء : « إن ربُّ محمد قد قلاه^(٢) » .

فيتزل قوله سبحانه :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾

[الضحى]

(١) الوزر : همك الذي أتميك ، وهو هم البحث عن الدين الحق . أو : يكون الوزر هو الذنب الذي كنت تراه نمياً لشدة حبك لله - [القاموس القويم ٢/٣٢٣] .
(٢) الفترة : الانكسار والضعف . فتر الشيء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . والفتر الضعف . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفي الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب - مادة : فتر]
(٣) قلى فلاناً بقلبه : أبغضه وجفاه . قال تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]
ما أبغضك ولا جفأك . [القاموس القويم ٢/١٢٢] . وعن جندب بن عبدالله البجلي أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع مصداً ربه . أورده ابن كثير في تفسيره (٤/٥٢٢) .

وكلمة الروح وردت في القرآن بمعان متعددة ، فهي مرة الروح التي بها الحياة في المادة ليحدث بها الحس والحركة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢٩) [الحجر]

وهذا النفخ في المادة يحدث للمؤمن والكافر ، وهناك رُوح أخرى تعطى حياة أعلى من الحياة الموقوتة :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤) [العنكبوت]

إذن : فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله بما فيه حياة أرقى من الحياة التي نعيش بها ونتحرك على الأرض . وهكذا تكون هناك رُوحان لا رُوح واحدة : رُوح للحس والحركة : وروح تُعطى القيم التي تقودنا إلى حياة أخرى أرقى من الحياة التي نحياها : حياة لا فناء فيها .

ولذلك يُسمى الحق سبحانه القرآن روحاً : فيقول :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ .. ﴾ (٥٢) [الشورى]

ويُسمى الحق سبحانه الملك الذي نزل بالقرآن روحاً ، فيقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (١٩٤)

[الشعراء]

ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياة أرقى ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴾ (٢٤) [الأنفال]

أى : يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التى لا موتَ فيها ولا خَوْفَ
أنْ تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمة .

وهنا يُبلغنا سبحانه أن القرآن نزل مع الملائكة :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ .. (٢)﴾ [النحل]

أى : تنزيلاً صادراً بأمره سبحانه ، ويقول الحق سبحانه فى
موقع آخر :

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ^(١) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾

[الرعد]

والسُّطْحِيُّونَ لا يلتفتون إلى أن معنى :

﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد]

هنا تعنى أنهم يحفظونه بأمر من الله .

والامر هنا فى الآية - التى نحن بصدد خواتمنا عنها - هو ما
جاء فى الآية الأولى منها :

﴿إِنِّي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل]

وهذا الامر هو نتيجة لما يشاؤه الله من حياة للناس على
الارض ، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر متباعدة يجمعها إبراز
المعدوم إلى الوجود ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١)﴾ [النحل]

(١) أى ملائكة حافظة يتبعونه يحفظونه ويصون أعمالهم . أو : المعنى . تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢٩/٢] .

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له : كُنْ فيكون ، وإذا أراد منهجاً : فهو يُنْزله ، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعة : فهو القاتل ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ .

وهكذا نفهم أن معنى ﴿ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ هو ﴿ كُنْ فيكون ﴾ أى : إخراج المعدم إلى حَيْزِ الوجود : سواء أكان معدوماً جزئياً ، أو معدوماً كلياً ، أو معدوماً أزلياً .

وكل ذلك اسمه أمر ، ولحظة أن يامر الله : فنحن نثق أن مأمور الله يبرز : ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ^(١) ۖ ﴾ [الانشقاق]

أى : أنها لم تسمع الأمر فقط : بل نفذته فور صدوره : دون أدنى ذرة من تخلف ، فامر الله يُنفذ فور صدوره من الحق سبحانه ، أما أمر البشر فهو عُرْضَةٌ لَانْ يُطَاع ، وعُرْضَةٌ لَانْ يُعَصَى .

وسبحانه يُنْزِل الملائكة بالروح على مَنْ يشاء لينذروا : ولم يأت الحق سبحانه بالبشارة هنا : لان الحديث مُوجَّه للكفار فى قوله :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ (١) [النحل]

ونزه ذاته قائلاً :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) [النحل]

أو : أن الحق يُنَبِّه رسوله ، إن دخلت عليهم ففسر لهم مَبْهَم ما لا يعرفون . وهم لا يعرفون كيفية الاصطفاء . وهو الحق الاعلم بمن يصطفى .

(١) حق له . ثبت له . حَقَّتْ . أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس للقيوم

ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتم بمواصفات الحق سبحانه ! فهو القائل :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴾ (١٢٤)

[الأنعام]

وعلم أن الكافرين قد قالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١) [الزخرف]

وقال الحق سبحانه في رده عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴾ (٣٢) [الزخرف]

فإذا كان الحق سبحانه قد قَسَمَ بين الخلق أرزاقهم في معيشتهم المادية ؛ وإذا كان سبحانه قد رفع بعضهم فوق بعض درجات ؛ وهو مَنْ يجعل المرفوعَ مخفوضاً ؛ ويجعل المخفوضَ مرفوعاً ، فكيف يأتى هؤلاء في الأمور القِيَمِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالرُّوحِ وبِالْمَنْهَجِ ، ويحاولون التعديل على الله ؛ ويقولون « نريد فلاناً ولا نريد فلاناً » ؟

أو : أن الحق سبحانه يوضِّح لرسوله ؛ بعد أن شرحت لهؤلاء أمر الرُوحِ ، فعليك أن تُبَلِّغهم كلمة الله :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٢) [النحل]

وما دام لا يوجد إله آخر فعلى الرسول أن يُسَدِّى لهم النصيحة ؛ بأن يقصروا على أنفسهم حَبْرَةَ الْبَحْثِ عَنْ إِلَهٍ ، وَيُوضِّحَ لَهُمْ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؛ وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّقُوهُ .

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١٢٦/٤) . يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد . (واختلفوا في المقصود بهذين الرجلين) . والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدين كان .

وفى هذا حنان من الحق على الخلق ، وهو الحق الذى منع الكائنات التى تعجبت ورفضت كُفِرَ بَعْضُ من البشر بالله ؛ وطلبت أن تنتقم من الإنسان ، وقال لهم : « لو خلقتموهم لرحمتوهم ، دَعُونِي وَخَلَقِي : إِنْ تَابُوا إِلَىٰ فَاَنَا حَبِيبُهُمْ ؛ وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَاَنَا طَبِيبُهُمْ » .

وَقَوْلُ الحق سبحانه :

﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۖ ﴾ [النحل]

هو جماعُ عقائد السماء للأرض ؛ وجماعُ التعبُّدات التى طلبها الله من خلقه لِيُنْظَمَ لهم حركة الحياة مُتَسَانِدَةً لَا مُتَعَانِدَةً .
فكان :

﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۖ ﴾ [النحل]

هى تفسيرٌ لِمَا أنزله الله على الملائكة من الرُّوح التى قُلْنَا من قبل : إنها الروح الثانية التى يَجِىءُ بها الوَحْيُ ؛ وتحملُ منهجَ الله ليضمن للمُعتنق حياة لا يزول نعيمها ولا المُتنعم بها ؛ وهى غَيْرُ الروح الأولى التى إذا نفخها الحق فى الإنسان ، فالحياة تدبُّ فيه حركةً وحسًّا ولكنها إلى الفناء .

وكان الحق سبحانه من رحمته بخلقهِ أَنْ أنزلَ لهم المنهج الذى يهديهم الحياة الباقية بدلاً من أَنْ يظَلُّوا أُسْرَى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أَنْ حذرهم من المصير السيئ الذى ينتظر مَنْ يكفر به ؛ ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا مِنْ مُحِبٍّ ؛ فسبحانه يُحِبُّ خلقه ، وَيُحِبُّ منهم أَنْ يكونوا إليه مخلصين مؤمنين ، ويحب لهم أَنْ ينعموا فى آخرة لا أسبابَ فيها ؛ لأنهم سيعيشون فيها بكلمة « كُنْ » من المُسَبِّب .

سُورَةُ النُّحْلِ

٧٨٠٩

فإِذَا قَالَ لَهُمْ ﴿أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ..﴾ (٢) [النحل] فهو يُوضِّحُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، فَلَا تَشْرِكُوا بِي شَيْئًا ، وَلَا تَكْذِبُوا الرِّسْلَ وَعَلَيْكُمْ بِتَطْبِيقِ مَنْهَجِي الَّذِي يُنْظِمُ حَيَاتَكُمْ وَأَجَارِي عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ .

وإِيَّاكُمْ أَنْ تَفْتَرُوا بِأَنِّي خَلَقْتُ الْأَسْبَابَ مُسْخَرَةً لَكُمْ ؛ فَإِنَّا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْبِضَ هَذِهِ الْأَسْبَابَ ؛ فَقَدْ أَرَدْتُ الدُّنْيَا بِلَاءً وَابْتِحَارًا ؛ وَفِي الْآخِرَةِ لَا سُلْطَانَ لِلْأَسْبَابِ أَبَدًا ؛

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) [غافر]

وظَاهِرُ الْأَمْرِ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ دَائِمًا فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ؛ وَلَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ الْأَسْبَابَ - الْمَخْلُوقَةَ بِمَشِيئَتِهِ - تَسْتَجِيبُ لِلْإِنْسَانِ ؛ فإِيَّاكَ أَنْ تَقْنُ أَنْكَ أَصْبَحْتَ قَادِرًا ؛ فَإِنَّتَ فِي الْحَيَاةِ تَمْلِكُ أَشْيَاءَ ، وَيَمْلِكُكَ مَلِكٌ أَوْ حَاكِمٌ مِثْلُكَ ؛ فَسُنَّةُ الْكَوْنِ أَنْ يَوْجِدَ نِظَامٌ يَحْكُمُ الْجَمِيعَ .

وَلَكِنْ الْآخِرَةُ يَخْتَلِفُ الْأَمْرُ فِيهَا ؛ فَلَا مَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ ، بَلْ إِنْ الْأَعْضَاءُ نَفْسَهَا لَا تَسِيرُ بِإِرَادَةِ أَصْحَابِهَا بَلْ بِإِرَادَةِ الْحَقِّ ، تَلِكِ الْأَعْضَاءُ الَّتِي كَانَتْ تَخْضَعُ لِمَشِيئَتِكَ فِي الدُّنْيَا ؛ لَا حُكْمَ لَكَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ سَتَكُونُ شَاهِدَةً عَلَيْكَ .

فَإِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ أَعْطَاكَ الْقُدْرَةَ عَلَى تَحْرِيكِ الْأَعْضَاءِ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنْ وَجَّهَتْهَا إِلَى مَأْمُورِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّتَ مِنْ عِبَادِهِ^(١) ، وَإِنْ لَمْ تُوجَّهْهَا إِلَى مَطْلُوبِ اللَّهِ ، فَإِنَّتَ مِنْ عِبِيدِهِ .

وَبَعْدَ ذَلِكَ يُقَدِّمُ لَكَ سُبْحَانَهُ الْحَيْثِيَّةَ الَّتِي تُعَزِّزُ أَمْرَهُ بِعِبَادَتِهِ

(١) الْعِبَادُ : هُمُ عِبَادُ الرَّحْمَنِ ، وَالْعَبِيدُ كُلُّ النَّاسِ ، فَكُلُّ عَابِدٍ عَبْدٌ وَلَيْسَ كُلُّ عَبْدٍ عَابِدًا ، وَقَدْ يَرْتَقِي الْعَبِيدُ إِلَى مَقَامَاتِ الْعِبَادِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

وحده ، وأن لا إله غيره ؛ فإنه لم يطلب أن نعبد إلا بعد أن خلق لنا
السموات والأرض ؛ وكل الكون المُعَدَّ لاستقبال الإنسان بالحق ؛ أى
بالشيء الثابت ؛ والقانون الذى ليس فى اختيار أحد سواه سبحانه ،
ويقول سبحانه :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ^(١)
تَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ^(٢) ﴾

أى : تنزه سبحانه عما يشركون معه من آلهة ، فلا أحد قد ساعده
فى خلق الكون وإعداده ؛ فكيف تجعلون أنتم معه آلهة غيره ؟ وسبحانه
مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَ آلِهَةٍ أُخْرَى . وسبحانه قد خلق لنا من قبل أن
يخلقنا ؛ خلق السموات والأرض وقَدَّرَ الرزاق ، ولو نظرت إلى خلقك
أنت لوجدت العالم الكبير قد انطوى فيك ؛ وهو القائل :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ^(٢١) ﴾ [الذاريات]

وأنت مخلوق من ماذا ؟

ها هو الحق سبحانه يقول :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ^(١)
فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ^(٢) ﴾

(١) بالحق أى للدلالة على قدرته سبحانه وأن له أن يتعبد العباد بالطاعة . وأن يُحْيى الخلق

بعد الموت [تفسير القرطبي ٣٧٩٢/٥] .

(٢) الخصيم أى شديد الخصام . أى مخاصم به ولسوله مبالغ فى إظهار خصومته

وعداوته . [القاموس القويم ١٩٦/١] .

والنطفة التي نجى منها ، وهى الحيوان المنوى الذى يتزاوج مع البويضة الموجودة فى رحم المرأة فتنتج العلقه ، وسبحانه القائل :

﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ^(٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنًى يُمْنَى ^(٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسُوَّى ^(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ^(٣٩) ﴾

[القيامة]

بل إن القذفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الانسال ما يكفى خلق الملايين ؛ ولا يمكن للعين المجردة أن ترى الحيوان المنوى الواحد نظراً لدقته المتناهية .

وهذه الدقة المتناهية لا يمكن أن ترى إلا بالمجاهر المكبرة ، ومطمور فى هذا الحيوان المنوى كل الخصائص التى تتحد مع الخصائص المطمورة فى بويضة المرأة ليتكون الإنسان .

وقد صدق العقاد - يرحمه الله - حين قال : « إن نصف كسبتان الخياطة لو ملئ بالحيوانات المنوية لُولِدَ منه أنسال تتساوى مع تعداد البشر كلهم » .

وقد شاء الحق سبحانه ألا ينقذ إلى البويضة إلا الحيوان المنوى القوى ؛ ليؤكد لنا أن لا بقاء إلا للأصلح ، فإن كان الحيوان المنوى يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولود أنثى ؛ وإن كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذكر جاء المولود ذكراً .

وأنت ترى مثل ذلك فى النبات ؛ فأول حبة قمح كانت مثل آدم كأول إنسان بالطريقة التى نعرفها ؛ وفى تلك الحبة الأولى أوجد

(١) أى : أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ مَهْمَلًا غَيْرَ مَمُورٍ وَغَيْرَ مَمْنَى . [لسان العرب - مادة

الحق سبحانه مضمون كل حبوب القمح من بعد ذلك ، وإلى أن تقوم الساعة ، وتلك عظمة الحق سبحانه في الخلق .

وقد أوضح لنا الحق سبحانه في أكثر من موضع بالقرآن الكريم مراحل خلق الإنسان : فهو :

﴿ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ﴾

[السجدة]

وهو من نطفة ، ومن علقه ، ثم مضغة مُخلقة وغير مُخلقة^(١) .

والحيوان المنوي المُسمى « نطفة » هو الذي يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شأن بهذا التحديد ، وكان في ذلك إشارة إلى مهمة المرأة كسكن : لأن البويضة تتلقى الحيوان المنوي وتحتضنه ؛ ليكتمل النمو إلى أن يصير كائنًا بشرياً :

﴿ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

[المؤمنون]

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ أَتَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْ مِنْ مِثْرٍ يَمَنِ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً .. (٣٨) ﴾

[القيامة]

والعلقة جاء اسمها من مهمتها ، حيث تتعلق بجدار الرحم كما أثبت العلم المعاصر ، ويقول سبحانه :

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. (١٤) ﴾

[المؤمنون]

(١) يقول تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ لِي وَتِبَ مِنْ الْبَحْثِ فَمَاذَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥) ﴾ [الحج] .

والمُضَغَّةُ هي الشيء المَمْضُوغُ ؛ ثم يَصِفُ سبحانه المضغَّة بأنها :

﴿مُخَلَّقَةٌ^(١) وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ .. (٥)﴾ [الحج]

ولقائل أن يتساءل : نحن نفهم أن المُضَغَّة المُخَلَّقَةُ فيها ما يمكن أن يصير عينا أو ذراعاً ؛ ولكن ماذا عن غير المُخَلَّقَةِ ؟

ونقول : إنها رصيد احتياطي لصيانة الجسم ، فإذا كنتَ أيها المخلوق حين تقوم ببناء بيتٍ فانت تشتري بعضاً من الأشياء الزائدة من الأدوات الصحية - على سبيل المثال - تحسباً لما قد يطرأ من أحداث تحتاج فيها إلى قطع غيار ؛ فما بالنا بالحق الذي خلق الإنسان ؟

لقد جعل الله تلك المُضَغَّة غير المُخَلَّقَةِ^(٢) رصيذاً لصيانة ، أو تجديداً لما قد يطرأ على الإنسان من ظروف ؛ وتكون زائدة في الجسم وكأنها مخزنٌ لقطع الغيار .

والمثل هو الجروح التي تصيب الإنسان ، ثم يتركها ليعالجها الجسمُ بنفسه ، نجدها تلتئم دون أن تترك ندبة^(٣) أو علامة ، ذلك أنه قد تمَّ علاجها من الصيدلية الداخلية التي أودعها الحق سبحانه في الجسم نفسه .

(١) مخلقة - أى مُشَكَّلَةٌ ومُصَوَّرَةٌ على هيئة طفل . وغير مخلقة أى . غير مشكَّلة . أى غير تامة التصوير . [القاموس القويم ٢٠٧/١] .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢٠٦/٢) . « إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك ، يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تغلب علقه حمراء بإذن الله فتتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغَّة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط . ثم يشرح في التشكيل والتخطيط . ونارة تلفيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط .

(٣) الندبة : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد . [لسان العرب - مادة : ندب] .

والمفاجأة هي أن هذا الإنسان المخلوق لله :

﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٤ ﴾

[النحل]

ويتمرد على خالقه ، بل وينكر بعض من الخلق أن هناك إلهاً ؛ متجاهلين أنهم بقوة الله فيهم يجادلونه . والخصيم هو الذى يُجادل ويُنكر الحقائق ؛ فإذا حدث بشيء غيبى ، يحاول أن يدهض معقوليته .

ويقول سبحانه فى سورة يس :

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٧٧ ﴾ [يس]

وقد يكون من المقبول أن تكون خصماً لمساويك ؛ ولكن من غير المقبول أن تكون خصيماً لمن خلقك فسواك فعدلك ، وفى أى صورة ما شاء ربك .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٥ ﴾

والدَّفءُ هو الحرارة للمبرود ، تماماً مثلما نعطى المحرور برودة ، وهذا ما يفعله تكييف الهواء فى المنازل الحديثة . ونجد الحق سبحانه هنا قد تكلم عن الدفء ولم يتكلم عن البرد ، ذلك أن المقابل معلوم ، وهو فى آية أخرى يقول :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مَرَابِيلَ^(١) ثِيَابِكُمُ الْغُرَّ .. ٨١ ﴾

[النحل]

(١) السراويل جمع سربال ، وهو ما يلبس من قميص أو درع . [القاموس القويم ٢٠٨/١] .

وهذا ما يحدث عندما نسير في الشمس الحارة ؛ فنضع مظلة فوق رؤوسنا لتقينا حرارة الشمس الزاعقة الشديدة . ونحن في الشتاء نلبس قلنسوة أى : ثياباً شتية حول رؤوسنا ، وهكذا نعلم أن اللباس يفعل الشيء ومقابله ، بشرط أن يختار الإنسان اللباس المناسب للجو المناسب .

وفى الأنعام منافع كثيرة ؛ فنحن نشرب لبنها ، ونصنع منه الجبن والسمن ؛ ونجزّ الصوف لنغزل ونسج منه ملابس صوفية ، وتحمل الأثقال ، ونستفيد من لريتها ؛ وكذلك نأكل لحومها .

و نحن نعلم أن الأنعام قد جاء تفصيلها في موقع آخر حين قال الحق سبحانه :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ .. (١٤٣) ﴾ [الأنعام]

وهى الضأن والمعز والإبل والبقر .

ونعلم أن الدفء يأتى من الصوف والوبر والشعر ، ومن يلاحظ شعر المعز يجد كل شعرة بمفردها ؛ لكن الوبر الذى نجزه من الجمل يكون مكبداً ؛ وهذا دليل على دقة فنتته ، أما الصوف فكل شعرة منه أنبوبة أسطوانية قلبها فارغ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ^(١) حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾

(١) الجمال الحسن . وما يتجمل به ويتزين . قال القرطبي في تفسيره (٢٧٩٥/٥) : جمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة . وهو مرئى بالابصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها .

وهنا نجد أن الحق سبحانه قد أعطانا الترف أيضاً بجانب الضروريات ، فالذَّفءُ والمنافع والأكل ضروريات للحياة ، أما الجمال فهو من تَرَف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين ، فيستحق السرور في النفس . والذَّفءُ والمنافع والأكل هي أمور خاصة لمن يملك الأنعام ؛ أما الجمال فمشاع عامٌ للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ؛ أو البقرة المزهوة بالصحة ؛ فأنت ترى نعمة الله التي خلقها لتسر الناظر إليها .

ونلاحظ هذا الجمال في لحظات سروح البهائم ولحظات رواحها . ونقول في الريف « سرحت البهائم » أى : خرجت من الحظائر لترعى وتاكل . ونلاحظ أن الحق سبحانه قد قدّم الرّواح أى العودة إلى الحظائر عن السُّروح ؛ لأن البهائم حين تعود إلى حظائرها بعد أن ترعى تكون بطونها ممتلئة وضروعها رابية^(١) حافلة باللبن ؛ فيسعد من يراها حتى قبل أن يطعم من البانها .

ومن يخرج ببهائم في الصباح من بيته ، ويصحبها من زرائبها إلى الحقل ، يجد جمالاً مع هيبة ومنعة مع أصوات تحقق للرجل المالك الهيبة ، ومن لا يملك يمكن أن يشاهد جمال تلك الأنعام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ^(٢) إِلَىٰ بَلَدٍ لَّكُمْ تَكُونُوا بِلَاغِيهِ
إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

(١) ربا الشيء يربو : زاد ونما . وأربيته : نميته . [لسان العرب - مادة : ربا] .

(٢) الثقل : العمل الثقيل . والجمع أثقال مثل حمل وأحمال . [لسان العرب - مادة : ثقل] .

فالانقال : الأحمال الثقيلة .

ونعلم أن الإنسان في حياته بين أمرين : إما ظاعن أي : مسافر .
وإما مقيم . وفي حالة المقيم ، فالإنعام تُحقق له الدَّفء والطعام
والمكسب . وعادة ما يكتفى متوسط الحال بأن يستقر في مكان إقامته
وكذلك الفقير .

أما المُقتدر الغنى : فانت تجده يوماً في القاهرة ، وآخر في
الإسكندرية ، أو طنطا ، وقد يسافر إلى الخارج ، وكل ذلك ميسور
في زمن المواصلات الحديثة . وقديماً كانت وسائل المواصلات
شاقة ، ولا يقدر على السفر إلا مَنْ كانت لديه إبل صحيحة أو خيول
قوية ، أما مَنْ لم يكن يملك إلا حماراً أعرج^(١) فهو لا يفكر إلا في
المسافات القصيرة .

ولذلك نجد القرآن حين تكلم عن أهل سبا يقول :

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ^(٢) .. ﴾ (١٩) [سبا]

وهم قد قالوا ذلك اعتزازاً بما يملكونه من خيل ووسائل سفر من
دواب سليمة وقوية ، تهيئ السفر المريح الذي ينم عن العز والقوة
والثراء .

وقوله الحق :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ^(٣) .. ﴾ (٧)

[النحل]

يعنى وضع ما يُثقل على ما يُثقل . ولذلك فنحن لا نجد إنساناً

(١) الأعرج الهزيل من سوء التغذية . والعرج : غلط العظام وعرجها من اللحم . [لسان

العرب - مادة : عرج]

(٢) وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَفَرٍ أَلَيْ بَارِكْنَا فِيهَا فَرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ

سَبْرًا فِيهَا لَيْالً وَأَنهَامًا آمِينَ ﴾ (١٩) [سبا]

يحمل دابته ؛ بل نجد مَنْ يحمل أثقاله على الدابة لِيُخَفِّفَ عن نفسه حمل أوزانٍ لا يقدر عليها .

ونعلم أن الوزن يتبع الكثافة ؛ كما أن الحجم يتبع المساحة ؛ فحين ننظر إلى كيلوجرام من الحديد وكيلوجرام من القطن ، فانت تجد أن حجم كيلوجرام القطن أكبرُ من حجم كيلوجرام الحديد ؛ لأن كثافة الحديد مطمورة فيه ، أما نفاشات القطن فهي التي تجعله يحتاج حيزاً أكبر من المساحة .

ويتابع الحق سبحانه قوله في الآية الكريمة :

﴿ وَتَعْمَلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ .. (٧) ﴾

[النحل]

وَمَنْ يَفْتَش فِي آسَالِيبِ الْقُرْآنِ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ قَدْ يَقُولُ : « إِنْ عَجَزَ الْآيَةُ غَيْرُ مُتَّفَقٍ مَعَ صَدْرِهَا » .

ونقول لمثل صاحب هذا القول : أنت لم تظن إلى المنّة التي يمتنُّ بها الله على خلقه ، فهم لم يكونوا بالغين لهذا البلد دون أثقالٍ إلا بمشقة ؛ فما بالنا بثقل المشقة حين تكون معهم أثقال من بضائع ومتاع ؟ إنها نعمة كبيرة أن يجدوا ما يحملون عليه أثقالهم وأنفسهم ليصلوا إلى حيث يريدون .

وكلمة ﴿ بِشِقِّ ﴾ [النحل] مصدرها شَقَّ وهو الصَّدْعُ بين شيتين ؛ ويعنى عَزَلَ متصلين ؛ وسبحانه هو القائل :

﴿ فَاصْدَعْ^(١) بِمَا تُزْمَرُ .. (٩٤) ﴾

[الحجر]

(١) صدع بالامر جهر به في قوة كانه يشق جدار الصمت والسكون . [القاموس القويم

وهناك « شق » وهو الجهد ، و« شقة » . والإنسان كما نعلم هو بين ثلاث حالات : إما نائم : لذلك لا يحتاج إلى طاقة كبيرة تحفظ له حياته : وايضاً وهو مُتَيْقِظ فاجهزته لا تحتاج إلى طاقة كبيرة : بل تحتاج إلى طاقة مُتَوَسِّطَة لتعمل : أما إن كان يحمل أشياء ثقيلة فالإنسان يحتاج إلى طاقة أكبر لتعمل أجهزته .

وكذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا ^(١) قَرِيًّا وَسَفَرًا قَاصِدًا ^(٢) لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. (٤٢)﴾ [التوبة]

والمعنى هنا بالشُّقَّة هي المسافة التي يشقُّ قطعها ، ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنْ رِئُوسُكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧)﴾ [النحل]

والصفتان هنا هما الرأفة والرحمة ، وكل منهما مناسب لما جاء بالآية : فالربُّ هو المُتَوَلَّى التَّربِيَّة والمَدَد ، وأىُّ رحلة لها مَقْصِد ، وأىُّ رحلة هي للاستثمار ، أو الاعتبار ، أو للالتئيم معاً .

فإن كانت رحلة استثمار فدائبتك يجب أن تكون قوية لتحمل ما معك من أثقال ، وتحمل عليها ما سوف تعود به من بضائع .

وإن كانت الرحلة للاعتبار فانت تزيل بهذا السفر ألم عدم المعرفة

(١) عرض الدنيا : ما كان من مال ، قل أو كثر . والعرض : مناع الدنيا وحطامها . [لسان العرب - مادة : عرض] .

(٢) السفر القاصد : السهل الواضح المعروف هدفه ، قال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيًّا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ .. (٤٢)﴾ [التوبة] لكن السفر إلى ثبوك كان عسيراً في وقت العسرة ، وكان شاقاً وغير معروف الهدف . ولهذا تخلف المتأفقون . [القاموس القويم ١١٨/٢] .

والرغبة في الوصول إلى المكان الذي قصدته .

وهكذا تجد الرافعة مناسبة لقضاء النفع وتحقيق الحاجة وإزالة الألم . وكلمة رحيم مناسبة لمنع الألم بتحقيق الوصول إلى الغاية .

وتوقف بعض من العلماء عند مقصد الرحلة : كان تكون مسافراً للاتجار أو أن تكون مسافراً للاعتبار . ولكن هذا سفر بالاختيار ؛ وهناك سفر اضطراري ؛ كالسفر الضروري إلى الحج مرة في العمر . والحق سبحانه يزيل ألم الحمل الثقيل ، وبذلك تتحقق رافته ؛ وهو رحيم لأنه حقق لكم أمنية السفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ^(١) وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾

وبعد أن ذكر لنا الحق سبحانه الأنعام التي نأخذ منها المأكولات ، يذكر لنا في هذه الآية الأنعام التي نستخدمها للتنقل أو للزينة ؛ ولا نأكل لحومها ^(٢) وهي الخيل والبغال والحمير ؛ ويذكرنا بأنها للركوب والمنفعة مع الزينة ؛ ذلك أن الناس تترزين بما تركب ؛

(١) البغال : جمع بغل . وهو ابن الفرس من العمار وهو لا يلد . فالشأن في البغل العقم . وذكرهما القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولدهما منهما . [القاموس القويم ٧٦/١]

(٢) قال الفرطبي في تفسيره (٢٨٠٠/٥) : « سئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرها . ونلا هذه الآية وقال هذه للركوب . وقرأ الآية التي قبلها . « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَلِمٌ وَمَنَاعٌ .. » [التعليل] ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين : هي مباحة قلت الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل . »

تماماً كما يفخر أبناء عصرنا بالتزّين بالسيارات الفارهة .

وَنَسَقُ الآية يدلُّ على تفاوت الناس في المراتب : فكلُّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لتركيبه : فالخَيْلُ للسادة والفرُسان والاغنياء : وَمَنْ هم أقلُّ يركبون البغال ، وَمَنْ لا يملك ما يكفي لشراء الحصان أو البَقْلُ ! فيمكنه أَنْ يشتري لنفسه حماراً .

وقد يملك إنسانُ الثلاثة ركائب ، وقد يملك آخرُ اثنتين منها : وقد يملك ثالثُ رُكوبة واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكنه أَنْ يستأجرَ ولو رُكوبة من أي نوع .

وشاء الحق سبحانه أن يقسم للناس أرزاق كل واحد منهم قَلَّةً أو كثرةً ، وإلا لو تساوى الناس في الرزق ، فَمَنْ الذي يقوم بالأعمال التي نُسَمِّيها نحن - بالخطأ - أعمالاً دُونِيَّةً ، مَنْ يكنس الشوارع ، وَمَنْ يحمل الطُوب للبناء ، وَمَنْ يقف بالشَّحْم وسط ورش إصلاح السيارات ؟

وكما نرى فكلُّ تلك الأعمال ضرورية ، ولولا رغبة الناس في الرزق لَمَا حَلَّتْ مثل تلك الأعمال ، وراقت في عُيون مَنْ يُمارسونها ، ذلك أنها تَقِيهِمْ شَرَّ السُّؤَالِ .

ولَوْلا أَنْ مَنْ يعمل في تلك الأعمال له بطنٌ تريد أَنْ تمتلئ بالطعام ، وأولاد يريدون أَنْ ياكلوا : لَمَا ذهب إلى مشقَّات تلك الأعمال . ولو نظرت إلى أفقر إنسان في الكون لوجدت في حياته فترة حَقَّقَ فيها بعضاً من أحلامه .

وقد نجد إنساناً يَكْدُ عَشْرَ سنين ؛ ويرتاح بقية عمره ؛ ونجد مَنْ يَكْدُ عشرين عاماً فيُريح نفسه وأولاده من بعده ، وهناك مَنْ يتعب ثلاثين عاماً ، فيُريح أولاده وأحفاده من بعده ، والمهم هو قيمة

ما يُتَّقَنه ، وأن يَرْضَى بِقَدْرِ اللَّهِ فِيهِ ، فَيُعْطِيَهُ اللَّهُ مَا دَامَ قَدْ قَبِلَ قَدْرَهُ فِيهِ .

وَأَنْتَ إِنْ نَظَرْتَ إِلَى مَنْ فَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِم بِالْغَنَى وَالتُّرَفِ سَتَجِدُهُمْ فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهِمْ قَدْ كَدُّوا وَتَعَبُوا وَرَضُوا بِقَدْرِ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَلَمْ يَحْقُدُوا عَلَى أَحَدٍ ، نَجَدَهُ سَبْحَانَهُ يَهْدِيهِمْ طَمَئِينَةً وَرَاحَةً بِالٍ .

وَشَاءَ سَبْحَانَهُ أَنْ يُنَوِّعَ فِي مُسْتَوِيَاتِ حَيَاةِ الْبَشَرِ كَيْلًا يَسْتَنكِفُ أَحَدٌ مِنْ خِدْمَةِ أَحَدٍ مَا دَامَ يَحْتَاجُ خِدْمَتَهُ .

وَنَجِدُ النَّصْرَ التَّعْبِيرِيَّ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصُدَدِ خَوَاطِرُنَا عَنْهَا هُوَ خَيْلٌ وَبِقَالَ وَحْمِيرٌ ؛ وَقَدْ جَعَلَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ الْبَغَالُ فِي الْوَسْطِ ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ جِنْسًا بَلْ تَأْتِي مِنْ جِنْسَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ .

وَيُنَبِّهُنَا الْحَقُّ سَبْحَانَهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ نَهَايَةِ الْمَطَافِ ؛ بَلْ هُنَاكَ مَا هُوَ أَكْثَرُ ، فَقَالَ :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾

[النحل]

وَجَعَلَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ الْبُرَاقَ خَادِمًا لِسَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَجَعَلَ بِسَاطَ الرِّيحِ خَادِمًا لِسَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِذَا كَانَتْ مِثْلُ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ قَدْ حَدَثَتْ لِأَنْبِيَاءٍ ؛ فَقَدْ هَدَى الْبَشَرَ إِلَى أَنْ يَبْتَكَرُوا مِنْ وَسَائِلِ الْمَوَاصِلَاتِ الْكَثِيرِ مِنْ عَرَبَاتٍ تَجْرُهَا الْجِيَادُ إِلَى سِيَارَاتٍ وَقَطَارَاتٍ وَطَائِرَاتٍ .

وَمَا زَالَ الْعِلْمُ يُطَوِّرُ مِنْ تِلْكَ الْوَسَائِلِ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَهَنَّا مَنْ يَقْتَنِي الْخَيْلَ وَيُرَبِّيَهَا وَيُرَوِّضُهَا وَيَجْرِيهَا لِجَمَالِ مَنْظَرِهَا .

وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْوَسَائِلُ مِنَ الْمَوَاصِلَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ عَنَّا

الاثقال : وتلك المُخترعات التي هدانا الله إياها : فما بَالُنَا بالمواصلات في الآخرة ؟ لابد أن هناك وسائل تناسب في رفاهيتها ما في الآخرة من متاع غير موجود في الدنيا : ولذلك يقول في الآية التالية :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ
لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ١ ﴾

والسبيل هو الطريق : والقصد هو الغاية ، وهو مصدر يأخذون منه القول (طريق قاصد) أى : طريق لا دوران فيه ولا التفاف . والحق سبحانه يريد لنا أن نصل إلى الغاية بأقل مجهود .

ونحن في لغتنا العامية نسال جندي المرور : هل هذا الطريق ماشى ؟ رغم أن الطريق لا يمشى ، بل أنت الذى تسير فيه ، ولكنك تقصد أن يكون الطريق مُوصلاً إلى الغاية . وأنت حين تُعجزك الأسباب تقول : خَلَّيْهَا عَلَى اللَّهِ ، أى : أنك ترجع بما تعجزك أسبابه إلى المُسَبَّب الأعلى .

وهكذا يريد المؤمن الوصول إلى قَصْدِهِ ، وهو عبادة الله وُصولاً إلى الغاية ، وهي الجنة ، جزاءً على الإيمان وحُسن العمل في الدنيا . وأنت حين تقارن مَجْرَى نهر النيل تجد فيه التفافات وتعرُّجات : لأن الماء هو الذى حفر طريقه : بينما تنظر إلى الرِّيح التوفيقى مثلاً فتجده مستقيماً : ذلك أن البشر هم الذين حفروه إلى مَقْصِد معين .

(١) الجائر المائل عن الحق المنحرف عنه . فلا يصل سالكه إلى ما يريد [القاموس القويم

وَحِينَ يَكُونُ قَصْدُ السَّبِيلِ عَلَى اللَّهِ : فَاللهُ لَا هَوَىٰ لَهُ
وَلَا صَاحِبَ ، وَلَا وَلَدَ لَهُ ، وَلَا يُحَاسِبُ أَحَدًا ، وَكُلُّ الْخَلْقِ بِالنِّسْبَةِ لَهُ
سِوَاءٍ : وَلِذَلِكَ فَهُوَ حِينَ يَضَعُ طَرِيقًا فَهُوَ يَضَعُهُ مُسْتَقِيمًا لَا عِوَجَ
فِيهِ : وَهُوَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْقَائِلُ :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة]

أى : الطريق الذى لا التواء فيه لئى غَرَضٌ ، بل الغرض منه هو
الغاية بأيسر طريق .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. (٦) ﴾ [النحل]

يجعلنا نعود بالذاكرة إلى ما قاله الشيطان فى حوارهِ مع الله قال :
﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ ^(١) أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

ورد الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ (٤١) ﴾ [الحجر]

والحق أيضاً هو القائل :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) ﴾ [الليل]

أى : أنه حين خلق الإنسان أوضح له طريق الهداية ، وكذلك يقول
سبحانه :

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ^(٢) (١٠) ﴾ [البلد]

(١) اغواء - أضله وأوقعه فى الفى والضلال . وغوى - بمعنى خاب وضل لأنه انهك فى
الجهل . [القاموس القويم ٦٤/٢] .

(٢) النجدان طريق الخير وطريق الشر . والنجد المرتفع من الأرض . فالمعنى : ألم نعرفه
طريق الخير والشر بينى كبيان الطريقين العاليتين ، وقيل النجدان الشديان . [لسان
العرب - مادة : نجد] .

أى : أن الحق سبحانه أوضح للإنسان طرق الحق من الباطل ،
وهكذا يكون قوله هنا :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. (٩)﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الطريق المرسوم غايته موضوعة من الله سبحانه ،
والطريق إلى تلك الغاية موزون من الحق الذى لا هوى له ، والخلق
كلهم سواء أمامه .

وهكذا .. فعلى المُفَكِّرِينَ ألا يُرهِقُوا أنفسهم بمحاولة وَضْعِ تقنين
من عندهم لحركة الحياة ، لأن وأجد الحياة قد وضع لها قانون
صيانتها ، وليس أدلَّ على عَجْزِ المفكرين عن وضع قوانين تنظم حياة
البشر إلا أنهم يُغَيِّرُونَ من القوانين كل فترة ؛ أما قانون الله فخالد
باقٍ أبداً ، ولا استدراك عليه .

ولذلك فَمِنَ المُرِيحِ للبشر أن يسيروا على منهج الله والذى قال
فيه الحق سبحانه حكماً عليهم أن يُطَبِّقُوهُ ؛ وما تركه الله لنا نجتهد
فيه نحن .

وقوله الحق :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. (٩)﴾ [النحل]

أى : أنه هو الذى جعل سبيلَ الإيمان قاصداً للغاية التى وضعها
سبحانه ، ذلك أن من السَّيْلِ ما هو جائر ؛ ولذلك قال :

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ .. (٩)﴾ [النحل]

ولكى يمنع الجور جعل سبيلَ الإيمان قاصداً ، فهو القائل :

﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ..﴾ (٧١) [المؤمنون]

بينما السبيل العادلة المستقيمة هي السبيل المتكفل بها سبحانه ،
وهي سبيل الإيمان ، ذلك أن من السبيل ما هو جائز أى : يُطبل
المسافة عليك ، أو يُعرضك للمخاطر ، أو توجد بها منحنيات تُضلل
الإنسان ، فلا يسيرُ إلى الطريق المستقيم .

ونعلم أن السبيل تُوصل بين طرفين (من وإلى) وكل نقطة
تصل إليها لها أيضاً (من وإلى) وقد شاء الحق سبحانه ألا يقهرَ
الإنسان على سبيل واحد ، بل أراد له أن يختار ، ذلك أن التسخير
قد أراده الله لغير الإنسان معاً يخدم الإنسان .

أما الإنسان فقد خلق له قدرة الاختيار ، ليعلم مَنْ يأتيه طائعاً
وَمَنْ يعصى أوامره ، وكل البشر مَجْمُوعُونَ إلى حساب ، وَمَنْ اختار
طريق الطاعة فهو مَنْ يذهب إلى الله مُحِباً ، وَيُثَبَّتْ له المحبوبة
التي هي مراد الحق من خَلْق الاختيار ، لكن لو شاء أن يُثَبَّتْ لنفسه
طلاقة القهر لخلقَ البشر مقهورين على الطاعة كما سخرَ الكائنات
الأخرى .

والحق سبحانه يريد قلوباً لا قوالب ؛ ولذلك يقول فى آخر الآية :

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩) [النحل]

وكل أجناس الوجود كما نعلم تسجد لله :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..﴾

[الإسراء]

﴿(٤٤)﴾

وفى آية أخرى يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ ^(١) كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

إذن : لو شاء الحق سبحانه لهدى الثقلين أى : الإنس والجن ، كما هدى كُلَّ الكائنات الأخرى ، ولكنه يريد قلوباً لا قوالب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ^(٢) (١٠) ﴾ وقوله :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (١٠) ﴾ [النحل]

يبدو قولاً بسيطاً : ولكن إن نظرنا إلى المعامل التى تُقَطَّرُ المياه وتُخْلَصُها من الشوائب لَعَلَّمْنَا قَدْرَ العمل المبذول لنزول الماء الصافى من المطر .

والسما - كما نعلم - هى كل ما يعلونا ، ونحن نرى السحاب الذى يجىء نتيجة تبخير الشمس للمياه من المحيطات والبحار ، فيتكوّن البخار الذى يتصاعد ، ثم يتكثف ليصيرَ مطراً من بعد ذلك ؛ وينزل المطر على الأرض .

(١) الطير صافات أى باسطات أجنحتها . وصفت الطير فى السماء تصف : أى صفت أجنحتها ولم تحركها . [لسان العرب - مادة : صفف] .

(٢) تسيمون ، ترعون إبلكم . أسام الدواب أرسلها للرعى [لقاموس التكوين ١/ ٢٢٧]

ونعلم أن الكرة الأرضية مكوّنة من محيطات وبحار تغطّي ثلاثة أرباع مساحتها ، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبْع الكرة الأرضية ؛ فكانه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية لخدمة رُبْع الكرة الأرضية .

ومن العجيب أن المطر يسقط فى مواقع قد لا تنتفع به ، مثل هضاب الحبشة التى تسقط عليها الأمطار وتصحب من تلك الهضاب عادة الطمى لِتَكُون نهر النيل لنستفيد نحن منه .

ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي ^(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ ^(٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ^(٣) فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ .. (٤٣) ﴾ [النور]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٥) ﴾ [النحل]

ولولا عملية البَخْر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحاباً ؛ لَمَا استطاع الإنسان أن يشرب الماء المالح الموجود فى البحار ، ومن حكمة الحق سبحانه أن جعل مياه البحار والمحيطات مالحة ؛ فالمِلْح يحفظ المياه من الفساد .

(١) أزجى الشيء : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رُبِّكُمْ الَّذِي يَرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ .. (٢١١) ﴾ [الإسراء] . أى : ينفعها ويُسيرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ٢٨٤/١] .
(٢) الودق : المطر شديده وهبته . ودقت السماء : أمطرت . [القاموس القويم ٢٢٧/٢] .
(٣) البرد : حَبَّات صفار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً .

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٨٢٩

وبعد أن تُبَخَّرَ الشمسُ المياهَ لتصيرَ سحاباً ، ويسقط المطر
يشرب الإنسانُ هذا الماء الذي يُغْذَى الأنهار والآبار ، وكذلك ينبت
الماء الزرع الذي نأكل منه .

وكلمة ﴿ شجر ﴾ تدلُّ على النباتات التي يلتفُّ مع بعضها .
ومنها كلمة « مشجرة » والتي تعني التداخل من الذين يتشاجرون
معاً .

والشجر أنواع : فيه مغروس بمالك وهو ملك لمن يغرسه
ويُشرف على إنباته ، وفيه ما يخرج من الأرض دون أن يزرعه أحد
وهو ملكية مشاعة . وعادة ما نترك فيه الدواب لترعى ، فتأكل منه
دون أن يردّها أحد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فِيهِ تُسَمَّنُونَ ﴾ [النحل]

من سَمَّ الدابة التي ترعى في الملك العام ، وساعة ترعى الدابة
في الملك العام فهي تترك آثارها من مَسَارِبٍ^(١) وعلامات . ويُسمَّنون^(٢)
الأرض التي يوجد بها نبات ولا يقربها حيوان بأنها « روضة أنف »^(٣)
بمعنى أن أحداً لم يأت إليها أو يقربها : كأنها أنفت أن يقطف منها
شيء .

(١) المسارب : مواضع الآثار . ومنها مسارب الحيات مواضع آثارها إذا اتسابت في الأرض
على بطونها . [لسان العرب - مادة : سرب] .

(٢) يقال روضة أنف وكلس أنف . لم يُشرب بها قبل ذلك . كأنه استؤنف شربها مثل
روضة أنف والآنف الكلا الذي لم يزرع ولم تلهه الماشية . [لسان العرب - مادة
أنف] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ
وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ أَنْفِ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١)

وهكذا يُعلمنا الله أن النبات لا ينبت وحده ، بل يحتاج إلى مَنْ يُنَبِّتُهُ ، وهنا يخصُّ الحق سبحانه ألواناً من الزراعة التي لها أثر في الحياة ، ويذكر الزيتون والنخيل والأعقاب وغيرها من كل الشجرات .

والزيتون - كما نعلم - يحتوى على مواد دهنية ؛ والعنب يحتوى على مواد سكرية ، وكذلك النخيل الذى يعطى البلح وهو يحتوى على مواد سكرية ، وغذاء الإنسان يأتى من النشويات والبروتينات .

وما ذكره الحق سبحانه أولاً عن الأنعام ، وما ذكره عن النباتات يوضح أنه قد أعطى الإنسان مكونات الغذاء ؛ فهو القائل :

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [التين]

أى : أنه جعل للإنسان فى قوته البروتينات والدهنيات والنشويات والفيتامينات التى تصون حياته .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٥٢٦/٤) . . قال بعض الأئمة . هذه محال ثلاثة . بعث الله

فى كل واحد منها نبياً مرسلأ من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول . محلة التين

والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام . والثانى

طور سينين . وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث مكة وهو

البلد الأمين وهو الذى أرسل فيه محمدا ﷺ . .

وحين يرغب الأطباء في تغذية إنسان أثناء المرض ! فهم يُذَيِّبون العناصر التي يحتاجها للغذاء في السوائل التي يُقَطِّرونها في أورده بالحقن ، ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه الطريقة ؛ لأن الأمعاء قد تنكمش .

وَمَنْ يقومون بتغذية البهائم يعلمون أن التغذية تتكوّن من نوعين : غذاء يملأ البطن ؛ وغذاء يمدُّ بالعناصر اللازمة ، فالتبن مثلاً يملأ البطن ، ويمدّها بالألياف التي تساعد على حركة الأمعاء ، ولكن الكُسْبُ يُغْذَى ويضمن السّمنة والوفرة في اللحم .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١١) ﴾ [النحل]

فعليك أن تستقبل هذا القول في ضوء قول الحق سبحانه :

﴿ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ^(١) أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (١٤) ﴾ [الواقعة]

ذلك أنك تحرث الأرض فقط ، أما الذي يزرع فهو الحق سبحانه ؛ وأنت قد حرثت بالحديد الذي أودعه الله في الأرض فاستخرجته أنت ؛ وبالشعب الذي أنبته الله ؛ وصنعت أنت منهما المحراث الذي تحرث به في الأرض المخلوقة لله ، والطاقة التي حرثت بها ممنوحة لك من الله .

(١) الزرع : الإنبات . يقال : زرع الله . أى : أنبته ونمّاه حتى يبلغ غايته .. [لسان العرب -

مادة : زرع] .

ثم يُذَكِّرُ اللهَ بِأَنَّ كُلَّ الثَّمَرَاتِ هِيَ مِنْ عَطَائِهِ ، فيعطف العام على الخاص ؛ ويقول :

﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . (١١) ﴾ [النحل]

أى : أن ما تأخذه هو جزء من كل الثمرات ؛ ذلك أن الثمرات كثيرة ، وهى أكثر من أن تُعَدَّ .

ويُذِيلُ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾ [النحل]

أى : على الإنسان أن يُعْمَلَ فكره فى مُعْطِيَاتِ الكون ، ثم يبحث عن موقفه من تلك المُعْطِيَاتِ ، ويُحَدِّدُ وَضْعَهُ ليجد نفسه غير فاعل ؛ وهو قابل لأن يفعل .

وشاء الحق سبحانه أن يُذَكِّرَنَا أن التفكر ليس مهمة إنسان واحد بل مهمة الجميع ، وكان الحق سبحانه يريد لنا أن نتسائد أفكارنا ؛ فمن عنده لقطة فكرية تودى إلى الله لأبد أن يقولها لغيره .

ونجد فى القرآن آيات تنتهى بالتذكُّر^(١) والتفكُّر^(٢) وبالتدبُّر^(٣) وبالتفقه^(٤) ، وكلُّ منها تودى إلى العلم اليقيني ؛ فحين يقول « يتذكرون » فالمعنى أنه سبق الإمام بها ؛ ولكن النسيان محال ؛ فكان من مهمتك أن تتذكَّر .

(١) ذكر الشيء ذكراً وتذكراً ، وذكرى ، وتذكيراً حفظه . وتذكره استحضره ، وتذكره . وتذكر - جرى على لسانه بعد نسيانه . [المعجم الوجيز ص ٢٤٥] .

(٢) تفكر فى الأمر - افكر . التفكير - إعمال العقل فى مشكلة للوصول إلى حلها . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

(٣) تدبر الأمر : نظر فيه وفكر . [المعجم الوجيز ص ٢٢٠] .

(٤) تفقه - صار فقيهاً . وتفقه الأمر - تفهمه وتفطنه . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

سُورَةُ الْحَجَّالِ

○ ٧٨٣٣ ○

أما كلمة « يتفكرون » فهي أَمْ كُلُّ تِلْكَ الْمَعَانِي : لأنك حين تشغل
فكرك تحتاج إلى أمرين ، أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مُعْطِيَاتِ ظَوَاهِرِهَا وَمُعْطِيَاتِ
أَدْبَارِهَا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٧) ﴾

[النساء]

وهذا يعنى ألا تأخذ الواجهة فقط ، بل عليك أَنْ تَنْظُرَ إِلَى
المعطيات الخلفية كي تفهم ، وحين تفهم تكون قد عرفت ، فالمهمة
مُكوَّنة من أربع مراحل : تفكر ، فتدبر ، فتفتق ، فمعرفة وعلم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٢)

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان : والليل يناسبه القمر ،
والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً متعلقون بفعل واحد ، وهم
نَسَقٌ واحد ، والتسخير يعنى قَهْرٌ مخلوق لمخلوق : لِيُؤَدِّي كُلُّ
مهمته . وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر : كُلُّ لَهُ مهمة ، فالليل
مُهمته الراحة .

(١) سَخَّرَهُ اخضعه وقهره ليعطى ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخر . وقوله
(مُسَخَّرَاتٌ) أى مُسَيَّرَاتٌ خاضعات مقهورات بأمر الله وإرادته هو لا بإرادتها ولا
بإختيارها . [القاموس القويم ٢٠٦/١] .

قال الحق سبحانه :

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [الفصص]

والنهار له مهمة أن تكدح في الأرض لتبتغي رزقاً من الله
وفضلاً ، والشمس جعلها مصدراً للطاقة والدفع ، وهي تعطيك دون
أن تسأل ، ولا تستطيع هي أيضاً أن تمتنع عن عطاء قدره الله .

وهي ليست ملكاً لأحد غير الله ! بل هي من نظام الكون الذي لم
يجعل الحق سبحانه لأحد قدرة عليه ، حتى لا يتحكم أحد في أحد ،
وكذلك القمر جعل له الحق مهمة أخرى .

واياك أن تتوهم أن هناك مهمة تعارض مهمة أخرى ، بل هي
مهام متكاملة . والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى^(١) (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)﴾ [الليل]

أى : أن الليل والنهار وإن تقابلا فليساً متعارضين ؛ كما أن
الذكر والأنثى يتقابلان لا لتعارض مهمة كل منهما بل لتكامل .

ويضرب الحق سبحانه المثل ليوضح لنا هذا التكامل فيقول :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً^(٢) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ لَئِلْ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [الفصص]

(١) الغشاء . الغطاء . غشيت الشيء تغطيته إذا غطيته [لسان العرب - مادة غشى] .

فالليل يغشى الناس بظلمته ويقطى على ضوء النهار

(٢) السرمـد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سمرـد : طويل . والسرمـد : الدائم الذي لا

يتقطع . [لسان العرب - مادة : سمرـد] .

سُورَةُ النُّجُومِ

٧٨٣

وَأَيُّ إِنْسَانٍ إِنْ سَهَرَ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقَاوِمَ النَّوْمَ ؛
وَأَنْ أَدَّى مِهْمَةً فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ ؛ فَقَدْ يَحْتَاجُ لِرَاحَةٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
تَمْتَدُّ أَسْبُوعًا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ^(١) (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبا]

وَالْإِنْسَانُ إِذَا مَا صَلَّى الْعِشَاءَ وَذَهَبَ إِلَى فِرَاشِهِ سَيَسْتَقِظُ حَتْمًا
مِنْ قَبْلِ الْفَجْرِ وَهُوَ فِي قَعَةِ النَّشَاطِ ؛ بَعْدَ أَنْ قَضَى لَيْلًا مَرِيحًا فِي
سَبَاتٍ عَمِيقٍ ؛ لَا قَلْقَ فِيهِ .

وَلَكِنْ الْإِنْسَانُ فِي بِلَادِنَا اسْتَوْدَدَ مِنَ الْغَرْبِ حَثَالَةَ الْحَضَارَةِ مِنْ
أَجْهَزَةٍ تَجْعَلُهُ يَقْضِي اللَّيْلَ سَاهِرًا ، لِيَتَابَعَ التِّلْفِيزِيُونَ أَوْ أَفْلَامَ الْفِيدِيُو
أَوْ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ ، فَيَقُومُ فِي الصَّبَاحِ مُنْهَكًا ، رَغْمَ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ
الْبِلَادِ الَّتِي قَدُمْتُ تِلْكَ الْمَخْتَرَعَاتِ ؛ نَجِدُهُمْ وَهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ تِلْكَ
الْمَخْتَرَعَاتِ يَضَعُونَهَا فِي مَوَاضِعِهَا الصَّحِيحِ ، وَفِي وَقْتِهَا الْمُنَاسِبِ ؛
لِذَلِكَ نَجِدُهُمْ يَنَامُونَ مُبَكَّرِينَ ، لِيَسْتَقِظُوا فِي الْفَجْرِ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ .

وَيَبْدَأُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ جُمْلَةً جَدِيدَةً تَقُولُ :

﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .. (١٢) ﴾ [النحل]

نَلْحِظُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِالنُّجُومِ مَعْطُوفَةً عَلَى مَا قَبْلُهَا ، بَلْ خَصَّهَا الْحَقُّ
سُبْحَانَهُ بِجُمْلَةٍ جَدِيدَةٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا أَقْلُ الْأَجْرَامِ ، وَقَدْ لَا نَتَبَيَّنُهَا
لِكَثَرَتِهَا وَتَعَدُّدِ مَوَاقِعِهَا وَلَكِنَّا نَجِدُ الْحَقَّ يَقْسِمُ بِهَا فَهُوَ الْقَائِلُ :

(١) يُشَبِّهُ اللَّيْلَ بِاللِّبَاسِ لِأَنَّهُ سَاتِرٌ [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١٨٨/٢] . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ
(٤٦٣/٤) . . . أَيُ يَفْشِي النَّاسَ ظُلَامُهُ وَسَوَادُهُ . وَقَالَ قَتَادَةُ . (لِبَاسًا) أَيُ . سَكَنًا .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبا] أَيُ . جَعَلْنَاهُ مَشْرِقًا نَبِيرًا مُضِيئًا لِيَتِمَّكَنَ
النَّاسُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ وَالزَّهَابِ وَالْمَجِيءِ لِلْمَعْلَشِ وَالتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَاتِ . .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾

[الواقعة]

فكلُّ نجمٍ من تلك النجوم البعيدة له مهمة ، وإذا كنتَ أنتَ في حياتك اليومية حين ينطفئ النور تذهب لتُرى : ماذا حدث في صندوق الأكياس الذى فى منزلك ؛ ولكنك لا تعرف كيف تأتيك الكهرباء إلى منزلك ، وكيف تقدّم العلم ليصنّع لك المصباح الكهربائى . وكيف مدّت الدولة الكهرباء من مواقع توليدها إلى بيتك . وإذا كنتَ تجهل ما خلف الأثر الواحد الذى يصلك فى منزلك ، فما بالك بقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) ﴾

[الواقعة]

وهو القائل :

﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنُّجُومِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾

[النحل]

وقد خصّها الحق سبحانه هنا بجملة جديدة مستقلة أعاد فيها خبر التسخير ، ذلك أن لكلّ منها منازل ، وهى كثيرة على العدّ والإحصاء ، وبعضها بعيد لا يصلنا ضوءه إلا بعد ملايين السنين .

وقد خصّها الحق سبحانه بهذا الخبر من التسخير حتى نتبين أن لله سرّاً فى كل ما خلق بين السماء والأرض .

ويريد لنا أن نلتفت إلى أن تركيبات الأشياء التى نتفعنا مواجهة وراءها أشياء أخرى تخدمها .

ونجد الحق سبحانه وهو يُذيل الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل]

ونعلم أن الآيات هي الأمور العجيبة التي يجب ألا يمر عليها الإنسان مراً معرضاً ؛ بل عليه أن يتأملها ، ففي هذا التأمل فائدة له ؛ ويمكنه أن يستنبط منها المجاهيل التي تُنعم البشر وتُسعدهم .

وكلمة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ تعني إعمال العقل ، ونعلم أن للعقل تركيبة خاصة ؛ وهو يستنبط من المُحسَّات الأمور المعنوية ، وبهذا يأخذ من المعلوم نتيجة كانت مجهولة بالنسبة له ؛ فيسعد بها ويسعد بها من حوله ، ثم يجعل من هذا المجهول مقدمة يصل بها إلى نتيجة جديدة .

وهكذا يستنبط الإنسان من أسرار الكون ما شاء له الله أن يستنبط ويكتشف من أسرار الكون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَمَا ذَرَأَّا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾^(١)

وكلمة ﴿ذَرَأَ﴾ تعني أنه خلق خلقاً يتكاثر بذاته ؛ إما بالحمل للأنثى من الذكور ؛ في الإنسان أو الحيوان والنبات ؛ وإما بواسطة تفريخ البيض كما في الطيور .

وهكذا نفهم الذرة بمعنى أنه ليس مطلق خلق ؛ بل خلق بذاته في

(١) ذرأ الله الخلق يذرؤهم : خلقهم وبثهم وكثرهم . [القاموس الفويم ١/ ٢٤٢] .

التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسل بذاته حين يجتمع زوجان ونتاجاً مثيلاً لهما ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يفيض على عباده بأن يعطيهم صفة أنهم يخلقون ، ولكنهم لا يخلقون كخلق الله ؛ فهو قد خلق آدم ثم أوجدهم من نسله . والبشر قد يخلقون بعضاً من مُعدات وأدوات حياتهم ، لكنهم لا يخلقون كخلق الله ؛ فهم لا يخلقون من معدوم ؛ بل من موجود ، والحق سبحانه يخلق من المعدوم من لا وجود له ؛ وهو بذلك أحسنُ الخالقين .

والمثل الذي أضربه دائماً هو الحبة التي تُنبت سبع سنابل وفي كل سنبل مائة حبة ؛ وقد أوردنا الحق سبحانه ليشوق للإنسان عملية الإنفاق في سبيل الله^(١) ، وهذا هو الخلق الماديّ العلموس ؛ فمن حبة واحدة أنبت سبحانه كل ذلك .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا فَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانَهُ .. (١٢) ﴾ [النحل]

أي : ما خلق لنا من خلق متكاثر بذاته تختلف ألوانه . واختلاف الألوان وتعددتها دليل على طلاقة قدرة الله في أن الكائنات لا تخلق على نمط واحد .

(١) تبارك الله . تقدس وتنزه عن كل نقص ، أو كثر خيريه على عباده . [القاموس القويم

: ٦٥/١]

(٢) قال تعالى ﴿ قُلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَكْمَلُ اللَّهُ لَهُمْ سَبْعَ سُنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١١) ﴾ [البقرة] .

سُورَةُ الْجَبَلِ

٧٨٣٩

ويعطينا الحق سبحانه الصورة على هذا الأمر في قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا
وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ^(١) بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ^(٢) سُودٌ^(٣) وَمِنَ
النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ^(٤) ﴾ [فاطر]

وأنت تمشي بين الجبال ! فتجدها من ألوان مختلفة : وعلى الجبل
الواحد تجد خطوطاً تفصل بين طبقات متعددة ، وهكذا تختلف الألوان
بين الجمادات وبعضها ، وبين النباتات وبعضها البعض ، وبين البشر
أيضاً .

وإذا ما قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ..^(٥) ﴾ [فاطر]

فلنا أن نعرف أن العلماء هنا مقصود بهم كل عالم يقف على
قضية كونية مركوزة في الكون أو نزلت من المكون مباشرة .

ولم يقصد الحق سبحانه بهذا القول علماء الدين فقط ، فالمقصود
هو كل عالم يبحث بحثاً ليستنبط به معلوماً من مجهول ، ويُجلى
أسرار الله في خلقه . وقد أراد ﷺ أن يفرق قرناً واضحاً في هذا
الأمر ، كي لا يتدخل علماء الدين في البحث العلمي التجريبي الذي

(١) الجدد الطرائق تكون في الجبال جمع جدة . وهي الطريقة في السماء والجبل . وقوله عز
وجل ﴿ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ ... ﴾ [فاطر] أي طرائق تختلف لون الجبل [لسان العرب -
مادة : جدد] .

(٢) غرابيب : شديد السواد وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٥٠/٢] .

يُفِيدُ النَّاسَ ، وَوَجَدَ ﷺ النَّاسَ تُؤَبِّرُ^(١) النَّخِيلَ ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِطَلْعِ الذُّكُورَةِ ؛ وَيُلْقِحُونَ النَّخِيلَ الَّتِي تَتَصَفُّ بِالْأُنُوثَةِ ، وَقَالَ : لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَأَثْمَرْتُ . وَلَمَّا لَمْ تَثْمُرِ النَّخِيلَ ، قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَمْرَ ؛ وَأَمَرَ بِإِصْلَاحِهِ وَقَالَ الْقَوْلُ الْفَصْلُ « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُئُونِ دُنْيَاكُمْ »^(٢) .

أى : أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِالْأُمُورِ التَّجْرِبِيَّةِ الْمُعْمَلِيَّةِ ، وَنَلْحِظُ أَنَّ الَّذِي حُجِزَ الْحَضَارَةُ وَالتَّطَوُّرُ عَنْ أَوْرِبَا لِقُرُونٍ طَوِيلَةٍ ؛ هُوَ مُحَاوَلَةُ رِجَالِ الدِّينِ أَنْ يَحْجُرُوا عَلَى الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ ؛ وَيَتَهَمَرُوا كُلَّ عَالَمٍ تَجْرِبِيٍّ بِالْكَفْرِ .

وَيَتَمَيَّزُ الْإِسْلَامُ بِأَنَّهُ الدِّينَ الَّذِي لَمْ يَحُلْ دُونَ بَحْثِ أَى آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ ، وَمِنْ حَنَانِ اللَّهِ أَنْ يُوضَّحَ لَخَلْقِهِ أَهَمِّيَّةُ الْبَحْثِ فِي أَسْرَارِ الْكَوْنِ . فَهُوَ الْقَائِلُ :

﴿ وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١٠٥)

[يوسف]

أى : عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَلَّا تُعْرِضَ عَنْ أَى آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي فِي الْكَوْنِ ؛ بَلْ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْمَلَ عَقْلَهُ وَفِكْرَهُ بِالتَّأَمُّلِ لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا فِي اعْتِقَادِهِ وَحَيَاتِهِ . يَقُولُ الْحَقُّ :

﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ ﴾ (٥٣)

[فصلت]

(١) أَيْرُ النَّخْلِ وَالزَّرْعُ يَأْبِرُهُ : أَصْلَحَهُ . وَتَأْبِيرُ النَّخْلِ : تَلْقِيحُهُ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ أَيْرُ] .

(٢) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٣٦٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ . أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلْقِحُونَ . فَقَالَ : لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ . قَالَ : فَخَرَجَ شَيْصًا (التَّمَرُ الرَّدِيءُ) فَفَرَمَ بِهِمْ فَقَالَ : مَا لَنَخْلُكُمْ ؟ قَالُوا : قُلْتَ كَذَا وَكَذَا . قَالَ : أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ .

أما الأمور التي يتعلّق بها حساب الآخرة ؛ فهي من اختصاص العلماء الفقهاء .

وبذيل الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣) [النحل]

أي : يتذكّرون شيئاً مجهولاً بشيء معلوم .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى التسخير ، فيقول :

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ

لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا^(١) مَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

الْفُلَّكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ .

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤)

والتسخير كما علمنا من قبل هو إيجاد الكائن لمهمة لا يستطيع الكائن أن يتخلّف عنها ، ولا اختيار له في أن يؤدّيها أو لا يؤدّيها . ونعلم أن الكون كله مُسَخَّر للإنسان قبل أن يوجد ؛ ثم خلق الله الإنسان مُخْتَاراً .

وقد يظن البعض أن الكائنات المُسَخَّرة ليس لها اختيار ، وهذا خطأ ؛ لأن تلك الكائنات لها اختيار حَسَمَتُهُ في بداية وجودها ، ولنقرأ قوله الحق :

(١) الحبلية . يعنى بها اللؤلؤ والمرجان . قاله القرطبي في تفسيره (٢٨١١/٥) .

(٢) مخزت السفينة . شفت الماء بصدرها وسَمِع لها صوت . [القاموس الفريم ٢١٨/٢] .

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ^(١) مِنْهَا ۖ﴾ (٧٢) ﴿

[الاحزاب]

وهكذا نفهم أن الحق سبحانه خير خلقه بين التسخير وبين الاختيار ، إلا أن الكائنات التي هي ما دون الإنسان أخذت اختيارها مرة واحدة ؛ لذلك لا يجب أن يُقال : إن الحق سبحانه هو الذي قهرها ، بل هي التي اختارت من أول الأمر ؛ لأنها قدرت وقت الأداء ، ولم تقدر فقط وقت التحمل كما فعل الإنسان ، وكانها قالت لنفسها : فلاخُرج من باب الجمال ؛ قبل أن يفتَحَ أمامي باب ظلم النفس .

ونجد الحق سبحانه يصف الإنسان :

﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) ﴿

[الاحزاب]

فقد ظلم الإنسان نفسه حين اختار أن يحمل الأمانة ؛ لأنه قدر وقت التحمل ولم يقدر وقت الأداء ، وهو جهول لأنه لم يعرف كيف يُفرّق بين الأداء والتحمل ، بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمل مسئولية الأمانة ، فلم تظلم نفسها بذلك .

وهكذا نصل إلى تأكيد معنى التسخير وتوضيحه بشكل دقيق ، ونعرف أنه إيجاد الكائن لمهمة لا يملك أن يتخلف عنها ؛ أما الاختيار فهو إيجاد الكائن لمهمة له أن يؤديها أو يتخلف عنها .

وأوضحنا أن المُسَخَّرَات كان لها أن تختار من البداية ، فاختارت أن تُسَخَّرَ وألا تتحمل الأمانة ، بينما أخذ الإنسان المهمة ، واعتمد على عقله وفكره ، وقَبِلَ أن يُرتَّبَ أمور حياته على ضوء ذلك .

(١) الشفق : الخوف والشفقة رقة من نصح أو حب يؤدي إلى خوف . [لسان العرب -

مادة : شفق] .

سُورَةُ النُّحْلِ

٧٨٤٣

ومع ذلك أعطاه الله بعضاً من التسخير كي يجعل الكون كله فيه بعض من التسخير وبعض من الاختيار ؛ ولذلك نجد بعضاً من الأحداث تجرى على الإنسان ولا اختياراً له فيها ؛ كان يمرض أو تقع له حادثة أو يفلس .

ولذلك أقول : إن الكافر مُفَقِّل لاختياره ؛ لأنه ينكر وجود الله ويتمرد على الإيمان ، رغم أنه لا يقدر أن يصُدَّ عن نفسه المرض أو الموت .

وفي الآية التي نحن بصددنا الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَخَّرَ الْبَحْرَ .. (١٤) ﴾ [النحل]

فهذا يعنى أنه هو الذى خلق البحر ، لأنه هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ وجعل اليابسة ربع مساحة الأرض ؛ بينما البحار والمحيطات تحتل ثلاثة أرباع مساحة الأرض .

أى : أنه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض ، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذ منها بعضاً من الطعام فيقول :

﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْبَسُونَهَا .. (١٤) ﴾

[النحل]

ومن بعض عطاءات الحق سبحانه أن يأتى العبد أحياناً ثم يعقبه الجَزَرُ ؛ فيبقى بعض من السمك على الشاطئ ، أو قد تحمل موجة عفية بعضاً من السمك وتلقيه على الشاطئ .

وهكذا يكون العطاء بلا جَهْد من الإنسان ، بل إن وجود بعض من الأسماك على الشاطئ هو الذى نبه الإنسان إلى أهمية أن يحتال

وَيَصْنَعُ السَّنَارَةَ ؛ وَيَغْزِلُ الشَّبَكَةَ ؛ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْ تِلْكَ الْوَسَائِلِ الْبِدَائِيَّةِ إِلَى التَّقْنِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ فِي صَيْدِ الْأَسْمَاقِ .

لَكِنِ الْحَلِيَّةُ الَّتِي يَتِمُّ اسْتِخْرَاجُهَا مِنَ الْبَحْرِ فَهِيَ اللَّوْلُؤُ ، وَهِيَ تَقْتَضِي أَنْ يَفُوصَ الْإِنْسَانُ فِي الْقَاعِ لِيَلْتَقِطَهَا . وَيَلْفِتُنَا الْحَقَّ سُبْحَانَهُ إِلَى أَسْرَارِ كُنُوزِهِ فَيَقُولُ :

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾^(١) (٦) ﴿ [طه]

وَكُلُّ كُنُوزِ الْأَمَمِ تَوْجَدُ تَحْتَ الثَّرَى . وَنَحْنُ إِنْ قَسَمْنَا الْكَرَّةَ الْأَرْضِيَّةَ كَمَا نَقْسِمُ الْبَطِيخَةَ إِلَى قِطْعٍ كَالَّتِي نُسَمِّيهَا « شَقَّةُ الْبَطِيخِ » سَنَجِدُ أَنَّ كُنُوزَ كُلِّ قِطْعَةٍ تَتَسَاوَى مَعَ كُنُوزِ الْقِطْعَةِ الْآخَرَى فِي الْقِيَمَةِ النَّفْعِيَّةِ ؛ وَلَكِنْ كُلُّ عَطَاءٍ يَوْجَدُ بِجُزْءٍ مِنَ الْأَرْضِ لَهُ مِيعَادٌ مِثْلُادٍ يَحْدِدُهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ .

فَهَنَّاكَ مَكَانٌ فِي الْأَرْضِ جَعَلَ اللَّهُ الْعَطَاءَ فِيهِ مِنَ الزَّرَاعَةِ ؛ وَهَنَّاكَ مَكَانٌ آخَرَ صَحْرَاوِيٍّ يَخَالُهُ النَّاسُ بَلَاءً أَيْ نَفْعًا ؛ ثُمَّ تَتَفَجَّرُ فِيهِ أَبَارُ الْبَقَرُولِ ، وَهَكَذَا .

وَتَسْخِيرُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لِلْبَحْرِ لَيْسَ بِإِيجَادِهِ فَقَطْ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ؛ بَلْ قَدْ تَجَدَّدَ لَهُ أَشْيَاءٌ وَمِهَامٌ أُخْرَى مِثْلُ انْشِقَاقِ الْبَحْرِ بَعْضًا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَصَارَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ^(٢) الْعَظِيمِ .

(١) الثَّرَى : التُّرَابُ النَّدَى أَوْ التُّرَابُ مُطْلَقًا . قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦) ﴿ [طه] . أَيْ مَا تَحْتَ جَمِيعِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١٠٧/١] .
(٢) يَقُولُ تَعَالَى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ احْزُبْ بِعَمَلِكَ الْبَحْرَ فَاخْلُقْ فَيَكُنْ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٤) [الشعراء] وَالطُّودُ الْعَظِيمُ : الْجَبَلُ الْكَبِيرُ . قَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ : هُوَ الْفَجَّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ . [تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ٢/٢٣٦] .

ومن قبل ذلك حين حمل اليم^(١) موسى عليه السلام بعد أن ألقت أمه فيه بالهام من الله :

﴿فَلْيَلْقِهِ اليمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٢٩)﴾ [طه]

وهكذا نجد أن أمراً من الله قد صدر للبحر بأن يحمل موسى إلى الشاطئ فور أن تلقى أمه فيه .

وهكذا يتضح لنا معنى التسخير للبحر في مهام أخرى ، غير أنه يوجد به السمك ونستخرج منه الحلى . ونعلم أن ماء البحر مالح : عكس ماء النهر وماء المطر : فالمائية تنقسم إلى قسمين : مائية عذبة ، ومائية ملحية .

وقوله الحق عن ذلك :

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ^(٢) سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ^(٣) وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢)﴾

[فاطر]

ويسمونها الاثنين على التغليب في قوله الحق :

﴿مَرَجٌ^(٤) الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)﴾ [الرحمن]

والمقصود هنا الماء العذب والماء المالح ، وكيف يختلطان ، ولكن

(١) اليم - البحر أو النهر العذب . قال تعالى ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليمِّ .. (٣٩)﴾ [الاعراف] وهو خليج السويس وماءه ملح وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى ﴿فَالْأَنفُسُ فِي اليمِّ .. (٣٩)﴾ [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٢] .

(٢) الفرات أشد الماء عذوبة . وقد فُرَّتْ الماء عَذْبٌ . [لسان العرب - مادة فرت] . وشراب سائغ : عذب يسهل مدخله في الطلق . [لسان العرب - مادة سوغ] .

(٣) الملح الأجاج الشديد الملوحة والمرارة . [لسان العرب - مادة أجاج] .

(٤) مرج الشرى . أى خلطهما حالة كونهما يلتقيان . [القاموس القويم ٢/ ٢٢١] .

الماء العَذْبُ يتسَرَّبُ إلى بطن الأرض ، وأنت لو حَفَرْتَ في قاع البحر لوجدتَ ماء عَذْبًا ، فالحق سبحانه هو الذى شاء ذلك وبَيَّنَّه في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٢١)

[الزمر]

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. ﴾ (١٤) [النحل]

واللحم إذا أُطلق يكون المقصود به اللحم المأخوذ من الانعام ، أما إذا قُيِّدَ بـ « لحم طرى » فالمقصود هو السمك ، وهذه مسألة من إعجازية التعبير القرآنى ؛ لأن السمك الصالح للأكل يكون طريًا دائمًا .

ونجد مَنْ يشتري السمك وهو يَتَنى السمكة ، فإن كانت طرية فتلك علامة على أنها صالحة للأكل ، وإن كانت لا تتفتن فهذا يعنى أنها فاسدة ، وأنت إن أخرجت سمكة من البحر تجد لحمها طريًا ؛ فإن ألقيتها في الماء فهي تعود إلى السباحة والحركة تحت الماء ؛ أما إن كانت ميتة فهي تفتنح وتطفو .

لذلك نهى النبى ﷺ عن أكل السمك الطافى لانه الميتة ، وتقيد اللحم هنا بأنه طرى كى يخرج عن اللحم العادى وهو لحم الانعام ؛ ولذلك نجد العلماء يقولون : مَنْ حلف ألا يأكل لحمًا ؛ ثم أكل سمكة فهو لا يحنت ؛ لأن العرف جرى على أن اللحم هو لحم الانعام .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية عن تسخير البحر :

﴿ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُ حَلِجًا تَلْبَسُونَهَا .. ﴾ (١٤) [النحل]

وهكذا نجد أن هذه المسألة تأخذ جهداً : لأنها رفاهية : أما السمك فقال عنه مباشرة :

﴿لَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٤)﴾ [النحل]

والأكل أمر ضروري لذلك تكفله الله وأعطى التسهيلات في صَيِّدِهِ . أما الزينة فلكَ أَنْ تتعبَ لتستخرجه ، فهو تَرْفٌ . وضروريات الحياة مَجْزُولة : أما تَرْفُ الحياة فيقتضى منك أَنْ تغطسَ في الماء وتتعبَ من أجله .

وفي هذا إشارة إلى أن مَنْ يريد أن يرتقى في معيشتِهِ : فليكثر من دخله ببذل عرقهِ : لا أن يُتْرَفَ معيشتِهِ من عرق غيره .

ويقول سبحانه :

﴿تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤)﴾ [النحل]

والْحِلْيَةُ كما نعلم تلبسها المرأة . والمُلْحَظ الأدنى هنا أن زينة المرأة هي من أجل الرجل : فكان الرجل هو الذي يستمتع بتلك الزينة . وكأنه هو الذي يتزين . أو : أن هذه المُسْتَخْرَجَات من البحر ليست مُحَرَّمَةً على الرجال مثل الذهب والحديد : فالذهب والحديد نَقْدٌ : أما اللؤلؤ فليس نَقْدًا .

واللبس هو الغالب الشائع ، وقد يصحَّحَ أَنْ تُصْنَعَ من تلك الحلية عصاً أو أى شيء مما تستخدمه .

ويتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ .. (١٤)﴾ [النحل]

ولم تكن هناك بواخر كبيرة كالتى فى عصرنا هذا بل فلك صغيرة . ونعلم أن نوحاً عليه السلام هو أول من صنع الفلك ، وسخر منه قومه ؛ ولو كان ما يصنعه أمراً عادياً لما سخرُوا منه . وبطبيعة الحال لم يكن هناك مسامير لذلك ربطها بالخيال ؛ ولذلك قال الحق سبحانه عنه :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ^(١) ﴾ [القمر]

وكان جرى مركب نوح بإرادة الله . ولم يكن العلم قد تقدم ليصنع البشر المراكب الضخمة التى تنبأ بها القرآن فى قوله الحق :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ^(٢) ﴾ [الرحمن]

ونحن حين نقرأها الآن نتعجب من قدرة القرآن على التنبؤ بما اخترعه البشر ؛ فالقرآن عالم بما يجدر ؛ لا بقهریات الاقتدار فقط ؛ بل باختيارات البشر أيضاً .

وقوله الحق :

﴿ وَتَرَىٰ الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ .. ^(٣) ﴾ [النحل]

والمَآخِر هو الذى يشق حلزومه الماء ، والحلُزوم هو الصدر . ونجد من يصنعون المراكب يجعلون المقدمة حادة لتكون رأس الحربة التى تشق المياه بخير .

(١) الدسار . المسمار أو حبل من ليف تشد به ألواح السفينة ، وجمعه دسر . [القاموس القويم ٢٢٧/١] .

(٢) الأعلام جمع علم وهو الجبل فهو يصف السفن بالجيال فى كبرها . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٧٢/٤) . . . أى . كالجيال فى كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم مما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع . .

وفى هذه الآية امتنُ الحق سبحانه على عباده بثلاثة أمور : صيد السمك ، واستخراج الحُلَى ، وسَيْرُ الفَلَكِ فى البحر : ثم يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدَّ : فيقول :

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ... (١٤)﴾ [النحل]

وكان البواخر وهى تشقُ الماء ويرى الإنسان الماء اللين ، وهو يحمل الجسم الصلب للباخرة فيجد فيه متعة ، فضلاً عن أن هذه البواخر تحمل الإنسان من مكان إلى مكان .

ويُذيلُ الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٥)﴾ [النحل]

ولا يُقال ذلك إلا فى سرْدِ نعمة آثارها واضحة ملحوظة تستحقُّ الشكر من العقل العادى والفطرة العادية ، وشاء سبحانه أن يترك الشكر للبشر على تلك النعم ، ولم يُسخرهم شاكرين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ
وَأَنْهَرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)﴾

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض قد خُلقت على مراحل ،

ويشرح ذلك قوله سبحانه :

(١) ماد يميد تحرك وامتنز . ومادت الأرض اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ... (١٥) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس الفريسي ٢/ ٢٤٦] .

﴿ قُلْ أَنتُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ^(١) ﴾
 ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا
 أَقْوَاتَهَا ^(٢) فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴿

[فصلت]

وهكذا علمنا أن جِرم الأرض العام قد خُلِقَ أولاً ؛ وهو مخلوق
 على هيئة الحركة ؛ ولأن الحركة هي التي تأتي بالمَيدان - التَارْجُح
 يميناً وشمالاً - وعدم استقرار الجِرم على وَضْع ، لذلك شاء سبحانه
 أن يخلق في الأرض الرواسي لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة ،
 والرَّاسِي هو الذي يَثْبِت .

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله
 الجبال ، ولكنه خلق الأرض على هيئة الحركة ، ومنع أن تَمِيدَ بخلق
 الجبال ليَجْعَلَ الجبال رواسي للأرض .

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. ﴾ (٨٨) ﴿ [النمل]

وكلمة ﴿ أَلْقَى ﴾ تدلُّ على أن الجبال شيء متماسك وُضِعَ
 ليستقر .

ثم يعطف سبحانه على الجبال :

﴿ وَأَنهَارًا وَسَبَّالًا .. ﴾ (١٥) ﴿

[الزحل]

(١) الأنداد جمع ند ، وهو الضد والشبيه . ويريد بها ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله .
 [لسان العرب - مادة : ند] .

(٢) الأقوات جمع قوت ، وهو الرزق . قال ابن كثير في تفسيره (٩٢/٤) : « هو ما يحتاج
 إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس » .

سُورَةُ النَّحْلِ

٧٨٥١

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بفعل يناسب الأنهار ، ومن العجيب أن
الاسلوب يجمع جماداً في الجبال ، وسيولة في الأنهار ، وسبلاً أي
طرقاً ، وكل ذلك :

[النحل] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)﴾

أي : أن الجبل كله لعلنا نهتدى .

ونعلم أن العرب كانوا يهتدون بالجبال ، ويجعلون منها علامات ،
والمثل هو جبل « هرشا » الذي يقول فيه الشاعر :
خَذُوا بَطْنَ هَرشَا أَوْ قَفَاهَا فَإِنَّهُ كِلَا جَانِبِي هَرشَا لَهُنَّ طَرِيقُ
وايضاً جبل التوباد كان يُعتبر علامة .

وكذلك قول الحق سبحانه :

[مريم] ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ (٥٢)﴾

وهكذا نجد من ضمن فوائد الجبال أنها علامات نهتدى بها إلى
الطرق وإلى الأماكن ، وتلك من المهام الجانبية للجبال .

أو :

[النحل] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)﴾

باتعاطكم بالأشياء المخلوقة لكم ، كي تهتدوا لمن أوجدها لكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَعَلَّمَنَّاكَ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾

أى : أن ما تقدم من خلق الله هو علامات تدلُّ على ضرورة أن
تروا المنافع التى أودعها الله فيما خلق لكم : وتهتدوا إلى الإيمان بآله
مُوجد لهذه الأشياء لصالحكم .

وما سبق من علامات مَقَرُّه الأرض ، سواء الجبال أو الأنهار أو
السُّبُل : وأضاف الحق سبحانه لها فى هذه الآية علامة توجد فى
السما ، وهى النجوم .

ونعلم أن كلَّ مَنْ يسير فى البحر إنما يهتدى بالنجم . وتكلم عنها
الحق سبحانه هنا كتسخير مُختص : ولم يُدخلها فى التسخيرات
المتعددة : ولأن نجماً يقود لنجم آخر ، وهناك نجوم لم يصلنا
ضوؤها بعد ، وننتفع بآثارها من خلال غيرها^(١) .

ونعلم أن قريشاً كانت لها رحلتان فى العام : رحلة الشتاء ،
ورحلة الصيف . وكانت تسلك سبلاً متعددة ، فتهتدى بالنجوم فى
طريقها ، ولذلك لابد أن يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾

[النحل]

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٨١٦/٥) . قال ابن المربى . أما جميع النجوم فلا يهتدى
بها إلا العارف بمطالعها ومقاربها ، والفرق بين الجنوبي والشمالي منها . وذلك قليل فى
الآخرين . وأما الشريا فلا يهتدى بها إلا من يهتدى بجميع النجوم . وإنما الهدى لكل أحد
بالجندى والفرقدين . لأنهما من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السميت الثابتة فى
المكان . فإنها تدور على القطب الثابت دوراً مَحْصِلاً . فهى أبداً هدى الخلق فى البر إذا
عميت الطرق . وفى البحر عند مجرى السفن . وفى القبلة إذا جهل السَّمْت . وذلك على
الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر لما استقبلت فهو سمتُ الجهة . .

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٨٥٣

قد فضل الحق هذا الأسلوب من بين ثلاثة أساليب يمكن أن تؤدي المعنى : هي : « يهتدون بالنجم » و « بالنجم يهتدون » والثالث : هو الذي استخدمه الحق فقال :

﴿وَالنَّجْمُ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل]

وذلك تأكيد على خبرة قريش بمواقع النجوم : لأنها تسافر كل عام رحلتين ، ولم يكن هناك آخرون يملكون تلك الخبرة .

والضمير « هم » جاء ليعطى خصوصيتين : الأولى : أنهم يهتدون بالنجم لا بغيره : والثانية : أن قريشاً تهتدى بالنجم ، بينما غيرها من القبائل لا تستطيع أن تهتدى به .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)﴾

ونعلم أن الكلام الذي يلقيه المتكلم للسامع يأخذ صوراً متعددة : فمرة يأخذ صورة الخبر ، كأن يقول : مَنْ لَا يَخْلُقُ لَيْسَ كَمَنْ يَخْلُقُ . وهذا كلام خبري ، يصح أن تُصدقه ، ويصح ألا تُصدقه .

أما إذا أراد المتكلم أن يأتي منك أنت التصديق ، ويجعلك تنطق به : فهو يأتي لك بصيغة سؤال ، لا تستطيع إلا أن تجيب عليه بالتأكيد لما يرغبه المتكلم .

ونعلم أن قريشاً كانت تعبد الأصنام : وجعلوها آلهة : وهي لم تكلمهم ، ولم تُنزل منهاجاً ، وقالوا ما أورده الحق سبحانه على المنتهم :

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٨٥٤

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ^(١) .. ﴾ (٣)

[الزمر]

فلماذا إذن لا يعبدون الله مباشرة دون وساطة ؟ ولماذا لا يرفعون عن أنفسهم مشقة العبادة ، ويتجهون إلى الله مباشرة ؟

ثم لنسال : ما هي العبادة ؟

نعلم أن العبادة تعنى الطاعة فى « افعل » و « لا تفعل » التى تصدر من المعبود . وبطبيعة الحال لا توجد أوامر أو تكاليف من الأصنام لمن يعبدونها ، فهى معبودات بلا منهج ، وبلا جزاء لمن خالف ، وبلا ثواب لمن أطاع ، وبالتالي لا تصلح تلك الأصنام للعبادة .

ولنناقش المسألة من زاوية أخرى ، لقد أوضح الحق سبحانه أنه هو الذى خلق السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخر كل الكائنات لخدمة الإنسان الذى أوكل إليه مهمة خلافته فى الأرض ^(٢) .

وكلُّ تلك الأمور لا يدعيها أحد غير الله ، بل إنك إن سألت الكفار والمشركين عن خلقهم ليقولن الله .

قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (٨٧)

[الزخرف]

(١) الزلفى . القرب والمنزلة والدرجة . زلف إليه . قرب ودنا . [القاموس القويم ٢٨٨/١] . والمعنى كما قاله قتادة والسدى : أى ليسفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إنا حجوا فى جاهليتهم . لبيك لا شريك لك [لا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤٥/٤) ..

(٢) قال تعالى فى قرآنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴾ (البقرة) .

سُورَةُ النَحْلِ

﴿٧٨٥﴾

ذلك أن عملية الإيجاد والخلق لا يجروا أحد أن يدعيها إن لم يكن هو الذى أبدعها ، وحين تسألهم : من خلق السماوات والأرض لقالوا : إنه الله^(١) .

وقد أبلغهم محمد ﷺ أن الله هو الذى خلق السماوات والأرض ، وأن منهجه لإدارة الكون يبدأ من عبادته سبحانه .

وما دام قد ادعى الحق سبحانه ذلك ، ولم يوجد من ينازعه ؛ فالدعوة تثبت له إلى أن يوجد معارض ، ولم يوجد هذا المعارض أبداً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها ؛ لم يقل الحق سبحانه « اتجعلون من لا يخلق مثل من يخلق » . بل قال :

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٧)

[النحل]

وراء ذلك حكمة ؛ فهؤلاء الذين نزل إليهم الحديث تعاملوا مع الأصنام وكأنها الله ؛ وتوهموا أن الله مخلوق مثل تلك الأصنام ؛ ولذلك جاء القول الذى يناسب هذا التصور .

والحق سبحانه يريد أن يبطل هذا التصور من الأساس ؛ فواضح أن من تعبدونهم هم أصنام من الحجارة وهى مادة ولها صورة ، وأنتم صنعتموها على حسب تصوركم وقدراتكم .

وفى هذه الحالة يكون المعبود أقل درجة من العابد وأدنى منه ؛ فضلاً عن أن تلك الأصنام لا تملك لمن يعبدها ضميراً ولا نفعا .

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ قَالُوا اللَّهُ .. (٣٥) ﴾

[العنكبوت]

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٨٥٦

ثم : لماذا تدعون الله إن مسَّكم ضرٌّ ؟

إن الإنسان يدعو الله في موقف الضر : لأنه لحظتها لا يجزو على خداع نفسه ، أما الآلهة التي صنعوها وعبدوها فهي لا تسمع الدعاء :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ (١٤)
[فاطر]

فكيف إذن تساوون بين من لا يخلق ، ومن يخلق ؟ إن عليكم أن تتذكروا ، وأن تتفكروا ، وأن تعملوا عقولكم فيما ينفعكم .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٨)

وهذه الآية سبقت في سورة إبراهيم : فقال الحق سبحانه هناك :
﴿ وَأَنَّا كُمُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣٤)
[إبراهيم]

وكان الحديث في مجال من لم يعطوا الألوهية الخالقة ، والربوبية الموجدة ، والمُعدَّة حقَّها ، وجحدوا كل ذلك . ونفس الموقف هنا حديث عن نفس القوم ، فيوضح الحق سبحانه :

(١) لا تحصوها : لا تطبقوا عدما . ولا تقوموا بحصرها لكثرتها . كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العالوية والرزق . [قاله القرطبي في تفسيره ٢٧٠٥/٥] .

سُورَةُ الْفَخْلَةِ

٧٨٥٧

أنتم لو استعرضتم نعم الله قلن تحسوها ، ذلك أن المعدود دائماً يكون مكرر الأفراد ؛ ولكن النعمة الواحدة في نظرك تشتمل على نعم لا تُحصَى ولا تُعد ؛ فما يالك بالنعم مجتمعة ؟

أو : أن الحق سبحانه لا يمتن إلا بشيء واحد ، هو أنه قد جاء لكم بنعمة ، وتلك النعمة أفرادها كثير جداً .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾

[الأنحل]

أى : أنكم رغم كُفركم سيزيدكم من النعم ، ويعطيكم من منافع الرحمة ، فمنكم الظلم ، ومن الله الغفران ، ومنكم الكفر ومن الله الرحمة .

وكان تذييل الآية هنا يرتبط بتذييل الآية التي في سورة إبراهيم حيث قال هناك :

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

[إبراهيم]

فهو سبحانه غفور لجحدكم ونكرانكم لجعل الله ، وهو رحيم ، فيوالى عليكم النعم رغم أنكم ظالمون وكافرون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩)﴾

والسر - كما نعلم - هو ما حبسته في نفسك ، أو ما أسررت به لغيرك ؛ وطلبت منه ألا يعلمه لأحد . والحق سبحانه يعلم السر ، بل يعلم ما هو أخفى فهو القائل :

[طه]

﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)﴾

أى : أنه يعلم ما تُسرّه فى أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سراً قبل أن تُسرّه فى أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السرّ فقط ؛ بل يعلم العلن أيضاً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ
شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾

أى : أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً ؛ بل هم يُخلَقون ، والاصنام كما قلنا من قبل هى أدنى ممّن يخلقونها ، فكيف يستوى أن يكون المعبود أدنى من العابد ؟ وذلك تسفيه لعبادتهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام لحظة أن حطّم الاصنام ، وسأله أهله : مَنْ فعل ذلك بالكهنتنا ؟ وأجاب :

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا .. (٦٣)﴾

[الانبياء]

فقالوا له : إن الكبير مجرد صنم ، وأنت تعلم أنه لا يقدر على

شئ .

ونجد القرآن يقول لامثال هؤلاء :

[الصفات]

﴿ أَعْبُدُونِ مَا تَحْتُونَ ^(٩٥) ﴾

فهذه الآلهة - إذن - لا تخلق بل تُخلق ، لكن الله هو خالق كل شيء ، وسبحانه القائل :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ^(٧٣) ﴾

[الحج]

ويذكر الحق سبحانه من بعد ذلك أوصاف تلك الأصنام :

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يَعْشُونَ ^(٢١) ﴾

وهم بالفعل أموات : لأنهم بلا حس ولا حركة ، وقوله :

[النحل]

﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ .. ^(٢١) ﴾

تفيد أنه لم تكن لهم حياة من قبل ، ولم تثبت لهم الحياة في دورة من دورات الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

وهكذا تكتمل أوصاف تلك الأصنام ، فهم لا يخلقون شيئاً ، بل هم مخلوقون بواسطة مَنْ نَحْتُوهم ، وتلك الأصنام والأوثان لن تكون لها حياة في الآخرة ، بل ستكون وقوداً للنار .

(١) نحتت - برأه واقطع منه أجزاء ، ويكون ذلك في الأشياء الصلبة كالبحر والخشب .

[القاموس القويم ٢/ ٢٥٥] .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ^(١) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات]

وبطبيعة الحال لن تشعر تلك الحجارة ببعث من عبدها .

ويُصَفَّى الحق سبحانه من بعد ذلك المسألة العقدية ، فيقول :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ
مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ [٢٢]

وقوله الحق :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. ﴾ [٢٢] [النحل]

تمنع أن يكون هناك أفراد غيره مثله ، وقد يتصور البعض أنها
تساوى كلمة « أحد » . وأقول : إن كلمة « أحد » هي منع أن يكون
له أجزاء ؛ فهو مُنَزَّهٌ عَنِ التَّكْرَارِ أَوْ التَّجْزِئِ .

وفى هذا القول طمأننة للمؤمنين بأنهم قد وصلوا إلى قمة الفهم
والاعتقاد بأن الله واحد .

أو : هو يوضح للكافرين أن الله واحد رغم أنوفكم ، وستعودون

(١) أزواجهم : نظرائهم وأضرابهم وقرنائهم . [لسان العرب - مادة : زوج] . قال عمر
ابن الخطاب : أزواجهم . أشباههم يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا
مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . نقله ابن كثير في تفسيره
(٤/٤) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٨١٩/٥) : « أى . لا تقبل الوعد . ولا ينجح فيها الذكر » .

إليه غَصَبًا ، وبهذا القول يكشف الحق سبحانه عن الفطرة الموجودة في النفس البشرية التي شهدت في عالم الذر أن الله واحد لا شريك له ، وأن القيامة والبعث حق .

ولكن الذين لا يؤمنون بالله وبالأخرة هم مَنْ سَتَرُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِطْرَتَهُمْ ، فكلمة الكفر كما سبق أن قلنا هي ستر يقتضى مستورا ، والكفر يستر إيمانَ الفطرة الأولى .

والذين يُنْكِرُونَ الآخرة إنما يَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مَنْ تَصَوَّرَ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ حَقًّا ؛ وهو الحساب الذى سيجازى بالثواب والحسنات على الأفعال الطيبة ، ولعل سيئاتهم تكون قليلة ؛ فيجبرها الحق سبحانه لهم وينالون الجنة .

والمُسْرِفُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ؛ ياملون أن تكون قضية الدين كاذبة ، لأنهم يريدون أن يبتعدوا عن تصور الحساب ، ويتمنّون ألا يوجد حساب .

وَيَصِفُهُمُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ :

[النحل]

﴿ قُلُوبُهُمْ مُّكْرَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٧٢)

أى : أنهم لا يكتفون بإنكار الآخرة فقط ؛ بل يتعاضمون بدون وجه للعظمة .

و « استكبر » أى : نهى من نفسه كبيرا دون أن يملك مقومات الكبر ، ذلك أن « الكبير » يجب أن يستند لمقومات الكبر ؛ ويضمن لنفسه أن تظل تلك المقومات ذاتية فيه .

ولكننا نحن البشر أبناء أغيار ؛ لذلك لا يصح لنا أن نتكبر ؛

فألواحد منا قد يمرض ، أو تزول عنه أعراض الثروة أو الجاه ،
فصفات وكمالات الكبر ليست ذاتية في أي منا ؛ وقد تُسلب ممن فاء
الله عليه بها ؛ ولذلك يصبح من اللائق أن يتواضع كل منا ، وأن
يستحضر ربه ، وأن يتضائل أمام خالقه .

فالحق سبحانه وحده هو صاحب الحق في التكبر ؛ وهو سبحانه
الذي تبلغ صفاته ومقوماته منتهى الكمال ، وهي لا تزول عنه أبداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يَسِرُّونَ وَمَا يَعْلَنُونَ إِنَّهُمْ

لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (٢٢)

وساعة نرى ﴿ لا جرم ﴾^(١) ﴿ فمعناها أن ما يأتى بعدها هو حقٌ
ثابت ، فـ « لا » نافية ، و « جرم » مأخوذة من « الجريمة » ، وهي
كسر شيء مؤمن به لسلامة المجموع . وحين نقول « لا جرم »
أي : أن ما بعدها حقٌ ثابت .

وما بعد ﴿ لا جرم ﴾ هنا هو : أن الله يعلم ما يُسرون وما
يُعلنون .

وكل آيات القرآن التي ورد فيها قوله الحق ﴿ لا جرم ﴾ تؤدي
هذا المعنى ، مثل قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾^(٢) (٦٢)

[النحل]

(١) لا جرم : قال الفراء : هي في الأصل بمعنى لا بد ولا محالة ، ثم كثرت فحولت إلى معنى
القسم وصارت بمعنى حقا [المصباح المنير ص ٥٤] .

(٢) مُّفْرَطُونَ : متروكون منسيون في النار قاله مجاهد . وقال مجاهد مبعثون . وقال قتادة
والحسن معجلون إلى النار مقدمون إليها . [تفسير القرطبي ٢٨٤٦/٥] .

وكذلك قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٠٩)

[النحل]

وقد قال بعض العلماء : إن قوله الحق ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ يحمل معنى
« لا بُدَّ » ، وهذا يعنى أن قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. ﴾ (٧٣)

[النحل]

لا بُدَّ أن يعلم الله ما يُسِرُّون وما يُعْلِنُونَ ، ولا مناص من أن
الذين كفروا هم الخاسرون . وقد حلَّ العلماء اللفظ ليصلوا إلى أدق
أسناره .

وعلم الله لا ينطبق على الجهر فقط ، بل على السر أيضاً ؛ ذلك
أنه سيحاسبهم على كل الأعمال . وينهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (٢٣)

[النحل]

وإذا سألنا : وما علاقة علم الله بالعقوبة ؟ ونقول : ألم يقولوا
فى أنفسهم :

﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴾ (٨)

[المجادلة]

وإذا ما نزل قول الحق سبحانه ليُخبرهم بما قالوه فى
أنفسهم ؛ فهذا دليل على أن مَنْ يُبلغهم صادق فى البلاغ عن الله ،
ورغم ذلك فقد استكبروا ؛ وتأبؤا وعاندوا ، وأخذتهم العزة بالإثم ،
وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به
الرسول ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤)

وقوله الحق :

﴿ مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ .. (٢٤) ﴾

[النحل]

يُوضَح الاستدراك الذى أجراه الله على لسان الْمُتَكَلِّم : ليعرفوا أن لهم رباً . ولو لم يكونوا مؤمنين بِرَبٍّ ، لأعلنوا ذلك ، ولكنهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال ، ولم يعترضوا على أن لهم رباً . وهذا دليل على إيمانهم بِرَبٍّ خالق : ولكنهم يعترضون على محمد ﷺ وما أنزل إليه من الله .

و :

﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤)

[النحل]

والاساطير : هى الأكاذيب ، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لَمَا أَقْرَأُوا بِاللَّوْحَةِ ، ورفضوا أيضاً القول المنزل إليهم .

ومنهم من قال :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٥)

[الفرقان]

(١) الاساطير جمع أسطورة وهى الاحاديث التى لا أصل لها . أو هى جمع أسطار أو جمع سطر : أى كتابات وغلبت على الباطل منها . [القاموس القويم ١/ ٣١٣] .

ولكن هناك جانب آخر كان له موقف مختلف سياًتي تبيان
من بعد ذلك ، وهم الجانب المَضَادُّ لهؤلاء ؛ حيث يقول الحق
سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٢٠) ﴾ [النحل]

ووراء ذلك قصة تُوضِّح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن ،
وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله ﷺ قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد
الذى أنزل عليه منهجاً فى كتاب مُعْجَز ، بدأت أخبار رسول الله ﷺ
تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كُلُّ قبيلة وفداً منها
لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

ولكن كُفَّار قريش أرادوا أن يصدُّوا عن سبيل الله ؛ فقسَّموا
أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل
« ماذا قال ربكم الذى أرسل لكم رسولا ؟ » .

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذى يستقبلهم : « إنه رسول كاذب ،
يُحَرِّفُ وَيُجَدِّفُ ^(١) » . والهدف طبعاً أن يصدُّ الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين
على أبواب مكة من الوفود التى جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا
أنزل ربكم ؟ يردون « إنه يُرَدِّدُ أساطير الأولين » .

(١) التجديف هو الكفر بالنعم . جدَّف الرجل بنعمة الله . كفرها ولم يقنع بها . قال أبو عبيد
يعنى كفر النعمة واستقلال ما أنعم الله عليك . [لسان العرب - مادة : جدف] .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدل على أنها إجابة مُتَّفَق عليها ، وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أن يصرفوا وفود القبائل عن الاستماع لرسول الله ﷺ فشبهوا الذُّكْر المُنْزَل من الله بمثل ما كان يرويه لهم - على سبيل المثال - النضر ابن الحارث من قصص القدماء التي تتشابه مع قصص عنصرة ، وأبي زيد الهلالي التي تُروى في قرأنا . وهذه هي الموقعة الأولى في الأخذ والرد .

وَيُعْقِبُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَلَى قَوْلِهِمْ هَذَا :

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا مَسَاءَ مَا يَرْزُقُونَ﴾ (٢٥)

وانظر إلى قوله سبحانه :

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً ..﴾ (٢٥)

[النحل]

لنرى كيف يُوَضِّحُ الْحَقُّ سبحانه أن النفس البشرية لها أحوال متعددة ؛ وإذا أسرفت على نفسها في تلك الجوانب ؛ فهي قد تُسْرِف في الجانب الأخلاقي ؛ والجانب الاجتماعي ؛ وغير ذلك ، فتأخذ وزر كُلِّ ما تفعل .

ويُوضِّحُ هنا الحق سبحانه أيضاً أن تلك النفس التي ترتكب الأوزار حين تُضِلُّ نفسها غيرها فهي لا تتحمل من أوزار النفس التي أضلتها إلا ما نتج عن الإضلال ؛ فيقول :

[النحل]

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾

ذلك أن النفس التي تَمَّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار في مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال .

والحق سبحانه أعدل من أن يُحْمَلَ حتى المُضِلُّ أوزاراً لم يَكُنْ هو السبب فيها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

[النحل]

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾

أى : أن المُضِلَّ يحمل أوزار نفسه ، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلَّهم ؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال .

وفى هذا مُطلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، فالذين تَمَّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات : أوزار وسيئات نتيجة الإضلال ؛ وتلك يحملها معهم مَنْ أضلَّوهم .

أما الأوزار والسيئات التي ارتكبوها بأنفسهم دون أن يدفعهم لذلك مَنْ أضلَّوهم ؛ فهم يتحملون ثبِّعاتها وحدهم ، وبذلك يحمل كُلُّ إنسان أحمال الذنوب التي ارتكبها .

وقد حسم رسول الله ﷺ ذلك حين قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رُغَاء ، أو بقرة لها خَوَار ، أو شاة تَيْعَرٌ ^(١) » .

وقسَّ على ذلك من سرق في الطوب والأسمنت والحديد وخدع الناس .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٣٢) . والبخارى في صحيحه (٢٥٩٧) من حديث أبي حميد

الساعدي . ومعنى تَيْعَرُ أى : تصبغ ، والخوار صوت البقرة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٧٥)﴾ [النحل]

إنما يلفتنا إلى ضرورة ألا تلهينا الدنيا عن أهم قضية تشغل بال الخليقة ، وهي البحث عن الخالق الذي أكرم الخلق ، وأعد الكون لاستقبالهم .

وكان يجب على هؤلاء الذين سمعوا من كفار قريش أن يبحثوا عن الرسول ، وأن يسمعوا منه ؛ فهم أميون لم يسبق أن جاءهم رسول ؛ وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَأَنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾

[البقرة]

فإذا ما جاءهم الرسول كان عليهم أن يبحثوا ، وأن يسمعوا منه لا نقلاً عن الكفار ؛ ولذلك سيعاقبهم الله ؛ لأنهم أهملوا قضية الدين ، ولكن العقوبة الشديدة ستكون لمن كان عندهم علم بالكتاب .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. (٧٩)﴾ [البقرة]

ويصف الحق سبحانه من يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار من أضلّوهم :

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٢٥)﴾ [النحل]

أي : ساء ما يحملون من آثام ؛ فهم لم يكتفوا بأوزارهم ، بل

صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَنْعُوا الْفِرَّانَ أَنْ يَسْتَمَعَ إِلَى قَضِيَّةِ الْإِيمَانِ .
ومن نتيجة ذلك أن يبيع مَنْ لم يسمع لنفسه بعضاً مما حرم
الله ! فيتحمل مَنْ صَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَزَّرَ هَذَا الْإِضْلَالُ .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« شَرُّكُمْ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا ، وَشَرُّ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا
غَيْرِهِ » ^(١) .

فَمَنْ بَاعَ الدِّينَ لِيَتَمَتَّعَ قَلِيلاً ؛ يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ ؛ أَمَا مَنْ بَاعَ دِينَهُ
لِيَتَمَتَّعَ غَيْرُهُ فَهُوَ الَّذِي سَيَجِدُ الْعِقَابَ الْأَشَدَّ مِنْ اللَّهِ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ
مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٦)

ويأتى الحق سبحانه هنا بسيرة الاولين والسُنَنِ التى اجراها
سبحانه عليهم ، ليسلى رسوله ﷺ ؛ وَيُوضَّحُ لَهُ أَنْ مَا حَدَّثَ مَعَهُ
لَيْسَ بِدَعَا ؛ بَلْ سَبَقَ أَنْ حَدَّثَ مَعَهُ مَنْ سَبَقَ مِنَ الرُّسُلِ . وَيُيْلِفُهُ أَنَّهُ

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ
قال : « يادبروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم . يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، أو
يمسى مؤمناً ويصبح كافراً . يبيع دينه بعرض من الدنيا » وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى
« ذم الدنيا » أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : « الخاسر من عمر دنياه بخراب آخرته .
والخاسر من استصلح معاشه بفساد دينه . والمغبون حظاً من رضى بالدنيا من الآخرة » .
(٢) خَرَّ : سقط من علٍ إلى سفل بصوت . وخرَّ البناء : سقط . [لسان العرب - مادة
خرر]

(٣) من فوقهم : أى عليهم وقع وكنوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . [تفسير القرطبي ٢٨٢٢/٥]

لم يبعث أى رسول إلا بعد تَعَمُّ البُلُوَى وَيَطْمُ الفساد ، ويفقد البشر
المناعة الإيمانية ، نتيجة افتقاد مَنْ يُؤْمِنُونَ ويعملون الصالحات ،
ويتواصون بالحق وبالصبر .

والمَثَلُ الواضح على ذلك ما حدث لبني إسرائيل ؛ الذين قال فيهم
الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ .. ﴾ (٧٩)

[المائدة]

فانصبَّ عليهم العذاب من الله ، وهذا مصير كُلِّ أمة لا تتناهى عن
المنكر الظاهر أمامها .

ويقول سبحانه هنا :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ (٧٦)

[النحل]

والمكر تبیین خفى يُبَيِّنُهُ الماكر بما يستر عن المَمْكُور به . ولكن
حين يمكر أحد بالرسول ؛ فهو يمكر بمن يُؤَيِّدُهُ الله العالم العليم .

وإذا ما أعلم الله رسوله بالمكر ؛ فهو يُلغِي كل أثر لهذا التبیین ؛
فقد علمه مَنْ يَقْدِرُ على إبطاله . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴾ (٧٩)

[المجادلة]

وهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ
الْمَنْصُورُونَ ﴾ (١٧٢)

[الصافات]

وطبق الحق سبحانه ذلك على رسوله ﷺ ؛ حين مكر به كفار
قريش وجمعوا شباب القبائل ليقتلوه ؛ فأغشاهم الله ولم يبصروا

خروجه للهجرة^(١) ولم ينتصر عليه معسكر الكفر بائٍ وسيلة :
لا باعتداءات اللسان ، ولا باعتداءات الجوارح .

وهؤلاء الذين يمكرون بالرسول لم يتركهم الحق سبحانه دون عقاب :

﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ .. ﴾ (٢٦) [النحل]

أى : أنهم إن جعلوا مكرهم كالبناية العالية : فالحق سبحانه يتركهم
لإحساس الأمن المزيف ، ويحفر لهم من تحتها ، فيخر عليهم السقف
الذى من فوقهم . وهكذا يضرب الله المثل المعنوى بأمر محسّ .

وقوله الحق :

﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ .. ﴾ (٢٦) [النحل]

يوضح أنهم موجودون داخل هذا البيت ، وأن الفوقية هنا
للسقف ، وهى فوقية شاءها الله لياتيهم :

﴿ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٦) [النحل]

وهكذا يأتى عذاب الله بغتة : ذلك أنهم قد بيئوا ، وظنوا أن هذا
التبئيت بخفاء يخفى عن الحى القيوم .

وليت الأمر يقتصر على ذلك : لا بل يُعذِّبهم الله فى الآخرة
أيضاً :

(١) اجتمعت قريش على قتل رسول الله ﷺ فأخذوا من كل قبيلة شاباً فتياً ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يستطيع بنو هاشم الأخذ بذاره ، فاتاه جبريل قائلاً : لا تبت هذه الليلة على فراشك . ولزم المشركون بابهم ينتظرون نومه ليقتلوه ، ولكنه ﷺ خرج طيبهم وفى يده حفنة من التراب فنشرها على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ هَـوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴾ (٧) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٨) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٩) إلى قوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٠) [يس] . فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب [السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٢/٢] بتصرف .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧)

وهكذا يكون العذاب في الدنيا وفي الآخرة ، ويلقون الخزي يوم القيامة . والخزي هو الهوان والمذلة ، وهو أقوى من الضرب والإيذاء ؛ ولا يتجلد أمامه أحد ؛ فالخزي قشعريرة تَفْشَى البدن ؛ فلا يفلت منها مَنْ تصيبه .

وإن كان الإنسان قادراً على أن يكتُم الإيلام ؛ فالخزي معنى نفسى ، والمعانى النفسية تتضح على البشرية ؛ ولا يقدر أحد أن يكتُم أثرها ؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التى عاش بها ذلك الذى بيئت ومكر .

ويُوضِّح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله عن القرية التى كان يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بأنعم الله ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ^(١) كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ^(٢) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢)

[النحل]

(١) أخزاه : أمانته وفضله . [القاموس القويم ١٩٢/١] . . يخزيهم ، أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم ، قاله القرطبي فى تفسيره (٢٨٢٢/٥) .

(٢) تشاقون : تخالفون وتعادون وتحاربون . [لسان العرب - مادة : شقق] .

(٣) المقصود بالقرية هنا مكة على أرجح الأقوال التى نقلها ابن كثير فى تفسيره (٥٨٩/٢) والقرطبي (٢٩٢١/٥) وساق القرطبي قولاً عاماً أنها أى قرية كانت على هذه الصفة .

(٤) رَغَدَ العيش اتسع وطاب . وقال تعالى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ جِئْتُمَا .. ﴾ (٣٥) [البقرة] أى . أكلاً طيباً مُوسِماً عليكم فيه . [القاموس القويم ٢٦٩/١] .

سُورَةُ الْفُتُلِّ

٧٨٧٢

أى : كان الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكان الجوع قد أصبح لباساً ؛ يعانى منه صاحبه ؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه وجلده وخطواته ، وبكل ما فيه .
وساعة يحدث هذا الخزي فكلُّ خلايا الاستكبار تنتهى ، خصوصاً امام مَنْ كان يدعى عليهم الإنسان أن عظمته وتجبره وغروره باقٍ ، وله ما يسنده .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ .. ﴾ (٢٧) [النحل]

أى : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّةً ، وجعلتم من المؤمنين شُقَّةً أخرى ، وكلمة ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ مأخوذة من « الشق » ويقال : « شقَّ الجدار أو شقَّ الخشب » والمقصود هنا أن جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول فى شُقَّةٍ تُعادونها ، وأخذتم جانب الباطل ، وتركتم جانب الحق .

وهنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧) [النحل]

وكان هذا الامر سيحير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مكروا برسول الله ﷺ ، وسيحضره الذين آتاهم الله العلم .

والعلم - كما نعلم - يأتى من الله مباشرة ؛ ثم يُنقل إلى الملائكة ؛ ثم يُنقل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسل إلى الأمم التى كُلِّفَ الحق سبحانه رسله أن يبلِّغهم منهجه .

وَكَمَا شَهِدَتْ الدُّنْيَا سَقُوطَ الْمَنَاجِحِ الَّتِي اتَّبَعُوهَا مِنْ أَهْوَائِهِمْ ،
وَسَقُوطَ مَنْ عِبَادِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ سَيُشْهَدُ الْيَوْمَ الْآخِرُ الْخِزْيَ وَالسُّوْءَ
وَهُوَ يَحِيطُ بِهِمْ ، وَقَدْ يَكُونُ الْخِزْيُ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ ، وَيَحْمِي
اللَّهُ مَنْ آمَنُوا بِهِ بِالْأَطْمَئِنَّانِ .

وَنَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ قَالَ : « أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ، اللَّهُمَّ
فَاشْهَدْ » ^(١) .

وَكَمَا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ أُمَّتَهُ وَاسْتَجَابَتْ لَهُ : فَقَدْ طَلَبَ مِنْهُمْ أَيْضًا أَنْ
يَكُونُوا امْتِدَادًا لِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْ يُبَلِّغُوهَا لِلنَّاسِ ، ذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ
قَدْ مَنَعَ الرِّسَالَاتِ مِنْ بَعْدِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَصَارَ
مِنْ مَسْئُولِيَةِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ تُبَلِّغَ كُلُّ مَنْ لَمْ تُبَلِّغْهُ رِسَالَةَ
الرَّسُولِ ﷺ .

وَقَدْ قَالَ ﷺ : « نَضَرُ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها ، وَأَدَّاهَا إِلَى
مَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، قَرُبٌ مُبَلِّغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » ^(٢) ،
وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِلُ ^(٣) :

(١) وَرَدَ هَذَا الْقَوْلُ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِنْهَا حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي
صَحِيحِهِ (٣٧٨) قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَدَّ ظَهْرَهُ إِلَى قَبَةِ آدَمَ ، فَقَالَ : أَلَا
لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ . اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ ؟ اللَّهُمَّ اشْهَدْ .

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٤٣٧/١) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٢٦٥٧ . ٢٦٥٨) وَابْنُ مَاجَةَ
فِي سُنَنِهِ (٢٣٢) وَالحَمِيدِيُّ (١٧/١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ .

(٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اقْرَأْ عَلَيَّ » . فَقُلْتُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ . قَالَ : نَعَمْ ، إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ غَيْرِي ، فَقَرَأْتُ
سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى آتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى
هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۖ ﴾ [النساء] فَقَالَ : « حَسْبُكَ الْآنَ » . فَإِذَا عَيْنَا تَلَرَفَانِ . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ
فِي صَحِيحِهِ (٥٠٥٠) ، وَكَذَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٨٠٠) كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَلَفْظُهُ
« رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ ﷺ تَسِيلُ » .

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

٧٨٧

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (٤١) يَوْمَئِذٍ يَرَوُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ .. (٤٢) ﴿

[النساء]

أى : يتمنون أن يصيروا ثراباً ، كما قال تعالى فى موقع آخر :
﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَى كُنتُ ثَرَابًا ﴾ (٤٠) ﴿

[النبا]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٨) ﴿

يقول تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٢٨) ﴿

[النحل]

أى : تتوفاهم فى حالة كونهم ظالمين لأنفسهم ، وفى آية أخرى
قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٨) ﴿

[النمل]

ومعلوم أن الإنسان قد يظلم غيره لحظاً نفسه ولصالحها .. فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يسمونه الظلم الأجمق حين تظلم نفسك التى بين جنبيك .. ولكن كيف ذلك ؟

(١) أى : الاستسلام . أى اقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت . [تفسير القرطبي

نعرف أن العدو إذا كان من الخارج فسهل التصدي له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التي بين جنبيك ، فهذا عدو خطير صعب التصدي له ، والتخلص منه .

وهنا نطرح سؤالاً : ما الظلم ؟ الظلم أن تمنع صاحب حق حقه ، إذن : ماذا كان لنفسك عليك حتى يقال : إنك ظلمتها بمنعها حقها ؟ نقول : حين تجوع ، ألا تاكل ؟ وحين تعطش ألا تشرب ؟ وحين تُرهق من العمل ألا تنام ؟

إذن : أنت تعطى نفسك مطلوباتها التي تريحتها وتسارع إليها ، وكذلك إذا نمتَ وحاولوا إيقاظك للعمل فلم تستيقظ ، أو حاولوا إيقاظك للصلاة فتكاسلت ، وفي النهاية كانت النتيجة فشلاً في العمل أو خسارة في التجارة الخ .

إذن : هذه خسارة مُجمعة ، والخاسر هو النفس ، وبهذا فقد ظلم الإنسان نفسه بما فاتها من منافع في الدنيا ، وقس على ذلك أمور الآخرة .

وانظر هنا إلى جزئيات الدنيا حينما تكتمل لك ، هل هي نهاية كل شيء ، أم بنهايتها يبتدئ شيء ؟ بنهايتها يبتدئ شيء ، ونسال : الشيء الذي سوف يبدأ ، هل هو صورة مكرورة لما انتهى في الدنيا ؟

ليس كذلك ، لأن المنتهى في الدنيا مُنقطع ، وقد أخذت حظي منه على قدر قدراتي ، وقدراتي لها إمكانات محدودة .. أما الذي سيبدأ - أي في الآخرة - ليس بمنته بل خالد لا انقطاع له ، وما فيه من

سُورَةُ الْجِنِّ

○ ٧٨٧٧ ○

نعيم يأتى على قَدَرِ إمكاناتِ المنعمِ ربك سبحانه وتعالى .

إذن : أنت حينما تُعطى نفسك متعةً فى الدنيا الزائلة المنقطعة ،
تُفَوّت عليها المتعة الباقية فى الآخرة .. وهذا مُنتهى الظلم للنفس .

نعود إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

أثبتت هذه الآية التوفى للملائكة .. والتوفى حقيقة لله تعالى ، كما

جاء فى قوله :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ .. ﴾ (٤٢)

[الزمر]

لكن لما كان الملائكة مأمورين ، فكان الله تعالى هو الذى يتوفى
الانفس رغم أنه سبحانه وتعالى قال :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ .. ﴾ (٤٢)

[الزمر]

وقال :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ .. ﴾ (١١)

[السجدة]

وقال :

﴿ تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا .. ﴾ (٦١)

[الأنعام]

إذن : جاء الحُصْدُ من الله تعالى مرة ، ومن رئيس الملائكة
عزرائيل مرة ، ومن مُسَاعديه من الملائكة مرة أخرى ، إذن : الأمر
إما للمزاولة مباشرة ، وإما للواسطة ، وإما للأصل الأمر .

وقوله تعالى :

﴿ تَتَوَفَّاهُمْ ... ﴾ (٢٨)

[النحل]

معنى التوفى من وفاء حقه أى : وفاء أجله ، ولم ينقص منه شيئاً ، كما تقول للرجل وفيتك دينك .. أى : أخذت ما لك عندى .

﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

نلاحظ أنها جاءت بصيغة الجمع ، و ﴿ ظَالِمِي ﴾ يعنى ظالمين و ﴿ أَنْفُسِهِمْ ﴾ جمع ، وحين يُقَابَلُ الجمع بالجمع تقتضى القسمة أحاداً أى : أن كلاً منهم يظلم نفسه :

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْقُوا السَّلَامَ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

أى : خضعوا واستسلموا ولم يَعُدْ ينفعهم تكبرهم وعجفرتهم فى الدنيا .. ذهب عنهم كل هذا بذهاب الدنيا التى راحت من بين أيديهم .

وما داموا ألقوا السَّلَامَ الآن ، إذن : فقد كانوا فى حرب قبل ذلك كانوا فى حرب مع أنفسهم وهم أصحاب الشُّقَاق فى قوله تعالى :

﴿ تُشَاكِلُونَ .. ﴾ (٢٧)

[النحل]

أى : تجعلون هذا فى شِقٍّ ، وهذا فى شِقٍّ ، وكان الآية تقول : لقد رفعوا الراية البيضاء وقالوا : لا جَلَدٌ^(١) لنا على الحرب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

هذا كقوله تعالى فى آية أخرى :

(١) الجلد القوة والشدة . والجلد . الصلابة والجلادة . [لسان العرب - مادة . جلد] .

سُورَةُ النحل

٧٨٧٩

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ^(١) إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

[الأنعام]

والواقع أنهم بعد أن ألقوا السلم ورفعوا الراية البيضاء واستسلموا ، أخذهم موقف العذاب فقالوا محاولين الدفاع عن أنفسهم :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ .. ﴿٢٨﴾﴾ [النحل]

وتعجب من كذب هؤلاء على الله في مثل هذا الموقف ، على من تكذبون الآن ؟!

فيرد عليهم الحق سبحانه :

﴿بَلَىٰ .. ﴿٢٨﴾﴾ [النحل]

وهي أداة نفى للنفي السابق عليها ، ومعلوم أن نفى النفي إثبات ، ف ﴿بلى﴾ تنفى :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ .. ﴿٢٨﴾﴾ [النحل]

إذن : معناها .. لا .. بل عملتم السوء . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل]

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يكتفِ بالعلم فقط ، بل دون ذلك عليهم وسجّله في كتاب سيُعرض عليهم يوم القيامة ، كما قال تعالى :

(١) قال ابن عباس معنيين في تاويل كلمة (فتنتهم) . الاول : معذرتهم . الثاني : حجتهم . نقلهما السيوطي في الدر المنثور (٢٥٨/٢) .

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧)

[الأنبياء]

وقال :

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ^(١) فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) **اقْرَأْ كِتَابَكَ** كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴿ [الإسراء]

ويحلوا للبعض أن ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها .. ونقول لهؤلاء: تعالوا إلى ما توصل إليه العقل البشري الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها .. وهذا كله يُسهّل علينا هذه المسألة عندما نرقى إمكانات العقل البشري إلى الإمكانيات الإلهية التي لا حدود لها .

فلا وجه - إذن - لأن ننكر قدرة الملائكة « رقيب وعتيد »^(٢) في تسجيل الأعمال في كتاب يحفظ أعماله ويُحصى عليه كل كبيرة وصغيرة .

ثم يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئِمَسَ
مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٩)

سبق أن قلنا في شرح قوله تعالى في وصف جهنم :

(١) طائره . عمله وما قُدِّرَ عليه من خير وشر . وهو ملازمه أينما كان . وقال الحسن . أي شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير . أي : صار له عند القسمة في الأزل [تفسير القرطبي ٢٩٥٧/٥] .

(٢) يقول تعالى في سورة ق - ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ (١٨) ﴿ [ق] .

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٤٤) [الحجر]

اى : ان لكل جماعة من اهل المعصية باباً معلوماً .. قِبابٌ لاهل الربا .. وِبابٌ لاهل الرُشوة .. وِباب لاهل النفاق وهكذا .. ولك أن تتصور ما يُلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصي !! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر .. حقاً ما أتعس هؤلاء !

وهنا يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ..﴾ (٢٩) [النحل]

فجاءت أيضاً بصورة الجمع . إذن : كل واحد منكم يدخل من بابه الذى خُصَّص له .

ثم يقول سبحانه :

﴿قُلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٩) [النحل]

والمثوى هو مكان الإقامة ، وقال تعالى فى موضع آخر :

﴿لَا جِسْمَ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَقَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٢) [النحل]

فتكبر واستكبر وكل ما جاء على وزن (تفعل) يدل على أن كبرهم هذا غير ذاتى : لأن الذى يتكبر حقاً يتكبر بما فيه ذاتياً لا يسلبه منه أحد ، إنما مَنْ يتكبر بشيء لا يملكه فتكبره غير حقيقى ، وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبروا به فى الدنيا ، وبذلك لا يكون لاحد أن يتكبر لأن الكبرياء الحقيقى لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ
أَخْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ
دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٠)

وقد سبق أن تحدثنا عن قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤) [النحل]

فهذه مشاهد ولقطات تُبَيِّن الموقف الذي انتهى بأن أقروا على
أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وهذه الآيات نزلت في جماعة كانوا داخلين مكة .. وعلى أبوابها
التي يأتي منها أهل البوادي ، وقد قسم الكافرون أنفسهم على مداخل
مكة ليصدوا الداخلين إليها عن سماع خبر أهل الإيمان بالنبي الجديد .

وكان أهل الإيمان من المسلمين يتحینون الفرصة ويخرجون على
مشارف مكة بحجة رعى الغنم مثلاً ليقابلوا هؤلاء الساتلين ليخبروهم
خبر النبي ﷺ وخبر دعوته^(١) .

مما يدل على أن الذي يسأل عن شيء لا يكتفى بأول عابر
يسأله ، بل يُجَدِّد السؤال ليقف على المتناقضات .. فحين سألوا
الكافرين قالوا :

(١) الأساطير . جمع أسطار أو أسطورة ، فهي الأحاديث لا نظام لها أو لا أصل لها ، أو هي
حكايات عن الأولين كتبوها ولا أساس لها فهي أكاذيب لا تصدق بزعمهم . [القاموس
القديم ٢١٣/١] .

(٢) أورده القرطبي في تفسيره (٢٨٢٤/٥) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٢٥/٥) .

[النحل]

﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤﴾

فلم يكتفوا بذلك ، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم :

[النحل]

﴿قَالُوا خَيْرًا .. ٢٥﴾

هذا لنفهم أن الإنسان إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادتان فلا يكتفى بوجهة واحدة ، بل يجب أن يستمع للثانية ، ثم بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل .

إذن : حينما سأل الداخلون مكة أهل الكفر :

[النحل]

﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤﴾

وحينما سألوا أهل الإيمان والتقوى :

[النحل]

﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. ٢٥﴾

[النحل]

ونلاحظ هنا في ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ٢٥﴾

أن الحق سبحانه لم يوضح لنا مَنْ هم ، ولم يُبين هُويَتهم ، وهذا يدلنا على أنهم كانوا غير قادرين على المواجهة ، ويدارون أنفسهم لأنهم ما زالوا ضعافاً لا يقدرّون على المواجهة .

وقد تكرر هذا الموقف - موقف السؤال إلى أن تصل إلى الوجهة الصواب - حينما عتب الحق تبارك وتعالى على نبي من أنبيائه هو سيدنا داود - عليه السلام - في قوله تعالى :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا^(١) الْمِحْرَابَ ٧١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهْنِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا

(١) تسور السور : تسلفه وعلاه . [القاموس القويم ٢٢٥/١] .

بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطَطُ^(١) وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٧٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ
وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي^(٢) فِي الْخِطَابِ (٧٣) ﴿

[ص]

فماذا قال داود عليه السلام ؟

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ .. (٧٤) ﴾

[ص]

وواضح في حكم داود عليه السلام تأثره بقوله (له تسع وتسعون) ولنفرض أنه لم يكن عنده شيء ، ألم يظلم أخاه باخذ نعجته ؟! إذن : تأثر داود بدعوى الخصم ، وأدخل فيه حيثية أخرى ، وهذا خطأ إجرائي في عرض القضية : لأن (تسع وتسعون) هذه لا تدخل لها في القضية .. بل هي لاستمالة القاضي وللتأثير على عواطفه ومنافذه ، وليبين أن الخصم غنى ومع ذلك فهو طماع ظالم .

وسرعان ما اكتشف داود - عليه السلام - خطاه في هذه الحكومة ، وأنها كانت فتنة واختباراً من الله :

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَانُ^(٣) ... (٧٤) ﴾

[ص]

أى : اختبرناه كي نُعلمه الدرس تطبيقاً .. أيحكم بالحق ويُراعى جميع نواحي القضية أم لا ؟

وانظر هنا إلى فطنة النبوة ، فسرعان ما عرف داود ما وقع فيه واعترف به ، واستغفر ربه وخَرَّ له رَاكِعاً مُنِيئاً .

(١) الشطط - الجور وتجاوز الحد في كل شيء . وأشط في حكمه : جار وظلم . [القاموس القويم ٣٤٩/١] .

(٢) أكفلنيها - معناه اجعلني لها أكفلها وانزل أنت عنها . قاله الزجاج . [لسان العرب - مادة كفل] . وعزني في الخطاب - أى ظبني في الاحتجاج . [لسان العرب - مادة عزز] .

قال تعالى :

﴿ فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (٢٤)

[ص]

إذن : الشاهد هنا أنه كان على داود - عليه السلام - أن يستمع إلى الجانب الآخر والطرف الثاني في الخصومة قبل الحكم فيها .

وقوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. ﴾ (٣٠)

[النحل]

ما هو الخير ؟ الخير كُلُّ ما تستطيعه النفس بكل ملكاتها .. لكن الاستطابة قد تكون موقوتة بزمان ، ثم تُورث حَسْرَةً وندامة .. إذن : هذا ليس خيراً ؛ لأنه لا خيرَ في خير بعده النارُ ، وكذلك لا شرَّ في شر بعده الجنة .

إذن : يجب أن نعرف أن الخير يظل خَيْرًا دائماً في الدنيا ، وكذلك في الآخرة ، فلو أخذنا مثلاً متعاطي المخدرات نجده يأخذ متعة وقتية ونشوة زائفة سرعان ما تزول ، ثم سرعان ما ينقلب هذا الخير في نظره إلى شر عاجل في الدنيا وأجل في الآخرة .

إذن : انظر إلى عمر الخير في نفسك وكيفيته وعاقبته .. وهذا هو الخير في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا خَيْرًا .. ﴾ (٣٠)

[النحل]

إذن : هو خير تستطيعه النفس ، ويظل خيراً في الدنيا ، ويترتب عليه خير في الآخرة ، أو هو موصول بخير الآخرة .. ثم فسره الحق تبارك وتعالى في قوله سبحانه :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ۞ (٢٠)﴾

[النحل]

ونفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألا يترك الدنيا وأسبابها ،
فربما أخذها منك الكافر وتقلب عليك بها ، أو يفتنك في دينك
بسببها ، فمن يعبد الله أولى بسرّه في الوجود ، وأسرار الله في
الوجود هي للمؤمنين ، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا
للكافرين .

اجتهد أنت أيها المؤمن في أسباب الدنيا حتى تأمن الفتنة من
الكافرين في دُنْيَاكَ .. ولا يـسـ ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا ،
مما أعطاهم الفرصة ليسيظروا على سياساتنا ومقدراتنا .

لذلك يقول سبحانه :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ ۞ (٢١)﴾

[النحل]

أي : يأخذون حسناتهم ، وتكون لهم اليد العليا بما اجتهدوا ،
وبما عملوا في دنياهم ، وبذلك ينفع الإنسان نفسه وينفع غيره ،
وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هي العليا ، وكان
ثوابك وخيرك موصولاً بخير الآخرة .

لذلك يقول النبي ﷺ :

« ما من مسلم يفرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير
أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »^(١) .

ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر ، هو ثمرة من ثمرات

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٢٠) ومسلم في صحيحه (١٥٥٢) كتاب

المساقاة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

سُورَةُ النِّجَالِ

٧٨٨٧

الإحسان في الدنيا وهي الأمن .. فَمَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا مُسْتَقِيمًا
لم يقترف ما يُعَاقَبُ عليه تجده آمناً مطمئناً ، حتى إذا داهمه شر
أو مكروه تجده آمناً لا يخاف ، لأنه لم يرتكب شيئاً يدعو للخوف .

خُذْ مَثَلًا لِلصَّالِحِينَ تَرَاهُمْ دَائِمًا مُتَوَجِّسِينَ^(١) خَائِفًا ، تدور عَيْنُهُ يَمِينًا
وشمالاً ، فإذا رأى شرطياً هلع وترقّب وراح يقول في نفسه : لعله
يقصدني .. أما المستقيم فهو آمن مطمئن .

ومن ثمرات هذا الإحسان وهذه الاستقامة في الدنيا أن يعيش
الإنسان على قَدَرِ إمكانياته ولا يُرْمَقُ نفسه بما لا يقدر عليه ، وقديماً
قالوا لأحدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أرخصوه ، قالوا : وكيف لنا
ذلك ؟ قال : ازهدوا فيه .

وقد نظم ذلك الشاعرُ فقال :

وَإِذَا غَلَا شَيْءٌ عَلَى تَرْكِهِ فَيَكُونُ أَرْخَصَ مَا يَكُونُ إِذَا غَلَا
وَلَا تَقُلْ : النَّفْسُ تَوَاقَةٌ إِلَيْهِ رَاغِبَةٌ فِيهِ ، فَهِيَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تُرِدَّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وفي حياتنا العملية ، قد يعود الإنسان من عمله ولَمَّا ينضج
الطعام ، ولم تُعَدِ المائدة وهو جائع ، فيأكل أيَّ شيء موجود وتنتهي
المشكلة ، ويقوم هذا محل هذا ، وتقنع النفس بما نالته .

ولكى يعيش الإنسان على قَدَرِ إمكانياته لا بُدَّ له أن يوازن بين

(١) أوجس . وقع في نفسه الخوف . والرجس : الفزع يقع في القلب أو في السمع من صوت
أو غير ذلك . والتوجس . التسمع إلى الصوت الخفى . [لسان العرب - مادة : وجس] .

دَخَلَهُ وَنَفَقَاتِهِ ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ عُسْرٌ فِي دَخْلِهِ ، أَوْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَنَاقِذُ
الرِّزْقِ لَا يَدُّ لَهُ مِنْ عُسْرٍ فِي مَصْرُوفِهِ ، وَلَا يَدُّ لَهُ أَنْ يُضَيِّقَ عَلَى
النَّفْسِ شَهَوَاتِهَا ، وَبِذَلِكَ يَعْيشُ مَسْتَوْرًا مَيْسُورًا ، رَاضِيًا النَّفْسَ ،
قَرِيرَ الْعَيْنِ .

وَالْبَعْضُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ يُلْجَأُ إِلَى الْاسْتِقْرَاضِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَى
شَهَوَاتِ نَفْسِهِ ، وَرَبَّمَا اقْتَرَضَ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ شَهْرًا ، وَيَعْيشُ فِي ذِلَّةٍ
دَهْرًا ؛ لِذَا مِنَ الْحِكْمَةِ إِذْنٌ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَ النَّاسَ الْقَرْضَ سَلِّ نَفْسَكَ
أَوَّلًا ، وَاطْلُبْ مِنْهَا أَنْ تَصْبِرَ عَلَيْكَ ، وَأَنْ تُنْظِرَكَ^(١) إِلَى سَاعَةِ الْيُسْرِ ،
وَلَا تُكَلِّجَكَ إِلَى مِثْلَةِ السُّؤَالِ .. وَقَبْلَ أَنْ تَلُومَ مَنْ مَنَعَكَ لَمْ تَفْسِدْ الَّتِي
تَابَتْ عَلَيْكَ أَوَّلًا .

وَمَا أَبْدَعَ شَاعِرُنَا الَّذِي صَاغَ هَذِهِ الْقِيَمَ فِي قَوْلِهِ :

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَسْتَقْرِضَ الْمَالَ مُنْفِقًا عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ فِي زَمَنِ الْعُسْرِ
فَسَلِّ نَفْسَكَ الْإِنْفَاقَ مِنْ كَنْزِ صَبْرٍهَا عَلَيْكَ وَإِنْظَارًا إِلَى سَاعَةِ الْيُسْرِ
فَإِنْ فَعَلْتَ كُنْتَ الْغَنَى ، وَإِنْ أَبَيْتَ فَكُلْ مَنُوعَ بَعْدِهَا وَأَسِغِ الْعَذْرَ

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٣٠)﴾

[الفعل]

وَالْخَيْرُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ اللَّهِ ، وَالنَّعِيمُ فِيهَا عَلَى قَدْرِ الْمَنَعِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى ، بَوْنُ تَعَبٍ وَلَا كَدٌّ وَلَا عَمَلٌ .

(١) الْإِنْظَارُ : الْإِمْهَالُ وَالتَّأْخِيرُ . وَاسْتَنْظَرَهُ : طَلَبَ مِنْهُ النَّظَرَ وَاسْتَمَهَلَهُ . [لِسَانُ الْعَرَبِ ..
مَادَّةُ : نَظَرَ] .

ومعلوم أن كلمة : ﴿ قَالُوا خَيْرًا .. ﴾ (٣٠)

[النحل]

التي فسرها الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ﴾ (٣٠)

[النحل]

تقابلها كلمة « شر » ، هذا الشر هو ما جاء في قول الكافرين :

﴿ مَاذَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤)

[النحل]

فهؤلاء قالوا خيراً ، وأولئك قالوا شراً .

ولكن إذا قيل : ذلك خير من ذلك ، فقد توفر الخير في الاثنين ،

إلا أن أحدهما زاد في الخيرية عن الآخر ، وهذا معنى قوله ﷺ :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي

كل خير »^(١) .

لذلك لما قال :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ﴾ (٣٠)

[النحل]

قال : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. ﴾ (٣٠)

[النحل]

أي : خير من حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا خير ، وأخير منها

حسنة الآخرة .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٠)

[النحل]

أي : دار الآخرة .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) كتاب القدر . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار
المنقين كانها برقية ، فقال سبحانه :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣١)

والجنات : تعنى البساتين التى بها الاشجار والازهار والثمار
والخضرة ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب
بشر .. ليس هذا ونقط .. هذه الجنة العمومية التى يراها كل مَنْ
يدخلها .. بل هناك لكل واحد قصر خاص به ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَبَدَّخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ
عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٢)

[الصف]

إذن : هنا قَدْر مشترك للجميع :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٣١)

[النحل]

ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. ﴾ (٣١)

[النحل]

أى : جنات إقامة دائمة ؛ لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان ، فلا
حاجة له إلى غيرها .. هَبْ أَنْتَ دَخَلْتَ أعظم حداثق وبساتين العالم -
هايد بارك مثلاً - فقصارى الامر أن تتنزه به بعض الوقت ، ثم
يعتريك التعب ويصيبك الملل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه
النزعة .. أما الجنة فهى جنة عدن ، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول :

[النحل]

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٣١)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

[التوبة]

﴿ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (١٠٠)

ومعنى « تَجْرِي تَحْتِهَا » أى : أنها تَجْرِي تَحْتِهَا ، وربما تأتى من مكان آخر .. وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يُمنع عنك جريان هذه الأنهار ؛ لذلك جاءت الآية :

[النحل]

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٣١)

أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

[النحل]

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ﴾ (٣١)

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذى يتناسب مع الآخرة ونعيمها .. فمثلاً : إذا دخلت على إنسان رقيق الحال فلك مشيئة على قدر حالته ، وإذا دخلت على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لك مشيئة أعلى .. وهكذا .

إذن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشاء منه ، فإذا كان المشاء منه هو الله الذى لا يُعجزه شيء تكون مشيئتك مُطلقة ، فالمشيئة فى الآية ليست كمشيئة الدنيا ؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدد ببيئة الدنيا .. أما مشيئة الآخرة فهى المشيئة المفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر فى البشر حسب مراتبهم ومراكزهم .

ويروى أنه لما أُسِرَتْ بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا

شراءها منه وعرضوا عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه .. فقال له أحدهم : إنها ابنة الملك ، ولو كنت طلبت منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمت أن وراء الألف عدداً لطلبتَه .. فقد طلب قصارى ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبي ﷺ أن يشرح لنا هذا النص القرآني :

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ.. (٣١)﴾ [النحل]

وكذلك قوله تعالى :

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)﴾ [الزخرف]
قال : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١) .

إنن : تحديد الإطار للآية بقدر ما هم فيه عند ربهم .

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)﴾ [النحل]

أى : هكذا الجزاء الذى يستحقونه بما قدموا فى الدنيا ، وبما حرّموا منه أنفسهم من متّع حرام .. وقد جاء الآن وقتُ الجزاء ، وهو جزاء أطول وأدوم : لذلك قال الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى :

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ^(٢) فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أعدت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .
(٢) أسلف . قدّم أو فعل من قبل . قال تعالى : ﴿هَٰذَا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس]
أى : ما قدمت وما عملت فى الزمن الماضى فى الدنيا . [القاموس القويم ١/ ٢٢٢] .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٢)

أى : المتقون هم الذين تتوفاهم الملائكة طيبين .

ومعنى :

﴿ تَتَوَفَّيْهُمْ .. ﴾ (٣٢)

[النحل]

أى : تاتى لقبض أرواحهم . وهنا نَسَبَ التَّوَفَى إلى جملة الملائكة . كأنهم جنود ملك الموت الاصيل عزرائيل ، وقد سبق أن قُلْنَا : إن الحق تبارك وتعالى مرةً ينسب التَّوَفَى إلى الملائكة ، ومرة ينسبه إلى ملك الموت :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴾ (١١)

[السجدة]

ومرة ينسبه إلى نفسه سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى .. ﴾ (٤٧)

[الزمر]

ذلك لأن الله سبحانه هو الأمر الأعلى ، وعزرائيل ملك الموت الاصيل ، والملائكة هم جنوده الذين يُنْقِذُونَ أوامره .

وقوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. ﴾ (٣٢)

[النحل]

تقابل الآية السابقة :

(١) ذكر المفسرون فى معنى قوله ﴿ طَيِّبِينَ .. ﴾ [النحل] ستة أقوال . الأول : طاهرين من الشرك . الثانى : صالحين . الثالث : زاكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع : طيبى الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس : طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السادس : أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم . بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخطئ . [تفسير القرطبي ٥/ ٢٨٢٦] .

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَائِفِي أَنْفُسِهِمْ ..﴾ (٣٨) [النحل]

والطيب هو الشيء الذى يوجد له خيرٌ دائم لا ينقطع ولا ينقلب
خَيْرُهُ هذا شركاً ، وهو الشيء الذى تستريح له النفس راحة تنسجم
منها كل ملكاتها ، بشرط أن يكون مستمراً إلى خَيْرٍ منه ، ولا يستمر
إلى خَيْرٍ منه واحسن إلا طيب القيم وطيب الدين ، أما غير ذلك فهو
طيب موقوتٌ سرعان ما يهجر .

ولذلك حينما يدعى اثنان المحبة فى الله نقول : هذه كلمة تُقال ،
ومصادقها أن ينمو الودُ بينكما كل يوم عن اليوم الذى قبله : لأن
الحب للدنيا تشوبه الاطماع والامواء ، فترى الحب ينقص يوماً بعد
يوم ، حَسَبَ ما يأخذ احدهما من الآخر ، أما المتحابان فى الله
فياخذان من عطاء لا ينفد ، هو عطاء الحق تبارك وتعالى ، فإن رأيت
اثنين يزداد ودُّهما فاعلم أنه ودُّ الله وفى الله ، على خلاف الود
لاغراض الدنيا فهو ودُّ سرعان ما ينقطع .

هل هناك اطيب من أنهم طهروا أنفسهم من دنس الشرك ؟ وهل
هناك اطيب من أنهم اخلصوا عملهم لله ، وهل هناك اطيب من أنهم
لم يسرفوا على أنفسهم فى شيء ؟

وحَسَبَ هؤلاء من الطيب أنهم ساعة يأتى ملك الموت يعمُرُ عليهم
شريط أعمالهم ، وملخص ما قدموه فى الدنيا ، فيرون خيراً ، فتراهم
مُسْتَبْشِرِينَ فرحين ، يبدو ذلك على وجوههم ساعة الاحتضار ، فتراه
أبيضَ الوجه مُشْرِقاً مبتسماً ، عليه خاتمة الخير والطيب والسعادة ؛

ذلك لما عاينه من طيب عمله ، ولما يستبشر به من الجزاء عند الله
تبارك وتعالى .

وعلى عكس هذه الحالة تماماً نرى أهل الشقاوة ، وما هم عليه
ساعة الفراغة من سواد الوجه ، وسوء الخاتمة ، والعياذ بالله .

﴿ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. ﴾ (٢٧)

[النحل]

أى : حينما تتوفاهم الملائكة يقولون لهم سلام ؛ لأنكم خرجتم
من الدنيا بسلام ، وستقبلون على الآخرة بسلام ، إذن : سلام
الطيبين سلامٌ موصول من الدنيا إلى الآخرة ، سلامٌ مترتب على
سلامة دينكم فى الدنيا ، وسلامة إقبالكم على الله ، دون خوف فى
الآخرة .

وهناك سلام آخر جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :
﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ^(١) حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٧٣) [الزمر]

ثم يأتى السلام الأعلى عليهم من الله تبارك وتعالى ؛ لأن كل هذه
السلامات لهؤلاء الطيبين مأخوذة من السلام الأعلى :

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ (٥٨)

[يس]

وهل هناك أفضل وأطيب من هذا السلام الذى جاء من الحق
تبارك وتعالى مباشرة .

وتعجب هنا من سلام أهل الأعراف على المؤمنين الطيبين وهم

(١) الزمر : جمع زمرة ؛ وهى الفرج والجماعة ، [القاموس القويم ٢٨٩/١] .

فى الجنة ، ونحن نعرف أن أهل الاعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فحُجزوا على الاعراف ، وهو مكان بين الجنة والنار ، والقسمة الطبيعية تقتضى أن للميزان كفتين ذكرهما الحق تبارك وتعالى فى قوله :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ^(١) هَاوِيَةٌ ۖ (٨) ﴾

[القارعة]

هاتان حالتان للميزان ، فإين حالة التساوى بين الكفتين ؟ جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ .. (٤٦) ﴾

[الاعراف]

أى : يعرفون أهل الجنة وأهل النار :

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾

[الاعراف]

وجه العجب هنا أن أهل الاعراف فى مازق وشدة وانشغال بما هم فيه من شدة الموقف ، ومع ذلك نراهم يفرحون بأهل الجنة الطيبين ، ويبادرونهم بالسلام .

إذن : لأهل الجنة سلامٌ من الملائكة عند الوفاة ، وسلام عندما يدخلون الجنة ، وسلام أعلى من الله تبارك وتعالى ، وسلام حتى من أهل الاعراف المنشغلين بحالهم .

(١) معناه : فهو ساقط هارٍ بأم رأسه فى نار جهنم . وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقيل معناه : فأمه التى يرجع إليها ويصير فى المعاد إليها هاوية . وهى اسم من أسماء النار . [تفسير ابن كثير ٥٤٣/٤] .

سُورَةُ النَّحْلِ

٧٨٩٧

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٢)﴾ [النحل]

أى : لأنكم دفعتم الثمن ؛ والثمن هو عملكم الصالح فى الدنيا ،
واتباعكم لمنهج الحق تبارك وتعالى .

وقد يرى البعض تعارضاً بين هذه الآية وبين الحديث الشريف :
« لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول
الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته^(١) .
والحقيقة أنه لا يوجد تعارضٌ بينهما ، ولكن كيف تُوفَّق بين الآية
والحديث ؟

الله تعالى يُوحى لرسوله ﷺ الحديث كما يُوحى له الآية .
فكلاهما يصدر عن مشكاة واحدة ومصدر واحد^(٢) .. على حدّ قوله
تعالى :

﴿وَمَا نَقَمُوا^(٣) إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فالحديث هنا واحد ، فلم يُغْنِهِمُ الله بما يناسبه والرسول بما
يناسبه ، بل هو غناء واحد وحديث واحد ، وكذلك ليس ثمة تعارضٌ
بين الآية والحديث .. كيف ؟

الحق تبارك وتعالى كلف الإنسان بعد سنّ الرُّشد والعقل ، وأخذ
يُوَالى عليه النعم منذ صِغَرِهِ ، وحينما كلفه كلفه بشيء يعود على

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٦٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه
(٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرج أبو داود فى سننه (٤٥٩١) من حديث المقدم بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه
قال : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » ألا يوشك رجل شعبان على أريكته يقول : عليكم

بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه .

(٣) نقم منه : علقه . ونقم الشيء : أنكره وعابه وكرهه . [القاموس القويم : مادة نقم] .

الإنسان بالنفع والخير ، ولا يعود على الله منه شيء ، ثم بعد ذلك يُجازيه على هذا التكليف بالجنة .

إذن : التكليف كله لمصلحة العبد في الدنيا والآخرة . إذن : تشريع الجزاء من الله في الآخرة هو مَحْضُ الفضل من الله ، ولو أطاع العبدُ رَبَّه الطاعة المطلوبة منه في الأفعال الاختيارية التكليفية لما وَفَى نِعَمَ الله عليه ، وبذلك يكون الجزاء في الجنة فَضْلاً من الله ومِنَّةً .

أو : أنهم حينما قالوا :

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٧)﴾

[النحل]

يريدون أن عملهم سبب عادي لدخول الجنة ، ثم يكتسبونها بفضل الله .. فتجمع الآية بين العمل والفضل معاً : لذلك فإن الحق تبارك وتعالى يَقْوِي هذا بقوله تعالى :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾

[يونس]

فهم لم يفرحوا بالعمل لأنه لا يَفِي بما هم فيه من نعمة ، بل الفرحة الحقيقية تكون بفضل الله ورحمته ، وفي الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل » .

وأخيراً .. هل كانوا يعملون هكذا من عند أنفسهم ؟ لا .. بل بمنهج وضعه لهم رَبُّهم تبارك وتعالى .. إذن : بالفضل لا بمجرد العمل .. ومثال ذلك : الوالد عندما يقول لولده : لو اجتهدت هذا العام وتفوقت سأعطيك كذا وكذا .. فإذا تفوق الولد كان كل شيء لصالحه : النجاح والهدية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣٢)

بعد أن عرضت الآيات جزاء المتقين الذين قالوا خيراً ، عادت لهؤلاء الذين قالوا ﴿ أساطير الأولين ﴾ الذين يُصادمون الدعوة إلى الله ، ويقفون منها موقف العداء والكَيْدِ والترَبُّصِ والإيذاء .

وهذا استفهام من الحق تبارك وتعالى لهؤلاء : ماذا تنتظرون ؟ بعدما فعلتم بأمر الدعوة وما صدّدتم الناس عنها ، ماذا تنتظرون ؟ أنتظرون أن تُروا بأعينكم ، ليس أمامكم إلا أمران : سيُحلّان بكم لا محالة :

إما أن تأتاكم الملائكة فتتوفاكم ، أو يأتى أمرُ ربك ، وهو يوم القيامة ولا ينجيكم منها إلا أن تؤمنوا ، أم أنكم تنتظرون خيراً ؟ فلن يأتاكم خير أبداً .. كما قال تعالى فى آيات أخرى :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْعَ جُلُودُهُ .. ﴾ (١)

[النحل]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ﴾ (١)

[القدر]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ﴾ (١)

[الأنبياء]

إنن : إنما ينتظرون أحداثاً تأتي لهم بشرٌ : تأتيهم الملائكة
لقبض أرواحهم في حالة هم بها ظالمون لأنفسهم ، ثم يلقون السَّلم
رَغماً عنهم ، أو : تأتيهم الطامة^(١) الكبرى وهي القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. (٣٢)﴾ [النحل]

أى : ممَّن كَذَّبَ الرسل قبلهم .. يعنى هذه مسألة معروفة عنهم
من قبل :

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ .. (٣٣)﴾ [النحل]

أى : وما ظلمهم الله حين قَدَّرَ أَنْ يُجَازِيَهُمْ بِكَذَا وَكَذَا ، وليس
المراد هنا ظلمهم بالعذاب ؛ لأن العذاب لم يحلَّ بهم بعد .

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٤)﴾ [النحل]

وهذا ما تُسمِّيه بالظلم الاحمق ؛ لأن ظلم الغير قد يعود على
الظالم بنوع من النفع ، أما ظلم النفس فلا يعود عليها بشيء ؛ وذلك
لأنهم أسرفوا على أنفسهم في الدنيا فيما يخالف منهج الله ، وبذلك
فَوُتُوا على أنفسهم نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وهذا هو ظلمهم
لأنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) طم الأمر . اشتد . وسمى يوم القيامة بالطامة لشدة وعظم موله . [القاموس القويم

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٣٤)

أى : أنهم لما ظلموا أنفسهم أصابهم جزاء ذلك ، وسعى ما يفعل
بهم سيئة : لأن الحق تبارك وتعالى يسعى جزاء السيئة سيئة فى
قوله :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. ﴾ (٤٠) [الشورى]

ويقول تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ﴾ (١٢٦) [النحل]

وهذه تُسمى المشاكلة^(١) ، أى : أن هذه من جنس هذه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَمَلُوا ﴾ العمل هو مُزَاوِلَةٌ أى جارحة من
الإنسان لمهمتها ، فكلُ جارحة لها مهمة . الرجل واليد والعَيْن
والأذن .. الخ . فاللسان مهمته أن يقول ، وبقية الجوارح مهمتها أن
تفعل . إذن : فاللسان وحده أخذ النصف ، وباقي الجوارح أخذت
النصف الآخر : ذلك لأن حصائد الألسنة عليها المعول الأساسى .

فكلمة الشهادة : لا إله إلا الله لا بُدَّ من النطق بها لنعرف أنه

(١) حاق به الشيء - نزل به وأحاط به . قال الزجاج فى معنى الآية - أى : أحاط بهم العذاب

الذى هو جزاء ما كانوا يستهزئون به . [لسان العرب - مادة : حيق]

(٢) المشاكلة - مصطلح فى بديع القرآن ومعناه - ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته

تحقيقاً أو تقديرًا ، والاول كقوله تعالى ﴿ نَعْلَمُ مَا فى نَفْسِى وَلَا نَعْلَمُ مَا فى نَفْسِكَ .. ﴾ (١١٦)

[المائدة] . فإن إطلاق النفس والمكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه .

[الإتيان فى علوم القرآن ٢ / ٢٨٩] .

مؤمن ، ثم يأتى دور الفعل ليسانداً هذا القول : لذا قال تعالى :

﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣)

[الصف]

وبالقول تبليغ المناهج للأذان .. فكيف تعمل الجوارح دون منهج ؟
ولذلك فقد جعل الحق تبارك وتعالى للأذن وضعاً خاصاً بين باقى الحواس ، فهى أول جارحة فى الإنسان تؤدى عملها ، وهى الجارحة التى لا تنقضى مهمتها أبداً .. كل الجوارح لا تعمل مثلاً أثناء النوم إلا الأذن ، وبها يتم الاستدعاء والاستيقاظ من النوم .

وإذا استقرت آيات القرآن الكريم ، ونظرت فى آيات الخلق ترى الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨)

[النحل]

ثم هى آلة الشهادة يوم القيامة :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ .. ﴾ (٢٠)

[فصلت]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ مِثِينَ عَدَدًا ﴾ (١١)

[الكهف]

ومعنى : ضربنا على آذانهم ، أى : عطلنا الأذن التى لا تعطى حتى يطمئن نومهم ويستطيعوا الاستقرار فى كهفهم ، فلو لم يجعل الله تعالى فى تكوينهم الجارحة شيئاً معيناً لما استقر لهم نوم طوال ٣٠٩ أعوام .

ويقول الحق تعالى :

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤)﴾ [النحل]

بماذا استهزا الكافرون ؟ استهزاوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)﴾ [الصافات]

وقالوا :

﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا^(١) فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة]

ثم بلغ بهم الاستهزاء أن تعجلوا العذاب فقالوا :

﴿فَأَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

وقالوا :

﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا^(٢) .. (٩٢)﴾ [الإسراء]

وهل يطلب أحد من عدوه أن ينزل به العذاب إلا إذا كان مستهزئاً ؟

فقال لهم الحق تبارك وتعالى : إنكم لن تقدرُوا على هذا العذاب الذي تستهزئون به . فقال :

(١) معناه : أئذا مِتْنَا وَصِرْنَا تُرَابًا وَعِظَامًا فَضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ لَمْ يَتَبَيَّنْ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِنَا .

[لسان العرب - مادة : ضلل] .

(٢) الكسفة : القطعة من الشيء . يقال : أعطنى كسفة من ثوبك . [تفسير القرطبي

. [٤٠٥٩/٥] .

﴿وَحَاقَ بِهِمْ .. (٣٤)﴾ [النحل]

أى : أحاط وتزل بهم ، فلا يستطيعون منه فراراً ، ولا يجدون معه منفذاً للفكاك ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠)﴾ [البروج]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾

نلاحظ أنه ساعة أن يأتى الفعل نصاً فى مطلوبه لا يذكر المتعلق به .. فلم يقل : أشركوا بالله .. لأن ذلك معلوم ، والإشراك معناه الإشراك بالله ، لذلك قال تعالى هنا :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥)﴾ [النحل]

ثم يورد الحق سبحانه قولهم :

﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ .. (٣٥)﴾ [النحل]

إنهم هنا يدافعون عن أنفسهم ، وهذه هى الشعاعة التى يُعلق عليها الكفار خطاياهم - شعاعة أن الله كتب علينا وقضى بكذا وكذا . فيقول المسرف على نفسه : ربنا هو الذى أراد لى كذا ، وهو

الذى يهدى ، وهو الذى يُضل ، وهو الذى جعلنى أرتكب الذنوب ،
إلى آخر هذه المقولات الفارغة من الحق - والنهاية : فلماذا يعذبنى
إذن ؟

وتعالوا نناقش صاحب هذه المقولات ، لأن عنده تناقضاً عقلياً ،
والفضية غير واضحة أمامه .. ولكى تزيل عنه هذا الغموض نقول
له : ولماذا لم تقل : إذا كان الله قد أراد لى الطاعة وكتبها على ،
فلماذا يثيبنى عليها .. هكذا المقابل .. فلماذا قلت بالأولى ولم تقل
بالثانية ؟!

واضح أن الأولى تجرُّ عليك الشر والعذاب ، فوقفت فى عقلك ..
أما الثانية فتجرُّ عليك الخير ، لذلك تغاضيت عن ذكرها .

ونقول له : هل أنت حينما تعمل أعمالك .. هل كلها خير ؟ أم هل
كلها شر ؟ أمّا منها ما هو خير ، ومنها ما هو شر ؟

والإجابة هنا واضحة . إذن : لا أنت مطبوع على الخير دائماً ،
ولا أنت مطبوع على الشر دائماً ، لذلك فأنت صالح للخير ، كما أنت
صالح للشر .

إذن - هناك فرق بين أن يخلقك صالحاً للفعل وضده ، وبين أن
يخلقك مقصوراً على الفعل لا ضده ، ولما خلقك صالحاً للخير
وصالحاً للشر أوضح لك منهجه وبين لك الجزاء ، فقال : اعمل
الخير .. والجزاء كذا ، واعمِل الشر .. والجزاء كذا .. وهذا هو
المنهج .

ويحلو للمسرف على نفسه أن يقول : إن الله كتبه على .. وهذا عجيب ، وكأنني به قد اطلع على اللوح المحفوظ^(١) ونظر فيه ، فوجد أن الله كتب عليه أن يشرب الخمر مثلاً فراح فشربها ؛ لأن الله كتبها عليه .

ولو أن الأمر هكذا لكنت طائعاً بشربك هذا ، لكن الأمر خلاف ما تتصور ، فأنت لا تعرف أنها كتبت عليك إلا بعد أن فعلت ، والفعل منك مسبوق بالعزم على أن تفعل . فهل اطلعت على اللوح المحفوظ كي تعرف ما كتبه الله عليك ؟

وانتبه هنا واعلم أن الله تعالى كتب أولاً ؛ لأنه علم أنك تفعل أجلاً ، وعلم الله مطلق لا حدود له .

ونضرب مثلاً - والله المثل الأعلى - الوالد الذي يلاحظ ولده في دراسته ، فيجده مهملًا غير مُجدٍّ فيتوقع فشله في الامتحان .. هل دخل الوالد مع ولده وجعله يكتب خطأ ؟ لا .. بل توقع له الفشل لعلمه بحال ولده ، وعدم استحقاقه للنجاح .

إذن : كتب الله مُسبقاً وأزلاً ؛ لأنه يعلم ما يفعله العبد أصلاً .. وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى صورة أخرى لهذا المنهج حينما وجه المؤمنين إلى الكعبة بعد أن كانت وجهتهم إلى بيت المقدس ، فقال تعالى :

(١) اللوح المحفوظ شيء لا يعلمه إلا الله . فيه ما قدره الله وقصاه على الخلائق .

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٩٠٧

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. ﴾ (١٤٤)

[البقرة]

ثم أخبر نبيه ﷺ بقوله :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ﴾ (١٤٥)

[البقرة]

جاء الفعل هكذا في المستقبل : سيقول .. إنهم لم يقولوا بعد هذا القول ، وهذا قرآن يُتلى على مسامع الجميع غير خاف على أحد من هؤلاء السفهاء ، فلو كان عند هؤلاء عقل لَسَكَنُوا ولم يُبَادِرُوا بهذه المقولة ، وَيُفَوِّتُوا الفرصة بذلك على محمد ﷺ وعلى صديق القرآن الكريم .

كان باستطاعتهم أن يسكتوا وَيُوجِّهُوا للقرآن تهمة الكذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبذلك تَمَّتْ إرادة الله وأمره حتى على الكافرين الذين يبحثون عن مناقضة في القرآن الكريم .

(١) أخرج ابن ماجه في سننه (١٠١٠) عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين . وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه في السماء . وعلم الله من قلب نبيه ﷺ أن يهوى الكعبة ، فصعد جبريل ، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ، ينظر ما يأتيه به ، فأنزل الله ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ .. ﴾ [البقرة] ، فأتانا آت فقال : إن القبلة قد صرفت إلى الكعبة . وقد صلينا ركعتين إلى بيت المقدس ونحن ركوع فتحولنا . فبينما على ما مضى من صلاتنا ، فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل ، كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِبْرَاهِيمَ .. ﴾ [البقرة] .

وهذه الآية ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. ﴾ (٣٥)

[النحل]

تشرح وتفسر قول الله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (١٤٨)

[الانعام]

فهنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ وفي الآية الاخرى ﴿ قَالَ ﴾ : لنعلم انه لا يستطيع احد معارضة قول الله تعالى ، او تغيير حكمه .

ثم يقول تعالى :

﴿ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا .. ﴾ (٣٥)

[النحل]

لماذا لم يتحدث هؤلاء عن انفسهم فقط ؟ ما الحكمة في دفاعهم عن آباؤهم هنا ؟ الحكمة انهم سيحتاجون لهذه القضية فيما بعد ، وسوف يجعلونها حجة حينما يقولون :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾ (٢٢)

[الزخرف]

إذن : لا حجة هؤلاء الذين يعلقون إسرارهم على انفسهم على شعاعة القدر ، وان الله تعالى كتب عليهم المعصية : لاننا نرى حتى من المسلمين مَنْ يتكلم بهذا الكلام ، ويميل إلى هذه الابطال ، ومنهم مَنْ تاخذه الجرأة على الله عز وجل فيشبه هذه القضية بقول الشاعر :

أَلْقَاهُ فِي النَّيْمِ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتُلَ بِالْمَاءِ

(١) أى : وراهم سائرون متخذين إياهم قدوة ، ومهتدين بهديهم .

وما يفعل هذا إلا ظالم !! تعالى الله وتنزه عن قول الجُهال والكافرين ، وايضاً هناك مَنْ يقول : إن الإنسان هو الذى يخلق الفعل ، ويعارضهم آخرون يقولون : لا بل ربنا هو الذى يخلق الفعل .

نقول لهم جميعاً : افهموا ، ليس هناك فى الحقيقة خلاف .. ونسال : ما هو الفعل ؟ الفعل توجيه جارحة لحدث ، فانت حينما تُوجّه جارحة لحدث ، ما الذى فعلته أنت ؟ هل أعطيت لليد مثلاً قوة الحركة بذاتها ؟ أم أن إرادتك هى التى وجّهت حركتها ؟

والجارحة مخلوقة لله تعالى ، وكذلك الإرادة التى حكمت على الجارحة مخلوقة لله أيضاً .. إذن : ما فعلته أنت ما هو إلا أن وجّهت المخلوق لله إلى ما لا يحب الله - فى حالة المعصية - وإلى ما يحبه الله فى حالة الطاعة .

كذلك لا بد أن نلاحظ أن الله تعالى مرادات كونية ومرادات شرعية .. فالمراد الكونى هو ما يكون فعلاً ، كُلُّ ما تراه فى الكون أراد الله أن يكون . والمراد الشرعى : هو طلبُ الشيء لمحبوبيته .

ولناخذ مثلاً لتوضيح ذلك : كُفّر الكافر ، أراد الله كونياً أن يكون ، لأنه خلقه مختاراً وقال :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف]

وطالما خلقك الله مختاراً تستطيع أن تتوجه إلى الإيمان ، أو تتوجه إلى الكفر ، ثم كفرت . إذن : فهل كفرت غصباً عنه وعلى

غير مُرادِهِ سبحانه وتعالى ؟ حاشا لله ومعنى ذلك أن كُفِّرَ الكافر مُراد كونيّ ، وليس مراداً شرعياً .

وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُراداً كونياً ومُراداً شرعياً ، أما كفر المؤمن ، المؤمن حقيقة لم يكفر . إذن : هو مراد شرعى وكذلك مراد كوني ، وهكذا ، فلا بُدَّ أن تُفَرَّقَ بين المراد كونياً والمراد شرعياً .

ولذلك لما حدثت ضجة في الحرم المكي منذ سنوات ، وحدث فيه إطلاق للنار وترويع للآمنين ، قال بعضهم : كيف يحدث هذا وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ (٩٧) [آل عمران]

وما هو الحال قتل وإزعاج للآمنين فيه ؟

والحقيقة أن هؤلاء خلطوا بين مراد كوني ومراد شرعى ، فالمقصود بالآية : فَمَنْ دَخَلَ فَأَمَّنْهُ . أى : اجعلوه آمناً ، فهذا مطلب من الله تبارك وتعالى ، وهو مراد شرعى قد يحدث وقد لا يحدث .. أما المراد الكونى فهو الذى يحدث فعلاً . وبذلك يكون ما حدث فى الحرم مراداً كونياً ، وليس مراداً شرعياً .

ثم يقول تعالى على لسانهم :

﴿ وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٣٥) [النحل]

وقد ورد توضيح هذه الآية فى قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾^(١) وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

[المائدة]

ثم يقول تعالى مقررًا :

﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾^(٢)

[النحل]

أى : هذه سُنَّةُ السَّابِقِينَ المعاندين .

﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾^(٣)

[النحل]

البلاغ هو ما بين عباد الله وبين الله ، وهو بلاغ الرسل ، والمراد به المنهج « افعَلْ أو لا تفعل » . ولا يقول الله لك ذلك إلا وأنت قادر على الفعل وقادر على التَّرك .

لذلك نرى الحق تبارك وتعالى يرفع التكليف عن المعكَّره فلا يتعلق به حكم ؛ لأنه في حالة الإكراه قد يفعل ما لا يريده ولا يُحبِّبه ، وكذلك المجنون والصغير الذى لم يبلغ العقل ، كُلُّ هؤلاء لا يتعلق بهم حكم .. لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أن يضمن السلامة لآلة الترجيع فى الاختيار .. وهى العقل .

وحيثما يكون الإنسان محلَّ تكليف عليه أن يجعل الفيصل فى :

(١) البَحِيرَةُ : الناقة إذا ولدت خمسة أبطن بحرروا لذنبا أى . شقوها وأغفرها أن ينتفع بها . ولم يمنعوها من ماء ولا مرعى .

السَّائِبَةُ : الناقة التى تُسَيَّب فتترك مهملة لنذر ونحوه .

الوصيلة : الناقة تَبْكُر بَانَتْهى ثم تَتْنى بَانَتْهى فتعبد بمباركة لا تُذبح . [القاموس القويم ٣١٠/٢] .

الحامى : من الإبل الذى طال مُكَنَّته عند أصحابه حتى صار له عشرة أبطن فحموا ظهره وتركوه . [المعجم - مادة : حما] .

﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٥)

[النحل]

بلاغ المنهج بأفعل ولا تفعل : لذلك استنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين جاءوا بقول من عند أنفسهم دون رصيد من المبلغ ﷺ ، فقال تعالى في حق هؤلاء :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ... ﴾ (٢٠)

[الزخرف]

فأنكر عليهم سبحانه ذلك ، وسألهم :

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ (٢١)

[الزخرف]

وخاطبهم سبحانه في آية أخرى :

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ (٢٧)

[القلم]

وكلمة ﴿ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى : لا بُدَّ أَنْ يُبْلَغَ الْمَكْلَفُ ، فإن حصل تقصير فى ألا يُبْلَغَ الْمَكْلَفُ يُنْسَبُ التَّقْصِيرُ إِلَى أَهْلِ الدِّينِ الْحَقِّ ، الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَيْهِ ، وَالْمُنَاطَ بِهِمْ تَبْلِيغُ هَذَا الْمَنْهَجِ لِمَنْ لَمْ يَصِلْهُ . وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى الْحَثِّ عَلَى تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ لِمَنْ لَمْ يَصِلْهُ الدِّينُ .

كما قال ﷺ : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً » ^(١) وقوله ﷺ : « تَخَضَّرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتى فَوَعَاها ثُمَّ آدَاها إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، فَرُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » ^(٢) .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٦١) . وأحمد فى مسنده (١٥٩/٢ . ٢٠٢) .

والدارمى (١٣٦/١) والترمذى فى سننه (٢٦٦٩) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٧/١) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ . ٢٦٥٨) وابن ماجه

فى سننه (٢٢٢) والحميدى (١٧/١) من حديث عبدالله بن مسعود .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٣٦)

فالحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا .. ﴾ (٣٦) [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ .. ﴾ (٨٤) [النحل]

فهذه لها معنى ، وهذه لها معنى .. فقلوه :

﴿ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ .. ﴾ (٨٤) [النحل]

أى : من أنفسهم ، منهم خرج ، وبينهم تربى ودرج ، يعرفون
خصاله وصدقته ومكانته فى قومه .

أما قوله تعالى :

﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ .. ﴾ (٣٦) [النحل]

فهـ فى ، هنا تفيد الظرفية . أى : فى الأمة كلها ، وهذه تفيد
التغفل فى جميع الأمة .. فلا يصل البلاغ منه إلى جماعة دون
أخرى ، بل لا بد من عموم البلاغ لجميع الأمة .

وكذلك يقول تعالى مرة :

﴿ أَرْسَلْنَا .. (٢٦) ﴾

[الحديد]

ومرة أخرى يقول :

﴿ بَعَثْنَا .. (٣٦) ﴾

[النحل]

وهناك فرق بين المعنيين فـ ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ تفيد الإرسال ، وهو : أن يتوسط مُرْسَل إلى مُرْسَل إليه . أما ﴿ بَعَثْنَا ﴾ فتفيد وجود شيء سابق اندثر ، ونريد بعثه من جديد .

ولتوضيح هذه القضية نرجع إلى قصة آدم - عليه السلام - حيث علمه الله الاسماء كلها ، ثم أميطه من الجنة إلى الأرض . وقال :

﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾

[البقرة]

وقال في آية أخرى :

﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٧٣) ﴾

[طه]

إذن : هذا منهج من الله تعالى لآدم - عليه السلام - والمفروض أن يُبْلَغ آدم هذا المنهج لابنائه ، والمفروض في ابنائه أن يُبْلَغوا هذا المنهج لابنائهم . وهكذا ، إلا أن الغفلة قد تستحوذ على المبلِّغ للمنهج ، أو عدم رعاية المبلِّغ للمنهج فتنتطمس المناهج ، ومن هنا يبعثها الله من جديد ، فمسألة الرسالات لا تأتي هكذا فجأة لجماعة من الجماعات ، بل هي موجودة منذ أول الخلق .

فالرسالات إذن بَعَثَ لمنهج إلهى ، كان يجب أن يظل على ذكر
من الناس ، يتناقله الأبناء عن الآباء ، إلا أن الغفلة قد تصيب المبلِّغ
فلا يُبلِّغ ، وقد تصيب المبلِّغ فلا يلتزم بالبلاغ ؛ لذلك يجدد الله
الرسل .

وقد وردت آيات كثيرة فى هذا المعنى ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا^(٢٤) فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر]
وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رِثْكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا
غَافِلُونَ^(٢٥) ﴾ [الأنعام]
وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً^(٢٥) ﴾ [الإسراء]

لذلك نرى غير المؤمنين بمنهج السماء يَضْعُونَ لأنفسهم القوانين
التي تُنظِّم حياتهم ، أليس لديهم قانون يُحدِّد الجرائم وَيُعاقب عليها ؟
فلا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإبلاغ .

ومن هنا تأتى أهمية وَضْع القوانين ونشرها فى الصحف
والجرائد العامة ليعلمها الجميع ، فلا يصح أن نعاقب إنساناً على
جريمة هو لا يعلم أنها جريمة ، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أولاً ، ليعلم أن
هذا العمل عقوبته كذا وكذا ، ومن هنا تُقام عليه الحُجة .

وهنا أيضاً نلاحظ أنه قد يتعاصر الرسولان ، ألم يكن إبراهيم
ولوط متعاصرين ؟ ألم يكن شعيب وموسى متعاصرين ؟ فما علة
ذلك ؟

(٢٤) خلا : مضى وذهب وسبق . [القاموس القويم ٢٠٨/١] .

نقول : لان العالم كان قديماً على هيئة الانعزال ، فكل جماعة منعزلة في مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات ، فكانت كل جماعة في أرض لا تدرى بالأخرى ، ولا تعلم عنها شيئاً .

ومن هنا كان لكل جماعة بيئتها الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد ومُنكَرَات تناسبها ، فهؤلاء يعبدون الأصنام ، وهؤلاء يُطْفُون^(١) الكيل والميزان ، وهؤلاء يأتون الذكور دون النساء .

إذن : لكل بيئة جريمة تناسبها ، ولا بد أن نرسل الرسل لمعالجة هذه الجرائم ، كل في بلد على حدة .

لكن رسالة محمد ﷺ كانت على موعد مع التقاءات الامكنة مع وجود وسائل المواصلات ، لدرجة أن المعصية تحدث مثلاً في أمريكا فنعلم بها في نفس اليوم .. إذن : أصبحت الأجواء والبيئات واحدة ، ومن هنا كان منطقياً أن يُرسل ﷺ للناس كافة ، وللأزمنة كافة .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الشمولية بقوله :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (٢٨)﴾ [سبأ]

أي : للجميع لم يترك أحداً ، كما يقول الخياط : كُفِفَتُ القماش أي : جمعتُ بعضه على بعض ، حتى لا يذهب منه شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

(١) طفف المكيال : بخره ونقصه . [المعجم الوجيز - مادة : طفف] .

هذه هي مهمة الرسل :

﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾

[النحل]

والعبادة معناها التزامٌ بأمر فيُفعل ، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل ؛
لذلك إذا جاء مَنْ يدعى الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف
نعبدك ؟ وما المنهج الذى جِئْتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ وعن أى شىء
تنهانا ؟

فهنا أمرٌ بالعبادة ونهى عن الطاغوت ، وهذا يُسمونه تحلية
وتخلية : التخلية فى أن تعبدَ الله ، والتخلية فى أن تبتعدَ عن
الشیطان .

وعلى هذين العنصرين تُبنى قضية الإيمان حيث تقف فى :
« أشهد أن لا إله .. وإثبات فى « إلا الله » ، وكان الناطق بالشهادة
ينفى التعدد ، ويُثبت الوجدانية لله تعالى ، وبهذا تكون قد خلّيتَ
نفسك عن الشرك ، وحلّيتَ نفسك بالوجدانية .

ولذلك سيكون الجزاء عليها فى الآخرة من جنس هذه التخلية
والتخلية ؛ ولذلك نجد فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَنْ زُحِرْخَ عَنِ النَّارِ .. (١٨٥) ﴾

[آل عمران]

أى : خلّى عن العذاب .

﴿ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ .. (١٨٥) ﴾

[آل عمران]

أى : خلّى بالنعيم .

وقوله سبحانه :

﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. ﴾ (٣٦)

[النحل]

أى : ابتعدوا عن الطاغوت .. فيكون المقابل لها : تقربوا إلى الله و ﴿ الطَّاغُوت ﴾ فيها مبالغة تدل على مَنْ وصل الذُّرْوَة فى الطغيان وزاد فيه .. وقرق بين الحدث المجرد مثل طغى ، وبين المبالغة فيه مثل (طاغوت) ، وهو الذى يَزِيدُه الخضوعُ لباطله طُغْيَانًا إلى باطل أعلى :

ومثال ذلك : شاب تمرّد على مجتمعه ، وأخذ يسرق الشيء التافه القليل ، فوجد الناس يتقربون إليه ويُدَاهِنُونَه اتقاء شره ، فإذا به يترقى فى باطله فيشتري لنفسه سلاحاً يعتدى به على الأرواح ، ويسرق الغالى من الأموال ، ويصل إلى الذروة فى الظلم والاعتداء ، ولو أخذ الناس على يده منذ أول حادثة لما وصل إلى هذه الحال .

ومن هنا وجدنا الديات تتحملها العاقلة^(١) وتقوم بها عن الفاعل الجانى ، ذلك لما وقع عليها من مسئولية ترك هذا الجانى ، وعدم الأخذ على يده وكفّه عن الأذى .

ونلاحظ فى هذا اللفظ (الطاغوت) أنه لما جمع كل مبالغة فى الفعل نجده يتأبى على المطاوعة ، وكأنه طاغوت فى لفظه ومعناه ، فنراه يدخل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فنقول : رجل طاغوت ، وامرأة طاغوت ، ورجلان طاغوت ، وامرأتان

(١) العاقلة هم المصيبة ، وهم القرابة من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ . [لسان

العرب - مادة : عقل] .

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٩١٩

طاغوت ، ورجال طاغوت ، ونساء طاغوت ، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصيغ .

إذن : الطاغوت هو الذى إذا ما خضع الناس لظلمه ازداد ظلماً .

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَخَفَّ^(١) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف]

فقد وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية ، وقال :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. (٣٨) ﴾ [القصاص]

ويُحكى فى قصص المتنبيّين أن أحد الخلفاء جاءه خبر مُدَّعٍ للنبوة ، فامرهم ألاّ يهتموا بشأنه ، وأن يتركوه ، ولا يعطوا لامره بالآ لعله ينتهى ، ثم بعد فترة ظهر آخر يدعى النبوة ، فجاءوا بالاول ليرى رايه فى النبى الجديد : ما رأيك فى هذا الذى يدعى النبوة ؟ أيكم النبى ؟ فقال : إنه كذاب فرائى لم أرسل أحداً !! ظن أنهم صدقوه فى ادعائه النبوة ، فتجاوز هذا إلى ادعاء الألوهية ، وهكذا الطاغوت .

وقد وردت هذه الكلمة ﴿ الطاغوت ﴾ فى القرآن ثمانى مرات ، منها ستة تصلح للتذكير والتثانيث ، ومرة وردت للمؤنث فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَّبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا .. (١٧) ﴾ [الزمر]

ومرة وردت للمذكر فى قوله تعالى :

(١) استخفّه . استضعف عقله وسخّره وسيّره على هواه وحمله على الطيش والحمق .

[القاموس القويم ٢٠٠ / ١] . والمقصود به فى الآية فرعون .

﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا

بِهِ .. (٦٠)﴾ [النساء]

وفى اللغة كلمات يستوى فيها المذكر والمؤنث ، مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَأَن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا .. (٦٦)﴾ [الأعراف]

وقوله :

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي .. (٦٨)﴾

[يوسف]

فكلمة « سبيل » جاءت مرة للمذكر ، ومرة للمؤنث .

ثم يقول تعالى :

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ

الضَّلَالَةُ .. (٣٦)﴾ [النحل]

وقد أخذ بعضهم هذه الآية على أنها حجة يقول من خلالها : إن الهداية بيد الله ، وليس لنا دخل فى أننا غير مهتدين .. إلى آخر هذه المقولات .

نقول : تعالوا نقرأ القرآن .. يقول تعالى :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .. (١٧)﴾ [نمل]

لو كانت الهداية بالمعنى الذى تقصدون لَمَا استحبُّوا الْعَمَى وفضلوه ، لكن « هديناهم » هنا بمعنى : دللناهم وارشدناهم فقط ،

سُورَةُ الْجِنِّ

﴿٧٩٢١﴾

ولهم حَقُّ الاختِيَارِ ، وهم صالحون لهذه ولهذه ، والدلالة تأتي للمؤمن وللكافر ، دَلُّ الله الجميع ، فالذى أقبل على الله بإيمان به زاده هُدًى وآتاه تقواه ، كما قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٧)

[محمد]

ومن هذا ما يراه البعض تناقضاً بين قوله تعالى :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ..﴾ (٥٦)

[القصر]

وقوله :

﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢)

[الشورى]

حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول ﷺ الهداية فى الأولى ، وأثبتها له فى الثانية . نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية ، والمتحدث عنه واحد هو الرسول ﷺ ، فكيف يثبت حَدَثٌ واحد لمُحَدِّثٍ واحد مرّة ، وينفيه عنه مرّة ؟!

لا بد أن تكون الجهة مُنفكة .. فى :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي ..﴾ (٥٦)

[القصر]

أى : لا تستطيع أن تُدخل الإيمان فى قلب مَنْ تحب ، ولكن تدل وترشد فقط ، أما هداية الإيمان فبيد الله تعالى يهدى إليه مَنْ عنده استعداد للإيمان ، وَيَصْرِفُ عنها مَنْ أَعْرَضَ عنه ورفضه .

وكان الله تعالى فى خدمة عبده ، مَنْ أحب شيئاً أعطاه إياه ويسره له ، وبذلك هدى المؤمن للإيمان ، وختم على قلب الكافر بالكفر .

إذن : تأتي الهداية بمعنيين : بمعنى الدلالة والإرشاد كما فى الآية السابقة ، وبمعنى المعونة وشرح الصدر للإيمان كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَسَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (٥٦) [التقصير]

وقوله : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. ﴾ (١٧) [محمد]

فقوله تعالى :

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ .. ﴾ (٣٦) [النحل]

أى : هداية إيمان ومعونة بأن مكّن المنهج فى نفسه ، ويسّره له ، وشرح به صدره :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .. ﴾ (٣٦) [النحل]

حَقَّتْ : أى أصبحت حقا له ، ووجبت له بما قدّم من أعمال . لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حَقَّتْ عليهم ، وما وجبت لهم إلا بما عملوا .

وهذه كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٤) [الأنعام]

أيهما أسبق : عدم الهداية من الله لهم ، أم الظلم منهم ؟

واضح أن الظلم حدث منهم أولاً ، فسمّاهم الله ظالمين ، ثم كانت النتيجة أن حرّموا الهداية .

ونذكر هنا مثالا كثيرا ما كررناه ليرسخ فى الأذهان - وشه المثل

الاعلى - هَبْ أَنْكَ سَائِرَ فِى طَرِيقٍ تَقْصِدُ بِلْدًا مَا ، فَصَادَفَكَ مُفْتَرِقَ
لَطَرِقٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَعِلَامَاتٍ لَاتَجَاهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، عِنْدَهَا لَجَأَتْ لِرَجُلٍ
الْمُرُورِ : مِنْ فَضْلِكَ أُرِيدُ بِلْدَةً كَذَا ، فَقَالَ لَكَ : مِنْ هُنَا . فَقُلْتَ : الْحَمْدُ
لِلَّهِ ، لَقَدْ كِدْتُ أَضِلُّ الطَّرِيقَ ، وَجِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا .

فَلَمَّا وَجَدَكَ اسْتَقْبَلْتَ كَلَامَهُ بِالرِّضَا وَالْحُبِّ ، وَشَكَرْتَ لَهُ صَنِيعَهُ
أَرَادَ أَنْ يُزِيدَ لَكَ الْعَطَاءَ . فَقَالَ لَكَ : لَكِنْ فِى هَذَا الطَّرِيقِ عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ ،
وَسَوْفَ أَصْحَبُكَ حَتَّى تَمُرَّ مِنْهَا بِسَلَامٍ .

هَكَذَا كَانَتْ الْأَوَّلَى مِنْهُ مُجَرَّدَ دَلَالَةٍ ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ الْمَعُونَةُ ،
فَلَمَّا صَدَّقْتَ فِى الدَّلَالَةِ أَعَانَكَ عَلَى الْمَدْلُولِ .. هَكَذَا أَمَرَ الرِّسْلَ فِى
الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ ، وَكَيْفِيَّةِ قَبُولِ النَّاسِ لَهَا .

وَلَكِنْ أَنْ تَتَصَوَّرَ الْحَالُ لَوْ قُلْتَ لِرَجُلٍ الْمُرُورِ هَذَا : يَبْدُو أَنَّكَ
لَا تَعْرِفُ الطَّرِيقَ .. فَسَيَقُولُ لَكَ : إِنْ أَنْتَ كَمَا تُحِبُّ وَسِرٌّ كَمَا تَرِيدُ .
وَكَلِمَةُ « الضَّلَالَةِ » مِبَالِغَةٌ مِنَ الضَّلَالِ وَكَأَنَّهَا ضَلَالٌ كَبِيرٌ ، فَفِيهَا
تَضَخُّيمٌ لِلْفِعْلِ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ (٧٥)
مَدًّا .. (٧٥) ﴿

ثُمَّ يُقِيمُ لَنَا الْحَقَّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الدَّلِيلَ عَلَى بَعْثِ الرِّسْلِ فِى
الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لِنَتَأَكَّدَ مِنْ إِخْبَارِهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا أَقْسَامًا
بَيْنَ مُكْذِبٍ وَمُصَدِّقٍ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٣٦) [النحل]

فهناك شواهد وأدلة تدل على أن هنا كان ناس ، وكانت لهم حضارة اندكتْ واندثرتْ ، كما قال تعالى في آية أخرى :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ (١٢٧) [الصافات]

فأمر الله تعالى بالسياحة في الأرض للنظر والاعتبار بالأمم السابقة ، مثل : عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٣٦) [النحل]

وهل نحن نسير في الأرض ، أم على الأرض ؟

نحن نسير على الأرض .. وكذلك كان فهمنا للآية الكريمة ، لكن المتكلم بالقرآن هو ربنا تبارك وتعالى ، وعطاؤه سبحانه سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ومع الزمن تتكشف لنا الحقائق ويثبت العلم صدق القرآن وإعجازه .

فمنذ أعوام كنا نظن أن الأرض هي هذه اليابسة التي نعيش عليها ، ثم أثبت لنا العلم أن الهواء المحيط بالأرض (الغلاف الجوى) هو إكسير الحياة على الأرض ، وبدونه لا تقوم عليها حياة ، فالغلاف الجوى جزء من الأرض .

وبذلك نحن نسير في الأرض ، كما نطق بذلك الحق - تبارك وتعالى - في كتابه العزيز .

ونقف أمام مَلْحَظٍ آخر في هذه الآية :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا .. (١٣٧) ﴾ [ال عمران]

وفي آية أخرى يقول :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الانعام]

ليس هذا مجرد تَفَنُّن في العبارة ، بل لكل منهما مدلول خاص ، فالعطف بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب .

أى : يأتى النظر بعد السَّيْر مباشرة .. أما فى العطف بثم فإنها تقيد الترتيب مع التراخى . أى : مرور وقت بين الحدثين ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس]

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَانظُرُوا .. (٢٦) ﴾ [النحل]

فكان الغرض من السَّيْر الاعتبار والاتعاظ ، ولا بدّ - إذن - من وجود بقايا وأطلال تدلّ على هؤلاء السابقين المكذّبين ، أصحاب الحضارات التى أصبحت أثراً بعد عين .

وها نحن الآن نفخر بما لدينا من أبنية حجرية مثل الأهرامات مثلاً ، حيث يفد إليها السُّيَّاح من شتى دول العالم المتقدم ؛ لِيَرَوْا ما عليها هذه الحضارة القديمة من تطوُّر وتقدُّم يُعْجزهم ويُحيرهم ، ولم يستطيعوا فكّ طلاسمه حتى الآن .

(١) أنشره : أحياه وأوجده . قال تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس] بعث من قبره .

[القاموس القويم ٢/ ٢٦٦] .

ومع ذلك لم يترك الفراغة ما يدل على كيفية بناء الامرات ،
أو ما يدل على كيفية تحنيط الموتى : مما يدل على أن هؤلاء القوم
أخذوا أخذة قوية اندثرت معها هذه المراجع وهذه المعلومات . كما
قال تعالى :

﴿ هَلْ تُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ^(١) ﴾ (٩٨)

وقد ذكر لنا القرآن من قصص هؤلاء السابقين الكثير كما في
قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ^(٢) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ^(٣) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ^(٤) ﴾ (٨)

[الفجر]

وقال :

﴿ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ^(٥) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ^(٦)
الَّذِينَ ظَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ^(٧) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ^(٨) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطًا ^(٩) عَذَابٍ ^(١٠) ﴾ (١٢)

[الفجر]

هذا ما حدث للمكذبين في الماضي ، وإياكم أن تظنوا أن الذي
يأتي بعد ذلك بمنجى عن هذا المصير .. كلا :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ^(١١) ﴾ (١٤)

[الفجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) الركز - الحس والصوت الخفى تسمعه من بعيد . [لسان العرب - مادة ركز] .

(٢) يعنى يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس ينحتونها ويفرقونها . [تفسير ابن كثير ٥٠٨/٤] .

(٣) قال الفراء هذه الكلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب يدخل فيه السوط جرى به
الكلام والمثل . وهو عندهم غاية العذاب . [لسان العرب - مادة : سوط] .

﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ۖ
وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٣٧)

يُسَلِّي الحق تبارك وتعالى رسوله ﷺ ، ويثبت له حرصه على
أمته ، وأنه يُحْمَلُ نفسه في سبيل هدايتهم فوق ما حَمَلَهُ الله ، كما
قال له في آية أخرى :

﴿لَعَلَّكَ بَاقِعٌ^(١) نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٤)

[الشعراء]

ويقول تعالى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨)

[التوبة]

ثم بعد ذلك يقطع الحق سبحانه الأمل أمام المكذابين المعاندين ،
فيقول تعالى :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ..﴾ (٣٧)

[النحل]

أى : لا يضل إلا مَنْ لم يقبل الإيمان به فَيَدْعُهُ إلى كفره ، بل
ويطمس على قلبه غير مأسوف عليه ، فهذه إرادته ، وقد أجابه الله
إلى ما يريد .

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٣٧)

[النحل]

(١) باخع : مهلك . باخع نفسه : قتلها مما وغىظاً وحزناً .

إذن : المسألة ليست مجرد عدم الهداية ، بل هناك معركة لا يجدون لهم فيها ناصراً أو معيناً يُخلصهم منها ، كما قال تعالى :

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء]

إذن : لا يهدي الله مَنْ اختار لنفسه الضلال ، بل سيُعَذِّبه عذاباً لا يجد مَنْ ينصره فيه .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ
وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)﴾

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ .. (٢٨)﴾ [النمل]

سبحان الله !! كيف تُقسمون بالله وأنتم لا تؤمنون به ؟! وما مدلول كلمة الله عندكم ؟.. هذه علامة غباء عند الكفار ودليل على أن موضوع الإيمان غير واضح في عقولهم ؛ لأن كلمة الله نفسها دليل على الإيمان به سبحانه ، ولا توجد الكلمة في اللغة إلا بعد وجود ما تدل عليه أولاً .. فالتفزيون مثلاً قبل أن يوجد لم يكن له اسم ، ثم بعد أن وُجد أوجدوا له اسماً .

(١) ذكر الواحدي في سبب نزول هذه الآية أنه كان لرجل من المسلمين على مشرك نئين فتقاضاه . فكان فيما تكلم به المسلم . والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا . فاقسم المشرك بالله لا يبعث الله من يموت . فنزلت الآية [أسباب النزول للواحدي ص ١٦٠] . [تفسير القرطبي ٢٨٢٩/٥] .

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٩٢٩

إذن : توجد المعانى أولاً ، ثم توضع للمعانى أسماء ، فإذا رأيت اسماً يكون معناه قبله أم بعده ؟ يكون قبله .. فإذا قالوا : الله غير موجود نقول لهم : كذبتُم ! لأن كلمة الله لفظ موجود فى اللغة ، ولا بدُّ أن لها معنىً سبق وجودها .

إذن : فالإيمان سابق للكفر .. وجاء الكفر منطقياً : لأن معنى الكفر : السُّتْر .. والسؤال إذن : ماذا ستر ؟ ستر الإيمان ، ولا يستر إلا موجوداً ، وبذلك نقول : إن الكفر دليل على الإيمان .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. ﴾ (٣٨) [النحل]

أى : مبالغين فى اليمين مؤكدينه ، وما أقرب غيابة هم هنا بما قالوه فى آية أخرى :

﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ انزِلْ عَلَيْنَا بَعِذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣٧) [الأنفال]

فليس هذا بكلام العقلاء . وكان ما أقسموا عليه بالله أنه :

﴿ لَا يَمُتُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .. ﴾ (٣٨) [النحل]

وهذا إنكار للبعث ، كما سبق وأن قالوا :

﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢) [المؤمنون]

فيرد عليهم الحق سبحانه ﴿ بَلَى ﴾ .

وهى أداة لنفى النفى السابق عليها ، وأهل اللغة يقولون : نفى النفى إثبات ، إذا « بلى » تنفى النفى قبلها وهو قولهم :

[النحل]

﴿ لَا يَمُوتُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .. ﴾ (٣٨)

فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

[النحل]

﴿ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. ﴾ (٣٨)

والوعد هو الإخبار بشيء لم يأت زمنه بعد ، فإذا جاء وعدٌ بحدث يأتي بعد ننظر فيمن وعد : أقادر على إيجاد ما وعد به ؟ أم غير قادر ؟

فلان كان غير قادر على إنفاذ ما وعد به لانه لا يضمن جميع الأسباب التي تعينه على إنفاذ وعده ، قلنا له قل : إن شاء الله .. حتى إذا جاء موعد التنفيذ فلم تف بوعدك التمسنا لك عذراً ، وحتى لا توصف ساعتها بالكذب ، فقد نسبت الأمر إلى مشيئة الله .

والحق - تبارك وتعالى - لا يمنعنا أن نخطئ للمستقبل ونعمل كذا ونبنى كذا .. نخطئ كما تحب ، واعتد للمستقبل عدته ، لكن أردف هذا بقولك : إن شاء الله ؛ لأنك لا تملك جميع الأسباب التي تمكن من عمل ما تريد مستقبلاً ، وقد قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولْنِ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٣٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ (٣٤)

[الكهف]

ونضرب لذلك مثلاً : هب أنك أردت أن تذهب غداً إلى فلان لتكلمه في أمر ما .. هل ضمننت لنفسك أن تعيش لغد ؟ وهل ضمننت أن هذا الشخص سيكون موجوداً غداً ؟ وهل ضمننت ألا يتغير الداعي الذي تريده ؟ وربما توفرت لك هذه الظروف كلها ، وعند الذهاب ألم بك

سُورَةُ الْجِنِّ

٧٩٣١

عائق منكم من الذهاب . إذن : يجب أن تُردف العمل في المستقبل
بقولنا : إن شاء الله .

أما إذا كان الوعد من الله تعالى فهو قادر سبحانه على إنفاذ
ما يعد به : لأنه لا قوة تستطيع أن تقف أمام مُرادِه ، ولا شيء
يُعجزه في الأرض ولا في السماء ، كان الوعد منه سبحانه (حقاً)
أن يُوفيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨)

[النحل]

أى : لا يعلمون أن الله قادر على البعث ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴾ (١٠) [السجدة]

وقال : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا^(١) أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا

[الإسراء]

﴿ (١٩) ﴾

فقد استبعد الكفار أمر البعث : لانهم لا يتصورون كيف يبعث
الله الخلق من لُدن آدم - عليه السلام - حتى تقوم الساعة .. ولكن
لَمْ تستبعدون ذلك ؟ وقد قال تعالى :

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (٢٨)

[لقمان]

فالامر ليس مزاولة يجمع الله سبحانه بها جزئيات البشر كل على
حدة .. لا .. ليس في الامر مزاولة أو معالجة تستغرق وقتاً .

(١) رفت الشوه . جعله رفاقاً أى بقه وكسره وجعله قطعاً صغيرة . [القاموس القويم

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) [يس]

ونضرب لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - فنحن نرى مثل هذه الأوامر في عالم البشر عندما يأتى المعلم أو المدرب الذى يُدرب الجنود نراه يعلم ويُدرب أولاً ، ثم إذا ما أراد تطبيق هذه الأوامر فإنه يقف أمام الجنود جميعاً وبكلمة واحدة يقولها يمثل الجميع ، ويقفون على الهيئة المطلوبة ، هل أمسك المدرب بكل جندي وأوقفه كما يريد ؟! لا .. بل بكلمة واحدة ثم له ما يريد .

وكان انضباط المأمور وطاعته للأمر هو الأصل ، كذلك كل الجزئيات فى الكون منضبطة لأمره سبحانه وتعالى .. هى كلمة واحدة بها يتم كل شيء .. فليس فى الأمر معالجة ، لأن المعالجة أن يُباشِر الفاعل بجزئيات قدرته جزئيات الكائن ، وليس البعث هكذا .. بل بالأمر الانضباطى : كن .

ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) [النحل]

نقول : الحمد لله أن هناك قليلاً من الناس يعلمون أمر البعث ويؤمنون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَيْسَ لَهِمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ (٣٥)

فمعنى قوله تعالى :

﴿لَيَبَيِّنَنَّ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ .. (٣٩)﴾ [النحل]

أى : من أمر البعث : لان القضية لا تستقيم بدون البعث والجزاء ؛ ولذلك كنت فى جدالى للشيوعيين أقول لهم : لقد أدركتم رأسماليين شرسين ومفتريين ، شربوا دم الناس وعملوا كذا وكذا .. فماذا فعلتم بهم ؟ يقولون : فعلنا بهم كيت وكيت ، فقلت : ومن قبل وجود الشيوعية سنة ١٩١٧ ، ألم يكن هناك ظلمة مثل هؤلاء ؟ قالوا : بلى .

قلت : إذن من مصلحتكم أن يوجد بعث وحساب وعقاب لا يفلت منه هؤلاء الذين سبقوكم ، ولم تستطيعوا تعذيبهم .

ثم يأتى فصل الخطاب فى قوله تعالى :

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾ [النحل]

أى : كاذبين فى قولهم :

﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .. (٣٨)﴾ [النحل]

وذلك علم يقين ومعينة ، ولكن بعد فوات الاوان ، فالوقت وقت حساب وجزاء لا ينفع فيه الاعتراف ولا يُجدى التصديق ، فالآن يعترفون بأنهم كانوا كاذبين فى قسَمهم : لا يبعث الله مَنْ يَمُوت وبالغوا فى الأيمان وأكثدوها ؛ ولذلك يقول تعالى عنهم فى آية أخرى :

﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْحِثِّ^(١) الْعَظِيمِ﴾ [٤٦]

[الواقعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ

لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٤٠]

إذن : أمر البعث ليس علاجاً لجزئيات كل شخص وضم أجزاءه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة ، بل المسألة منضبطة تماماً مع الأمر الإلهي (كُنْ) .

وبمجرد صدوره ، ودون حاجة لوقت ومزاولة يكون الجميع ماثلاً طائعاً ، كل واحد منتظر دوره ، منتظر الإشارة : ولذلك جاء في الخبر : « أمور بيديها ولا يبتديها » .

فالامر يتوقف على الإذن : اظهر يظهر .

ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - من يعد القنبلة الزمنية مثلاً ، ويضبطها على وقت معين .. تظل القنبلة هذه إلى وقت الانفجار الذي وُضِعَ فيها ، ثم تنفجر دون تدخل من صانعها .. مجرد الإذن لها بالانفجار تنفجر .

وحتى كلمة (كُنْ) نفسها تحتاج لزمن ، ولكن ليس هناك أقرب منها في الإذن .. وإن كان الأمر في حقه تعالى لا يحتاج إلى كُنْ ولا غيره .

(١) الحِثُّ الخُلْفُ في البعير . وهو أيضاً الذنب العظيم والإثم . وقيل : هو الشرك . [لسان العرب - مادة : حث] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآ أَجْرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١)

المهاجرون قوم آمنوا بالله إيماناً صار إلى مرتبة من مراتب اليقين جعلتهم يتحملون الأذى والظلم والاضطهاد في سبيل إيمانهم ، فلا يمكن أن يُضحى الإنسان بماله وأهله ونفسه إلا إذا كان لأمراً يقينياً .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الذي أنكره الكافرون والحرأ في إنكاره وبالفوا فيه ، بل وأقسموا على ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ۖ ﴾ (٣٨) [النحل]

وهم يعلمون أن من الخلق مَنْ يُسَاء ، ومنهم من يُحْسِن ، فهل يعتقدون - في عُرْف العقل - أن يترك الله مَنْ أَسَاء ليعرِّد في خلق الله دون أن يُجَازِيَهُ ؟

ذلك يعني أنهم خائفون من البعث ، فلو أنهم كانوا محسنين لَتَمَنُّوا البعث ، أما وقد أسرفوا على أنفسهم إسرافاً يُشْفِقُونَ معه على أنفسهم من الحساب والجزاء ، فمن الطبيعي أن يُنْكِرُوا البعث ،

(١) بواه - أسكته . وبواه في الأرض . مَكَّنْ له فيها . والمعنى أي نزلهم منزلة حسنة بالنصر وإغداق النعم عليهم في الدنيا . [القاموس القويم ٨٨/١] .

ويلجأوا إلى تمنية أنفسهم بالأمانى الكاذبة ، ليطمئنوا على أن ما أخذوه من مظالم الناس وبماثهم وكرامتهم وأمنهم أمراً لا يحاسبون عليه .

وإذا كانوا قد أنكروا البعث ، ويوجد رسول ومعه مؤمنون به يؤمنون بالبعث والجزاء إيماناً يصل إلى درجة اليقين الذى يدفعهم إلى التضحية فى سبيل هذا الإيمان .. إذن : لا بدُّ من وجود معركة شرسة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معركة بين الحق والباطل .

ومن حكمة الله أن ينتشر الإسلام فى بدايته بين الضعفاء ، حتى لا يظن ظناً أن المؤمنين فرضوا إيمانهم بالقوة ، لا .. هؤلاء هم الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، والكلار هم السادة .. إذن : جاء الإسلام ليعاند الكبار الصناديد العتاة .

وكان من الممكن أن ينصر الله هؤلاء الضعفاء ويُعلى كلمة الدين من البداية ، ولكن أراد الحق تبارك وتعالى أن تكون الصيحة الإيمانية فى مكة أولاً : لأن مكة مركز السيادة فى جزيرة العرب ، وقریش هم أصحاب المهابة وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولا تقوى أى قبيلة فى الجزيرة أن تعارضها ، ومعلوم أنهم أخذوا هذه المكانة من رعايتهم لبيت الله الحرام وخدمتهم للوافدين إليه^(١) .

فلو أن الإسلام اختار بقعة غير مكة لَقَالُوا : إن الإسلام استضعف جماعة من الناس ، وأغراهم بالقول حتى آمنوا به . لا ،

(١) يدل على هذا قوله تعالى ﴿ أَجْعَلُكُمْ سِقَاةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٣) ﴾ [التوبة] .

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٩٢٧

فَالصِّحَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ جَاءَتْ فِي أُذُنِ سَادَةِ قَرِيْشٍ وَسَادَةِ الْجَزِيْرَةِ الَّذِيْنَ أَمْنُهُمْ اللهُ فِي رَحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ وَأَصْحَابُ الْمَالِ .

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَلَمَّاذَا لَمْ يَنْصُرِ اللهُ دِيْنَهُ فِي بِلَدِ السَّادَةِ ؟
نَقُولُ : لَا .. الصِّحَّةُ فِي أُذُنِ الْبَاطِلِ تَكُونُ فِي بِلَدِ السَّادَةِ فِي مَكَّةَ ،
لَكِنْ نُصْرَةُ الدِّيْنِ لَا تَأْتِي عَلَى يَدِ هَؤُلَاءِ السَّادَةِ ، وَإِنَّمَا تَأْتِي فِي الْمَدِيْنَةِ .

وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى لَا يَقُولَ قَائِلٌ فِيْمَا بَعْدَ : إِنْ الْعَصْبِيَّةُ لِمُحَمَّدٍ فِي مَكَّةَ فَرَضْتُ الْإِيْمَانَ بِمُحَمَّدٍ .. لَا بَلْ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْإِيْمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْعَصْبِيَّةَ لِمُحَمَّدٍ ، فَجَاءَ لَهُ بِعَصْبِيَّةٍ بَعِيْدَةٍ عَنْ قَرِيْشٍ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ دَانَتْ لَهَا قَرِيْشٌ نَفْسَهَا .

وَمَا دَامَتْ هُنَاكَ مَعْرَكَةٌ ، فَمَنْ الْمَطْحُونُ فِيْهَا ؟ الْمَطْحُونُ فِيْهَا هُوَ الضَّعِيْفُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ .. وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا .. ظَلَمُوا فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَعِيشُوْنَ فِيْهِ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ وَلَا بُدَّ أَنْ يَرْفَعَ اللهُ عَنْهُمْ هَذَا الظُّلْمَ .

وَقَدْ جَاءَ رَفْعُ الظُّلْمِ عَنْ هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءِ عَلَى مَرَاكِلَ .. فَكَانَتْ الْمَرَحْلَةُ الْأُولَى أَنْ يَنْتَقِلَ الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنْ مَكَّةَ ، لَا إِلَى دَارِ إِيْمَانٍ تَحْمِيْهِمْ وَتُسَاعِدُهُمْ عَلَى نَشْرِ دِيْنِهِمْ ، بَلْ إِلَى دَارِ أَمْنٍ فَقَطْ يَأْمَنُونَ فِيْهَا عَلَى دِيْنِهِمْ .. مَجْرَدُ أَمْنٍ يَتِيْحُ لَهُمْ فُرْصَةُ آدَاءِ أَوَامِرِ الدِّيْنِ .

وَلِذَلِكَ اسْتَعْرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْبِلَادَ كُلَّهَا لِيَنْظُرَ أَيُّ الْأَمَاكِنِ تَصْلِحُ دَارَ أَمْنٍ يَهَاجِرُ إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ بِدَعْوَتِهِ فَلَا يَعَارِضُهُمْ أَحَدٌ ، فَلَمْ

يجد إلا الحبشة ؛ ولذلك قال عنها : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلادها حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » ^(١) .

وتكفي هذه الصفة في ملك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون ، ففي هذه المرحلة من نُصْرَةِ الدين لا نريد أكثر من ذلك ، وهكذا تمت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

ثم يسّر الله لدينه أتباعاً وأنصاراً التقوا برسول الله ﷺ وبايعوه على النُصْرَةِ والتأييد ، ذلكم هم الأنصار من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة ومهدوا للهجرة الثانية إلى المدينة ، وهي هجرة - هذه المرة - إلى دار أمن وإيمان ، يأمن فيها المسلمون على دينهم ، ويجدون الفرصة لنشره في ربوع المعمورة .

ونقف هنا عند قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا .. (٤١) ﴾

[النحل]

ومادة هذا الفعل : هجر .. وهناك فَرْقٌ بين هجر وبين هاجر :

هجر : أن يكره الإنسانُ الإقامةَ في مكان ، فيتركه إلى مكان آخر يرى أنه خَيْرٌ منه ، إنما المكان نفسه لم يكرهه على الهجرة .. أي المعنى : ترك المكان مختاراً .

أما هاجر : وهي تدل على المفاعلة من الجانبين ، فالفاعل هنا

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٠١/٢) ، وأورده ابن هشام في السيرة النبوية بنحوه (٢٢١/١) .

ليس كارهاً للمكان ، ولكن المفاعلة التي حدثت من القوم هي التي اضطرته للهجرة .. وهذا ما حدث في هجرة المؤمنين من مكة ؛ لأنهم لم يتركوها إلى غيرها إلا بعد أن تعرضوا للاضطهاد والظلم ، فكانهم بذلك شاركوا في الفعل ، فلو لم يتعرضوا لهم ويظلموهم لما هاجروا .

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا .. ﴾ (٤١)

[النحل]

وينطبق هذا المعنى على قول المتنبي^(١) :

إذا ترحلتَ عن قومٍ وقدَ قدرُوا ألا تُفارقهم فالراحلون همُوا

يعنى : إذا كنت في جماعة وأردت الرحيل عنهم ، وفي إمكانهم أن يقدموا لك من المساعدة ما يُيسر لك الإقامة بينهم ولكنهم لم يفعلوا ، وتركوك ترحل مع مقدرتهم ، فالراحلون في الحقيقة هم ، لأنهم لم يساعدوك على الإقامة .

كذلك كانت الحال عندما هاجر المؤمنون من مكة ؛ لأنه أيضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكة وفيها البيت الحرام الذي يتمنى كل مسلم الإقامة في جواره .

إذن : لم يترك المهاجرون مكة ، بل اضطروا إلى تركها وأجبروا

(١) هو : أحمد بن الحسين ، أبو الطيب المتنبي ، ولد بالكوفة (٢٠٢ هـ) . قال الشاعر صيباً ، ادعى النبوة في بادية السماوة وسجنه أمير حمص حتى تاب ورجع عن دعواه . وفد على الحكام والولاة فمدحهم شعراً وحظى عندهم ، زار حلب ومصر وبغداد وفارس وقتل بالنعمانية على يد فاتك بن أبي جهل عام (٣٥٤ هـ) عن ٥١ عاماً . (الإعلام ١/ ١١٥) .

عليه ، وطبيعى إذن أن يلجأوا إلى دار أخرى حتى تقوى شوكتهم ،
ثم يعودون للإقامة ثانية فى مكة إقامة طبيعية صحيحة .

ثم إن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿ هَاجِرُوا إِلَى اللَّهِ .. (٤١) ﴾

[النحل]

ونلاحظ فى الحديث الشريف الذى يوضح معنى هذه الآية :

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ،
ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها^(١) فهجرته إلى ما
هاجر إليه »^(٢) .

فما الفرق هنا بين : هاجر فى الله ، وهاجر إلى الله ؟

هاجر إلى مكان تدل على أن المكان الذى هاجر إليه أفضل من
الذى تركه ، وكان الذى هاجر منه ليس مناسباً له .

أما هاجر فى الله فتدل على أن الإقامة السابقة كانت أيضاً فى
الله .. إقامتهم نفسها فى مكة وتحملهم الأذى والظلم والاضطهاد كانت
أيضاً فى الله .

أما لو قالت الآية « هاجروا إلى الله » لدل ذلك على أن إقامتهم
الأولى لم تكن لله .. إذن : معنى الآية :

(١) أخرج سعيد بن منصور من قول ابن مسعود أن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها
أم قيس ، فكان يقال له : مهاجر أم قيس . [لورده ابن حجر فى فتح البارى ١٠/١] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) . وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧)
من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

﴿ هَاجِرُوا فِي اللَّهِ .. ﴾ (٤١) [النحل]

أى : أن إقامتهم كانت لله ، ومجرتهم كانت لله .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴾ (١٣٣) [آل عمران]

أى : إذا لم تكونوا فى مغفرة فسارعوا إلى المغفرة ، وفى الآية الأخرى :

﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (٦١) [المؤمنون]

ذلك لانهم كانوا فى خير سابق ، وسوف يسارعون إلى خير آخر .. أى : أنتم فى خير ولكن سارعوا إلى خير منه .

وهناك ملحق آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا .. ﴾ (٤١) [النحل]

نلاحظ أن كلمة « الذين » جمع .. لكن هل هى خاصة بمن نزلت فيهم الآية ؟ أم هى عامة فى كل مَنْ ظَلِمَ فى أى مكان - فى الله - ثم هاجر منه ؟

الحقيقة أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى عامة فى كل مَنْ انطبقت عليه هذه الظروف ، فإن كانت هذه الآية نزلت^(١) فى نفر من الصحابة منهم : صُهَيْب ، وعمار ، وخباب ، وبلال ، إلا أنها تنتظم غيرهم مِنْ اضْطُرُوا إلى الهجرة فراراً بدينهم .

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٠) ، والقرطبى فى تفسيره (٢٨٢١/٥) ..

ونعلم قصة صهيب رضى الله عنه - وكان رجلاً حداداً - لما أراد أن يهاجر بدينه ، عرض الأمر على قريش : والله أنا رجل كبير السن ، إن كنت معكم فلن أنفعكم ، وإن كنت مع المسلمين فلن أضايقكم ، وعندى مال .. خذوه واتركوني أهاجر ، فرضوا بذلك ، وأخذوا مال صهيب وتركوه لهجرته .

ولذلك قال له ﷺ : « ربح البيع يا صهيب » ^(١) أى : بيعة رابحة . ويقول له عمر - رضى الله عنه : « نعم العبدُ صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » .

وكان عدم عصيانه ليس خوفاً من العقاب ، بل حباً فى الله تعالى ، فهو سبحانه لا يستحق أن يعصى .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَتَبُوَنَّهَمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً .. ﴾ (٤١)

[النحل]

نُبَوِّىء ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴾ (٢٦)

[الحج]

أى : بينا له مكانه ، ونقول : بآء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه ، فالإنسان يخرج للسعى فى مناكب الأرض فى زراعة أو تجارة ، ثم يآوى ويبيوء إلى بيته ، إذن : بآء بمعنى رجع ، أو هو مسكن الإنسان ، وما أعدّه الله له .

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٥١/١ ، ١٥٢) من حديث صهيب رضى الله عنه .

وكذا الحاكم فى مستدرکه (٣٩٨/٢) .

فإن كان المؤمنون سيخرجون الآن من مكة مغلوبين مضطهدين فسوف نعطيهم ونُحلّهم ونُنزّلهم منزلة أحسن من التي كانوا فيها ، فقد كانوا مضطهدين في مكة ، فاصبحوا آمنين في المدينة ، وإن كانوا تركوا بلدهم فسوف نُعهد لهم الدنيا كلها ينتشرون فيها بمنهج الله ، ويجنّون خير الدنيا كلها ، ثم بعد ذلك نُرجعهم إلى بلدهم سادة أعزة بعد أن تكون مكة بلداً لله خالصة من عبادة الاوثان والاصنام .. هذه هي الحسنة في الدنيا .

ثم يقول تعالى :

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١)﴾ [النحل]

ما ذكرناه من حسنة الدنيا وخيرها للمؤمنين هذا من المعجّلات للعمل ، ولكن حسنات الدنيا مهما كانت ستؤول إلى زوال ، إما أن تفارقها ، وإما أن تفارقه ، وقد أنجز الله وعده للمؤمنين في الدنيا ، فعادوا منتصرين إلى مكة ، بل دانت لهم الجزيرة العربية كلها بل العالم كله ، وانساحوا في الشرق في فارس ، وفي الغرب في الرومان ، وفي نصف قرن كانوا سادة العالم أجمع .

وإن كانت هذه هي حسنة الدنيا المبجّلة ، فهناك حسنة الآخرة المؤجلة :

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١)﴾ [النحل]

أي : أن ما أعدّ لهم من نعيم الآخرة أعظم مما وجدوه في الدنيا . ولذلك كان سيدنا عمر - رضى الله عنه - إذا أعطى أحد الصّحابة

نصيب المهاجرين من العطاء يقول له : « بارك الله لك فيه .. هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أكبر من هذا »^(١)
فهذه حسنة الدنيا .

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ..﴾ (٤١) [النحل]

وساعة أن تسمع كلمة (أكبر) فاعلم أن مقابلها ليس أصغر أو صغير ، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدنيا التي بوأهم الله إياها هي (الكبيرة) ، لكن ما ينتظرهم في الآخرة (أكبر) .

وكذلك قد تكون صيغةً أفعال التفضيل أقل في المدح من غير أفعال التفضيل .. فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) في حين أن الأكبر صفة من صفاته تعالى ، وليس اسماً من أسمائه ، وفي شعار ندائنا لله نقول : الله أكبر ولا نقول : الله كبير .. ذلك لأن كبير ما عداه يكون صغيراً .. إنما أكبر ، ما عداه يكون كبيراً ، فنقول في الأذان : الله أكبر لأن أمور الدنيا في حق المؤمن كبيرة من حيث هي وسيلة للآخرة .

فإياك أن تظن أن حركة الدنيا التي تتركها من أجل الصلاة أنها صغيرة ، بل هي كبيرة بما فيها من وسائل تُعينك على طاعة الله ، فبها تاكل وتشرب وتتقوى ، وبها تجمع المال لتسد به حاجتك ، وتؤدي الزكاة إلى غير ذلك ، ومن هنا كانت حركة الدنيا كبيرة ، وكانت الصلاة والوقوف بين يدي الله أكبر .

(١) أورد هذا الأثر القرطبي في تفسيره (٣٨٢٢/٥) ، وابن كثير في تفسيره (٥٧٠/٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٢٢/٥) وعزاه لابن جرير الطبري وابن المنذر .

ولذلك حينما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَفَرُّوا الْبَيْعَ .. (٩)﴾
[الجمعة]

أخرجنا بهذا النداء من عمل الدنيا وحركتها ، ثم قال :

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠)﴾
[الجمعة]

فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة : لأنها الوسيلة للدار الآخرة ، والمزرعة التي تُعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .. إذن : الدنيا أهم من أن تُنسى من حيث هي معونة للآخرة ، ولكنها أتفه من أن تكون غاية في حد ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١١)﴾
[النحل]

الخطاب هنا عن مَنْ ؟ الخطاب هنا يمكن أن يتجه إلى ثلاثة أشياء :

يمكن أن يُراد به الكافرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون عاقبة الإيمان وجزاء المؤمنين لأثروا على الكفر .

ويمكن أن يُراد به المهاجرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون لازدادوا في عمل الخير .

وأخيراً قد يُراد به المؤمن الذي لم يهاجر .. ويكون المعنى : لو كان يعلم نتيجة الهجرة لسارع إليها .

وهذه الأوجه التي يحتملها التعبير القرآني دليل على ثراء الأداء
وبلاغة القرآن الكريم ، وهذا ما يسمونه تريب الفوائد .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٤٤)

الحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا تشريحا لحال المهاجرين ،
فقد ظلموا واضطهدوا وأوذوا في سبيل الله ، ولم يفتنهم هذا كله عن
دينهم ، بل صبروا وتحملوا ، بل خرجوا من أموالهم وأولادهم ،
وتركوا بلدهم وأرضهم في سبيل دينهم وعقيدتهم ، حدث هذا منهم
اتكالا على أن الله تعالى لن يضيعهم .

ولذلك جاء التعبير القرآني هكذا ﴿ صَبَرُوا ﴾ بصيغة الماضي ،
فقد حدث منهم الصبر فعلا ، كأن الإيذاء الذي صبروا عليه فترة
مضت وانتهت ، والباقي لهم عزة ومنعة وقوة لا يستطيع أحد أن
يضطهدهم بعد ذلك ، وهذه من البشارات في الأداء القرآني .

أما في التوكل ، فقال تعالى في حقهم :

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٤٧)

[النحل]

بصيغة المضارع : لأن التوكل على الله حدث منهم في الماضي ،
ومستمرون فيه في الحاضر والمستقبل ، وهكذا يكون حال المؤمن .

وبعد ذلك تكلم القرآن الكريم عن قضية وقف منها الكافرون أيضا
موقف العناد والمكابرة والتكذيب ، وهي مسألة إرسال الرسل ، فقال
تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَاً لَّا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣)

وقد اعترض المعاندون من الكفار على كون الرسول بشراً .
وقالوا : إذا أراد الله أن يرسل رسولاً فينبغي أن يكون ملكاً فقالوا :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً .. ﴾ (٢٤) [المؤمنون]

وكانهم استقلوا الرسالة عن طريق بشر : وهذا أيضاً من غيباء الكفر وحمافة الكافرين : لأن الرسول حين يبلغ رسالة الله تقع على عاتقه مسئوليتان : مسئولية البلاغ بالعلم ، ومسئولية التطبيق بالعمل ونموذجية السلوك .. فيأمر بالصلاة ويصلي ، وبالزكاة ويؤتي ، وبالصبر ويصبر ، فليس البلاغ بالقول فقط ، لا بل بالسلوك العملي النموذجي .

ولذلك كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول عن رسول الله ﷺ : « كان خلقه القرآن »^(١)

وكان قرآناً يمشي على الأرض ، والمعنى : كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذي جاء به من الحق تبارك وتعالى .

ويقول تعالى في حقه ﷺ :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴾ (٢١) [الأحزاب]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩١/٦ ، ١٦٣) . والبيهقي في دلائل النبوة (٣١٠/١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

فكيف نتصور أن يكون الرسول ملكاً ؟ وكيف يقوم بهذه الرسالة بين البشر ؟ قد يؤدي الملك مهمة البلاغ ، ولكن كيف يؤدي مهمة القدوة والتطبيق العملي النموذجي ؟ كيف ونحن نعلم أن الملائكة خلقُ جُبلوا على طاعة الله :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦) [التحريم]

ومن أين تأتيه منافذ الشهوة وهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ؟

فلو جاء ملك برسالة السماء ، وأراد أن ينهي قومه عن إحدى المعاصي ، ماذا نتوقع ؟ نتوقع أن يقول قائلهم : لا .. لا أستطيع ذلك ، فانت ملك ذو طبيعة علوية تستطيع ترك هذا الفعل ، أما أنا فلا أستطيع .

إذن : طبيعة الأسوة تقتضي أن يكون الرسول بشراً ، حتى إذا ما أمر كان هو أول المؤتمرين ، وإذا ما نهى كان هو أول المنتهين . ومن هنا كان من استئان الله على العرب ، ومن فضله عليهم أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴾ (١٢٨) [النوبة]

فهو أولاً من أنفسكم ، وهذه تعطيه المباشرة ، ثم هو بشر ، ومن العرب وليس من أمة أعجمية .. بل من بينكم ، ومن نفس بلدكم مكة ومن قريش ؛ ذلك لتكونوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه وسلوكه ، تعرفون حركاته وسكناته ، وقد كنتم تعترفون له بالصدق

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٩٤٩

والامانة ، وتاتمنونه على كل غَال ونفيس لديكم لعلمكم بامانتته ،
فكيف تكفرون به الآن وتتهمونه بالكذب !؟

لذلك رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى في آية أخرى فقال :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا
رُّسُولًا ۖ﴾ (٩٤) [الإسراء]

فالذى صدَّكم عن الإيمان به كَوْنُهُ بشراً !!

ثم نأخذ على هؤلاء مأخذاً آخر : لأنهم تنازلوا عن دعواهم هذه
بأن يأتى الرسول من الملائكة وقالوا :

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ^(١) عَظِيمٍ ۖ﴾ [الزخرف]

فهذا تردُّ عجيب من الكفار ، وعدم ثبات على رأى .. مجرد
لجاجة وإنكار ، وقديماً قالوا : إِنْ كُنْتَ كَذُوبًا فَكُنْ ذَكُورًا .

ويرد عليهم القرآن :

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَحْمِسُونَ مَعْشَرَيْنِ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّن
السَّمَاءِ مَلَكًا رُّسُولًا ۖ﴾ (٩٥) [الإسراء]

قلو كان فى الارض ملائكة لنزلنا لهم ملكاً حتى تتحقق الأسوة .

إذن : لا بُدُّ فى القدوة من اتحاد الجنس .. ولنضرب لذلك مثلاً :
هَبْ أَنْكَ رَأَيْتَ أَسَدًا يَثُورُ وَيَجُولُ فِي الْغَابَةِ مَثَلًا يَفْتَرِسُ كُلَّ مَا أَمَامَهُ ،

(١) يقصدون مكة والطائف . وقد ذكر غير واحد أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وهرة بن
مسعود الثقفى . قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٧/٤) . . والظاهر أن مرادهم رجل كبير
من أى البلدتين كان . .

ولا يستطيع أحد أن يتعرض له .. هل تفكر ساعتها أن تصير أسداً ؟
لا .. إنما لو رأيت فارساً يمسك بسيفه ، ويطيح به رقاب الأعداء ..
الآن تحب أن تكون فارساً ؟ بلى أحب .

فهذه هي القدوة الحقيقية النافعة ، فإذا ما اختلف الجنس فلا
تصلح القدوة .

وهنا يرد الحق تبارك وتعالى على افتراءات الكفار بقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ [٤٢]

أى : أنك يا محمد لست بدعاً^(١) فى الرسل ، فمن سبقوك كانوا
رجالاً طيلة القرون الماضية ، وفى موكب الرسالات جميعاً .

وجاءت هنا كلمة ﴿ رجالاً ﴾ لتفيد البشرية أولاً كجنس ، ثم
لتفيد النوع المذكور ثانياً : ذلك لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة
والمعاشرة لقومه .. يظهر للجميع ويتحدث إلى الجميع .. أما المرأة
فمبينة على التستر ، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأسوة للناس ،
ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا فى طبيعتها أموراً كثيرة لا تناسب
دور النبوة ، ولا تتماشى مع مهمة النبى ، مثل انقطاعها عن الصلاة
والتعبد لأنها حائض أو نفّساء .

كذلك جاءت كلمة ﴿ رجالاً ﴾ مقيدة بقوله :

﴿ نُوحِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ [٤٢]

[النحل]

(١) بدع : بديع أو عجيب . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ .. ﴾ [الاحقاف] أى :
ما كنت غريباً ولا عجيباً . ولا كنت على غير مثال سابق ، فانا مثل الرسل السابقين .
[القاموس القويم ٥٧/١] .

فالرسول رجل ، ولكن إياك أن تقول : هو رجل مثلى وبشر
مثلى .. لا هناك مَيِّزة أخرى أنه يُوحى إليه ، وهذه منزلة عالية يجب
أن نحفظها للأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣)

[النحل]

أى : إذا ضابت عنكم هذه القضية ، قضية إرسال الرسل من
البشر - ولا أظنها تغيب - لأنها عامة فى الرسالات كلها . وما كانت
لتخفى عليكم خصوصاً وعندكم أهل العلم بالاديان السابقة ، مثل
ورقة بن نوفل وغيره ، وعندكم أهل السُّنَنِ والتاريخ ، وعندكم اليهود
والنصارى .. فاسألوا هؤلاء جميعاً عن بشرية الرسل .

فهذه قضية واضحة لا تُنكر ، ولا يمكن المخالفة فيها .. وماذا
سيقول اليهود والنصارى ؟ .. موسى وعيسى .. إذن بشر .

وقوله تعالى :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣)

[النحل]

يوحى بأنهم يطمون ، وليس لديهم شك فى هذه القضية .. مثل
لو قلت لمخاطبك : اسأل عن كذا إن كنت لا تعرف .. هذا يعنى أنه
يعرف ، أما إذا كان فى القضية شك فنقول : اسأل عن كذا دون أداة
الشرط .. إذن : هم يعرفون ، ولكنه الجدل والعناد والاستكبار عن
قبول الحق .

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ
مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤)

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ..﴾ (٤٤) [النحل]

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدَّ له من متعلق ..
فبماذا يتعلق الجار والمجرور هنا ؟ قالوا : يجوز أن يتعلق بالفعل
(نُوحِي) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي
إليهم بالبينات والزبر .

وقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر .. فيكون المعنى :
فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ، فهذان وجهان لعودة الجار
والمجرور .

والبينات : هي الأمر البين الواضح الذي لا يشك فيه أحد .. وهو
إما أن يكون أمانة ثبوت صدق الرسالة كالمعجزة التي تتحدى
المكذِّبين أن يأتوا بمثلاً .. أو : هي الآيات الكونية التي تلتف الخلق
إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس
والقمر والنجوم .

(١) الزُّبُرُ : الكتب . والزُّبُرُ : الكتابة . وقد غلب الزبور على صحف داود عليه السلام قال
تعالى : ﴿وَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ..﴾ (٤٥) [الأنبياء] قال أبو هريرة : الزبور
ما أنزل على داود من بعد التوراة .

أما الزُّبُر ، فمعناها : الكتب المكتوبة .. ولا يكتب عادة إلا الشيء
النفيس مخافة أن يضيع ، وليس هنا أنفسُ مما يأتينا من منهج الله
لِنُنْظِمَ لَنَا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب - قديماً - كانوا يسألون عن كُلِّ شيء مهما
كان حقيراً ، فكان عندهم علمٌ بالسهم ومن أول صانع لها ، وعن
القوس والرحل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة .. ألا يسألون عن آيات
الله في الكون وما فيها من أسرار وعجائب في خلقها تدلُّ على الخالق
سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ..﴾ (٤٤) [النحل]

كلمة الذكر وردت كثيراً في القرآن الكريم بمعنى متعددة ، وأصل
الذكر أن يظلَّ الشيء على البال بحيث لا يغيب ، وبذلك يكون ضدَّه
النسيان .. إذن : عندنا ذكر ونسيان .. فكلمة « ذكر » هنا معناها
وجود شيء لا ينبغي لنا نسيانه .. فما هو ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم - عليه السلام - أخذ العهد
على كُلِّ ذرَّة فيه ، فقال تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ
هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) [الأعراف]

وأخذ العهد على آدم هو عهد على جميع ذريته ، ذلك لأن في كل واحد من بنى آدم نُرَّة من أبيه آدم .. وجزءاً حياً منه نتيجة التوالد والتناسل من لدن آدم حتى قيام الساعة ، وما دُمنا كذلك فقد شهدنا أخذ العهد : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

وكان كلمة (ذكر) جاءت لِتُذَكِّرُنَا بالعهد المطمور في تكويننا ، والذي ما كان لنا أن ننساه ، فلما حدث النسيان اقتضى الأمر إرسال الرسل وإنزال الكتب لِتُذَكِّرُنَا بعهد الله لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. ﴾ (١٧٢) [الأعراف]

ومن هنا سَمَّينا الكتب المنزلة ذكراً ، لكن الذكور يأتى تدريجياً وعلى مراحل .. كل رسول يأتى لِیُذَكِّرَ قومه على حَسَب ما لديهم من غفلة .. أما الرسول الخاتم ﷺ الذى جاء للناس كافة إلى قيام الساعة ، فقد جاء بالذكر الحقيقى الذى لا يُذَكَّر بعده ، وهو القرآن الكريم .

وقد تاتى كلمة (الذكر) بمعنى الشُّبْرَف والرُّفْعَة كما فى قوله تعالى للعرب :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ﴾ (١٠) [الأنبياء]

وقد أصبح للعرب مكانة بالقرآن ، وعاشت لفتهم بالقرآن ، وتبوءوا مكان الصدارة بين الأمم بالقرآن .

وقد يأتى الذكر من الله للعبد ، وقد يأتى من العبد لله تعالى كما فى قوله سبحانه :

﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ .. ﴾ (١٥٢) [البقرة]

والمعنى : فاذكروني بالطاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد وبثوابي .

وإذا أطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله ﷺ ؛ لأنه الكتاب الجامع لكل ما نزل على الرسل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أن تقوم الساعة .

كما أن كلمة كتاب تطلق على أي كتاب ، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم ، وهذا ما نسميه (علم بالغبية) .

والذكر هو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ، وهو معجزته الخالدة في الوقت نفسه ، فهو منهج ومعجزة ، وقد جاء الرسل السابقون بمعجزات لحالها ، وكتب لحالها ، فالكتاب منفصل عن المعجزة .

فموسى كتابه التوراة ومعجزته العصا ، وعيسى كتابه ومنهجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص^(١) وإحياء الموتى بإذن الله .

أما محمد ﷺ فمعجزته هي نفس كتاب منهجه ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لتظل المعجزة مُساندة للمنهج إلى قيام الساعة .

وهذا هو السر في أن الحق تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن وحمايته ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩)

[الحجر]

أما الكتب السابقة فقد عُهد إلى التابعين لكل رسول منهم بحفظ كتابه ، كما قال تعالى :

(١) الأكمه : المولود أعمى . وقد يكون صائداً بعد بصر . والأبرص : من أصابه مرض البرص ، وهو مرض جلدي يحدث بقعاً بيضاء في الجلد تشوّهه . [القاموس اللويمي مادتا : كمه ، برص] .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .. ﴾ (٤٤)

[المائدة]

ومعنى استَحَفَظُوا : أى طلبَ الله منهم أنْ يحفظوا التوراة ، وهذا
أمرٌ تكليف قد يُطاع وقد يُعصى ، والذي حدث أن اليهود عَصَوْا
وبَدَلُوا وحَرَّفُوا فى التوراة .. أما القرآن فقد تعهدَ الله تعالى بحفظه
ولم يترك هذا لأحد ؛ لأنه الكتاب الخاتم الذى سيصاحب البشرية إلى
قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول ﷺ مع القرآن ، وهو
الحديث الشريف ، فلرسول مُهمة أخرى ، وهى منهجه الكلامى
وحديثه الشريف الذى جاء من مشكاة القرآن مبيناً له وموضحاً له ..
كما قال ﷺ :

« أَلَا وَإِنِّى قَدْ أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ
يَتَكَبَّرُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ عَنِّى فَيَقُولُ : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ
اللَّهِ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ حَلَّلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ
حَرَّمْنَاهُ ، أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ »^(١) .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٤٤)

[النحل]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣١/٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٥٩١) . وابن حبان (٩٧ -
موارد الظمان) من حديث المقدم بن معدكرب .

إذن : جاء القرآن كتاباً معجزة ، وجاء كتاباً منهجاً ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشرح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، وإلا لطالت المسالة ، وتضخم القرآن وربما بعد عن مراده .

فجاء القرآن بالأصول الثابتة ، وترك للرسول ﷺ مهمة أن يبينه للناس ، ويشرحه ويوضح ما فيه .

وقد يظن البعض أن كل ما جاءت به السنة لا يلزمنا القيام به ؛ لأنه سنة يُكَّاب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها .. نقول : لا .. لا بد أن نفرق هنا بين سُنَّة الدليل وسُنَّة الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فَسُنَّة الدليل تعنى وجود فَرَض ، إلا أن دليله ثابت من السنة .. وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهى فَرَض .

أما سُنَّة الحكم : فهى أمور وأحكام فقهية وردت عن رسول الله ﷺ ، يُكَّاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها .. فحين يُبين لنا الرسول بسلوكه وأسنوته حُكماً ننظر : هل هى سُنَّة الدليل فيكون فَرَضاً ، أم سُنَّة الحكم فيكون سُنَّة ؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول على هذا الأمر ، فإنَّ واطب عليه والتزمه فهو فَرَض ، وإن لم يواظب عليه فهو سُنَّة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مَنَاولَة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهى ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون

بيسان .. ولا بُدَّ أن نفرِّق بين العطائين : العطاء القرآنى ، والعطاء النبوى .

ويجب أن نعلم هنا أن من المميزات التى ميِّز بها النبى ﷺ عن سائر إخوانه من الرُّسل ، أنه الرسول الوحيد الذى آمنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلِّغون أوامر السماء فقط وانتهت المسألة ، أما محمد ﷺ فقد قال الحق تبارك وتعالى فى حقِّه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧) [الحشر]

إذن : أخذ ميزة التشريع ، فأصبحت سنَّته هى التشريع الثانى بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١١)

[النحل]

يتفكرون .. فى أى شيء ؟ يتفكرون فى حال الرسول ﷺ قبل البعثة ، حيث لم يُؤثِّر عنه أنه كان خطيباً أو أديباً شاعراً ، ولم يُؤثِّر عنه أنه كان كاتباً مُتعلِّماً .. لم يُعرف عنه هذا أبداً طيلة أربعين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكير والتدبر فى هذا الأمر ،

فليس ما جاء به محمد عبقرية تفجَّرت هكذا مرة واحدة فى الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيعى للعبقريات يأتى فى أواخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث من العمر .

ولا يحقل أن تُوجَل العبقرية عند رسول الله إلى هذا السن وهو يرى القوم يُصنِّعون حوله .. فيموت أبوه وهو فى بطن أمه ، ثم

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿٧٩٥٩﴾

تموت أمه وما يزال طفلاً صغيراً ، ثم يموت جدّه ، فمنَ يضمن له الحياة إلى سنِّ الأربعين ، حيث تنفجر عنده هذه العبقرية ؟!

إذن : تفكّروا ، فليست هذه عبقرية من محمد ، بل هي أمر من السماء ؛ ولذلك أمره ربّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَلَّا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

[يونس]

فكان عليكم أن تفكّروا في هذه المسألة .. ولو فكرتم فيها كان يجب عليكم أن تتهافتموا على الإسلام ، فأنتم أعلم الناس بمحمد ، وما جرّبتم عليه لا كذباً ولا خيانة ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان ليصدق عندكم ويكنب على الله .

ولا بدّ أن تُفرّق بين العقل والفكر . فالعقل هو الأداة التي تستقبل المحسّات وتُميّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التي ستكون هي المبادئ التي يعيش الإنسان عليها ، والتي ستكون عبارة عن معلومات مُختزنة ، أما الفكر فهو أن تفكر في هذه الأشياء لكي تستنبط منها الحكم .

والله سبحانه وتعالى ترك لنا حرية التفكير وحرية العقل في أمور دنيانا ، لكنه ضبطنا بأمور قسريّة يفسد العالم بدونها ، فالذي يفسد العالم أن نترك ما شرعه الله لنا .. والباقي الذي لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة ؛ لأن الفضل فيه لا يضر .

لما أراد الله حكماً قسرياً فرضه بنصرٍ صريحٍ لا خلاف فيه ، وما أراد على وجوه متعددة يتركه للاجتهاد حيث يحتمل الفعل فيه

أوجهاً متعددة ، ولا يؤدي الخطأ فيه إلى فساد .

فالمسألة ميزان فكري يتحكم في المحسّات ويُنظم القضايا ، لنرى أولاً ما يريده الله بتّاً وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فما وصل إليه المجتهد يصح أن يعبد الله به ، ولكن آفة الناس في الأمور الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى رمى مخالفهم بالكفر والعياذ بالله .

ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فله أجران ، وَمَنْ أخطأ فله أجر^(١) .. ولذلك نجد من العلماء مَنْ يعرف طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب . وهكذا يتعايش الجميع وتُحترم الآراء .

ومن رحمة الله بعباده أن يامرهم بالتفكير والتدبر والنظر : ذلك لأنهم خلّقه سبحانه ، وهم أكرم عليه من أن يتركهم للضلال والكفر ، بعد أن أكرمهم بالخلق والعقل ، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر بالطاعة والإيمان .

وكانه سبحانه يقول لهم : رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء الجدل ولَجَجِ الخصومة ، وإن كنتم لا تؤمنون بالبعث في الآخرة ، وبما أعدّ للظالمين فيها من عقاب ، فانظروا إلى ما حدث لهم وما عَجَّلَ لهم من عذاب في الدنيا .

(١) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « إنا حكم الحاكم

فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإنا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » أخرجه مسلم في

صحيحه (١٧١٦) ، والبخاري في صحيحه (٧٣٥٢) .

انظروا للذين سبقوكم من الامم المكذبة وما آل اليه مصيرهم ،
 ام انتم آمنون من العذاب ، بعيدون عنه ؟!

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
 أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤٥)

قوله تعالى :

[النحل]

﴿ أَفَأَمِنَ .. (٤٥) ﴾

عبارة عن همزة الاستفهام التي تستفهم عن مضمون الجملة
 بعدها .. أما الفاء بعدها فهي حَرْفٌ عَطْفٌ يعطف جملة على جملة ..
 إذن : هنا جملة قبل الفاء تقديرها : أجهلوا ما وقع لمخالفى الانبياء
 السابقين من العذاب ، فامنوا مكر الله ؟

أى : ان آمنهم لمكر الله ناشئة عن جهلهم بما وقع للمكذبين من
 الامم السابقة .

ثم يقول تعالى :

[النحل]

﴿ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ .. (٤٥) ﴾

المكر : هو التبييت الخفى للنيل ممن لا تستطيع مجابهته بالحق
 ومجاهرته به ، فانت لا تُبَيِّتُ لاحد إلا إذا كانت قدرتك عاجزة عن
 مُصَارَحَتِهِ مباشرة ، فكونك تُبَيِّتُ له وتمكر به دليل على عجزك ؛
 ولذلك جطوا المكر أول مراتب الجبن : لأن الماكر ما مكر إلا لعجزه

عن المواجهة ، وعلى قَدْر ما يكون المكر عظيماً يكون الضعف كذلك .

وهذا ما نلاحظه من قوله تعالى في حق النساء :

﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ ﴾ (٧٨)

[يوسف]

وقال في حق الشيطان :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٦)

[النساء]

فالمكر دليل على الضعف ، وما دام كَيْدُهُنَّ عظيماً إذن : ضَعْفُهُنَّ أيضاً عظيم ، وكذلك في كيد الشيطان .

وقديماً قالوا : إياك أن يملكك الضعيف : ذلك لأنه إذا تمكّن منك ورائته الفرصة فلن يدعك تُفَلّت منه ! لأنه يعلم ضعفه ، ولا يضمن أن تتاح له الفرصة مرة أخرى ! لذلك لا يضيعها على عكس القوي ، فهو لا يحرص على الانتقام إذا أُتيحت له الفرصة وربما فوّتها لقوته وقدرته على خَصْمه ، وتمكّنه منه في أي وقت يريد ، وفي نفس المعنى جاء قول الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً قَتَلَتْ كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعَفَاءِ

إذن : قدرة الضعفاء قد تقتل ، أما قدرة القوى فليست كذلك .

ثم لنا وقفة أخرى مع المكر ، من حيث إن المكر قد ينصرك على مُساويك وعلى مثلك من بني الإنسان ، فإذا ما تعرضتَ لمن هو أقوى منك وأكثر منك حيلة ، وأحكم منك مكرًا ، فربما لا يُجدي مكرُك به ، بل ربما غلبك هو بمكره واحتياظه ، فكيف الحال إذا كان الماكر بك هو ربّ العالمين تبارك وتعالى ؟

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿وَلَا يَحِيقُ^(١) الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. (٤٣)﴾ [فاطر]

فمكر العباد مكشوف عند الله ، أما مكره سبحانه فلا يقدر عليه أحد ، ولا يحناط منه أحد ؛ لذلك كان الحق سبحانه خير الماكرين .

والمكر السيئ هو المكر البطل الذي لا يكون إلا في الشر ، كما حدث من مكر المكذبين للرسول على مرّ العصور ، وهو أن تكيد للغير كيداً يبطل حقاً .

وكل رسول قابله قومه المنكرون له بالمكر والخديعة ، دليل على أنهم لا يستطيعون مواجهته مباشرة ، وقد تعرض الرسول ﷺ لمراحل متعددة من الكيد والمكر والخديعة ، وذلك لحكمة أرادها الحق تبارك وتعالى وهي أن يؤثس الكفار من الانتصار عليه ﷺ ، فقد بيتوا له ودبروا لقتله ، وحاكوا في سبيل ذلك الخطط ، وقد باءت خطنهم ليلة الهجرة بالفشل .

وفي مكيدة أخرى حاولوا أن يسحروه^(٢) ﷺ ، ولكن كشف الله أمرهم وخيب سعيهم .. إذن : فأي وسيلة من وسائل نخس هذه الدعوة لم تنجحوا فيها ، ونصره الله عليكم ؛ كما قال تعالى :

(١) حاق به الشيء نزل به وأصابه وأحاط به . [القاموس القويم ١/ ١٨١] .

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحر النبي ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، سحره لبيد بن الأعصم في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر في بشر لروان .

أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٦٨) وأحمد في مسنده (١٦٠٥٠) .

[المجادلة]

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴾ (٧١)

وقوله تعالى :

[النحل]

﴿ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ .. ﴾ (٤٥)

الخسف : هو تغيب الأرض ما على ظهرها .. فانخسف الشيء أى : غاب فى باطن الأرض ، ومنه خسوف القمر أى : غياب ضوئه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون :

[القصاص]

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ .. ﴾ (٨١)

وهذا نوع من العذاب الذى جاء على صور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴾ (٤١) [العنكبوت]

هذه ألوان من العذاب الذى حاق بالمكذبيين ، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقهم عبرة وعظة ، وأن يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

[النحل]

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤٥)

والمراد أنهم إذا احتاطوا لمكر الله وللعذاب الواقع بهم ، اتاهم الله من جهة لا يشعرون بها ، ولم تخطر لهم على بال ، وطالما لم تخطر لهم على بال ، إذن : فلم يحتاطوا لها ، فيكون أخذهم يسيراً ، كما قال تعالى :

[الحشر]

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .. ﴾ (٢)

ويتابع الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٤٦)

التقلب : الانتقال من حال إلى حال ، أو من مكان إلى مكان ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكان آخر دليل القوة والمقدرة ، حيث ينتقل الإنسان من مكانه حاملاً متاعه وعَتَاة وجميع ما يملك ؛ لينشئ له حركة حياة جديدة في مكانه الجديد .

إن : التقلب في الحياة مظهر من مظاهر القوة ، بحيث يستطيع أن يقيم حياة جديدة ، ويحفظ ماله في رحلة تقلبه .. ولا شك أن هذا مظهر من مظاهر العزة والجاه والثراء لا يقوم به إلا القوى ..

ولذلك نرى في قول الحق تبارك وتعالى عن أهل سبا :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا ^(١) فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. ﴾ (١٩)

[سبا]

فهؤلاء قوم جمع الله لهم ألواناً شتى من النعيم ، وأمن بلادهم وأسفارهم ، وجعل لهم محطات للراحة أثناء سفرهم ، ولكنهم وللعجب طلبوا من الله أن يُباعد بين أسفارهم ، كأنهم أرادوا أن يتميزوا عن

(١) أى : ليسوا ببعيدين عن الله ولن يفلتوا من عقابه سبحانه .

(٢) قدر كل شيء ومقداره : مقياسه . وقدر الشيء قدره . قاسه . [لسان العرب - مادة :

قدر] . قال ابن كثير في تفسيره (٥٣٢/٢) . . . أى : جعلنا ما يحسب ما يحتاج

للمسافرون إليه . . .

الضعفاء غير القادرين على مشقة السفر والترحال ، فقالوا :

﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (٤٩)﴾

[سبا]

حتى لا يقدر الضعفاء منهم على خوض هذه المسافات .

إذن : الذى يتقلب فى الأرض دليل على أن له من الحال حال إقامة وحال ظعن^(١) وقدرة على أن ينقل ما لديه ليقيم به فى مكان آخر ؛ ولذلك قالوا : الحال فى الغربة وطن .. ومن كان قادراً يفعل ما يريد .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿لَا يَغْرُبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (٥٠)﴾

[آل عمران]

فلا يخيفك انتقالهم بين رحلتى الشتاء والصيف ، فإله تعالى قادر أن يأخذهم فى قلبهم .

وقد يُراد تقلبهم فى الأفكار والمكر السرى بالرسول ﷺ وصحابته كما فى قوله تعالى :

﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ .. (٤٨)﴾

[التوبة]

فقد قعدوا يخططون ويمكرون ويدبرون للقضاء على الدعوة فى مهدها .

ويقول تعالى :

﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦)﴾

[النحل]

المعجز : هو الذى لا يمكنك من أن تغلبه ، وهؤلاء لن يُعجزوا الله

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿٧٩٦٧﴾

تعالى ، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابه ! لأنهم مهما بيَّتوا فتبييتهم
وكيَّدهم عند الله .. أما كيَّد الله إذا أراد أن يكيد لهم فلن يشعروا به :

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ .. (٣٥)﴾

[الأنفال]

وقال :

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ
رَوْنًا (١٧)﴾

[الطارق]

فمن لا يستطيع أن يفلبك يخضع لك ، وما دام يخضع لك يسيطر
عليه المنهج الذي جئت به .

وقد يكون العجز أمام القوى دليل قوة ، كما عجز العرب أمام
تحدي القرآن لهم ، فكان عجزهم أمام كتاب الله دليل قوتهم في
المجال الذي تحداهم القرآن فيه ؛ لأن الله تعالى حين يتحدى وحين
ينازل لا ينزل الضعيف ، لا بل ينزل القوى في مجال هذا التحدي .

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)﴾

التخوف : هو الفرع من شيء لم يحدث بعد ، فيذهب فيه الخيال
مذاهب شتى ، ويتوقع الإنسان ألوانا متعددة من الشر ، في حين أن
الواقع يحدث على وجه واحد .

هب أنك في انتظار حبيب تأخر عن موعد وصوله ، فيذهب بك الخيال
والاحتمال إلى أمور كثيرة .. يا ترى حدث كذا أو حدث كذا ، وكل خيال
من هذه الخيالات له أثر ولذعة في النفس ، وبذلك تكثر المخاوف ، أما
إن انتظرت لتعرف الواقع فإن كان هناك فرع كان مرة واحدة .

ولذلك يقولون في الأمثال : (نزول البلاء ولا انتظاره) ذلك لأنه إن نزل سينزل بلون واحد ، أما انتظاره فيُشيع في النفس ألواناً متعددة من الفرع والخوف .. إذن : التخوف أشد وأعظم من وقوع الحدث نفسه .

وكان هذا الفرع يعتري الكفار إذا ما علموا أن رسول الله ﷺ بعث سرية من السرايا ، فيتوقع كل جماعة منهم أنها تقصدهم ، وبذلك يُشيع الله الفرع في نفوسهم جميعاً ، في حين أنها خرجت لناحية معينة^(١) .

وبعض المفسرين قال : التخوف يعني التنقص بأن ينقص الله من رُقعة الكفر بدخول القبائل في الإسلام قبيلة بعد أخرى ، فكل واحدة منها تنقص من رُقعة الكفر .. كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَتَبْلُوكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُرْعِ وَتَقْصِرُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية :

﴿ فَإِنْ رَّيْكُم لَّرَّءَوْفٌ رَّحِيمٌ (١٥٧) ﴾ [النحل]

وهل هذا التذييل مناسب للآية وما قبلها من التهديد والوعيد ؟
فالعقل يقول : إن التذييل المناسب لها : إن ربكم لشديد العقاب مثلاً .

لكن يجب هنا أن نعلم أن هذا هو عطاء الربوبية الذي يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى استدعى الجميع للدنيا ، وتكفل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمس وهواء وأرض وسماء ،

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٢٣٥ ، ٤٢٨) . وكنا مسلم في صحيحه (٥٢١) كتاب المساجد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطون أحد قبلي » وفيه « ونصرت بالربيع بين يدي مسيرة شهر » .

لم تُخْلَقْ هذه الأشياء لوحد دون الآخر ، وقد قال تعالى :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

وكان فى الآية لونا من ألوان رحمته سبحانه بخلقه وحرصه سبحانه على نجاتهم : لأنه يُنبِّههم إلى ما يمكن أن يحدث لهم إذا أصرُّوا على كفرهم ، ويُصِرُّهم بعاقبة كفرهم ، والتبصرة عظة ، والعظة رافة بهم ورحمة حتى لا ينالهم هذا التهديد وهذا الوعيد .

ومثال هذا التذليل كثير فى سورة الرحمن ، يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة ناسبت قوله تعالى :

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾ [الرحمن]

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿مَرْجَ^(١) الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ^(٢) لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة من نعم الله ناسبت تذليل الآية :

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن]

(١) مرج : خلط البحر الملح والبحر العذب . وسعنى لا يبغيان أى : لا يبغي الملح على العذب فيختلطان . [لسان العرب - مادة : مرج] .

(٢) البرزخ : هو الحاجز من الأرض لتلا بينى هذا على هذا وهذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التى هى مقصودة منه . [تفسير ابن كثير ٢٧٢/٤] .

أما في قوله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾
[الرحمن]

فما النعمة في ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ؟ هل الموت نعمة ؟!

نعم ، يكون الموت نعمة من نعم الله على عباده : لأنه يقول للمحسن : سيأتي الموت لتلقى جزاء إحسانك وثواب عملك ، ويقول أيضاً للكافر : انتبه واحذر .. الموت قادم ، كأنه سبحانه يُوقِظُ الكفار وَيَعِظُهُمْ لِيَنْتَهُوا عما هم فيه .. أليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة منه سبحانه بعباده ؟

وكذلك انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ^(١) مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾
[الرحمن]

فأي نعمة في :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ .. (٣٥) ﴾
[الرحمن]

أي نعمة في هذا العذاب ؟

نعم المتدبر لهذه الآية يجد فيها نعمة عظيمة : لأن فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استمروا على ما هم فيه من الكفر .. ففي طياتها تحذير وحرص على نجاتهم كما تنوعد ولدك : إذا أهملت دروسك

(١) الشواظ : اللهب الذي لا يخاف فيه . [لسان العرب - مادة : شواظ] .

ستفشل وأفعل بك كذا وكذا . وأنت ما قلت ذلك إلا لحرصك على نجاحه وفلاحه .

إذن : فتذيل الآية بقوله :

﴿ فَإِنْ رَكِبْتُمْ لِرُكُوفٍ رُحِيمٌ ٤٧ ﴾ [النحل]

تذيل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد ، وفيها بيان لرحمة الله التي يدعو إليها كلاً من المؤمن والكافر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُنْفِثُوا ظِلَّهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ٤٨ ﴾^(١)
عنه معالي :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا .. ٤٨ ﴾ [النحل]

المعنى : أعموا ولم يروا ولم يتدبروا فيما خلق الله ؟

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. ٤٨ ﴾ [النحل]

كلمة شيء يسمونها جنس الأجناس ، و ﴿ مِنْ ﴾ تفيد ابتداء ما يقال له شيء ، أى : أتفه شيء موجود ، وهذا يسمونه أدنى الأجناس .. وتفيد أيضاً العموم فيكون :

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. ٤٨ ﴾ [النحل]

أى : كل شيء .

(١) تقياً فيه : تظلل . وتقيى الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار وابتعاد الأشياء ظلالها .

[لسان العرب .. مادة : فيها] ..

فانظر إلى أى شيء فى الوجود مهما كان هذا الشيء نافعاً ستجد له ظلاً :

﴿ يَغِيَا ظِلَّاهُ .. (٤٨) ﴾

[النحل]

يتقياً : من فاء أى : رجع ، والمراد عودة الظل مرة أخرى إلى الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

فلو نظرنا إلى الظل نجده على نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل متغير ، فالظل الثابت دائماً فى الأماكن التى لا تصل إليها أشعة الشمس ، كهنا البحار وباطن الأرض ، فهذا ظل ثابت لا تاتيه أشعة الشمس فى أى وقت من الأوقات .

والظل المتحرك الذى يُسمى الفء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ، إذن : لا يُسمى الظل شيئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .

ولكن .. كيف يتكوّن الظل ؟ يتكوّن الظل إذا ما استعرض الشمس جسم كثيف يحجب شعاع الشمس ، فيكون ظلاً له فى الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طولان وله استواء واحد .

طول عند الشروق إلى أن يبلغ المغرب ، ثم يأخذ فى التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوت الشمس فى السماء يصبح ظل الشيء فى نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تميل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طول الظل الأول من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق .

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلُّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مَبَاقِنَا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا (١٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (١٦) ﴾ [الفرقان]

ذلك لأنك لو نظرت إلى الظل وكيف يمتد ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدت شيئاً عجيباً حقاً .. ذلك لأنك تلاحظ الظل في الحالتين يسير سيرا انسيابيا :

ما معنى : (انسيابي) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالى سکونات بين الحركات .

وهذه الأخيرة نلاحظها في حركة عقارب الساعة ، وهي أوضح في عقرب الثواني منها في عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها في عقرب الساعات .. فلو لاحظت عقرب الثواني لوجدته يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا ..

ومعنى ذلك أنه يجمع الحركة في حال سکونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمر عليه لحظة لم يكن متحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية .. هذه الحركة لا تستطيع رصدها في عقرب الساعات ؛ لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رصدها وملاحظتها ، هذه هي الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعني أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة .. أي : حركة مستمرة وموزعة بانتظام على الزمن .

ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل .. الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لملازماتها له لا تلاحظ هذا النمو ؛ لأن نظرها عليه دائماً .. فكيف تكون حركة النمو في الطفل ؟ هل حركة قفزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طَفرة واحدة ؟

لو كان نموه هكذا للاحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزع المُلَى الواحد من النمو على طول الزمن ، فلا نكاد نشعر بنموه .

وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا .. بل مركونة إلى أمر الله ، موهولة بكنْ الدائمة .

وكان الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفتَ خَلقه إلى ظاهرة كونية في الوجود مُحسنة ، يدركها كلُّ مَنْ في ذاته ، وفيما يرى من المرائى ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظلّ التي يعجز الإنسان عن إدراك حركته .

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَعَلَّاهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)﴾ [الرعد]

فالحق سبحانه يريد أن يُعمم الفكرة التسيّحية في الكون كله ، كما قال تعالى :

﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

فكل ما يُطْلَق عليه شيء فهو يُسَبَّح مهما كان صغيراً .
وقوله تعالى :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَّالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

لنا هنا وقفة مع الأداء القرآني ، حيث أتى باليمين مُفْرَداً ، في حين أتى بالشمائِل على صورة الجمع ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لما قال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أتى بأقل ما يُتَصَوَّر من مخلوقاته سبحانه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو مفرد ؛ ثم قال سبحانه :

﴿ ظِلَّالُهُ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

بصيغة الجمع . أي : مجموع هذه الأشياء ، فالإنسان لا يتفَيَّأ ظلَّ شيء واحد ، لا .. بل ظلَّ أشياء متعددة .

و ﴿ مِنْ ﴾ هنا أفادت العموم :

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أي : كل شيء . فليناسب المفرد جاء باليمين ، وليناسب الجمع جاء بالشمائِل .

ثم يقول تعالى :

﴿ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾ [النحل]

فما العلاقة بين حركة الظل وبين السجود ؟

معنى : سَجْدًا أي : خضوعاً لله ، وكان حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليل على أنه موصول بالمحرك الأعلى له ، والقاتل

الاعلى لـ « كُنْ » ، والظل آية من آياته سبحانه مُسَخَّرَةٌ له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعده إعداداً كُونياً ، والشيء تُعده إعداداً قَدَرِيًّا .. فصانع القنبلة الزمنية يُعدها لأنْ تنفجرَ في الزمن الذي يريده ، وليس الأمر كذلك في إعداد الكون .

الكون أعدّه الله إعداداً قَدَرِيًّا قائماً على قوله كُنْ ، وفي انتظار لهذا الأمر الإلهي باستمرار (كن فيكون) . وهكذا .. فليست المسألة مضبوطة ميكانيكياً ، لا .. بل مضبوطة قَدَرِيًّا .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهي ضوءها ، ويُرتَّب على هذا الحكمُ أشياء أخرى .. نقول : لا .. ليس الأمر كذلك .. فالشمس خاضعة للإعداد القَدَرِيّ منضبطة به ومفتطرة لـ « كُنْ » التي يُصِفِي لها الكون كله ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٢٩)

[الرحمن]

هكذا بيّنت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له « شيء » يسجد لله عز وجل ، وكلمة « شيء » جاءت مُفْرَدَةً دالّةً على العموم .. وقد عرفنا السجود فيما كُلّفنا الله به من ركن في الصلاة ، وهو مُنتَهَى الخضوع ، خضوع الذات من العابد للمعبود ، فنحن نخضع واقفين ، ونخضع راكعين ، ونخضع قاعدين ، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأنْ نسجدَ لله .. ولماذا كان أتمّ الخضوع أنْ نسجدَ لله ؟

نقول : لأن الإنسان له ذات عامة ، وفي هذه الذات سيد للذات ، بحيث إذا أُطلق انصرف إلى الذات ، والمراد به الوجه ؛ لذلك حينما يعبرَ الحق تبارك وتعالى عن فناء الوجود يقول :

[القصر]

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴾ (٨٨)

وكذلك فى قوله :

﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿ (٢١) [الليل]

فِيُطْلَقُ الوجه ويُراد به الذات ، فإذا ما سجد الوجه لله تعالى دلّ ذلك على خضوع الذات كلها ؛ لأن أشرف ما فى الإنسان وجهه ، فإذا ما الصفه بالأرض فقد جاء بمنتهى الخضوع بكل ذاته للمعبود عز وجل .

كما دلّت الآية على أن الظل أيضاً يسجد لربه وخالفه سبحانه ، والظلال قد تكون لجمادات كالشجر مثلاً ، أو بناية أو جبل ، وهذه الأشياء الثابتة يكون ظلّها أيضاً ثابتاً لا يتحرك ، أما ظلّ الإنسان أو الحيوان فهو ظلّ متحرك ، وقد ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً فى الخضوع التام بالظلال ؛ لأن ظل كل شيء لا يفارق الأرض أبداً ، وهذا مثال للخضوع الكامل .

ثم يرتفع الحق تبارك وتعالى بمسألة السجود من الجمادات فى الظلال فى قوله :

﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (١٥) [الرعد]

يعنى الذوات تسجد ، وكذلك الظلال تسجد ؛ ولذلك يتعجب بعض العارفين من الكافر .. يقول : أيها الكافر ظلّك ساجد وأنت جاهد .. جاء هذا الترقى فى قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ

وَالْمَلَأِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٤١)

فأجناس الكون التي يعرفها الإنسان أربعة : إما جماد ، فإذا وجدت خاصية النمو كان النبات ، وإذا وجدت خاصية الحركة والحس كان الحيوان ، فإذا وجدت خاصية الفكر كان الإنسان ، وإذا وجدت خاصية العلم الذاتي النوراني كان الملك .. هذه هي الأجناس التي نعرفها .

الحق تبارك وتعالى ينقلنا هنا نقلة من الظلال الساجدة ، للجمادات الثابتة ، إلى الشيء الذي يتحرك ، وهو وإن كان متحركاً إلا أن ظله أيضاً على الأرض ، فإذا كان الحق سبحانه قد قال :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (٤٩)﴾ [النحل]

فقد فصل هذا الإجمال بقوله :

﴿مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ .. (٤٩)﴾ [النحل]

أى : من أقل الأشياء المتحركة وهي الدابة ، إلى أعلى الأشياء وهي الملائكة ..

وقد يقول قائل : وهل ما في السموات وما في الأرض يسجد لله ؟

نقول له : نعم .. لأنك فسرت السجود فيك أنت بوضع جبهتك على الأرض ، ليدل على أن الذات معلوماً ودنوها ساجدة لله خاضعة تمام الخضوع ، حيث جعلت الجبهة مع القدم .

والحق تبارك وتعالى يريد منا أن نعرف استطراد العبودية في الوجود كله : لأن الكافر وإن كان مُتَمَرِّداً على الله فيما جعل الله له فيه اختياراً ، في أن يؤمن أو يكفر ، في أن يطيع أو يعصى ، ولكن الله أعطاه الاختيار .

نقول له : إنك قد ألفت التمرد على الله ، فطلب منك أن تؤمن
لكنك كفرت ، وطلب منك يا مؤمن أن تطيع فعصيت ، إذن : فلك ألف
بالتمرد على الحق .. ولكن لا تعتقد أنك خرجت من السجود
والخضوع لله : لأن الله يُجرى عليك أشياء تكرهها ، ولكنها تقع عليك
رغم أنك وأنت خاضع .

وهذا معنى قوله تعالى في الآية السابقة :

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨) [النحل]

أى : صاغرون مُستذلون مُنقادون مع أنهم ألقوا التمرد على الحق
سبحانه .

والا فهذا الذى ألف الخروج عن مرادات الله فيما له فيه اختيار ،
هل يستطيع أن يتسأبى على الله إذا أراد أن يمرضه ، أو يفقره ،
أو يميته ؟

لا ، لا يستطيع ، بل هو داخر صاغر فى كل ما يُجرى عليه من
مقادير ، وإن كان ياباها ، وإن كان قد ألف الخروج عن مرادات الله .

إذن : ليس فى كون الله شىء يستطيع الخروج عن مرادات الله ؛
لأنه ما خرج عن مرادات الله الشرعية فى التكليف إلا بما أعطاه الله
من اختيار ، وإلا لو لم يُعطه الاختيار لما استطاع التمرد ، كما فى
المرادات الكونية التى لا اختيار فيها .

لذلك نقول للكافر الذى تمرد على الحق سبحانه : تمرد إذا
أصابك مرض ، وقُلْ : لن أمرض ، تمرد على الفقر وقُلْ : لن أفقر ..

وما دُمْتَ لَا تَقْدِرُ وَسَوْفَ تَخْضَعُ رَاغِمًا فَلتَخْضَعْ رَاضِيًا وَتَكْسِبَ
الْأَمْرَ ، وَتَنْتَهِيَ مُشْكِلَةُ حَيَاتِكَ ، وَتَسْتَقْبِلَ حَيَاةَ أُخْرَى أَنْظَفَ مِنْ هَذِهِ
الْحَيَاةِ .

وقوله تعالى :

﴿ مِنْ دَابَّةٍ .. (٤٩) ﴾

[النحل]

هو كل ما يدبُّ على الأرض ، والدَّبُّ على الأرض معناه الحركة
والمشي .. وقوله :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ .. (٥١) ﴾

[النحل]

أى : أن الملائكة لا يُقال لها دابة ؛ لأن الله جعل سَعْيَهَا فِي
الْأُمُورِ بِأَجْنَحَةٍ فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ أُولَى أَجْنَحَةٍ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ .. (١) ﴾

[فاطر]

وقال في آية أخرى :

﴿ وَمِمَّا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ
أَمْثَلُكُمْ .. (٣٨) ﴾

[الأنعام]

فخلق الله الطائر يطير بجناحيه مقابلاً للدابة التي تدب على
الأرض ، فاستحوذ على الأمرين : الدابة والملائكة .

و ﴿ مَا ﴾ في الآية تُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ الْعَالَمِينَ وَغَيْرِ الْعَاقِلِينَ ؛ ذَلِكَ
لأن أغلب الأشياء الموجودة في الكون ليس لها عِلْمٌ أَوْ مَعْرِفَةٌ ؛ وَلِذَلِكَ
قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى :

سُورَةُ الْفَخَالِ

٧٩٨١

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا .. ﴾ (٧٢) [الاحزاب]

وَيُنْهِى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٤٩) [النحل]

أى : أن الملائكة الذين هم أعلى شىء فى خَلْقِ اللَّهِ لا يستكبرون؛ لأن علوهم فى الخلق من نورانية وكذا وكذا لا يعطيهم إدلالاً^(١) على خالقهم سبحانه ؛ لأن الذى أعطاهم هذا التكريم هو الله سبحانه وتعالى . وما دام الله هو الذى أعطاهم هذا التكريم فلا يجوز الإدلال به ؛ لأن الذى يُدَلُّ إنما يُدَلُّ بالذاتيات غير الموهوبة ، أما الشىء الموهوب من الغير فلا يجوز أن تُدَلَّ به على مَنْ وهبه لك .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ^(٢) الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. ﴾ (١٧٧) [النساء]

فلن يمتنعوا عن عبادة الله والسجود له رغم أن الله كرمهم ورفعهم .

ثم يقول تعالى :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

ما هو الخوف ؟ الخوف هو الفزع والوجل ، والخوف والفزع

(١) دَلٌّ : افتخر . والدلة : المنة . وفلان يُدَلُّ عليك بحسبته إدلالاً . أى يجترى عليك . [لسان العرب - مادة : دلال] .

(٢) لن يستنكف . لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢٨٧/٢] .

والوجل لا يكون إلا من ترقب شيء من أعلى منك لا تقدر أنت على رفعه ، ولو أمكنك رفعه لما كان هناك داع للخوف منه ؛ لذلك فالأمور التي تدخل في مقدوراتك لا تخاف منها ، تقول : إن حصل كذا أفعل كذا .. الخ :

وإذا كان الملائكة الكرام :

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦) [التحريم]

فما داعى الخوف إذن ؟ نقول : إن الخوف قد يكون من تقصير حدث منك تخاف عاقبته ، وقد يكون الخوف عن مهابة للمخوف وإجلاله وتعظيمه دون ذنب ودون تقصير ، ولذلك نجد الشاعر العربى يقول فى تبرير هذا الخوف :

أَهَابَكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ عَلَى وَلَكِنْ مِلَّةٌ عَيْنٍ حَبِيبُهَا
إذن : مرة يأتى الخوف لتوقع أذى لتقصير منك ، ومرة يأتى لمجرد المهابة والإجلال والتعظيم .
وقوله تعالى :

﴿مَنْ فَوْقَهُمْ ..﴾ (٥٠) [النحل]

ما المراد بالفوقية هنا ؟ نحن نعرف أن الجهات ست : فوق ، وتحت ، ويمين ، وشمال ، وأمام ، وخلف .. بقيت جهة الفوقية لتكون هى المسيطرة ؛ ولذلك حتى فى بناء الحصون يُشِيدُونَهَا عَلَى الْأَمَاكِنِ الْعَالِيَةِ لَتَتَحَكَّمَ بِعُلُومِهَا فى متابعة جميع الجهات .

إذن : فالفوقية هى محلّ العلو ، وهذه الفوقية قد تكون فوقية مكان ، أو فوقية مكانة .

فالذى يقول : إنها فوقية مكان ، يرى أن الله فى السماء ، بدليل أن الجارية التى سُلِّطت : أين الله ؟ أشارت إلى السماء ، وقالت : فى السماء^(١) .

فاشارت إلى جهة العلُو ؛ لانه لا يصح أن نقول : إن الله تحت ، فالله سبحانه مُنَزَّه عن المكان ، وما نُزَّه عن المكان نُزَّه عن الزمان ، فالله عز وجل مُنَزَّه عن أن تُحَيِّزَه ، لا بمكان ولا بزمان ؛ لأن المكان والزمان به خُلِّقا .. فَمَنْ الذى خلق الزمان والمكان ؟

إذن : ما داما به خُلِّقا فهو سبحانه مُنَزَّه عن الزمان والمكان .

وهم قالوا بأن الفوقية هنا فوقية حقيقية .. فوقية مكان ، أى : أنه تعالى أعلى مِنَّا .. ونقول لمن يقول بهذه الفوقية : الله أعلى مِنَّا .. من أى ناحية ؟ من هذه أم من هذه ؟

إذن : الفوقية هنا فوقية مكانة ، بدليل أننا نرى الحرس الذين يحرسون القصور ويحرسون الحصون يكون الحارس أعلى من المحروس .. فوقه ، فهو فوقه مكاناً ، إنما هل هو فوقه مكانة ؟ بالطبع لا .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٥٠)

[النحل]

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٤٤٨/٥) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٠٥) وابن أبى حاتم فى كتاب : السنة ، (٢١٥/١) والبيهقى فى الاسماء والصفات (ص ٤٢٢) من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال : قلت يا رسول الله إنه كانت لى جارية ترعى قبل أحد والجوانية ، وإنى أطلعها يوماً إطلاعة ، فوجدت الذئب قد ذهب منها بشاة وأنا من بنى آدم أسف لما يأسفون فصككتها صكاً ، فعظم ذلك على النبي ﷺ قال : قلت يا رسول الله اعتقها ؟ قال : ادعها إلى . فقال لها : أين الله ؟ قالت : فى السماء . قال : ومن أنا ؟ قالت : رسول الله . قال : اعتقها فلئنما مؤمنة .

وهذه هي الطاعة ، وهي أن تفعل ما أمرت به ، وأن تجتنب ما نهيت عنه ، ولكن الآية هنا ذكرت جانباً واحداً من الطاعة ، وهو :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٥٠ ﴾

[النحل]

ولم تقل الآية مثلاً : ويجتنبون ما ينهون عنه ، لماذا ؟.. نقول : لأن في الآية ما يسمونه بالتلازم المنطقي ، والمراد بالتلازم المنطقي أن كل نهى عن شيء فيه أمر بما يقابله ، فكل نهى يؤول إلى أمر بمقابله .

فقوله سبحانه :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٥١ ﴾

[النحل]

تستلزم منطقياً « ويجتنبون ما ينهون عنه » وكان الآية جمعت الجانبين .

والحق سبحانه وتعالى خلق الملائكة لا عمل لهم إلا أنهم هميما^(١) في ذات الله ، ومنهم ملائكة موكلون بالخلق ، وهم :

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ٥٢ ﴾

[النازعات]

ويقول تعالى :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ^(٢) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ

[الرعد]

اللَّهِ .. ٥٣ ﴾

(١) الهيام : هدة السب والوله المؤدى إلى الخضوع بدون إرادة .

(٢) أى : ملائكة حافلة بتتبعونه يحفظونه ويحسون أعماله . [القاموس القويم ٢٩/٢] .

ومنهم :

﴿وَأَنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝﴾ [الانفطار]

إذن : فهناك ملائكة لها علاقة بنا ، وهم الذين أمرهم الحق سبحانه أن يسجدوا لأدم حينما خلقه الله ، وصوره بيده ، ونفخ فيه من روحه .. وكان الله سبحانه يقول لهم : هذا هو الإنسان الذي ستكونون في خدمته ، فالتسجد له بأمر الله إعلان بأنهم يحفظونه من أمر الله ، ويكتبون له كذا ، ويعملون له كذا ، ويدبرون له الأمور .. الخ .

أما الملائكة الذين لا علاقة لهم بالإنسان ، ولا يدرون به ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، هؤلاء المعنويون في قوله سبحانه لإبليس :

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝﴾ [ص]

أى : أستكبرت أن تسجد ؟ أم كنت من الصنف الملكى العالى ؟ .. هذا الصنف من الملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان ، وكل مهمتهم التسبيح والتذكر ، وهم المعنويون بقوله تعالى :

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝﴾ [الأنبياء]

كل شيء - إذن - في الوجود خاضع لمرادات الحق سبحانه منه ، إلا ما استثنى الله فيه الإنسان بالاختيار ، فإله سبحانه لم يقهر أحداً ، لا الإنسان ولا الكون الذى يعيش فيه ، فقد عرض الله سبحانه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فابتن أن يحملنها واشفقن منها .. وكانها قالت : لا نريد أن نكون مختارين ، بل نريد أن نكون مُسَخَّرِينَ ، ولا ندخل لنا في موضوع الأمانة والتكليف !!

لماذا - إذن - يابى الكون بسمائه وأرضه تحمّل هذه المسئولية ؟

نقول : لأن هناك فرقاً بين تقبّل الشيء وقت تعمله ، والقدرة على الشيء وقت أدائه .. هناك فرق .. عندنا تحمّل وعندنا أداء .. وقد سبق أن ضربنا مثلاً لتحمل الأمانة وقلنا : هب أن إنساناً أراد أن يودع عندك مبلغاً من المال مضافة تبديده لتحفظه له لحين الحاجة إليه ، وأنت فى هذا الوقت قادر على التحمل وتتوى أداء أمانته إليه عند طلبها وذهمتك قوية ، ونيتك صادقة .

هذا وقت تحمّل الأمانة ، فإذا ما جاء وقت الأداء ، فربما تضطرك الظروف إلى إنفاق هذا المال ، أو يعرض لك عارض يمنعك من الأداء أو تتغير ذمتك .

إذن : وقت الأداء شيء آخر .

لذلك ، فالذى يريد أن يبرىء ذمته لا يضمن وقت الأداء ويمتنع عن تحمّل الأمانة ويقول لنفسه : لا ، إن كنت أضمن نفسى وقت التحمل فلا أضمن نفسى وقت الأداء .

هذا مثال لما حدث من السماء والأرض والجبال حينما رفضت تحمّل الأمانة ، ذلك لأنها تُقدّر مسئوليتها وثقلها وعدم ضمان القيام بحقها ، لذلك رفضت تحمّلها من بداية الأمر .

وكذلك يجب أن يكون الإنسان عاقلاً عند تحمّل الامانات ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

[الأحزاب]

ما الذى جهله الإنسان ؟ جهل تقدير حاله وقت أداء الأمانة ،
فظلم نفسه ، ولو أنه خرج من باب الجمل كما يقولون لَقَالَ : يا رَبُّ
اجعلنى مثل السماء والأرض والجبال ، وما تُجْريه على ، فإنا طَوْع
أمرك .

ولذلك ، فمن عباد الله مَنْ قَبْلَ الاختيار وتحمل التكليف ، ولكنه
خرج عن اختياره ومراده لمراد رَبِّه وخالفه ، فقال : يارب أنت خلقت
فينا اختياراً ، ونحن به قادرون أن نفعل أو لا نفعل ، ولكننا تنازلنا
عن اختيارنا لاختيارك ، وعن مرادنا لمرادك ، ونحن طَوْع أمرك ..
هؤلاء هم عباد الله الذين استحقوا هذه النسبة إليه سبحانه وتعالى .

إذن : هناك فَرْق بين مَنْ يفعل اختياراً مع قدرته على ألا يفعل ،
وبين مَنْ يفعل بالقهر والتسخير .. فالأول مع أنه قادر ألا يفعل ، فقد
غلب مُراد رَبِّه فى التكليف على مراد نفسه فى الاختيار .

ثم ينتقل الحق - تبارك وتعالى - إلى قمة القضايا العقيدية
بالنسبة للإنسان ، فيقول تعالى :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ
وَاحِدٌ فَإِنِى فَآرَهُبُونَ ﴾ (٥١)

وقد جاء النهى فى الآية نتيجة خروج الإنسان عن مُراد رَبِّه
سبحانه ، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً - يعنى الثقليين - هم
المختارون فى الكون كله ، اختيار فى أشياء وقهر فى أشياء أخرى ..
ومع ذلك لم يشذ من خلق الله غيرهما .

فالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ كَانَ لَهَا اخْتِيَارٌ ، وَقَدْ اخْتَارَتْ
التَّسْخِيرَ ، وَانْتَهَتْ الْمَسَالَةَ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ مُسَخَّرَةٌ
وَتُؤَدِّي مَهْمَتَهَا لخدمة الْإِنْسَانِ ، فَالشمسُ لَمْ تَعْتَرِضْ يَوْمًا وَلَمْ
تَرَفُضْ .. فَهِيَ تَشْرِقُ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَمَا تَشْرِقُ عَلَى الْكَافِرِ .. وَكَذَلِكَ
الْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْدَّابَّةُ الْحُلُوبُ ، وَكُلُّ مَا فِي كَوْنِ اللَّهِ مُسَخَّرٌ لِلْجَمِيعِ ..
إِذَنْ : كُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَهَا مَهْمَةٌ ، وَتُؤَدِّي مَهْمَتَهَا عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ .

وَلِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى فِي حَقِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ .. ﴾ (١٨) [الحج]

هَكَذَا بِالْإِجْمَاعِ ، لَا يَتَخَلَفُ مِنْهَا شَيْءٌ عَنْ مُرَادِ رَبِّهِ .

فَمَا الْحَالُ فِي الْإِنْسَانِ ؟ يَقُولُ تَعَالَى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ .. ﴾ (١٨) [الحج]

وَلَمْ يَقُلْ : وَالنَّاسُ . ثُمَّ قَالَ :

﴿ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨) [الحج]

هَذَا هُوَ الْحَالُ فِي الْإِنْسَانِ الْمَكْرَمِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ وَتَرَكَ لَهُ
الْإِخْتِيَارَ .. إِنَّمَا كُلُّ الْأَجْنَاسِ مُؤَدِّيَةٌ وَاجِبِيَّةٌ : لِأَنَّهَا أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ
الْإِخْتِيَارِ الْأَوَّلِ ، فَاخْتَارَتْ أَنْ تَكُونَ مُسَخَّرَةٌ ، وَأَنْ تَكُونَ مَقْهُورَةٌ .

فَالْإِنْسَانُ .. وَاحِدٌ يَقُولُ : لَا إِلَهَ فِي الْوُجُودِ .. الْعَالَمُ خُلِقَ هَكَذَا
بِطَبِيعَتِهِ ، وَآخِرُ يَقُولُ : بَلْ هُنَاكَ آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ ! لِأَنَّ الْعَالَمَ بِهِ مَصَالِحُ
كَثِيرَةٌ وَأَشْيَاءٌ لَا يَنْهَضُ بِهَا إِلَهٌ وَاحِدٌ .. يَعْنِي : إِلَهٌ لِلسَّمَاءِ ، وَإِلَهٌ
لِلْأَرْضِ ، وَإِلَهٌ لِلشَّمْسِ .. الخ .

إذن : هذا رأى فى العالم أشياء كثيرة بحيث لا ينهض بها فى نظره إله واحد ، ونقول له : أنت أخذتَ قدرة الإله من قدرة الفردية فيك .. لا .. خُذها من قدرة من :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

لأن القدرة الإلهية لا تعالج الأشياء كما تفعل أنت ، وتحتاج إلى مجهود وعمل .. بل فى حقّه تعالى يتم هذا كله بكلمة كُنْ .. كُنْ كذا وانتهت المسألة .

ونعجب من تناقض هؤلاء ، واحد يقول : الكون خُلِقَ هكذا لحاله دون إله . والآخر يقول : بل له آلهة متعددة .. نقول لهم : أنتم متناقضون ، فتعالوا إلى دين الله ، وإلى الوسطية التى تقول بإله واحد ، لا تنفى الألوهية ولا تثبت التعددية .

فإن كنتَ تظنُّ أن دولا بَ الكون يقتضى أجهزة كثيرة لإدارته ، فاعلم أن الله تعالى لا يباشر تدبير أمر الكون بعلاج .. يفعل هذه ويفعل هذه ، كما يُزاول البشر أعمالهم ، بل يفعلها بـ « كُنْ » ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فاعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأننى جواد ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما

أمرى بشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون^(١) .

فيا مَنْ تُشْفِقُ عَلَى الْإِلَهِ الْوَاحِدِ أَنْ يَتَعَبَ مِنْ إِدَارَتِهِ لِلْكَوْنِ بِشَتَّى نَوَاحِيهِ ، اِرْتَفَعَ بِمَسْتَوَى الْأُلُوْهِيَةِ عَنْ أَمْثَالِ الْبَشَرِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَبَاشِرُ سُلْطَانَهُ عِلَاجًا فِي الْكَوْنِ ، وَإِنَّمَا يَبَاشِرُهُ بِكَلِمَةٍ « كُنْ » .

إِذَنْ : إِلَهٌ وَاحِدٌ يَكْفِي ، وَمَا دُعَيْنَا سَلْمَنَا بِإِلَهِ وَاحِدٍ ، فَبَيَّاكَ أَنْ تَقُولَ بِتَعَدُّدِ الْأَلْهَةِ .. وَإِذَا كَانَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَفَى إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، فَنَفَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ أَوَّلَى .. وَاثْنَانِ أَقَلَّ صُورِ التَّعَدُّدِ .

وَمَعْنَى ﴿ إِلَهَيْنِ ﴾ أَيْ : مَعْبُودَيْنِ ، فَيَكُونُ لِهَمَا أَوَامِرُ وَنَوَاهٍ ، وَالْأَوَامِرُ وَالنَّوََاهِي تَحْتَاجُ إِلَى طَاعَةٍ ، وَالْكَوْنُ يَحْتَاجُ إِلَى تَدْبِيرٍ ، فَأَيُّ الْإِلَهَيْنِ يَقُومُ بِتَدْبِيرِ أُمُورِ الْكَوْنِ ؟ أَمْ أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعَدٍ ؟ إِنْ كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعَدٍ فَهَذَا نَقْصٌ فِيهِ ، وَلَا يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا .

وَكَذَلِكَ إِنْ تَخَصَّصَ كُلُّ مَنَّهُمَا فِي عَمَلٍ مَا ، هَذَا لِكَذَا وَهَذَا لِكَذَا ، فَقَدْ أَصْبَحَ أَحَدُهُمَا عَاجِزًا فِيمَا يَقُومُ بِهِ الْآخَرُ .. وَآيُ نَاحِيَةِ إِذَنْ مِنْ نَوَاحِي الْحَيَاةِ تَكُونُ هِيَ الْمَسْطَرَّةُ ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَوَاحِي الْحَيَاةِ مَشْتَرِكَةٌ وَمُتَشَابِكَةٌ .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. ﴾ (٩١)

[المؤمنون]

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سِفْتِهِ (٢٤٩٥) ، وَأَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ (٧٧/٥ . ١٥٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ . فِي إِسْنَادِهِ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ . ضَعُفَهُ بَعْضُهُمْ وَقَدْ حَسَّنَ الْبُخَارِيُّ حَدِيثَهُ وَقَوَّى أَمْرَهُ .

وقال :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٧)﴾ [الأنبياء]

فكيف الحال إذا أراد الأول شيئاً ، وأراد الآخر ألا يكون هذا الشيء ؟ فإن كان الشيء كان عجزاً في الثاني ، وإن لم يكن كان عجزاً في الأول .. إذن : ففوق أحدهما عجز في الآخر .

ونلاحظ في قوله تعالى :

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١)﴾ [النحل]

عظة بليغة ، كأنه سبحانه حينما دعانا إلى توحيده يقول لنا : أريحوا أنفسكم بالتوحيد ، وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الراحة في قوله :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [الزمر]

يعنى رجل خَلَصَ لسيد واحد ، ورجل أسياده كثيرون ، وهم شركاء مختلفون ، فإن أَرْضَى هذا الغضب ذاك ، وإن احتججه أحدهما تنازعه الآخر . فهو دائماً مُتْعَبٌ مُثْقَلٌ ، أما المملوك لسيد واحد فلا يخفى ما فيه من راحة .

ففى أمره سبحانه بتوحيده راحة لنا ، وكأنه سبحانه يقول : لكم وجهة واحدة تكفيكم كُلُّ الجهات ، وتضمن لكم أن الرضا واحد ، وأن البُغْض واحد .

إذن : فطلبه سبحانه راحة لنا : لذلك قبل أن يطلبها منا شهد بها لذاته تعالى ، فقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم ، يشهد لذاته سبحانه : لأنه لا أحد غيره .. لا أحد معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي .. وكأنه سبحانه يقول : لا أحد غيري ، وإن كان هناك إله غيري فكثيرني نفسه ، وليفصح عن وجوده .

أنا الله خلقت الكون وأخذته وفعلت كذا وكذا ، فإما أن أكون صادقاً فيما قلت وتنتهي المسألة ، وإما أن أكون غير صادق ، وهناك إله آخر هو الذي خلق .. فإين هو ؟ لماذا لا يعارضني ؟

وهذا لم يحدث ولم ينازع الله في خلقه أحد ، وحين تأتي الدعوى بلا معاند ولا معارض تسلم لصاحبها .

فإن قال قائل : لعل الآلهة الأخرى لم تدّر بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية ، فإن كان الأمر كذلك فهم لا يصلحون للألوهية لعدم درايتهم ، وإن درّوا ولم يعارضوا فهم جُبّناء لا يستحقون هذه المكانة .

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خلق الخلق : لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره ، فإذا قال : « كن » فهو واثق أنه سيكون .

ولذلك ساعة يحكم الله حكماً غيبياً يقول : أنا حكمت هذا الحكم

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٩٦٣

مع أنكم مختارون في أن تفعلوا أو لا تفعلوا ، ولكني حكمتُ بأنكم لا تفعلون ، وما دُمْتُ حكمتُ بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا ، ولكن ما فطمت ، فهذا دليل على أنه لا إله غيري يُعينكم على أن تفعلوا .

ثم شهدتُ الملائكة على شهادة الذات ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، كما قال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾

[آل عمران]

لنا هنا وقفة مع قوله تعالى :

﴿ إِلَهِينِ اثْنَيْنِ .. (٥١) ﴾

[النحل]

فعندنا العدد ، وعندنا المعدود ، فإذا قلنا مثلاً : قابليت ثلاثة رجال ، فكلمة « ثلاثة » دلتُ على العدد ، وكلمة « رجال » دلتُ على جنس المعدود ، وهكذا في جميع الأعداد ما عدا المفرد والمثنى ، نلفظ كل منهما يدل على العدد والمعدود معاً .

كما لو قلت : إله . فقد دلتُ على الوحدة ، ودلتُ على الجنس ، وكذلك « إلهين » دلتُ على المثنى وعلى جنس المعدود .

ولذلك كان يكفي في الآية الكريمة أن يقول تعالى : لا تتخذوا إلهين ؛ لأنها دلتُ على العدد وعلى المعدود معاً ، ولكن الحق تبارك وتعالى أراد هذا تأكيداً للأمر العقدي لأهميته .

ومن أساليب العرب إذا أحبوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد .

فيقولون : فلان قسيم وسيم ، وفلان حسن بَسَنٌ^(١) ، وفلان شيطان
ليطان ، يريدون تأكيد الصفة .. وكذلك في قوله : ﴿إِلَهَيْنِ﴾ فقط
تثبت الألوهية ، ولتأكيد هذه القضية العقيدية لأنها أهم القضايا بالنسبة
للإنسان ، وهي قضية القمة ، فقال تعالى :

﴿إِلَهَيْنِ الثَّانِ .. (٥١)﴾

[النحل]

وكذلك أيضاً في قوله :

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. (٥١)﴾

[النحل]

فجاء بقوله تعالى ﴿وَاحِدٌ﴾ لتأكيد وحدانية الله تعالى .

وفي الآية ملاحظ آخر يجب تأمله ، وهو أن الكلام هنا في حالة
الغيبة :

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. (٥١)﴾

[النحل]

فكان القياس في اللغة هنا أن يقول : «فإياه فارهبون» .

ولكن وراء تحويل السياق من الغيبة إلى الضجاجة للمتكلم قال :

﴿فَإِيَّائِي فَارْهَبُونِ (٥١)﴾

[النحل]

وهذا وراءه حكمة ، وملاحظ بلاغي ، فبعد أن أكد الألوهية بقوله
تعالى :

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. (٥١)﴾

[النحل]

(١) قال ابن منظور في [اللسان - مادة : بسن] : « حسن بسن إتباع . قال ابن الأعرابي :
أبسن الرجل إذا حسنت سمعته » .

صَحَّ أَنْ يُجَابَهُمْ بِذاته : لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ مَا دَامَتْ مَسْأَلَةً رَهْبَةً ،
فَالرَّهْبَةُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ خَيْرٌ مِنَ الرَّهْبَةِ مِنَ الْغَائِبِ .. وَكَانَ السِّيَاقُ يَقُولُ :
هَـا هُوَ سَبْحَانَهُ أَمَامَكَ ، وَهَذَا أَدْعَى لِلرَّهْبَةِ .

وَكذلك فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ نَقَرْنَا :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَا لِكَ يَوْمَ
الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة]

وَلَمْ يَقُلْ : أَيَّاهُ نَعْبُدُ . مُتَابِعَةً لِلغَيْبَةِ ، بَلْ تَحَوَّلَ إِلَى ضَمِيرِ
الْخُطَابِ فَقَالَ :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَبْدَ بَعْدَ أَنْ اسْتَحْضَرَ صِفَةَ الْجَلَالِ وَالْعِظَمَةِ أَصْبَحَ أَهْلًا
لِلْمُوَاجَهَةِ وَالْخُطَابِ الْمُبَاشِرِ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

فَقَوْلُهُ :

﴿ فَإِنِّي آيَ قَارُهُبُونَ (٥١) ﴾ [النحل]

بَعْدَ مَا اسْتَحْضَرَ الْعَبْدَ عِظَمَةَ رَبِّهِ ، وَاقْرَأَ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَةِ
وَعَلِمَ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَلَيْسَ إِلَهَيْنِ . وَاجِدٌ يَقُولُ : نُعَذِّبُهُ . وَالْآخِرُ
يَقُولُ : لَا .

لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلْ إِلَهٌ وَاحِدٌ بِيَدِهِ أَنْ يُعَذِّبَ ، وَبِيَدِهِ أَنْ يَغْفِرَ ،
فَنَاسِبُ السِّيَاقِ هُنَا أَنْ يُوَاجِهَهُمْ فَيَقُولُ :

﴿ فَإِنِّي آيَ قَارُهُبُونَ (٥١) ﴾ [النحل]

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ^(١)
أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ ۚ ﴾

عندنا هنا اللام .. وقد تكون (اللام) للملك كما فى الآية . وكما
فى : المال لزيد ، وقد تكون للتخصيص إذا دخلت اللام على ما لا
يملك ، كما نقول : اللجام للفرس ، والمفتاح للباب ، فالفرس لا يملك
اللجام ، والباب لا يملك المفتاح . فهذه للتخصيص .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٥٧) [النحل]

وفى موضع آخر يقول :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٨) [يونس]

وكذلك فى :

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٧٤) [الحشر]

ومرة يقول :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١) [الجمعة]

حينما تكون اللام للملكية قد يكون المملوك مختلفاً ففى قوله :

(١) وصب الشيء يصب صبواً : دام ولزم فسهو واصب : دائم لازم . أى : لا يتغير

ولا يتبدل . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٩] .

[النحل]

﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٥٢)

يعنى : القدر المشترك الموجود فيهما . أى : الأشياء الموجودة
فى السماء وفى الأرض .

أما فى قوله :

[يونس]

﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٨)

أى : الأشياء الموجودة فى السماء وليست فى الأرض ، والأشياء
الموجودة فى الأرض وليست فى السماء ، أى : المخصَّص للسماء
والمخصَّص للأرض ، وهذا ما يُسمونه استيعاب الملكية .

وما دام سبحانه له ما فى السموات وما فى الأرض ، فليس لأحد
غيره ملكية مستقلة ، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة . إذن :
فليس له ذاتية وجود ؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له ، وما به قيام
وجوده موهوب له .. ولذلك يقولون : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْبُدَ فِي الْإِلَهِ
يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لَهُ ذَاتِيَّةٌ وَجُودٌ .. وليست هذه إلا لله تعالى .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الصغير الذى يعاند أباه ، وهو ما يزال
عالةً عليه . فيقول له : انتظر إلى أن تكبر وتستقلّ بأمرك .. فإذا
ما شبَّ الولد وبلغ وبدأ فى الكسب أمكن له الاعتماد على نفسه ،
والاستغناء عن أبيه .

لذلك نقول لمن يعاند فى الألوهية : أنت لا تقدر ؛ لأن وجودك
هبةٌ ، وقيام وجودك هبةٌ ، كل شيء يمكن أن يُنزع منك .

ولذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى
قوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفٍ ۖ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْنَى ۖ ﴾ [النحل]

فهذا الذي رأى نفسه استغنى عن غيره - من وجهة نظره - إنما هل استغنى حقاً؟ لا . لم يستغن ، بدليل أنه لا يستطيع أن يحتفظ بما يملك .

قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ [النحل]

الذى له ما فى السموات والارض ، وبه قيام وجوده بقيوميته^(١) ، فهو سبحانه يُطمئنك ويقول لك : أنا قيوم - يعنى : قائم على أمرك .. ليس قائماً فقط .. بل قيوم بالمبالغة فى الفعل ، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاباً من عدم ، وإمداداً من عدم ، إذن : يجب أن تكون طاعتك له سبحانه لا لغيره .

وفى الأمثال يقولون « اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى » فإذا كنت أنت حالة فى الوجود .. وجودك من الله ، وإمدادك من الله ، وإبقاء مقومات حياتك من الله : لذلك قال تعالى :

﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً .. ﴾ [النحل]

أى : هذه نتيجة : لأن الله ما فى السموات والارض ، فله الدين واسباباً ، أى : له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً ، وملك الله دائماً ، وهو سبحانه لا يُسلم ملكه لأحد ، ولا تزال يد الله فى ملكه .. وما دام الأمر هكذا فالحق سبحانه يسألهم :

(١) القيوم . صيغة مبالغة من أسماء الله الحسنى لا يُوصف بها سواه . أى : دائماً شديد القيام والحفاظ على مخلوقاته . [القاموس القويم ١٤٢/٢] .

﴿ أَفْخِرَ اللَّهُ تَقُونَ ﴾ (٥٢)

[النحل]

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ ، فلا يجوز أن تتقى غير الله ، لأنه حُوق لا يليق بك ، وقد علمت أن الله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم ، وبه سبحانه قامت السموات والأرض ومنه سبحانه الإيجاد من عدم والإمداد من عدم .

إذن : فمن الحُوق أن تتقى غيره ، وهو أولى بالتقوى ، فإن اتقيتم غيره فذلك حُوق فى التصرف يؤدى إلى العطب والهلاك ، إن اعتدلتكم بأن الله تعالى أعطاكم نعماً لا تعد ولا تحصى .

ومن نعم الله أن يضمن لعباده سلامة الملكات وما حولها ، فلو سلم العقل مثلاً سكمت وصححت الأمور التى تتعلق به ، فيصح النظام ، وتصح التصرفات ، ويصح الاقتصاد .. وهذه نعمة .

فالنعمة تكون للقلب وتكون للقلب ، فللقلب المتعة المادية ، وللقلب المتعة المعنوية .. وأهم المتع المعنوية التى تريح القلب أن يكون للإنسان دينٌ يُوجِّهه .. أن يكون له ربٌ قادر ، لا يُعجزه شيء ، فإن ضاقت به الدنيا ، وضافت به الأسباب فإن له رباً يلجأ إليه فيُسعفه ويكفيه ، وهذه هى الراحة الحقيقية .

وقد ضمن لنا الحق - سبحانه وتعالى - سلامة القلب بما أودع فى الكون من مقومات الحياة فى قوله :

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ^(١) .. ﴾ (١٠)

[فصلت]

أى : اطمئنوا إلى هذا الأمر ، فإله سبحانه لا يريد منكم إلا أن

(١) أقواتها . هو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس . قاله ابن كثير

فى تفسيره (١٣/٤) .

تَعْمَلُوا عَقُولَكُمْ الْمَخْلُوقَةَ لِلَّهِ لِتَفَكَّرُوا فِي الْمَادَةِ الْمَخْلُوقَةِ لَهُ ، وَتَنْفَعَلُوا
لَهَا بِالطَّاقَةِ الْمَخْلُوقَةِ لِلَّهِ فِي جَوَارِحِكُمْ ، وَسَوْفَ تَجِدُونَ كُلَّ شَيْءٍ
مُسَيَّرًا لَكُمْ .. فَاللَّهُ تَعَالَى مَا أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ تَوْجِدُوا رِزْقًا ، وَإِنَّمَا أَرَادَ
أَنْ تَعْمَلُوا الْعَقْلَ ، وَتَتَفَاعَلُوا مَعَ مُعْطِيَاتِ الْكَوْنِ .

ولكن كيف يتفاعل الإنسان في الحياة ؟

هناك أشياء في الوجود خلقها الله سبحانه برحمته وفضله ، فهي
تفعل لك وإن لم تطلب منها أن تفعل ، فانت لا تطلب من الشمس أن
تطلع عليك ، ولا من الهواء أن يهب عليك .. الخ .

وهناك أشياء أخرى تفعل لك إن طلبت منها ، وتفاعلت معها ،
كالأرض إن فعلت بيدك فحرثت وزرعت ورويت تعطيك ما تريد .

وفي هذا المجال من التفاعل يتفاضل الناس ، لا يتفاضلون فيما
يُفعل لهم دون انفعال منهم .. لا بل ارتقاء الناس وتفاضلهم يكون
بالأشياء التي تنفعل لهم إن فعلوا .. أما الأخرى فتفعل لكل الناس ،
فالشمس والهواء والمياه للجميع ، للمؤمن والكافر في أي مكان .

إنن : يترقى الإنسان بالأشياء التي خلقها الله له ، فإذا انفعال
معه انفعلت له ، وإذا تكاسل وتخاذل لم تُعطه شيئاً ، ولا يستفيد
منها بشيء .. ولذلك قد يقول قائل : الكافر عنده كذا وكذا ، ويملك
كذا وكذا ، وهو كافر .. ويتعجب من القدر الذي أعطى هذا ، وحرّم
المؤمن الموحد منه .

نقول له : نعم أخذ ما أخذ ؛ لأنه يشترك معك فيما يُفعل لك
وإن لم تطلب ، ويزيد عليك أنه يعمل ويكدّ وينفعل مع الكون

وما أعطاه الله من مَقُومَاتٍ وطاقاة ، فتتفعل معه وتعطيه ، في حين أنك قاعد لا همّة لك .

وكذلك قد يتسامى الارتقاء في الإنسان ، فيجعل الشيء الذي يُفعل له دون أن يطلب منه - أي : الشيء المسخَّر له - يجعله ينفع له ، كما نرى فيما توصَّل إليه العلم من استخدام الطاقة الشمسية مثلاً في تسخين المياه .. هذه الطاقة مُسَخَّرَةٌ لنا دون جَهدٍ مِنَّا ، ولكن ترقى الإنسان وطموحه أوصله إلى هذا الارتقاء .. وكلُّ هذه نِعَمٌ من الله ؛ ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا يَكُفُّمْ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَّا إِذَا ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾
﴿ فَإِلَيْهِ يَجْشَرُونَ ﴾

أمدنا الله سبحانه بهذه النعم رحمة منه وفضلاً .. نِعَمٌ تقرى لا تُعَدُّ ولا تُحصى ، ولكن لرتابة^(١) النعمة وحولها في وقتها يتعوّدها الإنسان ، ثم يذهل عن المتعم سبحانه .

ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً بالولد الذي تعطيه مصروفه مثلاً كل أول شهر ، تجده لا يحرص على أن يلقاك بعد ذلك إلا كل أول شهر ، إنما إذا عودته أن يأخذ مصروفه كل يوم . تراه في الصباح يحوم حولك ، ويظهر لك نفسه ليذكرك بالمعلوم .

إذن : رتابة النعمة قد تُذهلك عن المنعم ، فلا تتذكره إلا حين

(١) جار إلى الله عز وجل : تضرع بالدعاء . فيرفع صوته بالدعاء متضرعاً جزءاً . [لسان العرب - مادة : جار] .

(٢) الأمر الراتب : الثابت الدائم . [لسان العرب - مادة : رتب] .

الحاجة إليه : لذا يُنبِّهنا الحق تبارك وتعالى : إذا أعطيتُ لكم نعمة فإياكم أنْ تغتروا بها .. إياكم أنْ تُذهلكم النعمة عن النعم : لأنكم سوف تحكمون على أنفسكم أنه لا مُنعم غيري ، بدليل أننى إذا سلَّبتُ النعمة منكم فلن تجدوا غيري تلجأون إليه فستقولون : ياربَّ ياربَّ .

فأنت ستكون شاهداً على نفسك ، لن تكذب عليها ، فكمَنْ تتوجَّه إذا أصابك فقر ؟ ولمن تتوجَّه إذا أصابك مرض ؟ لن تتوجَّه إلا إلى الله تقول : ياربَّ .

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ ﴾ (٥٣)

[النمل]

فترة الضُّر التي تمرُّ بالإنسان هي التي تلفته إلى الله ، والحاجة هي التي تُلجئه إلى المصدر الحقيقي للإمداد ، فإذا كانت النعمة قد تُذهله وتُنسيه ، فالضرُّ يُذكِّره بربه الذي يملك وحده كُشف الضر عنه .

ولذلك ، فالناس أصحاب اليقين في الله تعالى ساعةً أنْ يصيبهم ضرٌّ ، يقول : ذكَّرتنى بك ياربَّ ، ياخذها على أنها نعمة .. كأنها نجدة نَجَدته مما هو فيه من غفلة .. يا ربَّ أنت ذكَّرتنى بك .. أنا كنتُ ناسياً ذاهلاً .. كنتُ فى غفلة .

وساعةً أنْ يعودَ ويشعر بالتقصير يرفع الله عنه البلاء ؛ ولذلك يُرفع القضاء عن العبد إنْ رضى به وعلم أن فيه خيراً له .

ولذلك ، فالرسول ﷺ يُنبِّهنا لهذه الأحداث التي تصينا ، فإياكم أن تستقبلوها بالجزع والفرع .. ولكن استقبلوها بالإيمان والرضا ، واعلموا أن ربكم يغار عليكم ، وهو بهذه الأحداث يلفتكم إليه قهراً عنكم ؛ لكى تعودوا إليه وتلجأوا إليه .. لكى تقولوا ياربَّ .

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿٨٠٨٢﴾

يقول رسول الله ﷺ عن رب العزة في الحديث القدسي :

« مِنْ عِبَادِي مَنْ أَحْبَبَهُمْ فَأَنَا أُبْتَلِيهِمْ لِيَقُولُوا يَا رَبِّ... » ^(١) .

ويقول تعالى في الآية الأخرى :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ... ﴾ (٤٣) [الانعام]

أى : أنه سبحانه يريد منا إذا نزل بنا بلاء وبأس أن نتضرع إليه سبحانه : لأن الضراعة إلى الله لفئة وتذكير به .. والنبي ﷺ يرشدنا إلى هذه الحقيقة ، فالمصائب الحقيقية ليس من نزل به ضرر أو أضرار بلاء .. لا .. بل المصائب الحقيقية من حرم الثواب .

إذن : نقول لمن عنده نعمة : احذر أن تُنسيك النعمة وتُذهلك عن المنعم ، أما صاحب البلاء والضرر ، فسوف يردك هذا البلاء ، ويُذكرك هذا الضرر بالله تعالى ، ولن تجد غيره تلجأ إليه .

فقوله تعالى :

﴿ قَالِهِ تَجَارُونَ ﴾ (٥٣) [النحل]

أى : تضرعون بصراخ وصوت عال كخوار البقر ، لا يسره أحد ولا يستحي منه أن يُفتضح أمره أمام من تكبر عليهم .. ويا ليتكم حين ينتابكم مثل ذلك تعتبرون به وتتعتلون ، وتقولون في لحظة من

(١) أورد المنذرى في الترغيب (٥٢٦/٤) أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً أو أراد أن يصفاه صب عليه البلاء صباً . وشجه عليه شجاً . فإذا دعا العبد قال يا رباه . قال الله : لبيك يا عبدي لا تسألني شيئاً إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك . وإما أن أخفرك لك . » ورمز الحافظ المنذرى له بالضعف .

(٢) البأس : العذاب والشدة في الحرب والمشقة . [لسان العرب - مادة : بأس] .

اللحظات : سوف تلجئنا الأحداث إلى ربنا .. بل بالعكس حينما نكشف عنكم الضر سوف تعودون إلى ما كنتم عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٥٤ ﴾

فمن الناس من إذا أصابه الله بضر أو نزل به بأس تضرع وصرخ ولجأ إلى الله ودعاه ، وربما سألت دموعه ، وأخذ يصلى ويقول : يا فلان ادع لي الله وكذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه ضره عاود الكرة من جديد : لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ ۖ ۝ (١٢) ﴾ [يونس]

ومن لطف الأداء القرآني هنا أن يقول :

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٥٤ ﴾ [النحل]

أي : جماعة منكم وليس كلكم ، أما الباقي فيمكن أن يثبتوا على الحق ، ويعتبروا بما نزل بهم فلا يعودون .. فالناس - إذن - مختلفون في هذه القضية : فواحد يتضرع ويلتفت إلى الله من ضر واحد أصابه ، وآخر يلتفت إلى الله من ضرين ، وهكذا .

وقد وجدنا في الأحداث التي مرت ببلادنا على أكابر القوم أحداثاً عظيماً تلفتهم إلى الله ، فرأينا من لا يعرف طريق المسجد يصلى ، ومن لا يفكر في حج بيت الله ، يسرع إليه ويطوف به ويبكى هناك

عند الملتزم^(١) ، وما ألجأهم إلى الله ولفتهم إليه سبحانه إلا ما مرت بهم من أحداث .

أليست هذه الأحداث ، وهذه الأزمات والمصائب خيراً في حقهم ؟.. بلى إنها خير .

وأيضاً قد يُصاب الإنسان بمرض يُلمّ به ، وربما يطول عليه ، فيذهب إلى الأطباء ، ويدعو الله ويلجأ إليه ، ويطلب من الناس الدعاء له بالشفاء ، ويعمل كذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه المرض وأذن له بالشفاء قال : أنا اخترت الطبيب العاذق ، الطبيب النافع ، وعملت وعملت .. سبحانه الله !

لماذا لا تترك الأمر لله ، وتُغْفِي نفسك من هذه العملية ؟

وفى قوله تعالى :

﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾

[النحل]

صمام أَمْن اجتماعي في الكون ، يقول للناس : إياكم أن تأخذوا على غيركم حين تُقدمون إليهم جميلاً فيُنكرونه .. إياكم أن تُكفُوا عن عمل الجميل على غيركم : لأن هذا الإنكار للجميل قد فعلوه مع أعلى منكم ، فعلوه مع الله سبحانه ، فلا يُزهدك إنكارهم للجميل في فعله ، بل تمسك به لتكون من أهله .

(١) يستحب الدعاء عند الملتزم بعد الشرب من ماء زمزم . قال عبيد الله بن عمرو بن العاص : « رأيت رسول الله ﷺ يلزق وجهه وصدره بالملتزم » . أخرجه ابن عدي في الكامل .

والحق تبارك وتعالى يضرب لنا مثلاً لإنكار الجميل في قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا^(١) مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (٦٩)﴾
[الأحزاب]

فقد اتهمه قومه وقعدوا يقولون فيه كذباً وبُهتاناً ، فقال موسى : يا ربَّ أسألك ألا يُقال فيَّ ما ليس فيَّ .. فقال تعالى لموسى : أنا لم أفعل ذلك لنفسى ، فكيف أفعلها لك ؟

ولماذا لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ؟.. لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ليعطينا نحن أسوة في تحمل هذا الإنكار ، فقد خلق الله الخلق ورزقهم ووَسَّعهم ، ومع ذلك كفرُوا به ، ومع ذلك ما يزال الحق سبحانه خالقاً رازقاً واسعاً لهم .

إذن : في الآية تقنين وأمان للمجتمع أن يتفشى فيه مرض الزُّهْد في عمل الخير .

وقول الحق سبحانه :

﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾
[النحل]

تشمل الآية مَنْ أنكر الجميل من المؤمنين ، ومن الكافرين .

ولكن لماذا يشركون ؟

(١) وذلك أن موسى عليه السلام كان رجلاً حبيباً ، فأذاه قوم من بنى إسرائيل وقالوا : ما يستقر هذا الستر إلا من عيب بجلده بهرص أو غيره . فأراد الحق أن يبرئه مما قالوا . فبعد اغتساله أراد أن يرتدى ثيابه . فذهب بها الحجر بعيداً حتى جاء على ملا من بنى إسرائيل فراوه عرياناً أحسن ما خلق الله . أخرجه البخارى في صحيحه والترمذى في سننه من حديث أبى هريرة . نكزه السيوطى في الدر المنثور (٦٦٥/٦) .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَسُّوهُمُ أَفْسُوفٌ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٥)

أى : مُسْتَعْظَمِينَ كَقَارُونَ الذى قال :

﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ..﴾ (٧٨) [القصاص]

أخذتُ هذا بَجْهَدِي وعَمَلِي .. ومثله مَنْ تقول له : الحمد لله الذى وفَّقك فى الامتحان ، فيقول : أنا كنت مُجَدًّا .. ذاكرتُ وسهرتُ .. نعم انت ذاكرتُ ، وايضاً غيرك ذاكر وجَدُّ واجتهد ، ولكن أصابه مرض ليلة الامتحان فاقعده ، وربما كنت مثله .

فهذه نعمة مَنْ أنكر الفضل ، وتكبر على صاحب النعمة سبحانه .

وقوله :

﴿لِيَكْفُرُوا ..﴾ (٥٥) [النحل]

هل فعلوا ذلك ليكفروا ، فتكون اللام للتعليل ؟ لا بل قالوا : اللام هنا لام العاقبة .. ومعناها أنك قد تفعل شيئاً لا لشيء ، ولكن الشيء يحدث هكذا ، وليس فى بالك أنت .. إنما حصل هكذا .

ومثال هذه اللام فى قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون :

﴿فَالنَّظَّةُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ..﴾ (٨) [القصاص]

ففرعون حينما أخذ موسى من البحر وتبنَّاه وربَّاه ، هل كان يتبنَّاه ليكون له عدواً ؟ لا .. إنما هكذا كانت النهاية ، لكى يثبت الحق سبحانه أنهم كانوا مُنْغَفَلِينَ ، وأن الله حال بين قلوبهم وبين

ما يريدون .. إذن : المسألة ليست مرادة .. فقد أخذته وربيتة في الوقت الذي تقتل فيه الأطفال .. ألم يخطر ببالك أن أحداً خاف عليه ، فالتقاء في البحر ؟!

لذا يقول تعالى :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ^(١) بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾

[الأنفال]

وكذلك أم موسى :

﴿وَأَرْحَمُنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾

[القصص]

كيف يقبل هذا الكلام ؟ وأنى للام أن ترمى ولدها في البحر إن خافت عليه ؟! كيف يتأتى ذلك ؟! ولكن حال الله بين أم موسى وبين قلبها ، فذهب الخوف عليه ، وذهب الحنان ، وذهبت الرافة ، ولم تكذب الأمر الموجبه إليها ، واعتقدت أن نجاة وليدها في هذا فالتقت .

وقوله : ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾

[النحل]

أى : اكفروا بما آتيناكم من النعم ، وبما كشفنا عنكم من الضر ، وتمتعوا في الدنيا : لأننى لم أجعل الدنيا دار جزاء ، إنما الجزاء في الآخرة .

(١) حال بينهما يحول . حجز وفصل . ومعنى قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] أى : أن الله يملك أن يعرف قلب الإنسان ويغير نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه ، وإنما الله هو الذى يملكه . [القاموس القويم ١/ ١٧٩] .

وكلمة ﴿ تَمَتُّعُوا ﴾ هنا تدل على أن الله تعالى قد يُوالى نعمه حتى على مَنْ يكفر بنعمته ، وإلا فلو حَجَبَ عنهم نِعْمه فلن يكون هناك تَمَتُّع .

ويقول تعالى :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٥٥)

[النحل]

أى : سوف ترون نتيجة أعمالكم ، ففيها تهديد ووعد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ
تَاللَّهِ لَشِئْنٌ عَمَّا كُتِبَ تَفْتَرُونَ ﴾ (٥٦)

أى : الذين يكفرون بالله ويتخذون الأصنام والشركاء ، يجعلون لها نصيباً

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَعْلَمُونَ .. ﴾ (٥٦)

[النحل]

ما العلم ؟

العلم أن تعرف قضية ، هذه القضية صدق أى : مطابقة للواقع وتستطيع أن تدل عليها ، فإذا اختلف واحد منها لم تكن علماً .. وهؤلاء حينما جعلوا للأصنام نصيباً ، فقد أتوا بأشياء لا وجود لها فى الواقع ولا فى العلم ، وليست حقائق .. وهل للأصنام وجود ؟ وهل عليها دليل ؟

قال تعالى :

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ .. (٢٣)﴾
[النجم]

هذه الأصنام ليست لها وجود في الحقيقة ، وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾
[الأنعام]

حتى لما جعلوا للأصنام نصيباً جعلوه مما رزقهم الله ، ألا جعلتم نصيب الأصنام مما تعطيتكم الأصنام ؟ ونصيب الله مما رزقكم الله ؟ فهذا اعتراف منكم بعجز أصنامكم ، وأنكم أخذتم رزق الله وجعلتموه لأصنامكم .

وهذا دليل على أن الأصنام لا تعطيتكم شيئاً ، وشهادة منكم عليهم .. وهل درت الأصنام بهذا ؟

إنن :

﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ .. (٥٦)﴾
[النحل]

أى : للأصنام : لأنها لا وجود لها في الحقيقة ، وهم يأخذون ما رزقناهم ، ويجعلونه لأصنامهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ تَاللّٰهِ لَتَسَالُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَقْتُرُونَ ﴾ (٥٦) [النحل]

التاء هنا فى ﴿ تالّٰه ﴾ للقسم : أى : والله لَتَسَالُنَّ عما افتريتم
من أمر الاصنام . والافتراء : هو الكذب المتعمد .

﴿ وَجَعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (٥٧)

ساعة أن تسمع كلمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ فاعلم أنها تنزيه لله تعالى
عَمَّا لا يليق ، فهى هنا تنزيه لله سبحانه وتعالى عما سبق من نسبة
البنات له .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .. أى : تنزيهاً لله عن أن
يكون له بنات .

فهل يمكن أن يكون له أولاد ذكور ؟

إنهم جعلوا لله البنات ، وجعلوا لأنفسهم الذكور ، وهذه قسمة قال
عنها القرآن الكريم :

﴿ اَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الْاُنثٰى ﴾ (٢١) تِلْكَ اِذَا قِسْمَةٌ خِيزٰى (٢٢) [النجم]

أى : جائزة .

لم تجعلوها عادلة ، يعنى لى ولد ولكم ولد ، ولى بنت ولكم بنت ،
إنما تجعلون لله مَا تكرمون وهى البنات لله ، وتجعلون لكم ما
تحبون .. لذلك كان فى جعلهم لله البنات عيبان :

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٢٨٤١/٥) . نزلت فى خزاعة وكنانة . فإنهم زعموا أن
الملائكة بنات الله . .

الاول : أنهم نَسَبُوا لله الولد - ولو كان ذكراً فهو افتراء باطل
يُنَزِّه الله عنه .

الثانى : أنهم اختاروا أخص الأنواع فى نظرهم .. ولا يستطيع أحد
أن يقول : إن البنات أخص الأنواع .. لماذا ؟

لان البنات يكون بقاء النوع : ولذلك قال العباس : لو سمع الله
ما قال الناس فى الناس لما كان الناس .. أى : لو استجاب الله لرغبة
الناس فى أنهم لا يريدون البنات فاستجاب ولم يُعْطهم .. ماذا
سيحدث ؟ سينقطع النسل ، فهذا مطلب غيبى ، فالبنات هى التى تكد
الولد ، وبها بقاء النوع واستمرار النسل .

وقوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَهُ .. (٥٧) ﴾

[النحل]

أى : تنزيهاً له أن يكون له ولد ، وتنزيهاً له سبحانه أن يكون له أخص
النوعين فى نظرهم وعرفهم ، وقد قال عنهم القرآن فى الآية التالية :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ
مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. (٥٩) ﴾

[النحل]

ولذلك فالحق - تبارك وتعالى - حينما يُحَدِّثُنَا عن الإنجاب يقول :

﴿ لِلَّهِ مَلَكُ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا
وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ (٤٩) أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ
عَقِيمًا .. (٥٠) ﴾

[الشورى]

اول ما بدأ الحق سبحانه بدأ بالإناث .. ثم أعطانا هذه الصور من
الخلق : إناث ، ذكور ، ذكور وإناث ، عقيم .. إذن : هبات الله تعالى

سُورَةُ النُّحْلِ

﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾

لها أربعة أنواع ، ومن هنا كان العقم أيضاً هبة من الله لحكمة أرادها سبحانه .. لكن الناس لا تأخذ العقم على أنه هبة .. لكن تأخذه على أنه نعمة وغضب .

لماذا ؟ لماذا تأخذه على أنه نعمة وبلاء ؟ فربما وهبك الولد ، وجاء عاقلاً ، كالولد الذي جاء فتنة لأبويه ، يدعوهم إلى الكفر^(١) .

ولو أن صاحب العقم رضى بما قسمه الله له من هبة العقم واعتبره هبة ورضى به لرأى كل ولد فى المجتمع ولده من غير تعب فى حمله وولادته وتربيته . فيرى جميع الأولاد من حوله أولاده ويعطف الله قلوبهم إليه كأنه والدهم .. وكان الحق تبارك وتعالى يقول له : ما نمت رضىت بهبة الله لك فى العقم لأجعلن كل ولد ولداً لك .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) [النحل]

أى : من الذُكران : لأن الولد عزوة لأبيه ينفعه فى الحرب والقتال وينفعه فى المكاثرة .. الخ إنما البنت تكون عالة عليه ؛ ولذلك قال تعالى بعد هذا :

(١) وذلك فى قصة موسى والخضر ، قال تعالى : ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا فُتِحَا غُلَامًا فَظَنَّهُ قَالِ اتَّخَذْتُمْ نَفْسًا زَكَاةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (الكهف) وقد علل الخضر هذا بقوله : ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَرَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْسِلَهُمَا فَفَعَلْنَا كُفْرًا (٨٥) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ (الكهف) .

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

نعرف أن البشارة تكون بخير ، فكان يجب عليهم أن يستقبلوها
استقبال البشارة ، ولكنهم استقبلوها استقبال الناقمين الكارهين لما
بُشِّرُوا به ، فتجد وجه الواحد منهم .

﴿مُسْوَدًّا .. ﴿٥٨﴾﴾ [النحل]

ومعنى اسوداد الوجه انقباضه من الغيظ : لذلك يقول تعالى :

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ .. ﴿٥٨﴾﴾ [النحل]

الكظم هو كَظَم الشيء .

ولذلك يقول تعالى في آية أخرى :

﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ .. ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران]

وهو ماخوذ من كَظَم القُرْبَةَ حين تمتلئ بالعاء ، ثم يكظمها أى :
يربطها ، فتراها ممثلة كأنها ستنفجر .. هكذا الغضبان تنتفخ عروقه ،
ويتوارد الدم في وجهه ، ويحدث له احتقان ، فهو مكظوم ممنوع أن
ينفجر .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً حاله :

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ^١ أَيَمْسِكُهُ^٢ عَلَى هُونٍ^٣
أَمِيدُ سُهُ فِي التُّرَابِ^٤ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ^{٥٩}﴾

قوله تعالى :

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

أى : يتخفى منهم مخافة أن يقال : انجب بنتاً .

﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

نلاحظ إعادة البشارة فى هذه الآية أيضاً ، وكانه سبحانه وتعالى يُحَنِّنُ قلبه عليها ، ويدعوه إلى الرِّفْقِ بها .

فهو متردد لا يدرى ماذا يفعل : لذلك يقول تعالى :

﴿أَيَمْسِكُهُ^٢ عَلَى هُونٍ^٣ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

أى : ماذا يفعل فيما وُلِدَ له . أ يحتفظ به على هُونٍ - أى : هوان ومذلة - أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ - أى : يدفنها فيه حية ؟

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ^{٥٩}﴾ [النحل]

أى : ساء ما يحكمون فى الحاليتين . حالة الإمساك على هُونٍ ومذلة ، أو حالة دَسُّهَا فى التراب ، فكلاهما إساءة . وكان بعض هؤلاء إذا وُلِدَتْ له بنت كرهها ، فإنَّ أَمْسَكَهَا أَمْسَكَهَا على حال كونها ذليلة عنده ، مُهْتَقَرَةٌ مُهَانَةٌ ، وهى مسكينة لا ذنبَ لها .

(١) الْهُونُ والهوان : الذل الشديد والخزى . [لسان العرب - مادة : هون] .

ولذلك ، فإن المرأة العربية التي عاصرت هذه الأحداث فطنت إلى ما لم نعرفه نحن إلا قريباً ، حيث اكتشف العلم الحديث أن أمر إنجاب الولد أو البنت راجع إلى الرجل وليس إلى المرأة .. وكان أبو حمزة كثيراً ما يترك زوجته ويغضب منها ، لأنها لا تلد إلا البنات .. فماذا قالت هذه المرأة العربية التي هجرها زوجها ؟ قالت :

مَا لِأَبِي حِمَزَةَ لَا يَأْتِينَا غَضَبَانِ إِلَّا نَلِدَ الْبَنِينَ
تَاللَّهِ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا فَتَحْنُ كَالْأَرْضِ لِفَارَسِينَا
نُعْطِي لَهُمْ مِثْلَ الَّذِي أُعْطِينَا

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد توازناً في الكون يصنع هذا التوازن من خلال مقتضيات النفس البشرية ، ومن مقتضياتها أن يكون للإنسان جاه ، وأن يكون له عز ، لكن الإنسان يخطئ في تكوين هذا الجاه والعز ، فيظن أنه قادر على صنع ما يريد بأسبابه وحدها .

إنما لو علم أن تكوين الجاه والعز بشيء فوق أسبابه هو ، بشيء مخلوق لله تعالى ، بقدر مخلوق لله تعالى ، لو علم هذه الحقيقة لجاه المسألة من بابها .

ذلك لأن العزة ليست بما تُنَجِب .. العزة هنا لله وللرسول وللمؤمنين ، اعتز هنا بعُصْبَةِ الإيمان ، اعتز بأنك في بيئة مؤمنة متكافلة ، إذا أصابك فيها ضيم^(١) فزح إليك الجميع .

(١) الضيم : الظلم أو الإذلال ونحوهما . ضامه - ظلمه وأذله . [المعجم الوجيز - مادة . ضام] .

ولا تعتزّ بالأنسال والأنجال ، فقد يأتى الولد عاقاً لا يُسعف أبويه
فى شدة ، ولا يعينهما فى حاجة ؛ ذلك لأنك لجأت إلى عَصَبِيَّةِ الدم
وعَصَبِيَّةِ الدم قد تتخلف ، أما عَصَبِيَّةُ العقيدة وعَصَبِيَّةُ الإيمان والدين
فلا .

ولنأخذ على ذلك مثلاً .. ما حدث بين الأنصار والمهاجرين من
تكافل وتعاون فاق كل ما يتصوره البشر ، ولم يكن بينهم سوى
رابطة العقيدة وعصبية الإيمان .. ماذا حدث بين هؤلاء الأفاضل ؟

وجدنا أن العصبية الإيمانية جعلت الرجل يُضحيّ بأنفس شيء
يضمن به على الغير .. نتصور فى هذا الموقف أن يعود الأنصار
بفضل ما عندهم من نعم على إخوانهم المهاجرين ، فمن كانت عنده
ركوبة أو منزل مثلاً يقول لأخيه المهاجر : تفضل اركب هذه
الركوبة ، أو اجلس فى هذا المنزل .. هذا كله أمر طبيعى .

أما نعيم المرأة ، فقد طُبع فى النفس البشرية أن الإنسان لا يحب
أن تتعدى نعمته فيها إلى غيره .. لكن انظر إلى الإيمان ، ماذا صنع
بالنفوس ؟ .. فقد كان الأنصارى^(١) يقول للمهاجر : انظر لزوجاتى ،
أيهن أعجبتك أطلقها لتتزوجها أنت ، وما حملته على ذلك ليس عصبية
الدم أو عصبية الجنس ، بل عصبية اليقين والإيمان .

(١) أخرج الإمام أحمد عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة ، فأخى رسول الله ﷺ
بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أى أخى . أنا أكثر أهل المدينة مالاً ،
فانظر شطر مالى فخذ ، ونهتئ امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها . فقال
عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، بلونى على السوق ، فدلوه فذهب فاشترى
رباع فربح . أورده ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٢٢٨/٣) والكأندهلوى فى « حياة
المصطفى » (٣٦٣/١) .

ولذلك تنتفى جميع العصبيات فى قصة نوح - عليه السلام -
 وولده الكافر ، حينما ناداه نوح - عليه السلام - :

﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٢) قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ
 يَفْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .. (٤٣) ﴿ [مود]

ويتمسك نوح بولده ، ويحرص كل الحرص على نجاته فيقول :

﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ .. ﴾ (٤٥) ﴿ [مود]

فيأتى فصل الخطاب فى هذه القضية :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
 إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤٦) ﴿ [مود]

إذن : هذا الولد ليس من أهلك ؛ لأن البُتوة هنا بُتوة العمل ،
 لا بُتوة الدم والنسب .

صحيح أن الإنسان يحب العزة ويطلبها لنفسه ، ولكن يجب أن
 ننظر كيف تكون العزة الحقيقية ؟ وما أسبابها ؟

خذ العزة بالله وبالرسول وبالبيئة الإيمانية ، يصبح كل الأولاد
 أولادك ؛ لأنهم معك فى يقينك بالله وإيمانك به سبحانه .. أما أن تعتز
 بطريقتك أنت ، فتطلب العزة فى الولد الذكّر ، فعنّ يُدريك أن تجد فيه
 العزة والعزوة والمكاثرة ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ

الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٦٠) ﴿

قوله تعالى :

﴿مَثَلُ السُّوءِ .. (٦٠)﴾

[النحل]

صفة السوء أى : الصفات السيئة الخسيسة من الكفر والجحود والنكران ، ومن عمى البصيرة ، وغيرها من صفات السوء .

لماذا كان للذين لا يؤمنون بالآخرة مثلُ السوء ؟ لأن المعادلة التى أجروها معادلة خاطئة ؛ لأن الذى لا يؤمن بالآخرة قصر عمره .. فعمر الدنيا بالنسبة له قصير ، وقد قلنا : إياك أن تقيس الدنيا بعمرها .. ولكن قس الدنيا بعمرك أنت ، فعمر الدنيا مدة بقائك أنت فيها .. إنما هى باقية من بعدك لغيرك ، وليس لك أنت فيها نصيب بعد انقضاء عمرك .

إذن : عمر الدنيا عمرك أنت فيها .. عمرك : شهر ، سنة ، عشر سنوات ، مائة .. هذا هو عمر الدنيا الحقيقى بالنسبة لك أنت .

ومع ذلك ، فعمر الدنيا مهما طال مُنتَه إلى زوال ، فمن لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة قد اختار الخسارة ؛ لأنه لا يضمن أن يعيش فى الدنيا حتى متوسط الأعمار .. وهب أنك عشت فى الدنيا إلى متوسط الأعمار ، بل إلى أرذل العمر .. وهب أنك استمتعت فى دنياك بكل أنواع المعاصى ، ماذا ستكون النهاية ؟ أن تفوت هذا كله إلى الموت .

قارن - إذن - حال هذا بمن آمن بالله وآمن بالآخرة .. نقول لمن لا يؤمن بالآخرة : دنياك مظلونة ، يمكن أن تعيش فيها ، أو يعاجلك الموت .. حتى من عاش إلى متوسط الأعمار ، فالنهاية إلى زوال .

وَمَا نِلْتَ مِنْ مَتَّعٍ فِي دُنْيَاكَ أَخَذْتُهَا عَلَى قَدْرِ إِمكَانَاتِكَ أَنْتَ .

إِذَنْ : أَنْتَ أَخَذْتَ صِفَّةَ مَحْدُودَةٍ غَيْرَ مُتَيَقِّنَةٍ ، وَتَرَكْتَ صِفَّةَ غَيْرِ
مَحْدُودَةٍ وَمُتَيَقِّنَةٍ .. أَلَيْسَتْ هَذِهِ الصِّفَّةُ خَاسِرَةٌ ؟

أَمَّا مَنْ آمَنَ بِالْآخِرَةِ فَقَدْ رَبَحْتَ صِفَّتَهُ ، حَيْثُ اخْتَارَ حَيَاةَ مُمْتَدَةٍ
يَجِدُ الْمَتَعَ فِيهَا عَلَى قَدْرِ إِمكَانَاتِ الْمُنْعَمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

إِذَنْ :

﴿ مَثَلُ السَّوِّءِ .. (٦٠) ﴾

[النحل]

أَيُّ : الصِّفَّةِ شَدِيدَةِ السَّوِّءِ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ خَاسِرُونَ لَا مُحَالَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى .. (٦١) ﴾

[النحل]

لِلَّهِ الصِّفَّةُ الْعُلْيَا ، وَكَانَ الْآيَةُ تَقُولُ لَكَ : أَتَرَكَ صِفَّةَ السَّوِّءِ ، وَخَذْتَ
الصِّفَّةَ الْأَعْلَى الَّتِي تَجِدُ الْمَتَعَ فِيهَا عَلَى قَدْرِ إِمكَانَاتِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى .

وَيُنْهِى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) ﴾

[النحل]

الْعَزِيزُ أَيُّ : الَّذِي لَا يُغْلَبُ عَلَى أَمْرِهِ ، فَإِذَا قِيلَ : قَدْ يَوْجَدُ مَنْ
لَا يُغْلَبُ عَلَى أَمْرِهِ .. نَعَمْ ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ يَسْتَعْمَلُ الْقَهْرَ
وَالْغَلْبَةَ بِحِكْمَةٍ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٦١)

قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ .. ﴾ (٦١) [النحل]

عندنا هنا : الأخذ والمؤاخضة .. الأخذ : هو تحصيل الشيء واحتواؤه ، ويدل هذا على أن الأخذ له قدرة على المستمسك بنفسه أو بغيره ، فمثلاً تستطيع حمل حصاة ، لكن لا تستطيع حمل حجر كبير ، وقد يكون شيئاً بسيطاً إلا أنه مربوط بغيره ومستمسك به فيؤخذ منه قوة .

فمعنى الأخذ : أن تحتوى الشيء ، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه في ذاته ، أو استمسك بغيره به ، وقد يكون الأخذ بلا ذنب .

أما المؤاخضة فتعني : هو أخذ منك فانت تأخذ منه .. ومنه قول أحدنا لأخيه « لا مؤاخضة » في موقف من المواقف .. والمعنى : أننى فعلت شيئاً أستحق عليه الجزاء والمؤاخضة ، فأقول : لا تؤاخضنى .. لم أقصد .

لذلك : فالحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ .. ﴾ (٦١) [النحل]

ولم يَقُلْ : ياخذ الناس .

وفى آية أخرى قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢)

[هود]

لماذا أخذها الله ؟ أخذها لأنها أخذت منه حقوقه في أن يكون إلهاً واحداً فانكرتها ، وحقوقه في تشريع الصالح فانكرتها .

ويُبين الحق سبحانه أن هذه المؤاخذة لو حدثت ستكون بسبب من الناس أنفسهم ، فيقول سبحانه :

﴿ يَظْلِمُهُمْ .. ﴾ (٦١)

[النحل]

أول الظلم أنهم أنكروا الوجدانية ، يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣)

[لقمان]

فكانهم أخذوا من الله تعالى حقّه في الوجدانية ، وأخذوا من الرسول ﷺ ، فقالوا كذاب ، وأخذوا من الكتاب فقالوا « سحر مبين » .

كل هذا ظلم ..

فالحق تبارك وتعالى لو أخذهم بما أخذوا ، أخذوا شيئاً فأخذ الله شيئاً ، لو عاملهم هذه المعاملة ما ترك على ظهرها من دابة .

لذلك نجد في آيات الدعاء :

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. ﴾ (٢٨٦)

[البقرة]

أى : أننا أخذنا منك يا ربّ الكثير بما حدث منا من إسراف
وتقصير وعمل على غير مقتضى أمرك ، فلا تؤاخذنا بما بدر منا .

فلو أخذ الله الناس بما اقترفوا من ظلم ..

﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ .. ﴾ (٦١)

[النحل]

قد يقول قائل : الله عز وجل سيؤاخذ الناس بظلمهم ، فما ذنب
الدابة ؟ ماذا فعلت ؟ نقول : لأن الدابة خلقت من أجلهم ، وسُخِّرَتْ
لهم ، وهى من نعم الله عليهم ، فليست المسألة إذن نكايّة فى الدابة ،
بل فيمن ينتفع بها ، وقد يُراد العموم لكل الخلق .

فإذا لم يؤاخذ الله الناس بظلمهم فى الدنيا فهل يتركهم هكذا ؟

لا بل :

﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٦١)

[النحل]

هذا الاجل انقضاء دنيا ، وقيام آخرة ، حتى لو لم يؤمنوا
بالآخرة ، فإن الله تعالى يُمهّلهم فى الدنيا ، كما قال تعالى فى آية
أخرى :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. ﴾ (٤٧)

[الطور]

وقد يكون فى هذا الاجل المسمى خير للحق ، فكثير من الصحابة
كانوا يدخلون المعارك ، ويحبون أن يقتلوا أهل الكفر فلاناً وفلاناً ،
ثم لا يتمكنون من ذلك ولا يصيبونهم ، فيحزنون لذلك .

ولكن أجل هؤلاء لم يأت بعد ، وفى علم الله تعالى أن هؤلاء
الكفار سيؤمنون ، وأن إيمانهم سينفع المسلمين ، وكان القدر
يدّخرهم : إما أن يؤمنوا ، وإما أن تؤمن ذرياتهم .

وقد آمن عمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم . ومن هؤلاء الذين نَجَوْا كان خالد بن الوليد سيف الله المسلول .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٦١) [النحل]

أى : إذا جاءت النهاية فلا تُؤخَّر ، وهذا شيء معقول ، ولكن كيف : ولا يستقدمون ؟ إذا جاء الأجل كيف لا يستقدمون ؟ المسألة - إذن - ممتنعة مستحيلة .. كيف إذا جاء الأجل يكون قد أتى قبل ذلك ؟ .. هذا لا يستقيم ، لكن يستقيم المعنى تماماً على أن :

﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٦١) [النحل]

ليست من جواب إذا ، بل تم الجواب عند (ساعة) ، فيكون المعنى : إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، وإذا لم يجرى لا يستقدمون . والله أعلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ
الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَاجِرٌ^(١) أَنَّ لَهُمُ النَّارَ
وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ (٦٢)

قوله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. ﴾ (٦٢) [النحل]

(١) لا جرم . لا محالة ولا بُدَّ وتحولت إلى معنى اللطم . فصارت بمنزلة قولنا ، حقاً ، .
[القاموس القويم ١/ ١٢١] .

الآليق أن الذي يُخرج لله يجب أن يكون من أطيب ما أعطاه الله ،
فإذا أردت أن تتصدق تصدق بأحسن ما عندك ، أو على الأقل من
أوسط ما عندك .. لكن أن تتصدق بأخس الأشياء وأرذلها .. أن
تتصدق مما تكرهه ، كالذي يتصدق بخبز غير جيد أو لحم تغير ،
أو ملابس مهلكة ، فهذا يجعل الله ما يكره^(١) .

والحقيقة أن الناس إذا وثقوا بجزاء الله على ما يعطيه العبد
لأعطوا ربهم أفضل ما يُحبون .. لماذا ؟ لأن ذلك دليل على حبك
للآخرة ، وأنت من أهلها ، فانت تعمرها بما تحب ، أما صاحب الدنيا
المحب لها فيعطى أقل ما عنده ؛ لأن الدنيا في نظره أهم من الآخرة .

وبهذا يستطيع الإنسان أن يقيس نفسه : أهو من أهل الآخرة ، أم
من أهل الدنيا بما يعطى الله عز وجل ؟

قوله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. ﴾ (٦٤)

[النحل]

أى : مما ذكر فى الآيات السابقة من قولهم :

﴿ لِلَّهِ الْبَنَاتُ .. ﴾ (٥٧)

[النحل]

وأن الملائكة بنات الله ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، إلى غير
ذلك من أقوالهم ، وجعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات ؛ لذلك :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَفِيمٌ ﴾ (٥٨)

[النحل]

والمسألة هنا ليست مسألة جعل البنات لله ، بل مُطلق الجعل

(١) يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مَا كُتِبَ لَكُمْ وَمَا أخرجنا لكم مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا
الْخَبِيثَاتِ إِنَّهِنَّ يُفْسِدْنَ بَأْسَهُنَّ إِلَّا أَنْ تَنْبَغُوا لَهُنَّ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٤٧) [البقرة] .

منهم مردود عليهم ، فلو جعلوا لله ما يحبون من الذِّكْرَانِ ما تُقْبَلُ
منهم أيضاً ؛ لأنهم جعلوا لله ما لم يجعل لنفسه .

فالذين قالوا : عزيز ابن الله . والذين قالوا : المسيح ابن الله .
لا يُقْبَلُ منهم ؛ لأنهم جعلوا لله سبحانه ما لم يجعله لنفسه ، فهذا
مرفوض ، وذلك مرفوض ؛ لأننا لا نجعل لله إلا ما جعله الله لنفسه
سبحانه .

فنحن نجعل لله ما نحب مما أباح الله ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

وقوله :

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ .. (٨)﴾ [الإنسان]

ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرُّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)﴾ [الزخرف]

فلو كان له ولد لأمنتُ بذلك ، لكن الحقيقة أنه ليس له ولد ..
إذن : ليست المسألة في جعل ما يكرهون لله بل في مُطْلَقِ الجعل ،
ذلك لأننا عبيد نتقرب إلى الله بالعبادة ، والعابد يتقرب إلى المعبود
بما يحب المعبود أن يتقرب به إليه ، فلو جعل الله لنفسه شيئاً فهو
على العين والرأس ، كما في أمره أن ننفق مما نحب ، ومن أجود ما
نملك .

ولذلك قوله تعالى :

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

رَاعِ حَقَّ الْفَقِيرِ وَضَرُورَةَ أَنْ تَجْعَلَهُ كَنَفْسِكَ ، لَا يَكُنْ هَيْنًا عَلَيْكَ
فَتَعْطِيهِ أَرْدًا مَا عِنْدَكَ .. وَالْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ نَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ
بِالنَّسْكِ وَذَبَحَ الْهَدْيَ وَالْأَضَاحِي قَالَ :

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (٢٨)

[الحج]

لأنك إذا علمت أنك ستأكل منها سوف تختار أجود ما عندك .

وقوله تعالى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. ﴾ (٦٢)

[النحل]

الكذب : قضية ينطق بها اللسان ليس لها واقع في الوجود ، أي
مخالفة للواقع المشهود به من القلب .. ولماذا يشهد عليه القلب ؟

قالوا : لأنه قد يطابق الكلام الواقع ، ونحكم عليه مع ذلك
بالكذب ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١)

[المنافقون]

يا الله ، أهذه القضية صدق أم لا ؟ إنها قضية صادقة .. أنت
رسول الله وقد وافق كلامهم ما يعلمه الله .. فلماذا شهد عليهم الحق
تبارك وتعالى أنهم (كاذبون) ؟

وفى أى شيء هم كاذبون ؟

قالوا : الحقيقة أنهم صادقون فى قولهم : إنك لرسول الله ،
ولكنهم كذبوا فى شهادتهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. ﴾ (٦١)

[المنافقون]

لأنهم لا يشهدون فعلاً ؛ لأن الشهادة تحتاج أن يوافق القلب اللسان ويسانده ، وهذه الشهادة منهم من اللسان فقط لا يساندها القلب .

الإنسان عُرْضَةٌ لأن يقول الصدق مرة والكذب مرة ، لكن هؤلاء بمجرد أن يقولوا (نشهد) فهم كاذبون ، وهذا معنى :

﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ .. ﴾ (٦٢)

[النحل]

لأنهم حينما يقولون مثلاً : العزيز ابن الله ، المسيح ابن الله ، الملائكة بنات الله . هذه كلها قضايا باطلة ليس لها واقع يوافق منطوق اللسان .. فالسنتهم تصف الكذب .

وإن أردت أن تعرف الكذب الذي لا يطابق الواقع فاستمع إليه فبمجرد أن يُقال تعلم أنه كذب .. مثل ما حدث مع مُسَيْلَمَةَ الذي ادّعى النبوة ، مجرد أن قال : أنا نبي قلنا : مسيلمة الكذاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَى .. ﴾ (٦٢)

[النحل]

أى : أن الكذب فى قولهم (لهم الحسنى) فهذا اغترار وتمنّى على الله دون حق ، ومثل هذه المقولة فى سورة الكهف ، فى قصة أصحاب الجنتين ، يقول تعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (٣٦)

[الكهف]

فهذه مقولات ثلاث كاذبة .

قوله :

﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ (٣٥)

[الكهف]

هذه الاولى ، فكم من أشياء تغيرت ، ومن يضمن لك بقاء ما أنت فيه ، والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا^(١) مُصْبِحِينَ
(١٧) وَلَا يَسْتَشِيرُونَ (١٨) فَنَافَا عَلَيْهِمَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ^(٢) ﴾ (٢٠)

[القم]

الكذبة الثانية :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. ﴾ (٣٦)

[الكهف]

فقد أنكر الساعة .

الكذبة الثالثة :

﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (٣٦)

[الكهف]

وهذا هو الشاهد فى الآية هنا ، ففيها اغترار وتمنُّ على الله دون حق ، كمن ادعوا أن لهم الحسنى ، وهم ليسوا أهلاً لها .

وفى موضع آخر تأتى نفس المقولة :

(١) الصَّرم - القطع مادياً ، كقطع الثمار . ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/ ٢٧٥] .
(٢) أى - احترقت فصارت سوداء مثل الليل . وقيل . الصريم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . [لسان العرب - مادة : صرم] .

﴿لَا يَسَامُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ قَنُوطٌ﴾ (٤٩)
 وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مِّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَىٰ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
 قَالِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ .. ﴿٥٠﴾ [فصلت]

وهكذا الإنسان في طبعه أنه لا يسام من طلب الخير ، وكلما وصل فيه إلى مرتبة تمنى أعلى منها ، يقنط إن مسه شر ، وإن رفع الله عنه ورحمه قال : هذا لى .. أنا أستحقه ، وأنا جدير به .. ألا قلت : هذا فضل من الله ونعمة ، ثم بعد ذلك هو يتمنى على الله الأمانى ويقول :

﴿إِنْ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ .. ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت]

ويروى أن سيدنا داود - عليه السلام - مع ما أعطاه الله من الملك والعظمة أنه صعد يوماً سطح منزله ، فابتلاه الله بسرب من الجراد الذهب ، فحينما رآه داود جعل يجمع منه فى ثوبه ، فقال له ربه : ألم أغنك يا داود ؟ قال : نعم ولكن لا غنى لى عن فضلك^(١) .

وقوله تعالى :

﴿لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ .. ﴿٦٢﴾﴾ [النحل]

لا جرم : أى حقاً أن لهم النار على ما تقدم منهم أن جعلوا لله ما يكرهون ، وتصف السنتهم الكذب ، وهذه أفعال يستحقون النار عليها .

وكلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ منها جارم بمعنى مجرم ، فالمعنى : لا جريمة فى عقاب هؤلاء ، لأنه لا يقال على عقوبة الجريمة أنها

(١) أورده البخارى فى صحيحه (٩٧٢) ، وأحمد فى مسنده (٤١٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولكن فى حق أيوب عليه السلام وليس داود . والله اعلم .

جريمة .. إذن : لها معنيان ، لا بُدَّ أن لهم النار ، أو لا جريمة في أن لهم النار جزاء أعمالهم .

﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (٦٢)

[النحل]

جاءت في كلمة مُفْرَطُونَ عدة قراءات^(١) : مَفْرَطُونَ ، مَفْرِطُونَ ، مَفْرَطُونَ ، مَفْرَطُونَ . وجميعها تلتقى في المعنى .

نحن حينما نصلى على جنازة مثلاً ، إذا كان الميت مكلفاً نقول في الدعاء له : « اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه .. اللهم إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَزِدْ فِي إِحْسَانِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ » . فَإِنْ كَانَ صَغِيرًا غَيْرَ مُكَلَّفٍ قُلْنَا فِي الدُّعَاءِ لَهُ « اللهم اجعله فَرَطًا وَذَخْرًا »^(٢) .
فما معنى فَرَطًا هنا ؟

معناه : أن يكون الطفل فَرَطًا لأبويه ومُقدِّمةً لهما إلى الجنة .. يمرُّ بين يديّ والديه ويسبقهما إلى الجنة ، وكأنه يقدم عليهما ليُمهد لهما الطريق ليغفر الله لهما .. إذن : معنى مُفْرَطُونَ أى مُقدِّمُونَ . ولكن إلى النار .

(١) قراءة (مُفْرَطُونَ) قراءة أبي عبيدة والكسائي والفراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . ومعناه : متروكون منسيون في النار .

- قراءة (مَفْرِطُونَ) : قراءة نافع في رواية ورش . وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس . ومعناه : مسرفون في الذنوب والمعصية أى : أقربوا فيها .

- قراءة (مَفْرَطُونَ) : قراءة أبي جعفر القاري . أى : مضطربون أمراهم ، فهو من التفریط في الواجب . [ذكره القرطبي في تفسيره ٢٨٤٦/٥] .

(٢) أورد البخاري في صحيحه (٢٠٣/٢ - فتح الباري) كتاب الجنائز - باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنائز من قول الحسن البصري « يقرأ على الطفل بفاتحة الكتاب » ويقول : اللهم اجعله لنا فَرَطًا وسلفاً وأجرًا » .

ومنه قوله تعالى عن فرعون :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (٩٨)

[هود]

أى : يتقدمهم إلى النار .. كما كنت مقدما عليهم ، وإماما لهم فى الدنيا ، فسوف تتقدمهم هنا وتسبقهم إلى النار .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى يُقسم بما يشاء على ما يشاء ، أما نحن فلا نقسم إلا بالله ، وفى الحديث الشريف : « مَنْ كَانَ حَالِفًا ، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمِتْ »^(١) .

والحق تبارك وتعالى هنا يحلف بذاته سبحانه ﴿ تَاللَّهِ ﴾ ، مثل : والله وبالله .

وقد جاء القسم لتأكيد المعنى ؛ ولذلك يقول أحد الصالحين : من أغضب الكريم حتى ألجأ أن يقسم !؟

وقد يؤكد الحق سبحانه القسم بذاته ، أو القسم ببعض خلقه ، وقد ينفى القسم وهو يُقسم ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ (١)

[البلد]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٤٦) كتاب الإيمان - رواية (٢) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وصر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله ﷺ : « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

وقوله : ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

ومعنى : لا أقسم أن هذا الأمر واضح جليّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مُقسماً لأقسمتُ به ، بدليل قوله :

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : الحق سبحانه يقسم بذاته ليؤكد لنا الأمر تأكيداً ، وتأكيد الأمر عند الحكم في القضاء مثلاً : إما بالإقرار ، وإما باليمين .. فإذا ما أقسمت له وحلفت فقد سددت عليه منافذ التكذيب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ .. (١٣) ﴾ [النحل]

أى : لست بدعاً في أن تُكذّب من قومك ، فهذه طبيعة الذين يستقبلون الدعوة من الله على السنة الرسل : لأن الرسل لا يرسلهم الله إلا حينما يطم الفساد ويعم .

ومعنى إرسال الرسل - إذن - أنه لا حلّ إلا أن تتدخل السماء : ذلك لأن الإنسان فيه مناعات يقينية في ذاته ، وهي نفسه اللوامة التي تلومه إذا أخطأ وتعدل من سلوكه ، فهي رادع له من نفسه .

فإذا ما تبلدت هذه النفس ، وتعودت على الخطأ قام المجتمع من حولها بهذه المهمة ، فمن لا تُردعه نفسه اللوامة يُردعه المجتمع من حوله .. فإذا ما فسد المجتمع أيضاً ، فماذا يكون الحل ؟ الحل أن تتدخل السماء لإنقاذ هؤلاء .

إذن : تتدخل السماء بإرسال الرسل حينما يعم الفساد المجتمع

كله ؛ ولذلك فامة محمد ﷺ من شرفها عند ربها أن قال لهم : أنتم مامونون على رعاية منهجى فى نواتكم ، لوأمون لانفسكم ، أمرون بالمعروف ، ناهون عن المنكر فى غيركم ؛ لذلك لن أرسل فيكم رسولا آخر ، فأنتم سوف تقومون بهذه المهمة .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. (١١٠) ﴾
[آل عمران]

فقد أمن أمة محمد ﷺ على أن تكون حارسة لمنهجه ، إما بالنفس اللوامة ، وإما بالمجتمع الأمر بالمعروف الناهى عن المنكر ، وهذا شرف عظيم لهذه الأمة .

إذن : يأتى الرسول حينما يعمُ الفساد .. فما معنى الفساد ؟ .. الفساد : أن توجد مصالح طائفة على حساب طائفة أخرى ، فأهل الفساد والمنتفعون به إذا جاءهم رسول ليخلص الناس من فسادهم ، كيف يقابلونه ؟ أيقابلونه بالترحاب ؟ بالطبع لا .. لا بد وأن يقابلوه بالكراهية والإنكار ، ويعلنوا عليه الحرب دفاعاً عن مصالحهم .

ويُتبع الحق سبحانه هذا بقوله :

﴿ فَرِيقٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَالُهُمْ .. (٦٤) ﴾
[النحل]

هنا يتدخل الشيطان ، ويؤزق لاهل الفساد أعمالهم ، ويحثهم على محاربة الرسل ؛ فهؤلاء الذين سيقضون على نفوذكم ، سوف يأخذون ما فى أيديكم من مُتَع الدنيا ، سوف يهزؤون مراكزكم .

وَيَحْطُونَ مِنْ مَكَانَتِكُمْ بَيْنَ النَّاسِ .. هَؤُلَاءِ سَوْفَ يَرْفَعُونَ عَلَيْكُمْ
السُّفْلَةَ^(١) وَالْعَبِيدَ ..

وهكذا يتمسك أهل الفساد والظلم بظلمهم ، ويعضون عليه
بالنواجذ ، ويقفون من الرسل موقف العداء ، قوطن نفسك على هذا ،
فلن تقابل من السادة إلا بالبحود وبالإنكار وبالمعاربة .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَهُوَ إِلَهُهُمْ الْيَوْمَ .. ﴾ (٦٣)

[النحل]

أى : فى الآخرة ، فما دام الشيطان تولاهم فى الدنيا ، وزين
لهم ، وأغراهم بعداء الرسل ، فليتولهم الآن ، وليدافع عنهم يوم
القيامة .. وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّ بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦)

[الحشر]

وفى جدالهم يوم القيامة مع الشيطان يقولون له : أنت أغويتنا
وزيئت لنا .. ماذا يقول ؟ يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْا أَنْفُسَكُمْ .. ﴾ (٢٢)

[إبراهيم]

والسلطان هنا : إما بالحجة التى تقنع ، وإما بالقهر والغلبة
والقوة التى تفرض ما تريد ، وليس للشيطان شىء من ذلك ..
لا يملك حجة يقنعك بها لتفعل ، ولا يملك قوة يجبرك بها أن تفعل
وأنت كاره .

(١) السفلة . نقيض العلية . وهم أراذل الناس وغوغاؤهم . [لسان العرب - مادة . سفل] .

وهكذا يجادلهم الشيطان ويرد عليهم دعواهم ، فليس له عليكم سلطان ، بل مجرد الإشارة أوقعتكم في المعصية .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانُ نَكَصَ^(١) عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (٤٨) ﴾

[الأنفال]

وقوله :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

[النحل]

يُصِفُ الْعَذَابَ هُنَا بِأَنَّهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ مُّهِلِكٌ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْعَذَابَ بِأَنَّهُ أَلِيمٌ ، عَظِيمٌ ، مُّهِينٌ ، شَدِيدٌ .. وَالْعَذَابُ شُعُورٌ بِالْأَلَمِ وَاحْسَاسٌ بِهِ ، وَقَدْ تَوَصَّلَ الْعُلَمَاءُ إِلَى أَنَّ الْإِحْسَاسَ كُلَّهُ فِي الْجُلْدِ ؛ لِذَلِكَ قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِيُذَيِّمَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْعَذَابَ :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾

[النساء]

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾

(١) نكص . رجع واحجم بعد إقدام أى رجع الشيطان منقهراً إلى الوراء معلناً براءته من

المشركين في بدر بعد أن اغرامهم بالقتال . [القاموس القويم ٢٨٧/٢] .

قالكتاب هو القرآن الكريم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ .. ﴾ (٦٤)

[النحل]

دليل على أن أتباع الرسل السابقين نشأ بينهم خلاف ، فأي خلاف هذا طالما أنهم تابعون لنبي واحد ؟ ما سببه ؟

قالوا : سبب هذا الخلاف ما يُسمونه بالسلطة الزمنية ..
ولتوضيح معنى السلطة الزمنية نضرب مثلاً بواحد كان شيخاً لطريقة مثلاً ، فلما مات تنازع الخلافة أبناؤه من بعده .. كُلُّ يريد لها ، وأخذ يجمع حوله مجموعة من أتباع أبيه .. فلو كانت مسألة الخلافة هذه واضحة في أذهانهم ما حدث هذا الخلاف .

وكذلك السلطة الزمنية حدثت في أتباع الرسل الذين أخذوا يكتبون الصكوك ، ويذكرون ما يحبون وما يرونه صواباً من وجهة نظرهم ، كل هؤلاء كان لهم نفوذ بما تُسميه السلطة الزمنية .

فكيف - إذن - يتركون محمداً ﷺ يأخذ منهم هذه السلطة ، ويُضيع عليهم ما هم فيه من سيادة ، فقد جاء الرسول ﷺ لِيُبَيِّنَ لهم . أي : يردّهم إلى جادة الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

وقوله تعالى :

﴿ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً .. ﴾ (٦٤)

[النحل]

الهدى : معناه بيان الطريق الواضح للغاية النافعة ، والطريق

لا يكون واضحاً إلا إذا خلا من الصُّعَاب والعَقَبَات ، وخلا أيضاً من المخاوف ، فهو طريق واضح مأمون سهل ، وايضاً يكون قصيراً يُوصِّلُكَ إلى غايتك من أقصر الطرق .

وعُضْدُ الْهَدْي : الضلال . وهو أَنْ يُضَلَّكَ ، فَإِنْ أَرَدْتَ طَرِيقاً وَجْهَكَ إِلَى غَيْرِهِ ، وَدَلَّكَ عَلَى سِوَاهُ ، أَوْ دَلَّكَ عَلَى طَرِيقٍ بِهِ مَخَافٌ وَعَقَبَاتٌ .

أما الرحمة ، فقد وصف الحق تبارك وتعالى القرآن بأنه رحمة فقال :

﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ ۝٨٢ ﴾ [الإسراء]

فكيف يكون القرآن شفاءً ؟ وكيف يكون رحمة ؟

الشفاء : إذا أصابنا داء ربنا سبحانه وتعالى يقول : طَيِّبُوا دِءَكُمْ وَدَاوُوا أَمْرَاضَكُمْ بِكُذٍّ وَكَذًا ، وَرُدُّوهُ الْحُكْمَ إِلَى اللَّهِ .. هذا شفاء .

أما الرحمة : فهي أَنْ يَمْنَحَ أَنْ يَأْتِيَ الداء مرة أخرى ، فتكون وقاية تقتلع الداء من أصله فلا يعود .

ومِثْلُ هَذَا يَحْدُثُ فِي عَالَمِ الطَّبِّ ، فَقَدْ تَذْهَبُ إِلَى طَبِيبٍ لِيُعَالَجَكَ مِنْ دَاءٍ مُعَيَّنٍ .. بِثَوْرٍ فِي الْجِلْدِ مِثْلًا ، فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِمَا يَرَاهُ ظَاهِرًا ، وَيَصِفُ لَكَ مَا يَدَاوِي هَذِهِ الْبَثُورَ .. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُعَاوِدُكَ مَرَّةً أُخْرَى .

أما الطبيب الحاذق الماهر فلا ينظر إلى الظاهر فقط ، بَلْ يَبْحِثُ عَنْ سَبَبِهِ فِي الْبَاطِنِ ، وَيَحَاوِلُ أَنْ يَقْتُلَعَ أَسْبَابُ الْمَرَضِ مِنْ جُذُورِهَا ، فَلَا تُعَاوِدُكَ مَرَّةً أُخْرَى .

8.39

(١) الركض : الضرب بالرجل وتحريكهما . قال تعالى : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ ﴾ [ص] أى : اضرب بها . [لسان العرب - مادة : ركض ، والقاموس القديم ١/٢٧٥] .

ويترك في نفسه إشراقات نورانية تتسامى به وترتفع إلى أعلى الدرجات ، في حين يسمعه آخر فلا يعي منه شيئاً ، ويقول كما حكى القرآن الكريم :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ﴾ (١٦)

[محمد]

وقال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ ﴾ (٤٤)

[فصلت]

﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ^(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۖ ﴾ (٤٤)

[فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، ولكن الاستقبال مختلف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٦٥)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية ينقلنا إلى آية ملهية مُحسنة لا ينكرها أحد ، وهي إنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض الميتة بهذا المطر ؛ ليكون ذلك دليلاً محسوساً على قدرته تعالى ، وأنه مأمون على خلقه .

وكانه سبحانه يقول لهم : إذا كنتُ أنا أعطيكُم كذا وكذا ، وأوفّر لكم الأمر المادي الذي يفيد عنايتي بكم ، فإذا أنزلتُ لكم منهجاً ينفعكم ويصلح أحوالكم فصدقوه .

(١) الوقْر : ثقل في السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٠] ومعناه في الآية أنهم

لا يفهمون ما فيه كان في آذانهم صمماً أو ثقلاً في السمع . [انظر ابن كثير ٤/ ١٠٣]

فهذا دليل مادي مُحَسَّنٌ يُوصِلُهُمْ إِلَى تصديق المنهج المعنوي الذي جاء على يد الرسول ﷺ في قوله تعالى :

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.. (٨٢)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.. (٦٥)﴾ [النحل]

هذه آية كونية مُحَسَّنة لا ينكرها أحد .

ثم يقول : ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٦٥)﴾ [النحل]

موت الأرض ، أى حالة كَوْنِهَا جَدْبَاءَ مُقْفِرَةً لَا زَرْعَ فِيهَا وَلَا نَبَاتَ ، وهذا هو الهلاك بعينه بالنسبة لهم ، فإذا ما أُجْدِبَتْ الأرض استشرفوا لسحابة ، لغمامة ، وانتظروا منها المطر الذي يُحْيِي هذه الأرض الميتة .. يُحْيِيهَا بِالنَّبَاتِ وَالْعُشْبِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ هَامِدَةً مَيِّتَةً .

فلو قبض ماء السماء عن الأرض لَمُتُّمْ جَوْعاً ، فخذوا من هذه الآية المحسنة دليلاً على صدق الآية المعنوية التي هي منهج الله إليكم على يد رسوله ﷺ ، فكما أمنتني على الأولى فأمنتني على الثانية .

وقوله : ﴿إِن لِّى ذَلِكْ لَّآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾ [النحل]

مع أن هذه الآية تُرَى بِالْعَيْنِ وَلَا تُسْمَعُ ، قال القرآن :

﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾ [النحل]

.. لماذا ؟

قالوا : لأن الله سبحانه أتى بهذه الآية لِيَلْفِتَهُمْ إِلَى المنهج الذى سيأتيهم على يد الرسول ﷺ ، وهذا المنهج سَيُسْمَعُ مِنَ الرُّسُولِ الْمُبَلِّغِ لِمَنْهَجِ اللَّهِ .

ومثال ذلك أيضاً في قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ^(١) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١)

[القصص]

فالضياء يرى لا يُسمع .. لكنه قال : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لانه يتكلم عن الليل ، ووسيلة الإدراك في الليل هي السمع .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ^ط نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ

فَرْثٍ ^(٢) وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٦٦)

الكون الذي خلقه الله تعالى فيه أجناس متعددة ، أدناها الجماد المتمثل في الأرض والجبال والمياه وغيرها ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان .

وفي الآية السابقة أعطانا الحق - تبارك وتعالى - نموذجاً للجماد الذي اهتز بالمطر وأعطانا النبات ، وهنا تنقلنا هذه الآية إلى جنس أعلى وهو الحيوان .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً .. ﴾ (٦٦)

[النحل]

(١) السرمد . دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع . [لسان العرب - مادة : س ر م د] .

(٢) الفرت : ما في الكرش من طعام مهضوم متغير كرية الرائحة . [القاموس القويم ٧٤/٢] .

سُورَةُ النِّحْلِ

٨٠٤٣

المقصود بالانعام : الإبل والبقر والغنم والماعز ، وقد ذُكرت في سورة الانعام في قوله تعالى :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرْمٌ أَمْ
الْأُنثَيَيْنِ أَمْ أَسْمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئْنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الانعام]

هذه هي الانعام .

وقوله سبحانه : ﴿ لَعِبْرَةٌ ﴾ العبرة : الشيء الذي تعتبرون به ،
وتستنتجون منه ما يدلکم على قدرة الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ،
وتأخذون من هذه الأشياء دليلاً على صدق منهجه سبحانه
فتصدقونه .

ومن معاني العبرة : العبور والانتقال من شيء لآخر .. أى : أن
تأخذ من شيء عبرة تفيد في شيء آخر . ومنها العبرة (الدمعة) .
وهي : شيء دفين نبهت عنه وأظهرته .

والمراد بالعبرة في خلق الانعام :

﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْتٍ وَدَمٍ لَنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ
﴿١٦﴾ ﴾ [النحل]

مادة : سقى جاءت في القرآن مرة « سقى » . ومرة « أسقى » ،
وبعضهم^(١) قال : إن معناهما واحد ، ولكن التحقيق أن لكل منهما

(١) من هؤلاء ابن منظور في لسان العرب - مادة . سقى . قال : وفي القرآن ﴿ وَنُسْقِيهِم مِّمَّا
خَلَقْنَا أَنْعَامًا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان] من سقى . ونُسْقِيهِم من أسقى . وهما لفطان بمعنى واحد .

معنى ، وإن اتفقا فى المعنى العام^(١)

سقى : كما فى قوله تعالى :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (٢١)

[الإنسان]

أى : أعطاهم ما يشربونه .. ومضارعه يَسْقَى . ومنها قوله تعالى
فى قصة موسى عليه السلام :

﴿ فَسَقَى لَهُمَا .. ﴾ (٢٤)

[القصر]

أما أسقى : كما فى قوله تعالى :

﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (٢٧)

[الحجر]

فمعناه أنه سبحانه أنزل الماء من السماء لا يشربه الناس فى
حال نزوله ، ولكن ليكون فى الأرض لمن أراد أن يشرب .. فالحق
تبارك وتعالى لم يفتح أفواه الناس أثناء نزول المطر ليشربوا منه ..
لا .. بل هو مخزون فى الأرض لمن أراد . والمضارع من أسقى :
يُسْقَى .

إذن : هناك فَرْق بين الكلمتين ، وإن اتفقتا فى المعنى العام ..
وفرق بين أن تُعْطَى ما يُسْتَفَادُ منه فى سَاعته ، مثل قوله :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴾ (٢١)

[الإنسان]

وبين أن تُعْطَى ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد كما فى قوله :

(١) قاله الفراء فيما نقله عنه ابن منظور فى اللسان العرب تقول لكل ما كان من بطون
الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى لقوم ، أسقيت ، فإذا سفاك ماء لشفتك فقلوا ، سقاه ،
ولم يقولوا : أسلاه . [لسان العرب - مادة : سقى] .

سُورَةُ الْجِنِّ

٨٠٤

﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .. (٧٢) ﴾ [الحجر]

لذلك يقولون : إن الذى يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً ، فيعطى المحتاج مثلاً رغيفاً يأكله ، وقد يصنعه مؤجلاً فيعطيه ما يساعده على الكسب الدائم ليأكل هو متى يشاء من كسبه .

والحق - تبارك وتعالى - أعطانا هذه الفكرة فى سورة الكهف ، فى قصة ذى القرنين ، قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) ﴾ [الكهف]

فما داموا لا يفقهون قَوْلًا .. فكيف تفاهم معهم ذو القرنين ، وكيف قالوا :

﴿ يٰأَيُّهَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا^(١) عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

نقول : الذى يريد أن يفعل الخير والمعروف يسعى إليه ويحتال للوصول إليه وكأنه احتال أن يفهمهم ، وصبر عليهم حتى توصل إلى طريقة للتفاهم معهم ، فى حين أنه كان قادراً على تركهم والانصراف عنهم ، وَحُجَّتْهُ أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ .

فلما أراد ذو القرنين أن يبنى لهم السد لم يَبْنِ هو بنفسه ، بل علمهم كيف يكون البناء ، حتى يقوموا به بأنفسهم متى أرادوا ، ولا يحتاجون إليه .. فقال :

(١) الخَرْجُ والخَرَجُ : ما يخرج صاحب المال للمعامل عنده من الأجر جزاء عمله أو ما يخرج من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/ ١٨٩] .

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ۖ﴾ (٩٦) [الكهف]

إذن : علمهم واحسن إليهم إحساناً دائماً لا ينتهى .

وقوله : ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ ۖ﴾ (٦٦) [النحل]

أى : مما فى بطون الانعام ، فقد ذُكر الضمير فى (بطونه) باعتبار إرادة الجنس .

وقد أراد الحق سبحانه أن يخرج هذا اللبن :

﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا ۖ﴾ (٦٦) [النحل]

والفَرْث فى كرش الحيوان من فضلات طعامه .

فالمعبرة هنا أن الله تعالى أعطانا من بين الفَرْث ، وهو روث الانعام وبقايا الطعام فى كرشها ، وهذا له رائحة كريهة ، وشكل قذر مُنْفَر ، ومن بين دم ، والدم له لونه الاحمر ، وهو أيضاً غير مُسْتَسَاغ ؛ ومنهما يُخْرِج لنا الخالق سبحانه لبناً خالصاً من الشوائب نقياً سليماً من لون الدم ورائحة الفَرْث .

وَمَنْ يَقْدِر عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ ؟

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله واصفاً هذا اللبن :

﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۖ﴾ (٦٦) [النحل]

(١) زُبَرَ الحديد : قطعه . الصدفتان : الجبلان وقيل : ما بينهما . أى : وضع بعضه على بعضه من الأساس حتى إذا جازى به رموس الجبلين طويلاً وعرضاً قال انفخوا . والقطر : النحاس المذاب . [قاله فى تفسير ابن كثير ١٠٤/٣] .

أى : يسيغه شارب به ويستلذ به ، ولا يَغصُ به شارب به ، بل هو مُستساغ سهل الانزلاق أثناء الشُّرْب : لأن من الطعام أو الشراب ما يخلو لك ويسوغ وتهنا به ، ولكنه قد لا يكون مريئاً .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ۝٤ ﴾ [النساء]

هنيئاً أى : تستلذون به ، ومريئاً : أى نافعاً للجسم ، يمرى عليك : لأنك قد تجد لذة فى شيء أثناء أكله أو شربه ، ثم يسبب لك متاعب فيما بعد ، فهو هنيء ولكنه غير مريء .

فاللبن من نعم الله الدالة على قدرته سبحانه ، وفى إخراجهِ من بين فَرْث ودم عِبرة وعِظَة ، وكان الحق سبحانه يعطينا هذه العبرة لينقلنا من المعنى الحسى الذى نشاهده إلى المعنى القيمى فى المنهج ، فالذى صنع لنا هذه العبرة لإصلاح قلوبنا قادر على أن يصنع لنا من المنهج ما يصلح قلوبنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا

وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٧ ﴾

ثمرات النخيل هى : البلح . والأعناب هو : العنب الذى تُسميه الكرم . والتعبير القرآنى هنا وإن امتنَّ على عباده بالرزق الحسن ، فإنه لا يمتنَّ عليهم بأن يتخذوا من الأعناب سكرًا : أى مُسكرًا ، ولكن يعطينا الحق سبحانه هنا عبرة فقد نزلت هذه الآيات قبل تحريم الخمر .

وكان الآية تحمل مُقدِّمة لتحريم الخمر الذي يستحسنونه الآن
ويمستدحونه ؛ ولذلك يقول العلماء : إن الذي يقرأ هذه الآية بِفِطْنَةٍ
المستقبل عن الله يعلم أن الله حُكْمًا في السُّكْرِ سيأتى .

كيف توصلوا إلى أن الله تعالى حُكْمًا سيأتى في السُّكْر ؟

قالوا : لأنه قال فى وصف الرزق بأنه حسن ، فى حين لم يَصِفْ
السُّكْر بأنه حسن ، فمعنى ذلك أنه ليس حسنًا ؛ ذلك لأننا نأكل
ثمرات النخيل (البلح) كما هو ، وكذلك نأكل العنب مباشرة دون
تدخل مِنَّا فيما خلق الله لنا .

أما أن نُغَيِّر من طبيعته حتى يصير خمرًا مُسْكِرًا ، فهذا إفساد
فى الطبيعة التى اختارها الله لنا لتكون رزقًا حَسَنًا .

وكانه سبحانه يُنبِّه عباده ، أنا لا أمتنُّ عليكم بما حرَّمْتُ ، فإنا
لم أحرَّمه بَعْد ، فاجعلوا هذا السُّكْر - كما ترونه - متعة لكم ، ولكن
خذوا منه عبرة أُنِّى لم أَصِفْهُ بِالْحَسَنِ ؛ لأنه إن لم يَكُنْ حَسَنًا فهو
قبيح ، فإذا ما جاء التحريم فقد نبهتكم من بداية الامر .

ثم يقول تعالى :

﴿إِنْ فِى ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٧)

[النحل]

لان العقل يقتضى أن نُوازن بين الشيئين ، وأن نسأل : لماذا
لم يوصف السُّكْر بأنه حَسَنٌ ؟ .. أليس معناه أن الله تعالى لا يحب
هذا الامر ولا يرضاه لكم ؟

إذن : كان فى الآية نية التحريم ، فإذا ما أنزل الله تحريم الخمر
كان هذا تمهيداً له .

سُورَةُ النِّحْلِ

٨٠٤٩

والآية هي : الأمر العجيب الذي يُنبئكم أن الله الذي خلق لكم هذه الأشياء لسلامة مبانيتكم وقوالبكم المادية ، قادر ومأمون على أن يُشرع لكم ما يضمن سلامة معانيكم وقلوبكم القيمة الروحية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ۝ ﴾

النحل خلق من خلق الله ، وكل خلق لله أودع الله فيه وفي غرائزه ما يُقيم مصالحه ، يشرح ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الاعلى]

أى : خلق هذه كذا ، وهذه كذا حسب ما يتناسب مع طبيعته ؛ ولذلك تجد ما دون الإنسان يسير على منهج لا يختلف .. فالإنسان مثلاً قد يأكل فوق طاقته ، وقد يصل إلى حد التخمّة ، ثم بعد ذلك يشتكى مرضاً ويطلب له الدواء .

أما الحيوان فإذا ما أكل وجبته ، وأخذ ما يكفيه فلا يزيد عليه أبداً ، وإن أُجبرته على الأكل ؛ ذلك لأنه محكوم بالفريزة الميكانيكية ، وليس له عقل يختار به .

وضربنا مثلاً للفريزة فى الحيوان بالحمار الذى يتهمونه دائماً ويأخذونه مثلاً للغباء ، إذا سقته ليتخطى قناة ماء مثلاً وجدته ينظر إليها وكأنه يقيس المسافة بدقة .. فإذا ما وجدها فى مقدوره قفزها دون تردد ، وإذا وجدها فوق طاقته ، وأكبر من قدرته تراجع

ولم يُقَدِّمَ عليها ، وإنْ ضَرَبْتَهُ وَصَحَّحْتَ بِهِ .. فلا تَسْتَطِيعُ أَبَدًا إجْبارَهُ
على شَيْءٍ فوق قُدْرَتِهِ .

ذلك لأنه محكوم بالغريزة الآلية التي جعلها الله سبحانه فيه ،
على خلاف الإنسان الذي يفكر في مثل هذه الأمور ليختار منها
ما يناسبه ، فهذه تكون كذا ، وهذه تكون كذا ، فنستطيع أن نُشَبِّهَ
هذه الغريزة في الحيوان بالعقل الإلكتروني الذي لا يعطيك إلا
ما غَدِّتْهُ بِهِ من معلومات .. أما العقل البشري الرباني فهو قادر على
التفكير والاختيار والمفاضلة بين البدائل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. (٦٨) ﴾

[النحل]

الحق تبارك وتعالى قد يَمَثِّنْ على بعض عبادِهِ وَيُعَلِّمُهُمْ لُفَّةَ الطَّيْرِ
والحيوان ، فيَسْتَطِيعُونَ التَّفَاهُمَ معه ومخاطبته كما في قصة سليمان
عليه السلام^(١) .. والله سبحانه الذي خلقها وأبدعها يُوحِي إليها
ما يشاء .. فما هو الوحي ؟

الوحي : إعلام من مُعَلِّمٍ أَعْلَى لِمُعَلِّمٍ أَدْنَى بطريق خَفِيٍّ لا نَعْلَمُهُ
نحن ، فلو أَعْلَمَهُ بطريق صَرِيحٍ فلا يكون وَحْيًا .

فالوَحْيُ إِذَنْ يَقْتَضِي : مُوحِيًا وهو الأعلى ، وَمُوحًى إِلَيْهِ وهو
الأدنى ، وَمُوحًى بِهِ وهو المعنى المراد من الوَحْيِ

(١) يقول الحق سبحانه . ﴿ وَرَبُّكَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل]
وقد قال تعالى عن سليمان وجنوده ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النُّحْلِ قَالَتُمْ نَمْلَةً يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
مَنَاكِبَكُمْ لَا يَحْطُبْكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ (١٨) ﴾ فَيَسْمُ ضَاحِكًا عَنْ قَوْلِهَا .. (١٦) ﴾ [النمل].

سُورَةُ النُّحْلِ

٨٠٥٨

والحق - تبارك وتعالى - له طلاقة القدرة في أن يوحي ما يشاء
لما يشاء من خلقه .. وقد أوحى الحق سبحانه وتعالى إلى الجمد في
قوله تعالى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ (٢) وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ (٥) ﴾
[الزلزلة]

أعلمها بطريق خفي خاص بقدرة الخالق في مخلوقه .

وهنا أوحى سبحانه إلى النحل .

وأوحى الله إلى الملائكة :

﴿ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٦٤) ﴾
[الأنفال]

وأوحى إلى الرسل :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْفَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ
وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ .. (١٦٣) ﴾
[النساء]

وأوحى إلى المقربين من عباده :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١) ﴾
[المائدة]

وقد أوحى إليهم بخواطر نورانية تمرُّ بقلوبهم

وأوحى سبحانه إلى أم موسى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ.. (٧)﴾ [القصر]

هذا هو وَحْيُ الله إلى ما يشاء من خَلْقِهِ : إلى الملائكة ، إلى الأرض ، إلى الرسل ، إلى عباده المقربين ، إلى أم موسى ، إلى النحل .. إلخ .

وقد يكون الوحي من غيره سبحانه ، ويُسمى وَحْيًا أيضًا ، كما في قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ۖ.. (٢١)﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۖ.. (١٧)﴾ [الأنعام]

لكن إذا أُطلقت كلمة (الوَحْي) مُطلقًا بدون تقييد انصرفت إلى الوحي من الله إلى الرسل : لذلك يقول علماء الفقه : الوحي هو إعلامُ الله نبيه بمنهجه ، ويتبركون الأنواع الأخرى : وَحْيُ الغرائز ، وَحْيُ التكوين ، وَحْيُ الفطرة .. إلخ .

وقوله : ﴿أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

كثير من الباحثين شغوفون بدراسة النحل ومراحل حياته منذ القدم ، ومن هؤلاء باحث تتبّع المراحل التاريخية للنحل ، فتوصل إلى أن النحل أول ما وُجد عاش في الجبال ، ثم اتخذ الشجر ، وجعل فيها أعشاشه ، ثم اتخذ العرائش التي صنعها له البشر ، وهي ما نعرفه الآن باسم الخلية الصناعية أو المنحل ، ووجّه العجب هنا أن هذا الباحث لا يعرف القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن تمام التطابق .

وكذلك توصل إلى أن أقدم أنواع العسل ما وُجد في كهوف الجبال ، وقد توصلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حرق العسل وتحويله إلى كربون ، ثم عن طريق قياس إشعاع الكربون يتم التوصل إلى عمره .. وهكذا وجدوا أن عسل الكهوف أقدم أنواع العسل ، ثم عسل الشجر ، ثم عسل الخلايا والمناحل .

إذن : أوحى الله تعالى إلى النحل بطريق خفى لا نعلمه نحن ، وعملية الوحي تختلف باختلاف الموحى والموحى إليه ، ويمكن أن نُمثل هذه العملية بالخادم الفطن الذى ينظر إليه سيده مجرد نظرة فيفهم منها كل شيء : أهو يريد الشراب ؟ أم يريد الطعام ؟ أم يريد كذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٦٩)

علّة كون العسل فيه شفاء للناس أن يأكل النحل من كل الثمرات ؛ ذلك لأن تنوع الثمرات يجعل العسل غنياً بالعناصر النافعة ، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شيء فى الجسم ، فيكون فيه الشفاء بإذن الله .

ولكن الآن ماذا حدث ؟ نرى بعض الناس يقول : أكلت كثيراً من

(١) ذللاً . أى مهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم ٢٤٥/١] .

العسل ، ولم أشعر له بفائدة .. نقول : لأننا تدخلنا في هذه العملية ، وافسدنا الطبيعة التي خلقها الله لنا .. فالأصل أن نترك النحل يأكل من كُلِّ الثمرات .. ولكن الحاصل أننا نضع له السكر مثلاً بدلاً من الزُّهُر والنوار الطبيعي ، ولذلك تغيّر طعم العسل ، ولم تعد له مِيزته التي ذكرها القرآن الكريم .

لذلك ؛ فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتاً واضحاً في سعره بين نوع وآخر ، ذلك حَسَبَ جودته ومدى مطابقته للطبيعة التي حكاها القرآن الكريم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْأَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا .. ﴾ (٦٩)

[النحل]

أى : تنقل حُرّة بين الأزهار هنا وهناك ؛ ولذلك لا نستطيع أن نبني للنحل بيوتاً يقيم فيها ، لا بدُّ له من التنقل من بستان لآخر ، فإذا ما جفّت الزراعات يتغذى النحل من عسله ، ولكن الناس الآن يأخذون العسل كله لا يتركون له شيئاً ، ويضعون مكانه السكر ليتغذى منه طوال هذه الفترة .

وقوله تعالى : ﴿ ذُلًّا .. ﴾ (٦٩)

[النحل]

أى : مُذَلَّة مُهَدَّ طيعة ، فتخرج النحلة تسعى في هذه السُّبُل ، فلا يردّها شيء ، ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لآخرى ، وهل رأيت شجرة مثلاً رَدَّتْ نحلة ؟ لا .. قد ذلّل الله لها حياتها ويسرها .

سُورَةُ النِّحْلِ

○ ٨٠٥ ○

ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذَلَّلَ لنا سُبُلَ الحياة .. وذَلَّلَ لنا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها .. فنرى الجمل الضخم يسوقه الصبي الصغير ، ويتحكم فيه يُنِيخه ، ويَحْمَلُه الأثقال ، ويسير به كما أراد ، في حين أنه إذا ثار الجمل أو غضب لا يستطيع أحدٌ التحكم فيه .. وما تحكم فيه الصبي الصغير بقوته ، ولكن بتذليل الله له .

أما الثعبان مثلاً فهو على صغر حجمه يمثل خطراً يفرح منه الجميع ويهابون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذَلِّله لنا ، فافزعنا على صغر حجمه .. كذلك لو تأملنا البرغوث مثلاً .. كم هو صغير حقير ، ومع ذلك يقض مضاجعنا ، ويحرمانا لذة النوم في هدوء .. فهل يستطيع أحدٌ أنْ يُذَلِّلَ له البرغوث ؟!

وفي ذلك حكمة بالغة وكان الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذَلَّلْتُ لكم شيئاً ، ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإنْ لم أذَلِّه لكم فلا قدرة لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً .. إذن : الأمور ليست بقدرتك ، ولكن خُذْها كما خلقها الله لك .

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا .. (٥٩)﴾ [النحل]

ذلك أن النحلة تمتص الرحيق من هنا ومن هنا ، ثم تتم في بطنها عملية طهي ربانية تجعل من هذا الرحيق شَهِدًا مُصَفًى : لأنه قد يظن أحدهم أنها تأخذ الرحيق ، ثم تتقيؤه كما هو .. فلم يَقُلْ القرآن : من أفواهاها ، بل قال : من بطونها .. هذا المعمل الإلهي الذي يعطينا عسلاً فيه شفاء للناس .

[النحل]

﴿شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ.. (٦٩)﴾

ما دام النحل يأكل من كُلِّ الثمرات ، والثمرات لها عطاءات مختلفة باختلاف مادتها ، واختلاف ألوانها ، واختلاف طعمها وروائحها .. إذن : لا بُدَّ أن يكون شراباً مختلفاً ألوانه .

[النحل]

﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ.. (٦٩)﴾

لذلك وجدنا كثيراً من الأطباء ، جزاهم الله خيراً يهتمون بعسل النحل ، ويُجربون عليه كثيراً من التجارب لمعرفة قيمته الطبية ، لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعي كما خلقه الله .

ومع ذلك ومع تدخل الإنسان في غذاء النحل بقيت فيه فائدة ، وبقيت فيه صفة الشفاء ، وأهمها امتصاص المائبة من الجسم ، وأى ميكروب تريد أن تقضى عليه قُمْ بامتصاص المائبة منه يموت فوراً .

فإذا ما توفّر لنا العسل الطبيعي الذى خلقه الله تجلّت حكمة خالقه فيه بالشفاء ، ولكن إذا تدخل الإنسان في هذه العملية أفسدها .. فالكون كله الذى لا دخل للإنسان فيه يسير سيراً مستقيماً لا يتخلف ، كالشمس والقمر والكواكب .. إلخ إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذى يخرج عن منهج الله .

فالشئ الذى لك دخل فيه ، إما أن تتدخل فيه بمنهج خالقه أو تتركه ؛ لأنك إذا تدخلت فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير ، وإن تدخلت فيه بمنهجك أنت أفسدته .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١﴾

[البقرة]

إنهم لا يعرفون .. لا يُفرّقون بين الفساد والصلاح .

وفى القرآن أمثلة للناس الذين يُفسدون فى الأرض ويحسبون أنهم يُحسنون صنعا ، يقول تعالى :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾

[الكهف]

فالذى اخترع السيارة وهذه الآلات التى تنفث سمومها وتلوّث البيئة التى خلقها الله .. صحيح وفّر لنا الوقت والمجهود فى الحمل والتنقل ، ولكن انظر إلى ما أصاب الناس من عطب بسبب هذه الآلات .. انظر إلى عوادم السيارات وآثارها على صحة الإنسان .

كان يجب على مخترع هذه الآلات أن يوازن بين ما تؤديه من منفعة وما تُسببه من ضرر ، وأضف إلى الأضرار الصحية ما يحدث من تصادمات وحوادث مروعة تزهق بسببها الأرواح .. وبالله هل رأيت أن تصادمَ جملان فى يوم من الأيام .. فلا بُدَّ إذن أن نقيس المنافع والأضرار قبل أن نُقدم على الشئ حتى لا نُفسد الطبيعة التى خلقها الله لنا .

وقوله تعالى :

﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ٦٩﴾

[النمل]

الناس : جَمَعَ مختلفُ الداءات باختلاف الافراد وتعاطيهم لاسباب

الداءات ، فكيف يكون في هذا الشراب شفاءً لجميع الداءات على اختلاف أنواعها ؟.. نقول : لأن هذا الشراب الذي أعدّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفاً ألوانه .. من رحيق مُتَعَدِّدِ الأنواع والأشكال والطُعم والعناصر .. ليس مزيجاً واحداً يشربه كل الناس ، بل جاء مختلفاً متنوعاً باختلاف الناس ، وتنوع الداءات عندهم .. وكان كل عنصر منه يُدَوى داءً من هذه الداءات .

وقوله تعالى :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٩)

[النحل]

التفكر : أن تُفكر فيما أنت بصددہ لتستنبط منه شيئاً لست بصددہ ، وبذلك تُثري المعلومات ؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح ، إذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمد ، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحي ، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء ؛ لأن الارتقاءات التي نراها في الكون هي نتيجة التفكير وإعمال العقل .

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون ، ألا نمر عليها غافلين مُعرضين ، بل نفكر فيها وناخذها بعين الاعتبار .. يقول تعالى :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)

[يوسف]

ففي الآية حثٌّ على التفكير في ظواهر الكون ، وفيها تحذير من الإعراض والغفلة عن آيات الله ، فبالفكر نستنبط من الكون ما نستفيد به .

ولو أخذنا مثلاً الذى اخترع الآلة البخارية .. كيف توصل إلى هذا الاختراع الذى أفاد البشرية ؟ نجد أنه توصل إليه حينما رأى القدر الذى يغطى على النار يرتفع غطاؤه مع بخار الماء المتصاعد أثناء الغليان .. فسأل نفسه : لماذا يرتفع الغطاء ؟ واستعمل عقله وأعمل تفكيره حتى توصل إلى قوة البخار المتصاعد ، واستطاع توظيف هذه القوة فى تسيير ودفع العربات .

وكذلك أرشميدس - وغيره كثيرون - توصلوا بالاعتبار والتفكر فى ظواهر الكون ، إلى قوانين فى الطبيعة أدت إلى اختراعات نافعة نتمتع نحن بها الآن ، فالذى اخترع العجلة ، كم كانت مشقة الإنسان فى حَمْلِ الأثقال ؟ وما أقصى ما يمكن أن يحمله ؟ فبعد أن اخترعوا العجلات واستُخدمت فى الحمل تمكّن الإنسان من حَمْلِ وتحريك أضعاف أضعاف ما كان يحمله .

الذى اخترع خزانات المياه .. كم كانت المشقة فى استخراج الماء من البئر ؟ أو من النهر ؟ فبعد عمل الخزانات وضخ المياه أصبحنا نجد الماء فى المنازل بمجرد فتح الصنبور .

هذه كلها ثمرات العقل حينما يتدبّر ، وحينما يُفكر فى ظواهر الكون ، ويستخدم المادة الخام التى خلقها الله وحُتِنَا على التفكير فيها والاستنباط منها .. وكان الحق سبحانه يقول لنا : لقد أعطيتكم ضروريات الحياة ، فإن أردتم ترفّ الحياة وكمالياتها فاستخدموا نعمة العقل والتفكير والتدبّر لتصلوا إلى هذه الكماليات .

وهنا الحق سبحانه يلفتنا لفتة أخرى .. وهى أنه سبحانه يجعل

من المحسّات ما يُقَرَّبُ لنا المعنويّات ليلفتنا إلى منهجه سبحانه ؛
ولذلك ينقلنا هذه النّقلة من المحسوس إلى المعنوي ، فيقول تعالى :

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ
لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠)

قوله : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ .. (٧٠)﴾ [النحل]

هذه حقيقة لا يُنكرها أحد ، ولم يدّعها أحد لنفسه ، وقد أمّدكم
بمقومات حياتكم في الأرض والنبات والحيوان ، الأنعام التي تعطينا
اللبن صافياً سليماً سائغاً للشاربين ، ثم النحل الذي فيه شفاء
للناس .

فالحق سبحانه أعطانا الحياة ، وأعطانا مقومات الحياة ، وأعطانا
ما يزيل معائب الحياة .. وما دُمتُم صدّقتُم بهذه المحسّات فاسمعوا :

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ .. (٧٠)﴾

[النحل]

وساعة أن نسمع (خلقكم) ، فنحن نعتز أن الله خلقنا ، ولكن
كيف خلقنا ؟ هذه لا نعرفها نحن ؛ لأنها ليست عملية معملية .. فالذي

(١) أَرْدَلُ الْعُمُرِ هو الذي يُعْرِفُ من الكِبَرِ حتى لا يعقل ، ويبيّن بقوله : ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ
عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥٠)﴾ [الحج] ، [لسان العرب - مادة . رذل] . وقال علي بن أبي طالب
رضي الله عنه : أَرْدَلُ الْعُمُرِ : خمس وسبعون سنة [ذكره السيوطي في الدر المنثور
١٤٦/٥] .

سُورَةُ الْجَنَّةِ

خلق هو الحق سبحانه وحده ، وهو الذى يُخبرنا كيف خلق .. أما أن يتدخل الإنسان ويُقحم نفسه فى مسألة لا يعرفها ، فنرى مَنْ يقول : إن الإنسان أصله قرد .. إلى آخر هذا الهراء الذى لا أصل له فى الحقيقة .

فحين يقول سبحانه :

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ .. (٧٠)﴾

[النحل]

فعلينا أن نقول : سَمْعًا وطاعة ، وعلى العين والرأس .. يا رب أنت خلقتنا ، وانت تعلم كيف خلقتنا ، ولا نسال في هذا غيرك ، ولا نُصدّق في هذا غير قولك سبحانه .

ثم يقول تعالى :

﴿ثُمَّ يَوَلَّاكُمْ .. (٧٠)﴾

[النحل]

أى : منه سبحانه كان المبدأ ، وإليه سبحانه يعود المرجع .. وما دام المبدأ من عنده والرجع إليه ، وحياتك بين هذين القوسين : فلا تتمرد على الله فيما بين القوسين : لأنه لا يليق بك ذلك ، فانت منه وإليه .. فلماذا التمرد ؟

ربنا سبحانه وتعالى هنا يُعطينا دليلاً على طلاقة قدرته سبحانه في أمر الموت ، فالموت ليس له قاعدة ، بل قد يموت الجنين في بطن أمه ، وقد يموت وهو طفل ، وقد يموت شاباً أو شيخاً ، وقد يُردُّ إلى أرذل العمر ، أى : يعيش عمراً طويلاً .. وماذا في أرذل العمر ؟!

يُردُّ الإنسان بعد القوة والشباب ، بعد المهابة والمكان ، بعد أن كان يأمر وينهى ويسير على الأرض مُخْتِلاً ، يُردُّ إلى الضَّعْف في كل شيء ، حتى في أميز شيء في تكوينه ، في فكره ، فبعد العلم والحفظ وقوة الذاكرة يعود كالطفل الصغير ، لا يذكر شيئاً ولا يقدر على شيء .

ذلك لتعلم أن المسألة ليست ذاتيةً فيك ، بل موهوبة لك من خالقك سبحانه ، ولتعلم أنه سبحانه حينما يقضى علينا بالموت فهذا رحمة بنا وسر لنا من الضعف والشيخوخة ، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعيننا على أبسط أمور الحياة ويأمر فينا مَنْ كُنَّا نأمره .

ومن هنا كان التوفى نعمةً من نعم الله علينا ، ولكي تتأكد من هذه الحقيقة انظر إلى مَنْ أمدَّ الله في أعمارهم حتى بلغوا ما سماه القرآن « أرذل العمر » وما يعانونه من ضعف وما يعانونه ذووهم في خدمتهم حتى يتمنى له الوفاة أقرب الناس إليه .

الوفاة إذن نعمة ، خاصة عند المؤمن الذي قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله ، فتراه مُستبشراً بالموت ؛ لأنه عمّر آخرته فهو يُحب القدوم عليها ، على عكس المسرف على نفسه الذي لم يُعدّ العدة لهذا اليوم ، فتراه خائفاً جَزَعاً لعلمه بما هو قادم عليه .

و (ثُمَّ) حَرْفٌ للعطف يفيد الترتيب مع التراخي .. أى : مرور وقت بين الحدثين .. فهو سبحانه خلقكم ، ثم بعد وقت وتراخٍ يحدث الحدث الثانى (يتوفاكم) . على خلاف حرف (الفاء) ، فهو حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب أى : تتابع الحدثين ، كما فى قوله تعالى :

﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (٢١)

[عبس]

فبعد الموت يكون الإقبار دون تأخير .

وقوله تعالى :

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ.. (٧٠)﴾ [النحل]

وأردل العمر : اردؤه وأقله وأخسه ؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، فقال : .

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ.. (٧٨)﴾ [النحل]

وهذه هي وسائل العلم في الإنسان ، فإذا رُدَّ إلى أَرْدَلِ العمر فقدت هذه الحواس قدرتها ، وضعف عملها ، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخرف والهرم ، فقد توقفت آلات المعرفة ، وبدأ الإنسان ينسى ، وتضعف ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه .

وقوله : ﴿لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا.. (٧٠)﴾ [النحل]

لذلك يُسْمَوْنَ هذه الحواس الوارث^(١) .

ويُنْهِى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)﴾ [النحل]

لأنه سبحانه بيده الخلق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ، وهذا يتطلب علماً ، كما قال سبحانه :

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ .. (١٤)﴾ [المك]

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : اللهم أمتعنني بسمعي وبصري ، واجعلهما الوارث

منى . قال ابن شميل : أى أبقيهما معى صحيحين سليمين حتى أموت . [لسان العرب - مادة . ورث] .

سُورَةُ الْجِنَانِ

٨٠٦

فَلَا بُدَّ مِنْ عِلْمٍ ، لَأَنَّ الَّذِي يَصْنَعُ صَنْعَةً لَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ
مَا يُصْلِحُهَا وَمَا يُفْسِدُهَا ، وَذَلِكَ يَتَطَلَّبُ قُدْرَةً لِلْإِدْرَاكِ ، فَالْعِلْمُ وَحْدَهُ
لَا يَكْفِي .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ
فُضِّلُوا بِرَأْيِ رَبِّهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ
سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٧١)

لو نظرنا إلى الكون من حولنا لوجدنا أننا لا نتساوى إلا في
شيء واحد فقط ، هو أننا عبيد لله .. نحن سواسية في هذه فقط ،
وما دون ذلك فنحن مختلفون فيه ، تختلف ألواننا ، تختلف
أجسامنا .. صورنا .. مواهبنا .. أرزاقنا .

والعجيب أن هذا الاختلاف هو عين الاتفاق ؛ ذلك لأن الاختلاف
قد ينشأ عنه الاتفاق ، والاتفاق قد ينشأ عنه الاختلاف .

مثلاً : إذا دخلت أنت وصديقك أحد المطاعم وطلبتما دجاجة ..
أنت بطبيعتك تحب صدر الدجاجة وصديقك يحب جزءاً آخر منها ..
هذا خلاف .. فساعة أن يأتي الطعام تجد هذا الخلاف هو عين الوفاق
حيث تأخذ أنت ما تحب ، وهو كذلك .. هذا خلاف أدى إلى وفاق ..
فلو فرضنا أن كلانا يحب الصدر مثلاً .. هذا وفاق قد يؤدي إلى
خلاف إذا ما حضر الطعام وجلسنا : أينما يأخذ الصدر ؟

فالحق سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين في أشياء ، وأراد أن يكون

هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا .. فكيف يكون التكامل إذن ؟

هل نتصور مثلاً أن يُوجدَ إنسانٌ مجعاً للمواهب ، بحيث إذا أراد بناء بيت مثلاً كان هو المهندس الذي يرسم ، والبناء الذي يبني ، والعامل الذي يحمل ، والنجار والحداد والسباك .. الخ . هل نتصور أن يكون إنسان هكذا ؟ .. لا ..

ولكن الخالق سبحانه نثر هذه المواهب بين الناس نثراً لكي يظل كل منهم محتاجاً إلى غيره فيما ليس عنده من مواهب ، وبهذا يتم التكامل في الكون .

إذن : الخلاف بيننا هو عَيْنُ الوفاق ، وهو آية من آياته سبحانه وحكمة أرادها الخالق جلُّ وعلاً ، فقال :

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨)﴾

[هود]

فقد خلقنا هكذا .

ولاً فلو اتحدنا وانفقنا في المواهب ، فهل يعقل أن نكون جميعاً فلاسفة ، أطباء ، علماء ، فمّن يبني ؟ ومّن يزرع ؟ ومّن يصنع ؟ .. الخ
إذن : من رحمة الله أن جعلنا مختلفين متكاملين .

فالحق سبحانه يقول :

﴿فِي الرِّزْقِ .. (٧١)﴾

[النحل]

ينظر الناس إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنى وهذا فقير .. والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كلّ

شيء تنتفع به فهو رِزْقك .. فهذا رِزْقُه عَقْلُه ، وهذا رِزْقُه قُوته العضلية .. هذا يفكر وهذا يعمل .

إنن : يجب ألا ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد ، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لَخَلْقِه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حِلْم ، شجاعة .. كل هذا من الرزق الذي يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه وتعالى حينما تعرّض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهِمًا ، ولم تحدد الآية مَنْ الفاضل وَمَنْ المفضول ، فكلمة - بَعْض - مُبْهِمَةٌ لنفهم منها أن كل بعض من الأبعاد فاضل في ناحية ، ومفضول في ناحية أخرى .. فالقوى فاضل على الضعيف بقوته ، وهو أيضاً مفضول ، فربما كان الضعيف فاضلاً بما لديه من علم أو حكمة .. وهكذا .

إنن : فكل واحد من خَلْقِ الله رَزَقَه الله موهبة ، هذه الموهبة لا تتكرر في الناس حتى يتكامل الخَلْق ولا يتكررون .. وإذا وجدت موهبة في واحد وكانت مفقودة في الآخر فالمصلحة تقتضى أن يرتبط الطرفان ، لا ارتباط تفضّل ، وإنما ارتباط حاجة .. كيف ؟

القوى يعمل للضعيف الذى لا قوّة له يعمل بها ، فهو إذن فاضل فى قوته ، والضعيف فاضل بما يعطيه للقوى من مال وأجر يحتاجه القوى ليقوّت نفسه وعياله ، فلم يشأ الحق سبحانه أن يجعل الأمر تفضّلاً من أحدهما على الآخر ، وإنما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة التى يستبقى بها الإنسان حياته .

وهكذا يأتى هذا الأمر ضرورة ، وليس تفضلاً من أحد على أحد ؛
لأن التفضل غير مُلْزَم به - فليس كل واحد قادراً على أن يعطى دون
مقابل ، أو يعمل دون أجر .. إنما الحاجة هي التى تحكم هذه
القضية .

إذن : ما الذى ربط المجتمع ؟ هي الحاجة لا التفضل ، وما دام
العالم سيرتبط بالحاجة ، فكل إنسان يرى نفسه فاضلاً فى ناحية
لا يفتقر بفاضليته ، بل ينظر إلى فاضلية الآخرين عليه ؛ وبذلك تندك
سِمَة الكبرياء فى الناس ، فكل منهما يكمل الآخر .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالباشا الغنى صاحب العظمة والجاه ..
والذى قد تُلْجِئ الظروف وتُصَوِّجُه لعامل بسيط يُصلح له عَطْلاً فى
مرافق بيته ، وربما لم يجده أو وجده مشغولاً ، فيظل هذا الباشا
العظيم نَكِداً مُؤَرِّقاً حتى يُسَعِّفه هذا العامل البسيط ، ويقضى له
ما يحتاج إليه .

هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب
الحياة إلا أن يقضى مثل هذه المهام البسيطة فى المنزل .. وهو فى
نفس الوقت فاضل على الباشا فى هذا الشيء .

فالجميع - إذن - فى الكون سواسية ، ليس فينا مَنْ بينه وبين
الله سبحانه نسب أو قرابة فيجامله .. كلنا عبيد لله ، وقد نثر الله
المواهبَ فى الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم ، وليظل كلُّ منهم
محتاجاً إلى الآخر ، وبهذا يتم الترابط فى المجتمع .

وقد عَرِضَتْ هذه القضية فى آية أخرى فى قوله تعالى :

﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا
(٣٢)﴾ [الزخرف]

البعض يفهم أن الفقير مُسَخَّرٌ للغنى ، لكن الحقيقة أن كلا منهما
مُسَخَّرٌ للآخر .. فالفقير مُسَخَّرٌ للغنى حينما يعمل له العمل ، والغنى
مُسَخَّرٌ للفقير حينما يعطى له أجره ..

ولذلك فالشاعرُ العربي يقول :

النَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمٌ
ونضرب هنا مثلاً بأخس الحرف في عُرف الناس - وإن كانت
الحرف كلها شريفة ، وليس فيها خِسةٌ طالما يقوت الإنسان منها
نفسه وعياله من الحلال .. فالخِسةٌ في العاقل الأخرق الذي لا يُتَقَنُّ
عملاً .

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم
أفضل منه ، وأنه أقل منهم ، ولو نظروا إلى علبة الورنيش التي
يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء
يعملون له هذه العلبة ، وهو فاضل عليهم جميعاً حينما يشتري علبة
الورنيش هذه .. لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا
العامل البسيط .

فقوله تعالى :

﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

مَنْ مِّنَّا يُسَخِّرُ الْآخِرَ ١٩ كُلُّ مِّنَّا مُسَخَّرٌ لِلْآخِرِ ، أَنْتَ مُسَخَّرٌ لِي
فِيمَا تَتَّقَنَهُ ، وَأَنَا مُسَخَّرٌ لَكَ فِيمَا أَتَّقَنَهُ .. هَذِهِ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ لِيَتِمَّ
التَّوَازُنُ وَالتَّكَامُلُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ .

وَرَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ هَذِهِ الْمِهَنَ طَبِيعِيَّةً فِينَا .. يَعْنِي
هَذَا لَكَذَا وَهَذَا لَكَذَا .. لَا .. الَّذِي يَرْضَى بِقَدْرِ اللَّهِ فِيمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ عَمَلٍ
مُهْمًا كَانَ حَقِيرًا فِي نَظَرِ النَّاسِ ، ثُمَّ يُتَّقَنُ هَذَا الْعَمَلَ وَيَجْتَهِدُ فِيهِ
وَيَبْذُلُ فِيهِ وَسْعَهُ يَقُولُ لَهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ : مَا دُمْتَ رَاضِيَةً بِقَدْرِي فِي
هَذَا الْعَمَلِ لَأَرْفَعَنَّكَ بِهِ رَفْعَةً يَتَعَجَّبُ لَهَا الْخَلْقُ ..

وَفِعْلًا تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى أَحَدِهِمْ وَيَشِيرُونَ إِلَيْهِ : كَانَ شَيْئًا ..
كَانَ أَجِيرًا .. نَعَمْ كَانَ .. لَكِنَّهُ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ وَاتَّقَنَ وَأَجَادَ ،
فَعَوَّضَهُ اللَّهُ وَرَفَعَهُ وَأَعْلَى مَكَانَتِهِ .

وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ : مَنْ عَمَلَ بِإِخْلَاصٍ فِي أَيِّ عَمَلٍ عَشْرَ سَنِينَ
يُسَيِّدُهُ اللَّهُ بِقِيَّةِ عَمْرِهِ ، وَمَنْ عَمَلَ بِإِخْلَاصٍ عَشْرِينَ سَنَةً يُسَيِّدُ اللَّهُ
أَبْنَاءَهُ ، وَمَنْ عَمَلَ ثَلَاثِينَ سَنَةً سَيِّدُ اللَّهُ أَحْفَادَهُ .. لَا شَيْءَ يَضِيعُ عِنْدَ
اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

فَلَيْسَ فِينَا أَعْلَى وَأَدْنَى ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّكَ أَعْلَى مِنَ النَّاسِ ،
نَحْنُ سَوَاسِيَةٌ ، وَلَكِنْ مِمَّنْ مَنْ يُتَّقَنُ عَمَلَهُ ، وَمِمَّنْ مَنْ لَا يُتَّقَنُ عَمَلَهُ :
وَلِذَلِكَ قَالُوا : قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ .

وَلَا تَنْظُرْ إِلَى زَاوِيَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى مَجْمُوعِ
الزَّوَايَا ، وَسَوْفَ تَجِدُ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ عَادِلٌ فِي تَقْسِيمِ الْمَوَاهِبِ عَلَى
النَّاسِ .

سُورَةُ النِّحْلِ

٨٠٧١

وقد ذكرنا أنك لو أجريتَ معادلةَ بين الناس لوجدتَ مجموع كل إنسان يساوي مجموع كُلِّ إنسان ، بمعنى أنك لو أخذتَ مثلاً : الصحةَ والمالَ والأولادَ والقوةَ والشجاعةَ وراحةَ البالِ والزوجةَ الصالحةَ والجاهَ والمنزلةَ .. الخ لوجدتَ نصيبَ كُلِّ مَنَّا في نهايةِ المعادلةِ يساوي نصيبَ الآخرِ ، فانت تزيد عني في القوةَ ، وأنا أزيد عنك في العلمَ ، وهكذا .. لأننا جميعاً عبيدُ الله ، ليس مَنَّا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة .

وقوله تعالى :

﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَازِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. ﴾ (٧١)

[النحل]

فما ملكت أيمانهم : هم العبيد المماليك .. والمعنى : أننا لم نَرِ أحداً منكم فضله الله بالرزق ، فآخذه ووزَّعه على عبيده ومماليكه ، أبداً .. لم يحدث ذلك منكم .. والله سبحانه لا يعيب عليهم هذا التصرف ، ولا يطلب منهم أن يُوزَّعوا رزق الله على عبيدهم ، ولكن في الآية إقامةً للحجة عليهم ، واستدلال على سوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى^(١)

وكان القرآن يقول لهم : إذا كان الله قد فَضَّلَ بعضكم في

(١) عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في نصارى نجران حين قاتلوا عيسى ابن الله .. فقال الله لهم : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَازِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. ﴾ [النحل] قال القرطبي في تفسيره (٢٨٦٨/٥) : أي : لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد في المال شراً سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم . فتجعلون لى ولداً من عبيدى .

الرزق ، فهل منكم مَنْ تطوع برزق الله له ، ووزَّعه على عبيده ؟ ..
أبداً .. لم يحدث منكم هذا .. فكيف تأخذون حق الله في العبودية
والألوهية وحقه في الطاعة والعبادة والنذر والذبح ، وتجعلونه
للأصنام والأوثان ؟!

فانتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون .. فكيف تسمحون لأنفسكم أن
تأخذوا حقَّ الله ، وتعطوه للأصنام والأوثان ؟

ويقول تعالى في آية أخرى :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ
شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الروم]

أى : أنكم لم تفعلوا هذا مع أنفسكم ، فكيف تفعلونه مع الله ؟
فهذه لَقْطَةٌ : أنكم تُعاملون الله بغير ما تُعاملون به أنفسكم :

﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (٧١) ﴾ [النحل]

أى : أنكم سَوَّيْتُمْ بين الله سبحانه وبين أصنامكم ، وجعلتموهم
شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله .

والحق سبحانه وإنْ رزقنا وفضلنا فقد حفظ لنا المال ، وحفظ لنا
الملكية ، ولم يأمرنا أن نعطي أموالنا للناس دون عمل وتبادل منافع ،
فإذا ما طلب منك أن تعطي أخاك المحتاج فوق ما افترض عليك من
زكاة يقول لك :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

مع أن الحق سبحانه واهب الرزق والنعم ، يطلب منك أن

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿٨٠٧٣﴾

تُقَرِّضُهُ ، وكأنه سبحانه يحترم عملك ومجهودك ، ويحترم ملكيتك الخاصة التي وهبها لك .. فيقول : أقرضنى . لعلمه سبحانه بمكانة المال فى النفوس ، وحرص المقرض على التأكد من إمكانية الأداء عند المقرض ، فجعل القرض له سبحانه لتثق أنت أيها المقرض أن الأداء مضمون من الله .

ويختتم الحق سبحانه الآية بقوله :

[النحل]

﴿ أَفَبِعِنتِمَا اللَّهُ يُجَاهِدُونَ ﴾ (٧١)

أى : بعد أن أنعم الله عليهم بالرزق ، ولم يطلب منهم أن ينتروه على الخير ، جحدوا هذه النعمة ، وأنكروا فضل الله ، وجعلوا له شركاء من الأصنام والأوثان ، وأخذوا حق الله فى العبودية والالوهية وأعطوه للأصنام والأوثان ، وهذا عين الجحود وإنكار الجميل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٢)

الحق سبحانه فى الآية السابقة قنن لنا قضية القمة - قضية العقيدة - فى أننا لا نعطى شيئاً جعله الله لنفسه سبحانه من العبودية والالوهية والطاعة وغيرها ، لا نعطيها لغيره سبحانه .. وإذا صحت هذه القضية العقدية صحت كل قضايا الكون .

ثم بين سبحانه أنه خلقنا من واحد ، ثم خلق من الواحد زوجة له ، ليتم التناسل والتكاثر .. إذ إن استمرار بقائكم خاضعَ لأمرين :

الأمر الأول : استبقاء الحياة ، وقد ضمنه سبحانه بما أنعم به علينا من الأرزاق ، فناكل ونشرب فنستبقى الحياة ، فبعد أن تحدث عن استبقاء الحياة بالرزق في الآية السابقة ذكر :

الأمر الثاني : وهو استبقاء الحياة ببقاء النوع ، فقال سبحانه :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ..﴾ (٧٢)

[النحل]

والأزواج : جمع زوج ، والزوج لا يعنى الرجل فقط ، بل يعنى الرجل والمرأة : لأن كلمة (زوج) تُطلق على واحد له نظير من مثله ، فكل واحد منهما زوج .. الرجل زوج ، والمرأة زوج ، فتطلق - إذن - على مفرد ، لكن له نظير من مثله .

و ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ..﴾ (٧٢)

[النحل]

أى : من نفس واحدة ، كما قال فى آية أخرى :

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ..﴾ (٦)

[الزمر]

يعنى : أخذ قطعة من الزوج ، وخلق منها الزوجة ، كما خلق سبحانه حواء من آدم - عليهما السلام .

أو : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا ..﴾ (١)

[النساء]

أى : من جنسها ، كما قال تعالى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ..﴾ (١٢٨)

[التوبة]

أى : من جنسكم .

فالمسألة تحتل المعنيين .. مَنْ اتسع ظنُّه إلى أن الله خلق حواء من ضلع آدم أى : منه ، من بعضه فلا مانع ، وَمَنْ قال : خلق الله حواء كما خلق آدم خلقاً مستقلاً ، ثم زَوجَ بينهما بالزواج فلا مانع .. فالاول على معنى البَعْضية ، والثانى على معنى من جنسكم .

قلنا : إن الجمع إذا قابل الجمع اقتضت القسمةً أحاداً .. كما لو قال المعلم لتلاميذه : أَخْرِجُوا كُتُبَكُمْ ، فهو يخاطب التلاميذ وهم جَمْعٌ . وكتبهم جمع ، فهل سَيُخْرِجُ كل تلميذ كُتُبَ الآخرين ؟! .. لا .. بل كل منهم سَيُخْرِجُ كتابه هو فقط .. إذن : القسمة هنا تقتضى أحاداً .. وكذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. ﴾ (٢١)

[الروم]

أى : خلق لكل منكم زَوْجًا .

ولكى نتأكد من هذه الحقيقة ، وأن الخَلْقَ بدأ بآدم عليه السلام - نردُّ الأشياء إلى الماضى ، وسوف نجد أن كُلَّ متكاثر فى المستقبل يتناقص فى الماضى .. فمثلاً سَكَّانُ العالم اليوم أكثر من العام الماضى .. وهكذا تتناقص الاعداد كلما أوغلنا فى الماضى ، إلى أن نصلَ إلى إنسان واحد هو آدم عليه السلام - ومعه زوجه حواء ، لأن أقلَّ التكاثر من اثنين .

إذن : قوله سبحانه :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ﴾ (١)

[النساء]

كلام صحيح يؤيده الاستقراء والإحصاء .

لذلك يمتنُّ ربُّنا سبحانه علينا أنْ خلقَ لنا أزواجاً ، ويمتنُّ علينا أنْ جعلَ هذا الزوجَ من أنفسنا ، وليس من جنس آخر ، لأنَّ إلفَ الإنسان وأنسه لا يتم إلا بجنسه ، وهذه من أعظم نعم الله علينا ، ولك أن تتصوَّر الحال إذا جعلَ الله لنا أزواجاً من غير جنسنا !! كيف يكون ؟!

هذا الزوج اشترك معنا في أشياء ، واختلف عنا في شيء واحد ، اتفقنا في أشياء : فالشكل واحد ، والقالب واحد ، والعقل واحد ، والأجزاء واحدة : عينا وأذنان .. يدا ورجلان .. الخ . وهذا الاشتراك يُعين على الارتقاء والمودة والأنس والألفة .

واختلفنا في شيء واحد هو النوع : فهذا ذكر ، وهذه أنثى . إذن : جمعنا جنس ، وفرقنا النوع ليتمَّ بذلك التكامل الذي أراده سبحانه لعمارة الأرض .

وهناك احتمال أن يتحوَّل الذكر إلى أنثى أو الأنثى إلى ذكر ، لذلك خلق الله الاحتياط لهذه الظاهرة ، كأنْ يكونَ للرجل ثدي صغير ، أو غيره من الأعضاء القابلة للتحويل ، إذا ما دَعَتْ الحاجة لتغيير النوع .. فهذا تركيب حكيم وقدرة عالية .

إذن :

﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ۖ ﴾ (٧٧)

[النحل]

ليزداد الإلف والمحبة والأنس والمودة بينكم ؛ ولذلك نجد في

قصة سيدنا سليمان عليه السلام - والهدد ، حينما تفقد الطير وعرف غياب الهدد قال :

﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾
[النمل]

وهذا سلطان الملك الذي أعطاه الله لسليمان .. قالوا في :

﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا .. (٢١)﴾
[النمل]

أى : يضعه في غير جنسه .. إذن : وضعه في غير جنسه نوع من العذاب^(١) .. وتكون (من أنفسكم) نعمة ورحمة من الله .

وفي الآية الأخرى يذكر سبحانه عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾
[الروم]

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاث لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كلُّ منهما إلى الآخر ، ويطمئن له ويسعد به ، ويجد لديه حاجته .. فإذا ما اهتزت هذه الدرجة ونفر أحدهما من الآخر جاء دور المودة والمحبة التي تمسك بزمَام الحياة الزوجية وتوفر لـكليهما قدراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة ، فيرحم كل منهما صاحبه .. يرحم ضعفه .. يرحم مرضه .. وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عرضة للعواصف في رحلة الحياة .

(١) ومن أنواع العذاب أيضاً ما ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٢٦٠) والسيوطي في الدر

المنثور (٦/٢٤٩) أن ينفذ ريشه ويتركه للنمل يأكله

فإذا ما استنفدنا هذه المراحل ، فلم يَعدْ بينهما سَكَنٌ ولا مودةٌ ،
ولا حتى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشرةُ ، وأصبح
من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ،
ومع ذلك جعله ربنا سبحانه أبغض الحلال^(١)، حتى لا نقدم عليه إلا
مُضْطَرَيْن مُجْبَرَيْن .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .. ﴾ (٧٢) [النحل]

البنون هم الحلقة الاولى لاستبقاء الحياة ، والحفدة وهم ولَدُ
الولد ، هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة ؛ ذلك لأن الإنسان بطبعه
يحب الحياة ويكره الموت ، وهو يراه كل يوم يحصد النفوس من
حوْلِهِ .. فإيمانه بالموت مسألة محققة ، فإذا ما تيقن أن الحياة تقوته
فى نفسه أراد أن يستبقّيها فى ولَدِهِ .. ومن هنا جاء حُبُّ الكثيرين
مِنَّا ، للذكور الذين يُمكنون امتداداً للأباء .

فإذا ما رزقه الله الأبناء ، وضمن له الجيل الاول تطّلع إلى أن
يرى أبناء الأبناء ؛ ليستبقى الحياة له ولولده من بعده ؛ ولذلك
فالشاعر الذى يخاطب ابنه يقول له :

أَبْنَى .. يَا أَنَا بَعْدَمَا أَقْضَى^(٢)

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : أبغض الحلال إلى الله عز وجل

الطلاق . أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٧٨) وابن ماجه فى سننه (٢٠١٨)

(٢) قضى الرجل نحبه . استوفى أجله . ومات . قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ .. ﴾ (٧٢)

[الأحزاب] مات أو استشهد . [القاموس القويم ١٢٢/٢] .

سُورَةُ النُّحْلِ

٨٠٧٩

وهذه هي نظرة الناس إلى الأولاد ، أنهم ذُكِرَ لهم بعد موتهم ..
وكان اسمه موصولاً لا ينتهي .

ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ بَيْنَ وَحْفَةٍ .. (٧٢) ﴾ [النحل]

تدُلُّنا على ضرورة الحرص على اندماج الأجيال .. زوجين ، ثم
أبناء وحفدة .. فما فائدة اندماج الأجيال ؟ ما فائدة المعاصرة
والمخالطة بين الجد وحفيده ؟

نلاحظ أن الوليد الصغير يبدأ عنده الإدراك بمجرد أن تعمل
وسائل الإدراك عنده ، فيبدأ يلتقط مِمَّنْ حوله ويتعلم منهم .. فإذا
كان له إخوة أكبر منه تعلم منهم مثلاً بابا .. ماما .. فإذا لم يَكُنْ له
إخوة نُعَلِّمه نحن هذه الكلمات .

ولذلك نرى الطفل الثانى أذكى من الأول ، والثالث أذكى من
الثانى .. وهكذا لأنه يأخذ مِمَّنْ قبله ومِمَّنْ حوله ، فيزداد بذلك
إدراكه ، وتزداد خبراته ومعلوماته .

ولنتصور أن هذا الابن أصبح أباً ، وجاء الحفيد الذى يعاصر
الجيلين : جيل الأب وجيل الجد ، يشبَّ الصغير فى أحضانهما ، فتراه
يأخذ من أبيه نشاطه فى حركة الحياة وسَعْيِهِ للرزق .

فى حين أنه يأخذ من جَدِّهِ القيم الدينية حيث الجد فى البيت
باستمرار بعد أن تقدَّم به العمر فأقبل على الطاعة والعبادة .. فيسمع
منه الصغير قراءة القرآن .. متى يؤذن للظهر .. يا ولد هات

المصحف .. يا ولد هات السجادة لأصلى ، إلى غير هذه من الكلمات التى يأخذ منها الصغير هذه القيم .

إذن : الحفيد يلتقط لونا من النشاط والحركة فى جيل أبيه ، ويلتقط لونا من القيم فى جيل جدّه ؛ ولذلك فإن ابتعاد الاجيال يُسبّب نقصاً فى تكوين الاطفال ، والحق سبحانه يريد أن تلتحم الاجيال لتكتمل للطفل عناصر التربية بين القيم المعنوية والحركة والنشاط .

وقوله تعالى :

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ .. (٧٦) ﴾ [النحل]

الطيبات فى الرزق الذى جعله الله لاستبقاء الحياة ، وفى الزواج الذى جعله الله لاستبقاء النوع .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٧) ﴾ [النحل]

الباطل : هو الاصنام التى اتخذوها من دون الله .

وفى الآية استفهام للتعجب والإنكار .. كيف تكفرون بنعمة الله وقد خلقكم فى البَدء من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها .. وجعل لكم من انفسكم أزواجاً .. وجعل بينكم سكناً ومودة ورحمة ، ثم جعل لكم البنين والحفدة ، ورزقكم من نعم الحياة ما يستبقى حياتكم ، ومن نعم الأزواج ما يستبقى نوعكم ، وجعلكم فى نعمة ورفاهية .. خلقكم من عَدَم ، وأمدكم من عَدَم .

أبعد ذلك كله تجحدون نعمته وتكفرونها ، وبذل أن تُقبلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع .. وهل عملت لكم الأصنام شيئاً من ذلك ؟! هل أنعمت عليكم بنعمة من هذه النعم ؟!

هذه الأصنام محتاجة إليكم .. تأخذ منكم ولا تعطيكُم .. فهذا مائل يريد من يقيمه .. وهذا كُسر يحتاج لمن يصلحه .. انقل الإله .. ضَع الإله في مكان كذا .. الخ .

ولذلك يقول تعالى في الآية بعدها :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٢)

والعبادة أن يطيع العابد معبوده ، وهذه الطاعة تقتضى تنفيذ الأمر واجتناب النهى .. فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النهى فقط ؟ نقول : لا بل كل حركة في الحياة تُعين على عبادة فهي عبادة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولتوضيح هذه القضية نضرب هذا المثل :

إذا أردت أن تؤدي فرض الله في الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدي هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب ، ولناخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يدّ شاركت فيه منذ كان حبة قمح تلقى في الأرض إلى أن أصبح رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يؤدون حركة إيجابية في الحياة هي في حد ذاتها عبادة لأنها أعانتك على عبادة .

أيضاً إذا أردت أن تُصلى ، فواجب عليك أن تستر عورتك .. انظر إلى هذا القماش الذى لا تتم الصلاة إلا به .. كُلُّ مَنْ أسهم فى زراعته وصناعته حتى وصل إليك .. جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم فى صناعة هذا القماش .

إذن : كل شيء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة فى الكون تؤدي إلى شيء من هذا فهي عبادة .

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة ، قال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾

[الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ ، بل من عمل ، ولكن لماذا قال سبحانه : (وَذَرُوا الْبَيْعَ) .. لماذا البيع بالذات ؟

قالوا : لأن البيع هو غاية كل حركات الحياة ، فهو واسطة بين مُنتج ومُستهلك .. ولم يَقُل القرآن : اتركوا المصانع أو الحقول ، لأن هناك أشياء لا تأتي ثمرتها فى ساعتها .. فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع ، والصانع ينتظر إلى أن يبيع صناعته .. لكن البيع صفقة حاضرة ، فهي محل الاهتمام .. وكذلك لم يَقُل : ذروا الشراء ، قالوا : لأن البائع يحب أن يبيع ، ولكن المشتري قد يشتري وهو

كأره .. فأتى القرآن بأدق شيء يمكن أن يربطك بالزمن ، وهو البيع .

فإذا ما انقضت الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعى في
مناكب^(١) الأرض :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ
اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [النحل]

أراد الحق سبحانه أن يتكلم عن الجهة التي يُؤثرونها على الله ..
وهي الأصنام .. فإله سبحانه الذي خلقهم ورزقهم من الطيبات ،
وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً ، وجعل لهم بنين وحفدة .. كان يجب
أن يعبدوه لتعظيمه وقضله .. فالذي لا يعبد الله لذاته سبحانه يعبد
لنعمه وحاجته إليه .. فعندنا عبادة للذات لأنه سبحانه يستحق العبادة
لذاته ، وعبادة لصفات الذات في معطياتها ، فَمَنْ لم يعبد لذاته عبده
لنعمته .

وطالما أن العبادة تقتضي تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي .. فكيف
تكون العبادة إذن في حق هذه الأصنام التي اتخذوها ؟! كيف
تعبدونها وهي لم تأمركم بشيء ولم تنهكم عن شيء ؟!

(١) مناكب الأرض : جبالها . وقيل : طرقها . وقيل : جوانبها . قال الأزهري : أشبه التفسير
والله أعلم تفسير من قال : في جبالها . لأن قوله ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا .. (١٥) ﴾
[الملك] معناه : سهل لكم السلوك فيها . فامكنكم السلوك في جبالها . فهو أبلغ في
الذليل . [لسان العرب - مادة : نكب] .

وهذا أول نُقْدٍ لعبادة غير الله من شمس أو قمر أو صنم أو شجر .

وكذلك .. ماذا تُعطي الأصنام - أو غيرها من معبوداتكم - لمن عبدها ، وماذا أعدتُ لهم من ثواب ؟! وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها ؟ .. إذن : فهو إله بلا منهج .

والتدين غريزة في النفس يلجأ إليها الإنسان في وقت ضعفه وحاجته .. والله سبحانه هو الذي يحب أن تلجأ إليه وتدعو وتطلب منه قضاء الحاجات .. وله منهج يقتضى مطلوبات تدكُ السيادة والطفان في النفوس ويقتضى تكاليف شاقة على النفس .

إذن : لجأ الكفار إلى عبادة الأصنام والأوثان لأنها آلهة بلا تكليف ، ومعبودات بلا مطلوبات .

ما أسهل أن يتمحك إنسان في إله ويقول : أنا أعبدُه دون أن يأمر بشيء أو ينهى عن شيء ! ما أسهل أن يُرضى في نفسه غريزة التدين بعبادة مثل هذا الإله .

لكن يجب ألا تنسوا أن هذا الإله الذي ليس له تكليف لن تستطيعوا أن تطلبوا منه شيئاً ، أو تلجأوا إليه في شدة .. فهذا غير معقول فكما أنهم لا يطلبون منكم شيئاً ، كذلك لا يملكون لكم نقعاً ولا ضرراً .

لذلك وجدنا الذين يدعون النبوة .. هؤلاء الكذابون يُيسرون على الناس سُبُل العبادة ، ويبيحون لهم ما حرّمه الدين مثل اختلاط الرجال والنساء وغيره ؛ ذلك لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الاتباع .

فجاء مسيئة الكذاب وأراد أن يُسهّل على الناس التكليف فقال بإسقاط الصلاة ، وجاء الآخر فقال بإسقاط الزكاة .. وقد جذب هذا التسهيل كثيراً من المغفلين الذين يَضيقون بالتكليف ، ويعملون لدين سهّل يناسب همّهم الدُّنية .

وهكذا وجدنا لهؤلاء الكذابين أنصاراً يؤيدونهم ويُناصرونهم .. ولكن سرعان ما تتكشف الحقائق ، ويقف هؤلاء المخدوعون على حقيقة أنبيائهم .

وقوله تعالى :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا...﴾ (٧٣) [النحل]

نلاحظ في هذه الآية نوعاً من الارتقاء في الاستدلال على بطلان عبادة الاصنام ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عنهم في آية أخرى :

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)﴾ [النحل]

فنفي عنهم القدرة على الخلق ، بل إنهم هم المخلوقون .. يذهب الواحد منهم فيُعجبه حجر ، فيأخذه ويُعمل فيه معوله حتى يُصوّره على صورة ما ، ثم يتخذها إلهاً يعبده من دون الله .

فلما نفى عنهم القدرة على الخلق أراد هنا أن يترقّى في الاستدلال ، فنفي عنهم مجرد أن يملكوا ، فقد يملك الواحد ما لا يخلقه ، فتقرّر الآية هنا أنهم لا يملكون .. مجرد الملك .

وقوله تعالى :

﴿ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ۚ ﴾ (٧٣) [النحل]

فالرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، ومن المصدرين يأتى رزق الله ، وبذلك يضمن لنا الحق تبارك وتعالى مقومات الحياة وضرورياتها من ماء السماء ونبات الأرض .

فإن أردتم ترفاً الحياة فاجتهدوا فيما أعطاكم الله من مقومات الحياة لتصلوا إلى هذا الترف .

فالرزق الحقيقى المباشر ما أنزله الله لنا من مطر السماء فأنبت لنا نبات الأرض ..

ونوضح ذلك فنقول : هَبْ أن عندك جبلاً من ذهب ، أو جبلاً من فضة ، وقد عضك الجوع فى يوم من الأيام .. هل تستطيع أن تأكل من الذهب أو الفضة ؟

إنك الآن فى حاجة لرغيف عيش ، لا لجبل من ذهب أو فضة .. رغيف العيش الذى يحفظ لك حياتك فى هذا الموقف أفضل من هذا كله .

وهذا هو الرزق المباشر الذى رزقه الله لعباده ، أما المال فهو رزق غير مباشر ، لا تستطيع أن تأكل منه أو تعيش عليه .

وكلمة : (شَيْئًا) أى : أقل ما يُقال له شيء ، فالأصنام والاولئان لا تملك لهم رزقاً مهما قل ؛ لأنه قد يقول قائل : لا يملكون رزقاً يكفيهم .. لا .. بل لا يملكون شيئاً .

ثم يعطينا الحق سبحانه لمحة أخرى فى قوله تعالى :

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾

[النحل]

أى : لا يملكون لهم رزقاً فى الحاضر ، ولن يملكوا فى المستقبل ، وهذا يقطع الأمل عندهم ، فهم لا يملكون اليوم ، ولن يملكوا غداً ؛ ذلك لأن هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وقتاً .. وأشياء مُعلقة يمكن أن تُستأنف فيما بعد ، فهذه الكلمة :

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾

[النحل]

حُكم قاطع لا استئناف له فيما بعد .

ولذلك : نجد هؤلاء الذين يُحبّون أن يجدوا فى القرآن مأخذاً يجادلون فى قوله تعالى^(١) :

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)﴾

[الكافرون]

فهؤلاء يرون فى السورة تكراراً يتنافى وبلاغة القرآن الكريم .. نقول : ليس فى السورة تكرار لو تأملتم .. ففى السورة قطع علاقات على سبيل التأييد والاستمرار ، فالحق سبحانه يقول :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾

[الكافرون]

(١) ذكر الواحدى فى «أساليب النزول» ص ٢٦١ فى سبب نزول هذه السورة أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد لم اتبع ديننا ونتبع دينك ، نعبد الهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فإن كان الذى جئت به خيراً مما بايدينا قد شركناك فيه واخذنا بحظنا منه . وإن كان الذى بايدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا واخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره . فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (٦)﴾ [الكافرون] .

فى الحاضر ، وفى المستقبل ، وإلى يوم القيامة .

فقله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾

[الكافرون]

هذا قَطْعُ علاقات فى الوقت الحاضر .. ولكن مَنْ يُدْرِينا لعنا
نستأنف علاقات أخرى فيما بعد .. فجاء قوله تعالى :

﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

[الكافرون]

لا للتكرار ، ولكن لقطع الأمل فى إعادة العلاقات فى المستقبل ،
فالقضية - إذن - منتهية من الآن على سبيل القَطْع .

كذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾

[النحل]

أى : لا يستطيعون الآن ، ولا فى المستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضُرُّهُ أَمْثَالُ إِنَّا اللَّهُ يَعْلَمُ

وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

الأمثال : جمع مِثْل ، وهو النَّدُّ والنظير .

وفى الآية نَهَى عن أَنْ نُشَبِّهَ الله سبحانه بشيء آخر ؛ لأن الحق تبارك وتعالى واحدٌ فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله ..
إياك أن تقول عن ذات : إنها تشبه ذاته سبحانه ، أو صفات تشبه صفاته سبحانه ، فإن وجدت صفة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشر فاعلم أنها على مقياس :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١١) [الشورى]

فالحق سبحانه ينهانا أَنْ نضرب له الأمثال ، إنما هو سبحانه يضرب الأمثال ؛ لأنه حكيم يضرب المثل فى محله ليُوضح القضية الغامضة بالقضية المشاهدة ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى..﴾ (٦٠) [النحل]

أى : الصفة العليا فى كل شيء ، فإذا وجدت صفات مشتركة بينكم وبين الحق سبحانه فنزّه الله عن الشبيه والنظير والنّد والمثيل وقل : (ليس كمثله شيء) .

فأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك مسبقٌ بعدم ويلحقه عدم ، ووجوده سبحانه لا يسبقه عدم ولا يلحقه عدم .

وقد ضرب الله لنا مثلاً لنفسه سبحانه ليُوضح لنا تنويره سبحانه للكون ، وليس مثلاً لنوره كما نظن .. بل هو مثل لتنويره لا لنوره .

يقول تعالى فى سورة النور :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ^(١) فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ^(٢) يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٣)﴾

[النور]

نور السماوات والأرض : لانه بالنور تكون الهداية حسية أو معنوية .. فالنور الحسى مثل نور الشمس والقمر وغيرهما من مصادر الضوء .. هذا النور الحسى هو الذى يبين لك الاشياء لتسير فى الكون على بصيرة وهدى .. فلو حاولت السير ليلاً دون ضوء يهديك فسوف تصطدم بالاشياء من حولك : إما أقوى منك يُحطِّمُكَ ويؤذيكَ ، وإما تكون أنت أقوى منه فتُحطِّمُهُ أنت .. فالذى يهدى خطاك هو النور الحسى .

وقد يكون النور معنوياً ، وهو نور القيم والأخلاق ، وهذا النور يجعلك أيضاً تسير فى الحياة على بصيرة وهدى ، ويحميك من التخبُّط فى مجاهل الأفكار والنظريات ، هذا هو النور القيمى الذى أنزله الله لنا فى كتابه الكريم ، وقال عنه :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ^(٤) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

(١) المشكاة : هى الكوة ، الطاقة ، التى ليست بنافذة . [لسان العرب - مادة : شكا] .

(٢) الكوكب الدرى : هو الكوكب الشديد البريق واللمعان [القاموس القويم ٢٢٦/١] .

رِضْوَانُهُ سَبِيلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

[العائدة]

فهو نور لكن معنوى .. بالقيم والأخلاق والفضائل .. ولا تقل في هذا المثل : إنه مثل لنور الله .. بل مثل لسلطان تنويره للكون ، ولو تأملنا بقية الآية لادركنا ذلك .

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ...﴾ (٣٥)

[النور]

البعض يقولون : المشكاة هي المصباح .. لا .. المشكاة هي الكوة أو الطاقة المسدودة في الجدار يعرفها أهل الريف في بناياتهم القديمة ، وهي تجويف غير نافذ في الجدار يُوضَع فيه المصباح .

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ...﴾ (٣٥)

[النور]

أى : ليس مصباحاً عادياً بل في زجاجة ، وهي تحمى ضوء المصباح أن يبعثره الهواء من كل ناحية ، وفي نفس الوقت تسمح له بالقدر الكافي من الهواء لاستمرار الاشتعال ، وبذلك يكون الضوء ثابتاً صافياً لا يصدر عنه دخان يُعَكِّرُ صَفْوَ الزجاجة .

وأهل الريف يعرفون شعلة الجاز التي ليس لها زجاجة ، وما يصدر عنها من دخان أسود ضار .. إذن : المصباح هنا في غاية الصفاء والقوة ! لأن الزجاجة أيضاً ليست زجاجة عادية ، بل زجاجة كأنها كوكب دري ، وكونها كالكوكب الدري يعنى أنها تُضيء بنفسها .

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ...﴾ (٣٥)

[النور]

هذا المصباح يُوقد بزيت ليس عادياً ، بل هو زيت من زيتونة ..
شجرة زيتون معتدلة المناخ .

﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ.. (٣٥)﴾ [النور]

هذا الزيت وصل من الصفاء والنقاء أنه يُضئ ، ولو لم تمسه نار ؛
ولذلك أعطانا منتهى القوة :

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ.. (٣٥)﴾ [النور]

ولذلك قال تعالى في وصف هذا المصباح :

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ.. (٣٥)﴾ [النور]

وبعد أن وقفت على أوصاف هذا المصباح ، وأنه يُوضَع في كُوَّةٍ
صغيرة ، بالله عليك هل يمكن وجود نقطة مظلمة في هذه الكُوَّة ؟

إذن : فهذا مثلٌ ليس لنوره سبحانه .. فتُوره لا يُدرِكُ ، وإنما هو
مثلٌ لتنويره للكون ، الذي هو كالكُوَّة والطاقة في هذا المثل .. فمعنى
قوله تعالى :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.. (٣٥)﴾ [النور]

أى : مُنورهما ، فكما أنه لا يُعقل وجود نقطة مظلمة في هذه
الكُوَّة ، فكذلك نوره سبحانه وتنويره للكون .. وهذا هو النور الحسى
الذى أمدَّ الله به الكون .

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن النور المعنوى الذى يُنزل على عباد
الله الصالحين تجلياتٍ نورانية ، وفيوضاتٍ ربانية تنلقأها في بيوت
الله :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ .. (٣٧) ﴾ [النور]

وهكذا نجمع بين النور الحسى والنور المعنوى ﷻ

ولذلك ، فأبو تمام^(١) حينما أراد أن يمدح الخليفة شُبهه بعشامير
العرب فى الشجاعة والكرم والحلم والذكاء ، فقال :

إِقْدَامَ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ
فاعترض على هذا التشبيه أحد حُصَادِ أبى تمام ، وقال له : كيف
تُشَبِّه الخليفة بأجلاف العرب ؟ ففى جيشه ألف واحد كعمرو ، ومن
خَزَنَتِهِ ألف واحد كحاتم .. ولكى يخرج أبو تمام من هذا المازق ،
ويُفْلِتَ من هذا الفخ الذى نصبه له حاسده ، قال على البديهة :

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُّودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ^(٢)
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ^(٣)
والحق سبحانه وتعالى وإن نهانا نحن أن نضرب له مثلاً لقلة
علمنا ، فهو سبحانه القادر على ضَرْبِ الأمثال حتى بأقلِّ المخلوقات ،
وَأَتْفَهَهَا فى نظرنا .. فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَرَقَهَا .. (٧٦) ﴾
[البقرة]

(١) هو حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ،

حيث كان يعمل صبياً لعائلته ، توفى ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة ، والندى : السفاه والكرم ، والبأس : القوة
والعرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج ، والمشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى
قرانا به ، الطاقة : مع نطق القاف همزة .

فلا تستقلّ أمر هذه البعوضة ، ولا تستحقّر أن يجعلها الله مثلاً :
لأنه سبحانه لا يستحي أن يضرب بها المثل : لأن في هذه البعوضة
كل أجهزة تكوين الحياة التي فيك ، وفي أضخم الحيوانات مثل الفيل
والجمل : ولأن هذه البعوضة التي تستحقرها قد تكون أقوى منك ،
قد تُعجزك أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

يقول تعالى :

﴿وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَعِذُّوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ
وَالْمُطْلُوبُ﴾ (٧٢)

[الحج]

بالله عليك ، هل تستطيع على قوتك وإمكاناتك أن تستردّ من
الذباب ما أخذته من طعامك ؟ هل تقدر على هذه العملية ؟

إنن : حينما يضرب الله لك مثلاً يجب أن تحترم ضَرْبَ الله
للمثل ، وأن تبحث فيما وراء المثل من الحكمة .. وأنه سبحانه جاء
بهذا المثل لهذا المخلوق الحقيق في نظرك ليُوضّح لك قضية غامضة
يُنَبِّهك إليها .

ولاهمية ضَرْبِ المثل في توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء
ليُقَرِّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة
لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصول بها إلى أفهام العامة ..
مثل قضية الحاسد الذي يُظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد
يتهم البريء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً في رفعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربي هذا المعنى ، وصاغه شعراً ، وضرب له مثلاً
توضيحياً ، فقال :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَّاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفٍ^(١) الْعُودِ
فانظر كيف وصل بالقضية المعنوية إلى قضية عامة يعرفها
الرجل العادي ، فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها
أحد ، حتى تتعرض لحاسد يتهمك ويُسَوِّهَ صورتك ، فإذا بالحقيقة
تتكشَّف للجميع ويظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل ..
وما أشبه ذلك بالعود طيب الرائحة الذي لا نشم رائحته إلا إذا
حرقناه .

وقد كان سبب هذا المثل الشعري أن أحد أهل الخير كان يتردد
من حين لآخر على أحد بيوت البلدة وبها عجوز مقعدة في حاجة إلى
مساعدة ، فكان يساعدها بما يستطيع ، وكان بجوارها منزل إحدى
الجميلات التي قد تكون مطمعا .. فاستغل أحد الحُساد هذه الجيرة ،
واتهم الرجل الصالح بأنه يذهب إلى هذه الحسنة .. وفعلاً تتبعه
الناس ، فإذا به يذهب لبيت العجوز المقعدة .. ومن هنا عرف الناس
عنه فضيلة لم يكن يعرفها أحد .

وقد رأينا على مرِّ التاريخ من اتهموا ظلماً ، وقيل في حقهم
ما يندى له الجبين .. ثم أنصفهم القضاء العادل ، وأظهر أنهم أبطال
يستحقون التكريم ، ولولا ما تعرضوا له من اتهام ما عرفنا مزاياهم
ومكارمهم .

(١) العَرْفُ : الريح ، طيبة كانت أو خبيثة . والعود هو الذي يُتَبَخَّرُ به . والعود خشبة كل
شجرة ، بق أو غلط . [لسان العرب - مادناً : عرف ، عود] .

وقوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤) [النحل]

وهذه علة النهى عن ضَرْبِ الأمثال لأننا لا نعلم ، أما الحق سبحانه وتعالى فيضرب لنا الأمثال : لأنه سبحانه يعلم ، ويأتى بالمثل فى محله .

وبعد أن هيأنا ربنا سبحانه لتلقى الأمثال ، وأعد أذهاننا لاستقبال الأمثال منه سبحانه .. أتى بهذا المثل .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ
وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِثَارَ زَرْقَا حَسَنًا فَهُوَ يَتْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا
هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً له طرفان :

الطرف الأول : عبد : أى مولى ، وصفه بأنه مملوك التصرف ، وأنه لا يقدر على شيء من العمل ؛ ذلك لأن العبد قد يكون عبداً ولكنه يعمل ، كمن تسمع له بالعمل فى التجارة مثلاً وهو عبد ، وهناك العبد المكاتب الذى يتفق مع سيده على مال يؤتيه إليه لينال حريته ، فيتركه سيده يعمل بحريته حتى يجمع المال المتفق عليه .. فهذا عبد ، ومملوك ، ولا يقدر على شيء من السعى والعمل .

والطرف الثانى : سيد حر ، رزقه الله وأعطاه رزقاً حسناً أى :

سورة النحل

(١) أسبغ الله النعمة : أتمها ووسّعها . [القاموس القويم - مادة : سبغ] . وشيء سائب : كامل واف . وسبغت النعمة : اتسعت . [لسان العرب - مادة : سبغ] .

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ فِي الانْصِرَافِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ مَعَ مَا أُعْطَاهُمْ مِنْ رِزْقٍ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تُعْطِيهِمْ شَيْئًا .

وَمِنْ هُنَا تَتَضَحَّحُ الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَرَكَ الْحُكْمَ بِنَفْسِهِ فِي هَذَا الْمَثَلِ ، وَاتَى بِهِ عَلَى صُورَةِ سَوْأَلٍ لِيَأْخُذَ الْحُكْمَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَيَشْهَدُوا لَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ؛ لِيَقْطَعَ عَلَيْهِمْ سَبِيلَ الْإِنْكَارِ وَالْجِدَالِ .

وَلَنَا هُنَا وَقْفَةٌ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ .. (٧٥) ﴾ [النحل]

فَالْحَدِيثُ عَنْ مُثْنَى ، وَكَانَ الْقِيَاسُ أَنَّ يَقُولُ : هَلْ يَسْتَوِيَانِ ، فَلَمَّا ذَا عَدَلَ عَنِ الْمَثْنَى إِلَى الْجَمْعِ ؟

نَقُولُ : لِأَنَّ الْمَثَلَ وَإِنْ ضُرِبَ بِمَفْرَدٍ مُقَابِلَ مَفْرَدٍ إِلَّا أَنَّهُ يَنْطَبِقُ عَلَى عَدِيدِينَ .. مَفْرَدٌ شَائِعٌ فِي عَدِيدِ مَمْلُوكِينَ ، وَفِي عَدِيدِ مِنَ السَّادَةِ أَصْحَابِ الرِّزْقِ الْحَسَنِ ، ذَلِكَ لِيُعَمَّمَ ضَرْبُ الْمَثَلِ .

إِذَنْ : لَيْسَ فِي اخْتِلَافِ الضَّمِيرِ هُنَا مَا يَتَعَارَضُ وَبَلَاغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، بَلْ هِيَ دِقَّةٌ أَدَاءً ؛ لِأَنَّ الْمَتَكَلِّمَ هُوَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩) ﴾ [الحجرات]

بَعْضُهُمْ يَرَى فِي الْآيَةِ مَأْخُذًا ، حَيْثُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْمَثْنَى ، ثُمَّ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي (اقْتَتَلُوا) ، ثُمَّ تَعُودُ لِلْمَثْنَى فِي (بَيْنَهُمَا) .

نَقُولُ لَهُؤُلَاءِ : لَوْ تَدَبَّرْتُمُ الْمَعْنَى لَعَرَفْتُمْ أَنَّ مَا تَتَخَذُونَهُ مَأْخُذًا ،

وتعتبرونه اختلافاً في الأسلوب هو منتهى الدقة في التعبير القرآني ..
ذلك أن الحديث عن طائفتين : مُثْنَى .. نعم .. فلو تقاتلا ، هل
ستمسك كل طائفة سيفاً لتقاتل الأخرى ؟

لا .. بل سيمسك كُلُّ جندي منها سيفاً .. فالقتال هناك
بالمجموع .. مجموع كل طائفة لمجموع الطائفة الأخرى ، فناسب أن
يقول : اقتتلوا ؛ لأن القتال حركة ذاتية من كُلِّ فرد في الطائفتين .

فإذا ما جاء وقت الصُّلْح ، هل نصالح كل جندي من هذه على
كل جندي من هذه ؟ لا .. بل الصُّلْحُ شأنُ السادة والزعماء والقادة
لكل طائفة ، ففي الصُّلْحِ نعود للمثني ، حيث ينوب هؤلاء عن
طائفة ، وهؤلاء عن طائفة ، ويتم الصُّلْحُ بينهما .

إذن : اختلاف الضمير هنا آية من آيات الإعجاز البياني : لأن
المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٧٥) ﴾ [النحل]

كان الحق سبحانه يقول : الحمد لله أن وافقَ حُكْمكم ما أريد ،
فقد نطقتم أنتم وحكمتم .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [النحل]

قوله : أكثرهم لا يعلمون يدل على أن الأقلية تعلم ، وهذا
ما يُسمونه « صيانة الاحتمال » ؛ لأنه لما نزل القرآن الكريم كان
هناك جماعة من الكفار ومن أهل الكتاب يُفكرون في الإيمان واعتناق
هذا الدين ، فلو نفى القرآن العلم عن الجميع فسوف يُصدَم هؤلاء ،

وربما صرفهم عما يفكرون فيه من أمر الإيمان ، فالقرآن يصون
الاحتمال في أن أناساً منهم عندهم علم ، ويرغبون في الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ ^(١) لَا يَقْدِرُ
عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ ^(٢) عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ
لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

وهذا مثل آخر لرجلين أحدهما أبكم ، والآخر هو الذي لا يتكلم ..
ولا بد أن يسبق البكم صمٌّ : لأن الكلام وليد السمع ، فإذا أخذنا
طفلاً عربياً ورببناه في بيئة إنجليزية نجده يتكلم الإنجليزية ، والعكس
صحيح : ذلك لأن الكلام ليس جنساً أو دماً أو لحمًا ، بل هو وليد
البيئة ، وما تسمعه الأذن ينطق به اللسان .. فإذا لم يسمع شيئاً
فكيف يتكلم ؟

لذلك ، فربنا سبحانه تعالى يقول عن الكفار :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ (١٨)

[البقرة]

هذا الأبكم لا يقدر على شيء من العمل والنفع لك ، يقول تعالى :

- (١) البكم : أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر . وهو أخرس بين الفرس . [لسان
العرب - مادة : بكم] .
(٢) لكّل : العاجز الثقيل لا خير فيه . كقولك تعالى ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ .. ﴾ (٧٦) [النحل]
وهو عيه ثقل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ١٦٩/٢] .

﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ .. ﴾ (٧٦) [النحل]

أى : عالة على سيده ، لا ينفع حتى نفسه ، ومع ذلك قد يكون عنده حكمة يقضى بها شيئاً لسيده ، حتى هذه ليست عنده .

﴿ أَيْنَمَا يُوْجِهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ .. ﴾ (٧٦) [النحل]

إذن : لا خير فيه ، ولا منفعة البتة ، لا له ولا لغيره ، هذه صفات الرجل الاول .

فماذا عن مقابله ؟

﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ .. ﴾ (٧٦) [النحل]

وهذه أول صفات الرجل الآخر ، أنه يأمر بالعدل ، وصفة الامر بالعدل تقتضى أنه سمع منهاجاً ، ووعته أذنه ، وانطلق به لسانه أمراً بالعدل ، وهذه الصفة تقابل : الايكم الذى لا يقدر على شيء .

﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٧٦) [النحل]

أى : أنه يذهب إلى الهدف مباشرة ، ومن أقصر الطرق ، وهذه تقابل : أينما يوجهه لا يأت بخير .

والسؤال هنا أيضاً : هل يستويان ؟ والإجابة التى يقول بها العقل : لا .

وهذا مثل آخر للأصنام .. فهى لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تفصح ، وهى لا تقدر على شيء لا لها ولا لعابديها .. بل هى عالة عليهم ، فهم الذين يأتون بها من حجارة الجبال ، وينحتونها

وَيَنْصِبُونَهَا ، وَيُصْلِحُونَ كَسْرَهَا ، وَهَكَذَا هُمُ الَّذِينَ يَخْدُمُونَهَا
وَلَا يَنْتَقِعُونَ مِنْهَا بَشْيًءً .

فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تُسَوُّونَ بَيْنَ الرَّجُلِ الْأَوَّلِ وَالرَّجُلِ الْآخِرِ الَّذِي يَأْمُرُ
بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، فَكَيْفَ تُسَوُّونَ بَيْنَ إِلَهٍ لَهُ صِفَةُ
الْكَامَالِ الْمَاطِقِ ، وَأَصْنَامٍ لَا تَمْلِكُ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ

أَوْ نَقُولُ : إِنَّ هَذَا مِثْلٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ
فِي الْمِثْلِ السَّابِقِ قَالَ :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا .. ﴾ (٧٥)

[النحل]

وَفِي مَقَابِلِهِ قَالَ :

﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا .. ﴾ (٧٥)

[النحل]

وَلَمْ يَقُلْ عَبْدٌ أَوْ رَجُلٌ .

إِنَّمَا هُنَا قَالَ : ﴿ رَجُلَيْنِ .. ﴾ (٧٦)

[النحل]

فَيُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْهُ أَنَّهُ مِثْلٌ لِلرَّجُلِ الْكَافِرِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ الْإِبْكَمُ ،
وَالرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ .

وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَقُولُ :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ
إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٧٧)

أراد الحق سبحانه أن يُعلمنا أن العالم منه عالم الملك ، ومنه عالم الملكوت .. عالم الملك هو العالم المحسّس لنا ، وعالم الملكوت المخفى عنا فلا نراه .

ولذلك ، قربنا سبحانه وتعالى لما تكرم على سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قال :

﴿ وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٧٥)

[الأنعام]

إذن : الله تعالى في كونه ظاهر وغيب .. الظاهر له نواميس كونية يراها كل الناس ، وله أشياء غيبية لا يراها أحد ، ولا يطلع عليها .. حتى في ذاتك أنت أشياء غيب لا يعلمها أحد من الناس ، وكذلك عند الناس أشياء غيب لا تعرفها أنت .. وهذا الغيب تُسميه : غيب الإنسان .

إذن : فأنا غائب عنى أشياء ، وغيرى غائب عنه أشياء .. هذا الغيب الذى لا نعرفه يقدّه بعض الناس نقصاً فينا ، وهو فى الحقيقة نوع من الكمال فى النفس البشرية ؛ لأنك إن أردت أن تعلم غيب الناس فاسمح لهم أن يعلموا غيبك .

ولو خيّرت فى هذه القضية لاخترت أن يحتفظ كل منكم بقيته لا يطلع عليه أحد .. لا أعرف غيب الناس ، ولا يعرفون غيبى ؛ ولذلك يقولون : « المغطى طريح » .

فسرّ الغيب كمال فى الكون ؛ لأنه يُربى ويثرى الفائدة فيه .. كيف ؟

هَبْ أنك تعرف رجلاً مستقيماً كثير الحسنة ، ثم اطلعت على

سيئة واحدة عنده كانت مستورة ، فسوف ترى هذه السيئة كفيلة بأن تُزهدك في كل حسناته وتُكرهك فيه ، وتدعوك إلى النفرة منه ، فلا تستفيد منه بشيء ، في حين لو سترت عنك هذه السيئة لاستطعت الانتفاع بحسناته .. وهكذا يُنمى الغيبُ الفائدة في الكون .

وفي بعض الآثار الواردة يقول الحق سبحانه :

« يَا بَنَ آدَمَ سَتَرْتُ عَنْكَ وَسَتَرْتُ مِنْكَ ، فَإِنْ شِئْتَ فَضَحْنَا لَكَ وَفَضَحْنَاكَ ، وَإِنْ شِئْتَ أَسْبَلْنَا عَلَيْكَ سَبِيلَ السُّتْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(١)

فاجعل نفسك الآن المخاطب بهذا الحديث ، فماذا تختار ؟

أعتقد أن الجميع سيختار السُّتْرَ .. فما دُمْتَ تحب السُّتْرَ وتكره أن يُطلعَ الناس على غيبك فلايك أن تتناول لتعرف غيب الآخرين .

والغيب : هو ما غاب عن المدركات المحسنة من السمع والبصر والشَّمَّ والدُّوق ، وما غاب عن العقول من الإدراكات المعنوية .

وهناك غيب وضع الله في كونه مقدمات تُوصِّلُ إليه وأسباباً لثلاً يكون غيباً .. كالكهرباء والجاذبية وغيرها .. كانت غيباً قبل أن تُكتشف .. وهكذا كل الاكتشافات والأسرار التي يكشفها لنا العلم ، كانت غيباً عنا في وقت ، ثم صارت مُشاهدة في وقت آخر .

ذلك ، لأن الحق سبحانه لا ينثر لنا كُلَّ أسرار كونه مرة واحدة ، بل يُنْزِلُه بِقَدْرِ ويكشفه لنا بحساب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ (٢٦) ﴾

[الحجر]

(١) لم أقف على هذا الاثر رغم طول البحث ، ولكن قد أخرج الحكيم الترمذي عن الحسن مرسلًا والعقيلي عنه عن أنس . قال الله تعالى : أنا أكرم وأعظم عفواً من أن أستر على عبد مسلم في الدنيا ثم أفضحه إذ سترته . ولا أزال أشفق لعبدى ما استغفرنى ، وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤/٤٠٥) وضعفه .

فالذي كان غَيْبًا في الماضي أصبح ظاهرًا مُشَاهِدًا اليوم : لان الله سبحانه كشف لنا اسبابه فتوصلنا اليه .. فهذا غَيْب جعل الله له مُقَدِّمات يصل اليها مَنْ يبحث في الكون ، فإذا ما أذن الله به ، وحين وقت ميلاده وَفَّقَ الله أحد الباحثين إلى اكتشافه ، إما عن طريق البحث ، أو حتى الخطأ في المحاولة ، أو عن طريق المصادفة .

ولذلك إذا بحثت في كُلِّ المخترعات والمكتشفات لوجدتَ ٩٠٪ منها جاءت مصادفة ، لم يكونوا بصدد البحث عنها أو التوصل إليها ، وهذا ما نسميه « غيب الأكوان » .

ومثال هذا الغيب : إذا كلفتَ ولدك بحل تمرين هندسي .. ومعنى حلّ التمرين أن يصل الولدُ إلى نقطة تريد أنت أن يصلَ إليها .. ماذا يفعل الولد ؟ يأخذ ما تعطيه من مُعْطَيَات ، ثم يستخدم ما لديه من نظريات ، وما يملكه من ذكاء ويستخرج منها المطلوب .

فالولد هنا لم يأتِ بجديد ، بل استخدم المعطيات ، وهكذا الأشياء الموجودة في الكون هي المعطيات مَنْ بحثَ فيها توصلَ إلى غيبيّات الكون وأسراره .

وهذا النوع من الغيب يقول عنه الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾

[البقرة]

فإذا أذن الله لهم تكشفت لهم الأسرار : إما بالبحث ، وإما بالخطأ ، أو حتى بالمصادفة .. فطالما حان وقت ميلاد هذا الغيب واكتشافه : فإن صادف بحثاً من البشر التقيا ، وإلا أظهره الله لنا دون بحث ودون سعى منا .

وهناك نوع آخر من الغيب ، وهو الغيب المطلق ، وهو غيب عن كل البشر استأثر الله به ، وليس له مُقدمات وأسباب تُوصل إليه ، كما في النوع الأول .. هذا الغيب ، قال تعالى في شأنه :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ۖ (٢٧)﴾ [الجن]

فإذا ما أعلمنا الرسول غيباً من الغيبيات فلا نقول : إنه يعلم الغيب .. لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب .. إذن : هذا غيب لا يدركه أحد بذاته أبداً .

ومن هذا الغيب المطلق غيب استأثر الله به ، ولا يُطلع عليه أحدٌ حتى الرسل .. ولما سئل الرسول ﷺ عن الساعة ، قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »^(١) .

وفي الإسراء والمعراج يحدثنا ﷺ أن الله قد أعطاه ثلاثة أوعية : وعاء أمره بتبليغه وهو وعاء الرسالة ، وعاء خيريه فيه فلا يعطيه إلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) . وكذا مسلم في صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو في هيئة رجل يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

لأهل الاستعداد السلوكي الذين يتقبلون أسرار الله ولا تنكرها عقولهم ، ووعاء منعه فهو خصوصية لرسول الله ﷺ .

ولذلك يقول راوى الحديث : إن رسول الله ﷺ أعطاني وعاءين ، أما أحدهما فقد بثثته أي رويته وقلته للناس ، وأما الآخر فلو بثت به لقطع خلقومي هذا ، فهذا من الأسرار التي يختار الرسول ﷺ لها مَنْ يحفظها .

قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٧)﴾ [النحل]

هذا يُسمونه أسلوب قَصْر بتقديم الجار والمجرور ، أي قصر غيب السموات والأرض عليه سبحانه ، فلو قلنا مثلاً : غيب السموات والأرض لله ، فيحتمل أن يقول قائل : ولغير الله ، أما :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٧)﴾ [النحل]

أي : له وحده لا شريك له .

ومعنى السموات والأرض ، أي : وما بينهما وما وراءهما ، ولكن المشهور من مخلوقات الله : السماء ، والأرض .

ثم يقول تعالى :

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ .. (٧٧)﴾ [النحل]

جاءت الآية بهذا الغيب الوحيد : لأنه الغيب الذي استأثر الله به ..

ولا يُجَلِّيهَا لوقتِهَا إلا هو .. فناسب الحديث عن الغيب أن يأتى بهذا الغيب المطلق الذى لا يعلمه إلا الله .

وما هو لَمَحَ البصر ؟

عندنا أفعال متعددة تدلُّ كُلُّهَا على الرؤية العامة ، وإن كان لكل منها معنى خاصٌ بها نقول : رأى ونظر ورَمَقَ ولحظ ولمع .. فرأى مثلاً أى بَجُمِعَ عينه ، ورَمَقَ بأعلى ، ولحظَ بجانب ، فكلُّها مرتبطة بحركة الحدقة ، هذه الحركة ما نسميه باللمع .

إذن : لمح البصر هو تحركُ حدقة العين إلى ناحية الشيء المرئى .. فإن أردتَ أن ترى ما فوقك تحركتُ الحدقة إلى أعلى ، وإن أردتَ أن ترى ما هو أسفل تحركتُ الحدقة إلى أسفل وهكذا .

هذه الحركة هى لَمَحَ البصر ، انتقال الحدقة من وضع إلى وضع .

إذن : شَبَّهَ الحق تبارك وتعالى أمر الساعة عنده سبحانه بلمح البصر ، ولكن اللمح حدث ، والأحداث تحتاج إلى أزمان ، وقد تطول الأزمان فى ذاتها ولكنها تقصر عند الرائى .

وقد قرَّبَ إلينا العلم الحديث هذه القضية بما توصل إليه من إعادة المشاهد المصورة على البطيء ليعطيك فرصة متابعتها بدقة ، فنراهم مثلاً يُعيدون لك مشهداً كروياً لترى كل تفاصيله ، فتجد المشهد الذى مرَّ كلمح البصر يُعرِّض أمامك بطيئاً فى زمن أطول ،

فى حين أن الزمن فى السرعة يتجمع تجمعا لا تدركه أنت بأى معيار ، لا بالدقيقة ولا بالثانية .

إذن . فهى جزئيات حركة فى جزئيات زمان ، فلمح البصر الذى هو تحرك حذقة العين تحتاج لوقت ولزمن متداخل ، وليس هكذا أمر الساعة ، بل هذا أقرب ما يعرفه الإنسان ، وأقرب تشبيه لفهم أمر الساعة بالنسبة له سبحانه .

إذا قيل لك : ما أمر فلان ؟ وما شأنه ؟ . تأخذ فى سرد الأحداث .. حدث كيت وكيت .. فإذا قلنا : ما أمر الساعة ؟ ما شأنها ساعة تقوم ، حيث يموت الأحياء أولاً ، ثم يحيا الجميع من لذن آدم عليه السلام ثم حشر وحساب وثواب وعقاب .

أحداث كثيرة وعظيمة لخلق متعددين من الإنس والجن .. يحدث هذا كله كلمح البصر بالنسبة لنا ، ولكن إياك أن تتصور أن هذا يحتاج إلى وقت بالنسبة لله سبحانه .

فالأشياء بالنسبة له سبحانه لا تعالج ، وإنما هى كُنْ فيكون ، حتى كُنْ مكوّنة من حرفين : الكاف لفظ وله زمن ، والنون لفظ وله زمن ، إنما أمر الساعة أقرب من الكاف والنون ، ولكن ليس هناك أقل من هذا فى فهمنا .

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن أهل القبور ، قال :

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٤٦) [النازعات]

فى حين أننا نرى أنهم غابوا كثيراً فى قبورهم .. إذن : كيف يُقاسُ الزمن ؟ .. يُقاس بتتابعك للأحداث ، فحينما لا يوجد حَدْث لا يوجد زمن .. وهذا ما نراه فى حال النائم الذى لا يستطيع تحديد الزمن الذى نامه إلا على غالب ما يكون فى البشر .

ولذلك ، فى قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاث مائة عام وتسعة أعوام قالوا :

﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..﴾ (١١٣) [المؤمنون]

فهذا هو الغالب فى عُرْف الناس : ذلك لأنهم استيقظوا فلم يجدوا شيئاً حولهم يدل على زمن طويل .. الحال كما هو لم يتغير فيهم شيء .. فلو استيقظوا فوجدوا أنفسهم شيوخاً بعد أن كانوا فتية لَعلموا بمرور الزمن .. إذن : الزمن بالنسبة لعدم الحدث زمن مكفى .

أو نقول : إن أمر الساعة فى أن الحق سبحانه يجعلها جامعة للناس إلا كلمح البصر ، فكل ما يحدث فيها لا تقيسه بزمن ، لأن الذى يُقاسُ بالزمن إنما هى الأحداث الناشئة من فاعل له قدرة وقوة تتوزع على الزمن .

فلو أردتَ نقلَ هذا الشيء من هنا إلى هنا فسوف يحتاج منك وقتاً ومجهوداً ، أما لو كلفتَ طفلاً بنقل هذا الشيء فسوف يأخذ وقتاً أكثر ويحتاج مجهوداً أكثر .. إذن : فالزمن يتناسب مع قدرة الفاعل تناسباً عكسياً .

ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدث الناس بالإسراء والمعراج^(١) قالوا : أتدعى أنك أتيتها في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً .. هذا لأن انتقالهم يحتاج لعلاج ومزاولة ، تأخذ وقتاً يتناسب وقدراتهم في الانتقال بالإبل من مكة إلى بيت المقدس .. ومحمد ﷺ لم يقل : أسريتُ ، بل قال : أسرى بي ، الذي أسرى به هو الله سبحانه ، فالزمن يُقاس بالنسبة للحق سبحانه وتعالى .

وكذلك إذا قيسَ زمنَ أمر الساعة بالنسبة لقدرته سبحانه فإنه يكون كلمح البصر ، أو هو أقرب من ذلك .. إنما هو تشبيه لنُقُرب لکم الفهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٧٧) [النحل]

أي : يكون أمر الساعة كذلك ؛ لأن الله قادر على كل شيء ، وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات ، فقدرة الله هي القدرة العليا التي لا تحتاج لزمن لفعل الأحداث .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) حديث الإسراء أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٢) كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك . وقد أخرج البيهقي في « دلائل النبوة » (٢/٢٦٢) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إنني أسرى بي الليلة » قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فمن بين مصفق وواحد واضع يده على رأسه مستعجب للكذب . زعم . قال : وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ الحديث بطوله .

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

(مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) المراد الارحام ؛ لأنها في البطون ،
والمظروف في مظروف يعتبر مظروفاً ، كما لو قلت : في جيبى كذا
من النقود أو في حافظتى كذا من النقود .. العبارتان معناهما واحد .
وامهاتكم : جمع أم ، والقياس يقتضى أن نقول في جمع أم :
أمات ولكنه قال :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ (٧٨) [النحل]

بزيادة الهاء .

وساعة يكون الجنين فى بطن أمه تكون حياته حياة تبعية ، فكل
أجهزته تابعة لأمه .. فإذا شاء الله أن يولد جعل له حياة ذاتية
مستقلة .. وعند الولادة نرى أطباء التوليد يقولون : الجنين فى
الوضع الطبيعى أو فى غير الوضع الطبيعى .. فما معنى الوضع
الطبيعى للجنين عند الولادة ؟

الوضع الطبيعى أن يكون رأس الجنين عند الولادة إلى أسفل ، هذا
هو الوضع الطبيعى ؛ لأن الحق سبحانه أراد أن يُخرجه خلقاً آخر :

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ..﴾ (١٤) [المؤمنون]

كانه كان خلقاً لكنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خلقاً آخر مُستقلاً
بذاته .. فتكون الرأس إلى أسفل ، وهى أول ما ينزل من المولود ،
وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس .

ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالتنفس تكون له ذاتية ، فإذا ما تعسّر خروج باقى جسمه فتكون له فرصة التنفس ، وهذا من لُطْف الله سبحانه ؛ لأن الجنين فى هذه الحالة لا يَخْتَنق أثناء معالجة باقى جسمه .

أما إذا حدث العكس فكان الرأس إلى أعلى ، ونزل الجنين بقدميه ، فبمجرد نزول الرُجُلَيْن ينفصل عن أمه ، ويحتاج إلى حياة ذاتية ويحتاج إلى تنفس ، فإذا ما تعسّرت الولادة حدث اختناق ، ربما يؤدى إلى موت الجنين .

العلم أَخْذُ قُضِيَّةٍ من قضايا الكون مجزوم بها وعليها دليل ؛ وقوله تعالى :

﴿ لَا تَعْلَمُونَ ^(١) شَيْئًا .. (٧٨) ﴾

[النحل]

ذلك لأن وسائل العلم والإدراك لم تعمل بَعْدَ ، فإذا أراد الله له أَنْ يعلم يخلق له وسائل العلم ، وهى الحواس الخمس : السمع والبصر والشم واللمس والتذوّق ، هذه هى الحواس الظاهرة التى بها يكتسب الإنسان العلوم والمعارف ، وبها يُدْرِك ما حوله .

وإنْ كان العلم الحديث قد أظهر لنا بعض الحواس الأخرى ، ففى علم وظائف الأعضاء يقولون : إنك إذا حملتَ قطعتين من الحديد مثلاً فبأى حاسة تُعَيَّرُ بينهما من حيث الثقل ؟

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٨٧٧/٥) : « فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق فى أصلاب آبائكم .

الثانى : لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء .

الثالث : لا تعلمون شيئاً من منافعكم .

هذه لا تُعرف باللمس أو السمع أو البصر أو الذوق أو الشم ..
إذن : هناك حاسة جديدة تُميّز الثقل هي حاسة العضل .

وكذلك تُوجد حاسة البين ، التي تتمكن بها من معرفة سُمك
القماش مثلاً وأنت في محل الأقمشة ، حيث تفرك القماش بين
أصابعك ، وتستطيع أن تُميّز بين الرقيق والسّميك .

فالطفل المولود إذن لا يعلم شيئاً ، فهذا أمر طبيعي لأن وسائل
العلم والإدراك لديه لم تُؤدّ مهمتها بعد .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ ۖ (٧٨) ﴾ [النحل]

وقد بين لنا علماء وظائف الأعضاء أن هذا الترتيب القرآني
للأعضاء هو الترتيب الطبيعي ، فالطفل بعد الولادة يسمع أولاً ، ثم
بعد حوالي عشرة أيام يُبصر .. وتستطيع تجربة ذلك ، فتري الطفل
يفزع من الصوت العالي بعد أيام من ولادته ، ولكن إذا وضعت
أصبعك أمام عينيه لا يطرف ؛ لأنه لم يَر بعد .

ومن السمع والبصر - وهما السادة على جميع الحواس - تتكون
المعلومات التي في الأفئدة ، هذا الترتيب القرآني الوجودي ، وهو
الترتيب الطبيعي الذي وافق العلم الحديث .

ونلاحظ في الآية أفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة :

﴿ وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ ۖ (٧٨) ﴾ [النحل]

(١) أي : وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي . والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه .
والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته . [قاله القرطبي في تفسيره (٢/٢٨٧٧)] .

فلماذا لم يأتِ السمع جَمْعاً ؟

المتحدث هنا هو الحق سبحانه ؛ لذلك تاتي الالفاظ دقيقة معجزة .. ولننظر لماذا السمع هنا مفرد ؟

فَرَّقَ بين السمع وغيره من الحواس ، فحين يوجد صوت في هذا المكان يسمعه الجميع ، فليس في الاذن ما يمنع السمع ، وليس عليها قُفْلٌ نَقْلُهُ إذا اردنا ألا نسمع ، فكان السمع واحد عند الجميع ، اما المرئى فمختلف ؛ لاننا لا ننظر جميعاً إلى شيء واحد .. بل المرأى عندنا مختلفة فهذا ينظر للسقف ، وهذا ينظر للأعمدة .. إلى آخره .

إذن : المرأى لدينا مختلفة .. كما أن للعين قُفْلًا طبيعياً يمكن إسداله على العين فلا ترى ، فكان الأبصار لدينا مختلفة متعددة .

وكذلك الحال في الأفئدة ، جاءت جَمْعاً ؛ لأنها متعددة مختلفة ، فواحد يَعِي وَيُدْرِك ، وآخر لا يعي ولا يدرك ، وقد يعي واحد أكثر من الآخر .

إذن : إفراد السمع هنا آيةٌ من آيات الدقة في التعبير القرآنى المعجز ؛ لأن المتكلم هو ربّ العزة سبحانه .

ونلاحظ أيضاً تقديم السمع على باقي الحواس ؛ لأنه أول الإدراكات ويصاحب الإنسان منذ أن يُولَدَ إلى أن يفارق الحياة ، ولا يغيب عنه حتى لو كان نائماً ؛ لأن بالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد قلنا في قصة أهل الكهف أنهم ما كان لهم أن يناموا في سُبَاتٍ^(١) عميق ثلاثمائة وتسع سنين إلا إذا حجب الله عنهم هذه

(١) السبات النوم ، قال الزجاج : هو أن ينقطع عن الحركة ، والروح في بدنه ، والسبت

القطع ، فكانه إذا نام فقد انقطع عن الناس . [لسان العرب - مادة : سبت] .

الحاسة ، فلا تزعجهم الأصوات . فقال تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (١١)

[الكهف]

أى : قُلْنَا لِلْأَذْنِ تَعْطَلِ هَذِهِ الْمُدَّةَ حَتَّى لَا تَزْعَجَهُمْ أَصْوَاتُ الصَّحَرَاءِ ، وَتَتَلَقَّ مَضَاجِعَهُمْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَرِيدُ لَهُمُ السُّبُوتَ وَالنَّوْمَ الْعَمِيقَ .

وفى قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ .. ﴾ (٧٨)

[النحل]

هل توجد هذه الإدراكات بعد الإخراج (الميلاد) أم هى موجودة قبله ؟.. يجب أن نُفَرِّقَ بَيْنَ السَّمْعِ وَآلَتِهِ ، فَقبل الإخراج تتكون للجنين آلات البصر والسمع والتذوق وغيرها .. لكنها آلات لا تعمل ، فالجنين فى بطن أمه تابع لها ، وليست له حياة ذاتية ، فإذا ما نزل إلى الدنيا واستقلَّ بحياته يجعل الله له هذه الآلات تعمل عملها .

إذن : فمعنى :

﴿ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ .. ﴾ (٧٨)

[النحل]

أى : جعل لكم الاستماع ، لا آلة السمع .

وقوله :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨)

[النحل]

تُوحى الآيَةُ بِأَنَّ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ سَتَعْطَلِ لَنَا كَثِيرًا مِنْ الْمَعْلُومَاتِ الْجَدِيدَةِ وَالْإِدْرَاكَاتِ الَّتِي تَنْفَعُنَا فِي حَيَاتِنَا وَفِي مَقُومَاتِ وَجُودِنَا ، وَنَنْفَعُ بِهَا غَيْرَنَا ، وَهَذِهِ النِّعَمُ تَسْتَحِقُّ مِنَّا الشُّكْرَ .

سورة النحل

فكلما سمعتَ صَوْتًا أو حكمةَ محمد الله أن جعل لك أذنًا تسمع ،
وكلما أبصرتَ منظرًا بديعًا محمد الله أن جعلَ لك عينًا ترى ، وكلما
شممتَ رائحةَ زكية محمد الله أن جعل لك أنفًا تشمُّ .. وهكذا تستوجب
النعم شُكْرَ المنعم سبحانه .

ثم ينقلنا الحق سبحانه نقلة أخرى في قوله تعالى :

فالحق سبحانه ينقلنا هنا إلى صورة أخرى من صور الكون ..
بعد أن حدثنا عن الإنسان وما حوله .. فالإنسان قبل أن يخلقه الله
في هذا الوجود أعد له مقومات حياته ، فالشمس والقمر والنجوم
والأرض والسماء والمياه والهواء ، كل هذه أشياء وُجدت قبل
الإنسان ، لتُهيء له الوجود في هذا الكون .

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾
[يس]

فالنظر إلى كَوْنِ الله الفسيح ، كم فيه من كواكب ونجوم وأجرام .
كم هو مكيء بالحركة والسكون والاستدارة . ومع ذلك لم يحدث فيه
تصادم ، ولم تحدث منه مضرة أبداً في يوم من الأيام .. الكون كله
يسير بنظام دقيق وتناسق عجيب ! ولكي تتجلى لك هذه الحقيقة انظر
إلى صنعة الإنسان ، كم فيها من تصادمات وحوادث يروح ضحيتها
الآلاف .

هذا مثلٌ مُشَاهِدٌ للجميع ، الطير في السماء .. ما الذي يُمسكها أَنْ
تقعَ على الأرض ؟ وكان الحق سبحانه يجب أَنْ يُلْقِنَا إِلَى قَضِيَّةِ
أكبر :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسِكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١)﴾
[فاطر]

فعلينا أَنْ نُصَدِّقَ هذه القضية .. فنحن لا ندرك بأعيننا جرم
الأرض ، ولا جرم الشمس والنجوم والكواكب .. نحن لا نقدر على
معرفة كل ما في الكون .. إذن : يجب علينا أَنْ نُصَدِّقَ قَوْلَ رَبِّنَا ،
ولا نجادل فيه .

واليكم هذا المثل الذي تشاهدونه كل يوم :

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ .. (٧٩)﴾
[النحل]

إياك أن تقول إنها رفرفة الأجنحة ، فنحن نرى الطائر يُثَبَّت
أجنحته في الهواء ، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض ، فهناك إذن
ما يمسكه من الوقوع ؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ^(١) وَيَقْبِضْنَ .. (١٩) ﴾ [المك]

أى : أنها فى حالة بَسْط الأجنحة ، وفى حالة قَبْضِهَا تظل مُعلَّقة
لا تسقط .

وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة ، لكنه لا يطير مثل
الأوز وغيره من الطيور .

إذن : ليست المسألة مسألة أجنحة ، بل هى آية من آيات الله
تمسك هذا الطير فى جَوِّ السماء .. فتراه حُرّاً طليقاً لا يجذبه شىء
إلى الأرض ، ولا يجذبه شىء إلى السماء ، بل هو حُرٌّ يرتفع إن أراد
الارتفاع ، وينزل إن أراد النزول .

فهذه آية مُحَسَّنة لنستدل بها على قدرة الله غير المحسنة إلا بإخبار
الله عنها ، فإذا ما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا
مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١) ﴾ [فاطر]

أما وصدقنا .

(١) أى : باسقاط أجنحتها . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٩٨/٤) . . أى : تارة يصطفن
أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنتشر جناحاً . .

وقوله تعالى :

﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ .. (٧٩) ﴾

[النحل]

أى : فى الهواء المحيط بالأرض ، والمتأمل فى الكون يجد أن الهواء هو العامل الأساسى فى ثبات الأشياء فى الكون ، فالجبال والعمارات وغيرها .. ما الذى يمسكها أن تقع ؟

إياك أن تظن أنه الأسمنت والحديد ومهندسة البناء .. لا .. بل يمسكها الهواء الذى يحيط بها من كل جانب ، بدليل أنك لو فرغت جانباً منها من الهواء لانهارت فوراً نحو هذا الجانب ؛ لأن للهواء ضغطاً ، فإذا ما فرغت جانباً منها قلّ فيه الضغط فانهارت .

فالهواء - إذن - هو الضابط لهذه المسألة ، وبالهواء يتوازن الطير فى السماء ، ويسير كما يهوى ، ويتحرك كما يحب .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾

[النحل]

أى : أن الطير الذى يطير فى السماء فيه آيات أى عجائب ، عجائب صنعة وعجائب خلق ، يجب أن تتفكروا فيها وتعتبروا بها .

ولكى نقف على هذه الآية فى الطير نرى ما حدث لأول إنسان حاول الطيران .. إنه العربى عباس بن فرناس^(١) ، أول من حاول

(١) مخترع أندلسى . من أهل قرطبة . كان فى عصر الخليفة عبد الرحمن الثانى فى القرن التاسع للميلاد . كان فيلسوفاً شاعراً . له علم بالفلك . وهو أول من صنع الميقاتة لمعرفة الأوقات . مكّن فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورجعها توفى عام ٢٧٤ هـ . [الاعلام للزركلى ٢/ ٢٦٤] .

الطيران فى الاندلس ، فعمل لنفسه جناحين ، وألقى بنفسه من مكان مرتفع .. فماذا حدث لأول طائر بشرى ؟

طار مسافة قصيرة ، ثم هبط على مؤخرته فكُسرت ؛ لأنه نسى أن المسافة ليست مجرد الطيران ، فهناك الهبوط الذى نسى الاستعداد له ، وفاته أن يعمل له (زَمْكَى)^(١) ، وهو الذيل الذى يحفظ التوازن عند الهبوط .

وكذلك الذين يصنعون الطائرات كم تتكلف ؟ وكم فيها من أجهزة ومعدات قياس وانضباط ؟ وبعد ذلك تحتاج لقائد يقودها أو موجه يوجهها ، وحينما أرادوا صناعة الطائرة جعلوها على شكل الطير فى السماء له جناحان ومقدمة وذيل ، ومع ذلك ماذا يحدث لو تعطل محركها .. أو اختل توازنها ؟!

إذن : الطير فى السماء آية تستحق النظر والتدبر ؛ لنعلم منها قدرة الخالق سبحانه .

ويقول تعالى :

﴿ لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧٩)

[النحل]

يؤمنون بوجود واجب الوجود ، يؤمنون بحكمته ودقة صنّعه ، وأنها لا مثيل لها من صنعة البشر مهما بلغت من الدقة والإحكام .

(١) الزَمْكَ : إدخال الشيء بعضه فى بعض . والزَمْكَى : أصل ذئب الطائر ، وقيل هو منبته .

وقيل : هو ذئبه كله ، [لسان العرب - مادة : زَمْكَ]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ
مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ
إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا
أَتَّاءِمْتُمْ لَهَا وَنَحَّاتُمْ لَهَا وَإِنْ رَجَعْتُمْ فِيهَا
فَتَجِدُنَهَا فِي لَدَنِهَا ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨٠﴾

قوله :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ۝٨٠﴾

[النحل]

كلمة سكن مأخوذة من السكون ، والسكون ضد الحركة ، فالبيت
تُسَمَّى سَكَنًا ؛ لأن الإنسان يلجأ إليه ليرتاح فيه من حركة الحياة
خارج البيت ، إذن : فى الخارج حركة ، وفى البيت سكن .

والسكن قد يكون مادياً كالبيت وهو سكن القالب ، وقد يكون
معنوياً ، كما قال تعالى فى حق الأزواج :

﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ۝٧١﴾

[الروم]

فالزوجة سَكَنٌ معنوى لزوجها ، وهذا يُسمونه سكن القلب .

فإن قال قائل :

﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ۝٨٠﴾

[النحل]

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان . أى السفر . [القاموس القويم ١/ ٤١٥] .

(٢) الأثاث : المال كله والمتاع . ما كان من لباس أو حشو لفراش أو دثار . [لسان العرب -

مادة : اثث] .

يعنى : نحن الذين صنعناها وأقمناها . فكيف جعلها الله لنا ؟ .

نقول : وأنت كيف صنعتها ؟ ومِمَّ بنيتها ؟ صنعتها من غابٍ أو خشب ، أو بنيتها من طين أو طوب .. كل هذه المواد من مادة الارض من عطاء الله لك ، وكذلك العقل الذى يُفَكِّر ويرسم ، والقوة التى تُبنى وتُشيد كلها من الله .

إذن : ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴾ إما أن يكون جعلاً مباشراً ، وإما أن يكون غير مباشر .. فالله سبحانه جعل لنا هذه المواد .. هذا جعل مباشر ، وأعاننا وقوانا على البناء .. هذا جعل غير مباشر .

لكن فى أى الأماكن تُبنى البيوت ؟

البيوت لا تُبنى إلا فى أماكن الاستقرار . التى تتوفر لها مقومات الحياة .. فقبل أن تُنظَّم مدينة سكنية نبحث أولاً عن مقومات الاستقرار فيها من مأكَل ومشرب ومرافق وخدمات ومياه وصرف .. إلى آخره .

فإن وجدت هذه المقومات فلا مانع من البناء هنا .. فإذا لم توجد المرافق فى الصحراء ومناطق البدو ، هنا لا يناسبها البيوت والبناء الدائم ، بل يناسبها :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .. ﴾ (٨٠)

[النحل]

فترى أهل البدو يتخذون من الجلود بُيُوتاً مثل الخيمة والفسطاط .. حيث نراهم كثيرى التنقل يبتغون مواطن الكلا والعشب ، ويرحلون طلباً للمرعى والماء ، وهكذا حياتهم دائمة التنقل من مكان

لآخر .. فيناسبهم بيت من جلد أو من صوف أو من وبر خفيف
الحمل ، يضعونه أينما حطوا رحالهم ، ويرفعونه أينما ساروا ..
والظعن هو التنقل من مكان لآخر .

إذن : كلمة (سكن) تفيد الاستقرار ، وتوفر كل مقومات
الحياة ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لأدم :

﴿ اَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. ﴾ (٣٥)

[البقرة]

أى : المكان الذى فيه راحتكم ، وفيه نعيمكم ، فحدد له مكان
إقامة وسكن ..

ومكان الإقامة هذا قد يكون عاماً ، وقد يكون خاصاً ، مثل لو
قلّت : أسكن الاسكندرية .. هذا سكن عام ، فلو أردت السكن الحقيقى
الخاص بك لقلّت : أسكن فى شارع كذا ، وفى عمارة رقم كذا ، وفى
شقة رقم كذا ، وربما كان لك حجرة خاصة من الشقة هذه .

إذن : هذا سكن خاص بك .. سكنك الحقيقى الذى تشعر فيه
بالهدوء والراحة والخصوصية ، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتى
لا يشاركك فيه أحد ؛ ولذلك نرى بعض سكان العمارات يشكون من
الإزعاج والضوضاء ، ويتمنون أن يعيشوا فى بيوت مستقلة تحقق
لهم الراحة الكافية التى لا يضايقهم فيها أحد .

إذن : حينما ننظر إلى السكون .. إلى السكن ، نحتاج المكان
الضيق الذى يحقق لنا الخصوصية التامة التى تصل إلى حجرة ،
مجرد حجرة ، ولكنها تعنى السكن الحقيقى الخاص بى ، وقد تصل

الخصوصية أن نجعل لكل ولد من الاولاد سريراً خاصاً به في نفس الحجرة .

فإذا ما نظرنا إلى الحركة في الحياة وجدنا الإنسان على العكس يطلب السعة ؛ لأن الحركة تقتضى السعة في المكان ، فمن كان عنده مزرعة يطلب عزبة ، ومن كان عنده عزبة يتمنى ثانية وثالثة وهكذا ؛ لأن حركة الحياة تحتاج مجالاً واسعاً فسيحاً .

هذا عن النوع الأول ، وهو السكن المادى سكن القلب ، وهو من أعظم نعم الله على عباده .. أن يكون لهم سكن يأوون إليه ، ويرتاحون فيه من عناء وحركة الحياة .

ولذلك حينما أراد الحق سبحانه أن يُعَذِّبَ بنى إسرائيل ، أشاع سكنهم في الأرض كلها ، وحرّمهم من نعمة السكن الحقيقى الخاص ، فقال تعالى :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ .. ﴾ (١٠٤) [الإسراء]

فالأرض هي المكان العام الذى يسكن فيه كل الناس .. فليس لهم بلد تجمعهم ، بل يبددهم الله في الأرض ولم يجعل لهم وطناً ، كما قال في آية أخرى :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا .. ﴾ (١٦٨) [الأعراف]

حتى في البلاد التى يعيشون فيها تراهم معزولين عن الناس في أماكن خاصة بهم لا يذوبون في غيرهم ، وهكذا سكنوا الأرض ، ولم تحدد لهم بلد .

أما النوع الثاني من السكن ، وهو السكن المعنوى أو سكن القلب ، فهو سكن الزوج إلى زوجته الصالحة التى تُخَفِّف عنه عناء الحياة وهمومها ، تبتسم فى وجهه إن كان مسروراً وتُهدئ من غضبه إن كان مُغضباً ، تحتويه بما لديها من حُب وحنان وإخلاص .. هذا هو السكن المعنوى ، سكن القلب .

وقوله :

﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (النحل)

الأصواف للغنم ، والأوبار للإبل ، والشعر للماعز .. فما الفرق بين هذه الثلاث فى الاستعمال ؟

يستعمل الناس كلاً من الصوف والوبر : لأن الشعيرات فيها دقيقة جداً يمكن نُدْفها وِغَزْلها والانتفاع بها فى الفُرش والأبسطة والألحفة والملابس وغيرها مما يحتاجه الناس .

أما شعر الماعز فالشعيرات فيه ثخينة لا يمكن نُدْفها أو غَزْلها ، فلا يمكن الانتفاع به فى هذه المنسوجات ، وقوله تعالى :

﴿أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (النحل)

الأثاث : هو ما يوجد فى البيت مما تتطلبه حركة الحياة كالأبسطة والمفارش والملابس والستائر .

والمَتَاع : هو ما يُسْتَمْتَع وَيُنْتَفَع به .. والفرق بينهما أن الأثاث قد يكون ثابتاً لا يتغير كثيراً ، أما المتاع فقد يتغير حسب الحاجة .

فأنت مثلاً قد تحتاج إلى تغيير التلفاز القديم لتأتى بآخر حديث ، ملوّن مثلاً ، لكن قلماً تُغَيِّر الثلاجة أو الغسالة مثلاً .

[النحل]

وقوله : ﴿إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾

لأن الإنسان قد يغتر حين يستوفى متطلبات حياته ، وقد تلهيه هذه النعم عن مطلوب المنعم سبحانه ، فينشغل بالنعمة التي هو فيها عن المنعم الذي أنعم عليه بها .. فتأتى هذه الآية مُحذِرة .

إياك أن تغتر بالمتاع والاثاث ؛ لأنها متاع إلى حين .. متاعٌ موقوت لا يدوم ، ومهما استوفيت حظك منها فى الدنيا فإنها صائرة إلى أمرين :

إما أن تفوتها بالموت ، وإما أن تفوتك بالفقر والحاجة .. إذن : هى زاهية زاهية .. فتذكروا دائماً قوله تعالى :

[النحل]

﴿إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾

فمتاع النعمة موقوت ، لكن متاع المنعم سبحانه خالد ..
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرِيرًا يُقِيصُكُمْ^(١) إِلَىٰ الْحَرِّ وَسُرِيرًا يُقِيصُكُمْ بِأَسْكُمْ^(٢) كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝٨١﴾

(١) الكُنْ ما يُصَان أو يستتر فيه الشيء . والبيوت أكنان لأصحابها . [القاموس القويم ١٧٥/٢] .

(٢) السُرِيرال القميص يقي الحر والبرد أما قوله تعالى : ﴿وَسُرِيرًا يُقِيصُكُمْ بِأَسْكُمْ .. ۝٨١﴾ [النحل] فهو الدروع . [لسان العرب - مادة : سربل] .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن أصحاب البيوت الذين يناسبهم الاستقرار ، ويجدون مَقُومَات الحياة ، وتكلم عن أهل الترحال والتنقل وما يناسبهم من بيوت خفيفة يحملونها عند ترحالهم . ثم تحدث هنا عن هؤلاء الذين لا يفلكون شيئاً ، ولا حتى جلود الأنعام .. ماذا يفعل هؤلاء ؟

الحق سبحانه جعل لهم الظل يستظلّون به من وهج الشمس ، وجعل لهم من الكهوف والسراديب في الجبال ما يأوون إليه ويسكنون فيه . وهكذا استوعبت الآيات جميع الحالات التي يمكن أن يكون عليها بشر ، فقد نثر الحق سبحانه نعمه على الناس ، بحيث يأخذ كل واحد منهم ما يناسبه من نعم الله .

أما مَنْ لا يملك بيتاً يأويه ، وليس عنده من الأنعام ما يتخذ من جلودها بيتاً ، فقد جعل الله له الأشجار يستظل بها من حرّ الشمس ، وجعل له كهوف الجبال تُكَنّه وتأويه .

ونلاحظ هنا أن الآية ذكرت الظل الذي يقينا حرّ الشمس ، ولم تذكر مثلاً البرد ؛ ذلك لأن القرآن الكريم نزل بجزيرة العرب وهي بلاد حارة ، وحاجتها إلى الظل أكثر من حاجتها إلى الدّفء .

وقوله :

﴿ ظِلَالاً .. (٨١) ﴾

[النحل]

الظلال جمع ظل ، وهو الواقى من الشمس ومن إشعاعاتها ، وقد يوصَف الظل بأنه ظل ظليل .. أى : الظل نفسه مُظلل ، وهذا ما نراه في صناعة الخيام مثلاً ، حيث يجعلون لها سقفاً من طبقة واحدة

سُورَةُ النُّحْلِ

٨١٢٩

تتلقى حرارة الشمس ، وإن حُجِبَتْ أشعة الشمس فلا تحجب الحرارة ، وهنا يلجأون إلى جعل السقف من طبقتين بينهما مسافة لتقليل حرارة الشمس .

وهنا نقول : إن الظل نفسه مُظَلَّلٌ ، وكذلك الحال في ظل الأشجار حيث يظل الورق بعضه بعضاً ، فتشعر تحت ظل الأشجار بجو لطيف بارد حيث يغطي ظل ظليل يحجب عنك ضوء الشمس ، ويسمح بمرور الهواء فلا تشعر بالضيق .

لذلك فالشاعر يقول في وصف روضة :

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وَإِدِ سَقَاهُ مَضَاعِفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
يَصُدُّ الشَّمْسَ أَنَّى وَأَجْهَتْنَا فَيَحْجُبُهَا وَيَأْنِزُ لِلنَّسِيمِ
وهكذا الأشجار تحجب عنا الضار ، وتسمح بالنافع .

وقوله : ﴿ أَكُنَّا .. ﴾ (٨١) [النحل]

جمع كَنَ ، وهو الكهف أو المغارة في الجبل تكون سكناً وساتراً لمن يلجأ إليها ويحتمى بها ، والكَنَّ من السَّتَر : لأنها تستتر الناس ونحن نقول مثلاً للولد : انكنْ يعني : اسكنْ وانستِر .

ويقول تعالى :

﴿ وَجَعَلْ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بِأَسْكُم .. ﴾ (٨١)

[النحل]

السرابيل : هي ما يلبس من الثياب أو الدروع :

﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. ﴾ (٨١) [النحل]

أى : تحميمكم من الحر .. فقال هنا الحر أيضاً : لذلك وجدنا بعض العلماء يحاول أن يجد مخرجاً لهذه الآية فقال : المعنى تقيكم الحر وتقيكم البرد ، ففى الآية اكتفاءً بالحر عن البرد ؛ لأن الشيء إذا جاء يأتى مقابله .. فليس بالضرورة ذكر الحالتين ، فإحداهما تعنى الأخرى .

هذا دفاع مشكور منهم ، ومعنى مقبول حول هذه الآية .. لكن لو فُطِنَّا إلى باقى الآيات التى تحدثت فى هذا الموضوع لوجدناها : واحدة تتكلم عن الحر ، وهى هذه الآية ، وأخرى تتكلم عن البرد فى فى قوله تعالى :

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ..﴾ [النحل]

أى : من جلود الأنعام وأصوافها نتخذ ما يقينا البرد ، وما نستدفئ به .. وهكذا تتكامل الآيات وينسجم المعنى .

والمتأمل فى تدفئة الإنسان يجد أن ما يرتديه من ملابس لا يعطى للإنسان حرارة تُدفئه ، بل تحفظ للإنسان حرارة جسمه فقط ، فحرارة الإنسان ذاتية من داخله ، وبهذه الحرارة يحفظ الخالق سبحانه الإنسان .

والأطباء يقولون : إن الجسم السليم حرارته ٣٧° لا تختلف إن عاش عند خط الاستواء أو عاش فى بلاد الاسكيمو فى القطب الشمالى ، فهذه هى الحرارة العامة للجسم .

فى حين أن أجهزة الجسم المختلفة ربما اختلفت درجة حرارتها ، كُلٌّ حَسَبَ ما يناسبه : فالكبد مثلاً درجة حرارته ٤٠° ، وتختلف

وظيفته إذا نقصت عن هذه الدرجة ، فى حين أن درجة حرارة جفن العين مثلا ٥٩ ، ولو ارتفعت درجة حرارتها تذوب حبة العين ، ويفقد الإنسان البصر .. ف سبحانه الله الذى حفظ حرارة هذه الأعضاء فى الجسم لا يطفى أحدها على الآخر .

لذلك حينما سافرنا إلى أمريكا ، وفى إحدى مناطق البرودة الشديدة كانت أول نصائحهم لنا ألا نمسك آذاننا بأيدينا .. لماذا ؟ قالوا : لأن درجة حرارة اليد أقل من درجة حرارة الأذن ، ووضع اليد الباردة على الأذن قد تُسبب كثيرا من الأضرار .

إنن : كل ما نستخدمه من ملابس وأغطية تقينا برد الشتاء لا تعطينا حرارة ، بل تحفظ علينا حرارتنا الطبيعية فلا تتسرب ، وبذلك تتم التدفئة .. وتستطيع أن تضع يدك على فراشك قبل أن تنام فسوف تجده بارداً ، أما فى الصباح فتجده دافئاً .. فالفراش اكتسب الحرارة من حرارة جسمك ، وليس العكس .

وقوله :

﴿وَسَرَابِيلٌ تَقِيكُم بِأَسْكُمُ .. (٨١)﴾ [النحل]

الباس هنا : أى الحرب ، والسرابيل التى تقى من الباس هى الدروع التى يلبسها الجنود فى الحرب لتقيهم الضربات .

ولكن هذه الآية فى سياق الحديث عن بعض نعم الله علينا فى الاستقرار والسكن وما جعله لنا من بيوت وظلال .. حياة دعة وسلام ونعمة ، فما الداعى لذكر الحرب هنا ؟

ذلك لأن الحياة لها منطق سلامة للجميع ، فإن اختل منطق

السلامة فعلى الناس أن يقفوا فى وجه مَنْ يُخِلّ بسلامة المجتمع ..
وأن يكون على استعداد لذلك فى كل وقت ، لأبَدٍ فى وقت السَّلم أنْ
نَعُدَّ العُدَّةَ للحرب ؛ لذلك تحدث عن الحرب وُعِدَّتْها ، وهو يتحدث عن
السكون والاستقرار والنعمة .

والحق سبحانه وتعالى حين يُنْزِلُ الآيات البينات التى تحمل لنا
منهج السماء يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ
بِالْقِسْطِ .. ﴾ (٢٥)

[الحديد]

هذا هو المنهج الذى يعتمد على الحجة والإقناع .. فإن لم يصلح
هذا المنهج لبعض الناس وتمردوا عليه أتى إذن دور القوة والقهر ،
يقول تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ .. ﴾ (٢٥)

[الحديد]

وقوله :

﴿ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ .. ﴾ (٨١)

[النحل]

كان من تمام نعمة الله أنْ نحفظها ممن يُفسدها علينا ، ونقف له
بالمرصاد ونضرب على يده ؛ لأنه لو تركنا هؤلاء المفسدين فى
مجتمعا فسوف يُفسدون علينا هذه النعم ، وسنظل مُهددين ،
لا نشعر بلذة الحياة ومُتْعِها .

(١) البأس - الشدة والقوة . قوله تعالى . ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. ﴾ [الحديد] أى

قوة وصلابة . [القاموس القويم ٥٢/١] .

إذن : لا تتم النعمة إلا بحفظ السلامة العامة للمجتمع .

وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ (٨١)﴾ [النحل]

تُسلمون : أى تُلَقُّون زمام الاستسلام إلى الله الذى أسلمت له ، وأنت لا تُلَقِّى زمامك إلا لمن تثق فيه .. والإنسان قد يُلَقِّى زمامه فى أمر لا يجيده إلى إنسان مثله يُجيد هذا الأمر ، فإذا كنت فى حاجات نفسك تُلَقِّى زمامك لمن هو مثلك ، ويساويك فى قلة المعلومات ، ويساويك فى قلة الحكمة ، ومع ذلك تُسلم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئاً لا تجيده أنت ، أفلا تُلَقِّى زمامك وتُسلم أمرك إلى ربك وخالقك ، وخالق كل هذه النعم من أجلك ؟

إذن : جاء ذكر هذه النعم ، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه حتى تُسلمَ عن يقين واقتناع ، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة فى طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، إن أطعناه فلن نزيد فى ملكه سبحانه ، وإن عصيناه فلن ننقص من ملكه سبحانه .

إذن : تسليمتنا الأمر والزمَام لله من مصلحتنا نحن .. فالإنسان حينما يُسلم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تُلَوِّى رأيه فى المسألة ، إنما ربنا سبحانه حينما يُوجِّه إلينا حُكْماً فليس له مصلحة فيه فلا يُلَوِّى ، لا يكون إلا لصالحك .

وبعد أن عدَّد هذه النعم فى الذات والمحيطات وفى السكن وفى الانطباعات . قال : إياك بعد ذلك أن تُسلمَ زمامك لغيرى ، وإن أجريت عليك ما يُخرجك عن نفع السلامة : لأننى لا أجرى عليك ما يُخرجك عن نفس السلامة إلا لغرض أسلم منه .

لذلك نقول : لا عبادة كالتسليم : لأن التسليم لحُكْمه تسليمٌ

لحكيم ، تسليمٌ لغير منتفع .. وما دُمْتَ قد سلِمْتَ زمامك لربك عز وجل يُجَلِّى لك الحكمة فيما جرى لك من الاحداث لتعلم رضاك عن حُكْمه لحكمته ، فنقول : أنا رضيتُ بحكمك يا رب .

ولذلك نقول فى الدعاء : أحمَدُكَ على كُلِّ قضائك ، وجميع قَدَرِكَ حَمْدُ الرُّضَا بحكمك لليقين بحكمك .

أى : لك حكمة يارب فيما أجريتَ على من احداث ، ولكنى لا أراها .

والذى يعلم مكانة التسليم لله تعالى فيما يُجرى عليه من أحداث وما يقع به من بلاء لا يضجر ولا يسخط : لأنه بذلك يُطيل على نفسه أمدَ القضاء : لأن الله لا يرفع قضاءه عن عبده حتى يرضى به ، فإله تعالى لا مُجبر له .

فإن أردتَ رَفَعَ القضاء فأرضَ به أولاً ، وإذا لم يرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضى من نفسك لم يَكُنْ مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضَجِراً .

فالذى يُسَلِّم زَمَامه إلى الله ويردُّ كل حدث وقع أو بلاء نزل به يردُّه إلى الله ، وإلى حكمة مُجْريه ، الله تعالى يقول له : لقد فهمتَ عنى ، ويرفع عنه البلاء .

وفى مقام التسليم لله دائماً نذكر قصة سيدنا إبراهيم حينما أمره ربه بذبح ولده إسماعيل - عليهما السلام .. وهل هناك بلاء أكثر من أن يُبْتَلَى الرجل بذبح ولده الذى رَزَقه على كِبَر ، ويذبحه هو بيده .

إنه ابتلاء من مراتب مُتَعَدِّدة ، ومن نَوَاحٍ مختلفة ، وليت الأمر يوحى ظاهراً ، ولكنه بمنام كان يستطيع أن يتأول فيه ، ولكن رؤيا الانبياء حق .

ونرى إبراهيم - عليه السلام - يقصُّ على ولده المسألة حرصاً عليه أن يتحوّل قلبه عن أبيه ساعة يأخذه ليذبحه ، وأيضاً لكي يشاركه ولده في الرضا بقدر الله ، ولا يحرم ثواب هذا الابتلاء .. فقال له :

﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ .. ﴾ (١٠٢) [الصافات]

فليس الغرض هنا أن يزعجه أو يُخيفه ، ولكن ليقول له : هذه مسألة تعبدية أمرنا بها الخالق سبحانه ليكون على بصيرة هو أيضاً ، ولا يتغير قلبه على أبيه .

ولذلك كان الولد حكيماً في الرد ، فقال :

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. ﴾ (١٠٢) [الصافات]

ما دام الأمر من الله فافعل ، وهكذا سلّم إسماعيلُ كما سلّم إبراهيم ، فقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ^(١) لِلْجَبِينِ ﴾ (١٠٣) [الصافات]

أسلما : أي الأب والابن ، ورَضِيا بقضاء الله ، جاء الفرج ورفِع القضاء ، فقد فهم كل منهما الأمر عن الله ، فلم يرفع القضاء فقط ، بل وفديناه بذبح عظيم ، ليس هذا فقط ، بل ومننا عليه بولد آخر :

﴿ وَبَشَرْنَا^(٢) بِإِسْحَاقَ .. ﴾ (١١٢) [الصافات]

إذن : لعلمكم تُسَلِّمون زمامكم إلى الله ، وتعلمون أنه خلق لكم الكون قبل أن يُوجدكم فيه ، وأمدكم بكل متطلبات الحياة ضماناً لبقاء

(١) تله : القاه على منقه وخده . كما تقول كبّ لوجهه . [لسان العرب - مادة تَل] .

حياتكم ، وضماناً لبقاء نوعكم ، ومتعمك هذه المتع .

فالذى أنعم عليكم بهذا كله عن غير حاجة له عندكم جدير أن
تُسَلِّموا له زمام أمركم وتُسَلِّموا له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ ٨٢

أى : لا تحزن يا محمد إذا تعرض قومك ، فلمست مأموراً إلا
بالبلاغ ، ويخاطبه الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ^(١) نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

[الشعراء]

أى : مهلكها . وقال تعالى :

﴿ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا
خَاضِعِينَ ﴾ (٤)

[الشعراء]

لكن الدين لا يقوم على السيطرة على القلب ، وفرق بين السيطرة
على القلب والسيطرة على القلب ، فيمكنك بمسدس فى يدك أن
تُرغمنى على ما تريد ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تُرغم قلبى على شيء
لا يؤمن به ، والله يريد من القلوب لا القوالب ، ولو أراد من القوالب
لجعلها راغمة خاضعة لا يشد منها واحد عن مراده سبحانه .

ولذلك حينما أرسل الله سليمان - عليه السلام - وجعله ملكاً
رسولاً لم يقدر أحد أن يقف فى وجهه ، أو يعارضه لما له من

(١) باع نفسه : قتلها مما وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ٥٦/١] .

السلطان والقوة إلى جانب الرسالة .. أمّا الأمر في دعوته ﷺ فقام
على البلاغ فقط دون إجبار .

وقوله : ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢) [النمل]

أى : البلاغ التام الكامل الذى يشمل كل جزئيات الحياة
وحركاتها ، فقد جاء المنهج الإلهى شاملاً للحياة بداية بقول : لا إله
إلا الله حتى إمطة الأذى عن الطريق ، فلم يترك شيئاً إلا حدثنا فيه ،
فهذا بلاغ مبين محيط لمصالح الناس .. فلا يأتى الآن مَنْ يتمحك
ويقول : ربنا ترك كذا أو كذا .. فمنهج الله كامل ، فلو لم تأخذه
ديناً لوجب عليكم أن تأخذه نظاماً .

ونرى الآن الأمم التى تُعَادى الإسلام تتعرض لمشاكل فى حركة
الحياة لا يجدون لها حلاً فى قوانينهم ، فيضطرون لحلول أخرى
تتوافق تماماً أو قريباً من حلّ القرآن ومنهج الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ كُفِرُوا بِهَا

وَكَثُرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣)

وقد حكى القرآن عنهم فى آيات أخرى :

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) [الزخرف]

وقال عنهم :

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهَا وَاسْتَيْقَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ..﴾ (١٤) [النمل]

ذلك لأنهم يعلمون تماماً أن الله خلقهم ، وأنه خلق السموات والأرض .. يعلمون كل نعم الله عليهم ، ومع ذلك يُنكرونها ويجحدونها .. لماذا ؟

لأن الإيمان بالله والاعتراف بنعمه مسألة شاقة عليهم ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها .. ما أسهل أن يقولوا : لا إله إلا الله ، لكنهم يعلمون أن : لا إله إلا الله لها مطلوبات ، فما دام لا إله إلا الله ، فلا يُشرع إلا الله ، ولا يأمر إلا الله ، ولا ينهى إلا الله ، ولا يحل إلا الله ، ولا يحرم إلا الله .

إذن : مطلوبات لا إله إلا الله جعلتهم في قالب من حديد ، منضبطين بمنهج يهدم سيادتهم ، ويمنع الطغيان والجبروت ، منهج يسوّى بين السادة والعبيد .

إذن : الدين الحق يُقيّد حركتهم ، وهم لا يريدون ذلك ، فتراهم يعرفون الله ولا يؤمنون به ؛ لأنهم يعلمون مطلوبات لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإلا لو كانت مجرد كلمة لقالوها .

وقوله :

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢)

[النحل]

بعض العلماء يقولون : أكثرهم يعني كلهم .. لا .. بل هذا أسلوب قرآني لصيانة الاحتمال والاحتياط للقلة التي تفكر في الإسلام ويرادها أمر هذا الدين الجديد من هؤلاء الكفار ، لابد أن نراعى أمر هذه القلة ، ونترك لهم الباب مفتوحاً ، فلاحتمال هنا قائم ..

فلو قال القرآن : كلهم كافرون لتعارض ذلك مع هؤلاء الذين

يفكرون في أن يُسلموا .. وكذلك مراعاة لهؤلاء الذين لم يبلغوا حدَّ التكليف من أبناء الكفار .

إن : قوله ﴿ وَآكْثَرُهُمْ ﴾ تعبير دقيق ، فيه ما نُسمِّيه صيانة الاحتمال .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٨٤)

الحق تبارك وتعالى يُنبِّهنا هنا إلى أن المسألة ليست ديناً ، وتنتهي القضية آمن مَنْ آمن ، وكفر مَنْ كفر .. إنما ينتظرنا بعث وحساب وثواب وعقاب .. مرجع إلى الله تعالى ووقوف بين يديه ، فإن لم تذكر الله بما أنعم عليك سابقاً فاحتط للفاكك به لاحقاً .

والشاهد : هو نبيُّ الأمة الذي يشهد عليهم بما بلغهم من منهج الله .

وقال تعالى في آية أخرى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾ (١١٣)

[البقرة]

فكان أمة محمد ﷺ أعطاه الله أمانة الشهادة على الخلق لأنها بلغتهم ، فكل مَنْ آمن برسول الله ﷺ مطلوب منه أن يُبلغ ما بلغه الرسول ، ليكون شاهداً على مَنْ بلغه أنه بلغه :

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٨٤)﴾ [النحل]

فحينما يشهد عليهم الشهيد لا يُؤْذَنُ لهم في الاعتذار ، كما قال تعالى في آية أخرى :

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [الموسلات]

أو حينما يقول أحدهم :

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

فلا يُجَابُ لذلك ؛ لأنه لو عاد إلى الدنيا لفعل كما كان يفعل من قبل ؛ فيقول تعالى :

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨)﴾ [الأنعام]

وقوله :

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾ [النحل]

يستعتبون : مادة استعتب من العتاب ، والعتاب مأخوذ من العتب ، وأصله الغضب والموجدة تجدها على شخص آخر صدر منه نحوك ما لم يكن متوقعاً منه .. فتجد في نفسك موجدة وغضباً على مَنْ أساء إليك .

فإن استقر العتب الذي هو الغضب والموجدة في النفس ، فانت إما أن تعتب على مَنْ أساء إليك وتوضح له ما أغضبك ، فربما كان له عذر ، أو أساء عن غير قصد منه ، فإن أوضح لك المسألة وأرضاك وأذهب غضبك فقد أعتبك .. فنقول : عتب فلان على فلان فاعتبه ، أي : أزال عتبه .

والإنسان لا يُعَاتَب إلا عزيزاً عليه يحرص على علاقته به ،
ويضعه موضعاً لا تتأتى منه الإساءة ، ومن حقه عليك أن تعاتبه
ولا تدع هذه الإساءة تهدم ما بينكما .

إذن : معنى :

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨١)
[النحل]

أى : لا يطلب أحد منهم أن يرجعوا عما أوجب العتب وهو
كفرهم .. فلم يعد هناك وقت لعتاب : لأن الآخرة دار حساب ،
وليست دار عمل أو توبة .. لم تعد دار تكليف .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
وَلَهُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٥)

﴿رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ..﴾ (٨٥)
[النحل]

كان العذاب سيُنصب أمامهم ، فيرونه قبل أن يباشروه ، وهكذا
يجمع الله عليهم ألواناً من العذاب : لأن إدراكات النفس تتناوب
بالمشاهدة قبل أن تألم الأحاسيس بالعذاب : لذلك قال :

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ..﴾ (٨٥)
[النحل]

وقوله : ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ..﴾ (٨٥)
[النحل]

أى : لا يمهّلون ولا يؤجلون .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَارَأَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ
الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٨٦)

ذلك حينما يجمع الله المشركين وشركاءهم من شياطين الإنس والجن والأصنام ، وكل مَنْ أشركوه مع الله وَجْهًا لوجه يوم القيامة ، وتكون بينهما هذه المواجهة .. حينما يرى المشركون شركاءهم الذين أضلّوهم وزينوا لهم المعصية ، وزينوا لهم الشرك والكفر بالله .. يقولون : هؤلاء هم سببُ ضلّالنا وكُفْرنا .. كما قال تعالى عنهم في آية أخرى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
الْأَسْبَابُ ﴾ (١٦٦)

[البقرة]

ويقول تعالى :

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ امْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢١)

[سبا]

وقوله :

﴿ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ .. ﴾ (٨٦)

[النحل]

أى : ردّوا عليهم بالمثل ، وناقشوهم بالحجة ، كما قال تعالى في حقّ الشيطان .

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ^(١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي^(٢)﴾
[إبراهيم]

إذن : ردوا عليهم القول : ما كان عليكم سلطان . نحن دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن لنا قوة تُرغمكم على الفعل ، ولا حُجَّة تُقنعكم بالكفر ؛ ولذلك يتهمونهم بالكذب :

﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ^(٣)﴾
[النحل]

أى : كاذبون فى هذه الدعوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُومِذُ السَّلَامُ^(٤) وَضَلَّ عَنْهُمْ

مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ^(٥)﴾

السَّلَامُ : أى الاستسلام .. فقد انتهى وقت الاختيار ومضى زمن المهلة ، تعمل أو لا تعمل . إنما الآن ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ؟ الأمر والملك لله ، وما داموا لم يُسَلِّمُوا طواعية واختياراً ، فَلْيُسَلِّمُوا لَهُ قَهْرًا وَرَغْمًا عن أنوفهم .

وهنا تتضح لنا مَيِّزة من مَيِّزات الإيمان ، فقد جعلنى استسلم لله

(١) المصرخ : المفيد المنقذ من يستصرخه . واستصرخه . استغاث به . [القاموس القويم ٢٧٣/١] .

(٢) أى : استسلم المشركون لعذابه وخضعوا لمرزه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . [تفسير القرطبي ٢٨٩٠/٥] .

عز وجل مختاراً ، بدل أن استسلم قهراً يوم أن تتكشف الحقيقة على أنه لا إله إلا الله ، وسوف يواجهني سبحانه وتعالى في يوم لا اختيار لي فيه .

وقوله :

﴿ وَضَلُّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٨٧)

[النحل]

كلمة : الضلال ترد بمعان متعددة ، منها : ضل أى غاب عنهم شفاعتهم ، فآخذوا يبحثون عنهم فلم يجدوهم ، ومن هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ أَنذَرْنَا مَثَلًا فِي الْأَرْضِ اثْنًا لِّمَن لَّمْ يَخْلُقْ جَدِيدًا .. ﴾ (٩٠)

[السجدة]

أى : يغيّبوا في الأرض ، حيث تاكل الأرض ذراتهم ، وتغيّبهم في بطنها .. وكذلك نقول : الضالة أى الدابة التى ضلت أى : غابت عن صاحبها .

ومن معانى الضلال : النسيان ، ومنه قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَنْبِئْ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى .. ﴾ (٢٨٢)

[البقرة]

ومن معانيه : التردد ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (٧)

[الضحى]

فلم يكن لرسول الله ﷺ منهج ثم تركه وانصرف عنه وفارقه ، ثم هداه الله .. بل كان ﷺ متحيراً متردداً فيما عليه سادة القوم وأهل العقول الراجحة من أفعال تتنافى مع العقل السليم والفطرة النيرة ،

سُورَةُ النُّحْلِ

٨١٤٥

فكانت حيرة الرسول ﷺ فيما يراه من أفعال هؤلاء وهو لا يعرف حقيقتها .

فقوله :

[النحل]

﴿ وَضَلُّ عَنْهُمْ .. (٨٧) ﴾

أى : غاب عنهم :

[النحل]

﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) ﴾

أى : يكذبون من ادعائهم آلهة وشفعاء من دون الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾

هنا فرق بين الكفر والصد عن سبيل الله ، فالكفر ذنب ذاتي يتعلق بالإنسان نفسه ، لا يتعداه إلى غيره .. فأكفر كما شئت - والعياذ بالله - أنت حر !!

أما الصد عن سبيل الله فذنب متعد ، يتعدى الإنسان إلى غيره ، حيث يدعو غيره إلى الكفر ، ويحمله عليه ويؤثره له .. فالذنب هنا مضاعف ، ذنب لكفره في ذاته ، وذنب لصدّه غيره عن الإيمان ، لذلك يقول تعالى في آية أخرى :

[العنكبوت]

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ .. (٦٣) ﴾

فإن قال قائل : كيف وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. ﴾ (١٦٤)

[الانعام]

نقول : لا تعارض بين الآيتين ، فكل واحد سيحمل وزره ، فالذى صدَّ عن سبيل الله يحمل وزرَيْن ، أما مَنْ صدَّه عن سبيل الله فيحمل وزر كفره هو .

وقوله :

﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ .. ﴾ (٨٨)

[النحل]

العذاب الاول على كفرهم ، وزدناهم عذاباً على كفر غيرهم مِنْ صدوهم عن سبيل الله .

ولذلك فالنبي ﷺ يقول : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْر مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزَرُهَا وَوزر مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(١) .

فإياك أَنْ تَقَعَ عَلَيْكَ عَيْنُ الْمُجْتَمَعِ أَوْ أَذَنُهُ وَأَنْتَ فِي حَالِ مَخَالَفَةٍ لِمَنْهَجِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَخَالَفَةَ سَتُؤَثِّرُ فِي الْآخَرِينَ ، وَسَتَكُونُ سَبَبًا فِي مَخَالَفَةِ أُخْرَى بِلِ مَخَالَفَاتٍ ، وَسَوْفَ تَحْمِلُ أَنْتَ قِسْطًا مِنْ هَذَا .. فَانْتَ مُسْكِنٌ تَحْمِلُ سَيِّئَاتِكَ وَسَيِّئَاتِ الْآخَرِينَ .

وقوله :

﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ ﴾ (٨٨)

[النحل]

والإفساد : أَنْ تَعْمَدَ إِلَى شَيْءٍ صَالِحٍ أَوْ قَرِيبٍ مِنَ الصَّالِحِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦١/٤ ، ٣٦٢) ، وابن ماجه في سننه (٢٠٧)

والترمذي في سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

فَتَفْسَدَهُ ، وَلَوْ تَرَكْتَهُ وَشَانَهُ لَرَبَّمَا يَهْتَدِي إِلَى مَنِهْجِ اللَّهِ .. إِذَنْ : أَنْتَ
أَفْسَدْتَ الصَّالِحَ وَمَنْعْتَ الْقَابِلَ لِلصَّلَاحِ أَنْ يُصْلِحَ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا
لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٨٩)

قوله :

﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٨٩)

[النحل]

يعنى من جنسهم . والمراد : أهل الدعوة إلى الله من الدُّعَاة
والوعاظ والائمة الذين بلغوا الناس منهج الله ، هؤلاء سوف يشهدون
أمام الله سبحانه على مَنْ قَصُرَ فِي مَنِهْجِ اللَّهِ .

وقد يكون معنى :

﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٨٩)

[النحل]

أى : جزء من أجزائهم وعضواً من أعضائهم ، كما قال تعالى :
﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤)

[النور]

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لِحُطُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا .. ﴾ (٧١)

[فصلت]

والشَّهيد إذا كان من ذات الإنسان وبعض من أبعاضه فلا شك أن
حجته قوية وبيّنته واضحة .

وقوله :

﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ .. ﴾ (٨٩)

[النحل]

أى : شهيداً على أمّتك كأنه ﷺ شهيد على الشهداء .

﴿ وَتَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٨٩)

[النحل]

الكتاب : القرآن الكريم .. تبياناً : أى بياناً تاماً لكل ما يحتاجه
الإنسان ، وكلمة (شىء) تُسمّى جنس الاجناس . أى : كل ما
يُسمّى « شىء » فبيانُهُ فى كتاب الله تعالى .

فإن قال قائل : إن كان الامر كذلك ، فلماذا نطلب من العلماء أن
يجتهدوا ليُخرجوا لنا حكماً معيناً ؟

نقول : القرآن جاء معجزة ، وجاء منهجاً فى الاصول ، وقد
أعطى الحق تبارك وتعالى لرسوله ﷺ حق التشريع ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧)

[الحشر]

إذن : فسنة الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً ثابتة بالكتاب ،
وهى شارحة له وموضحة ، فصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات ، فأين
هذا فى كتاب الله ؟ نقول فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .. ﴾ (٧)

[الحشر]

وقد بين الرسول ﷺ هذه القضية حينما أرسل معاذ بن جبل

رضى الله عنه - قاضياً لأهل اليمن ، وأراد أن يستوثق من إمكانياته في القضاء . فسأله : « بِمَ تَقْضِي ؟ » قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبُسْنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي^(١) ولا ألو - أي لا أقصر في الاجتهاد .

فقال ﷺ : « الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يَرْضَى الله ورسوله »^(٢) .

إذن : فالاجتهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما يستجد أمامنا من قضايا لا نصَّ فيها ، لا في الكتاب ولا في السنة ، فقد أبيح لنا الاجتهاد فيها .

ونذكر هنا أن الإمام محمد عبده^(٣) - رحمه الله - حدّث عنه وهو في باريس أن أحد المستشرقين قال له : ليس في آيات القرآن :

﴿ مَا قَرُّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٢٨)

قال : بلى ، قال له : فهات لى من القرآن : كم رغيفاً يوجد فى أربب القمح ؟

(١) قال الخطابي فى « معالم السنن » : « يريد الاجتهاد فى رد القضية من طريق القياس إلى معنى الكتاب والسنة . ولم يرد الرأى الذى يسمح له من قبل نفسه أو يخطر بباله من غير أصل من كتاب أو سنة . وفى هذا إثبات القياس وإيجاب الحكم به . نقله شمس الحق العظيم آبادى فى « عون المعبود شرح سنن أبى داود » (٢٦٩/٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢٢٠/٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٨٧) ، والترمذى فى سننه (١٣٢٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٣) مفتى الديار المصرية ، من كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام . ولد ١٨١٩ م فى قرية من قرى الغربية بمصر . تعلم بالجامع الاحمدى بطنطا ثم الأزهر ، له « تفسير القرآن الكريم » ورسالة التوحيد . أصدر مع الألفغانى جريدة « العروة الوثقى » فى باريس ، توفى بالاسكندرية عام ١٩٠٥ عن ٥٦ عاماً .. [الاعلام للزركلى ٢٥٢/٦] .

فقال الشيخ : نسأل الخباز فعنده إجابة هذا السؤال .. فقال
المستشرق : أريد الجواب من القرآن الذي ما فرط في شيء ، فقال
الشيخ : هذا القرآن هو الذي علمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر ،
فقال :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧)

[الأنبياء]

إذن : القرآن أعطاني الحجة ، وأعطاني ما أستند إليه حينما
لا أجد نصاً في كتاب الله ، فالقرآن ذكر القواعد والاصول ، وأعطاني
حقَّ الاجتهاد فيما يعن لي من الفروع ، وما يستجد من قضايا ، وإذا
وُجد في القرآن حكم عام وجب أن يؤخذ في طيه ما يؤخذ منه من
احكام صدرت عن رسول الله ﷺ : لأن الله وكله.

فقال :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧)

[الحشر]

وكذلك الإجماع من الامة : لأن الله تعالى قال :

﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ^(١) مَا تَوَلَّى .. ﴾ (١١٥)

[النساء]

وكل اجتهاد يردُّ إلى أهل الاجتهاد :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. ﴾ (٨٢)

[النساء]

(١) نوله ما تولى : أى توجهه إلى ما أحب ، أى نيسره إلى ما فضله . فنتركه في ضلاله
الذي أثره وأحبه ، لو تمكنه من السير في ضلاله حتى يلقي جزاءه . [القاموس القويم
٢٥٩/٢] .

إنن : فكل ما صدر عن الرسول ﷺ وعن الإجماع وعن الأئمة المجتهدين موجود في القرآن ، فهو إذن صادق .

ويجب هنا أن نُفرّق بين الأشياء والقضايا فهي كثيرة ، فما الذي يتعرّض له القرآن ؟ يتعرض القرآن للأحكام التكليفية المطلوبة من العبد الذي آمن بالله ، وهناك أمور كونية لا يتأثر انتفاع الإنسان بها بأن يعلمها ، فهو ينتفع بها سواء علمها أو جهلها ، فكأن الأرض كروية الشكل ، وكأنها تدور حول الشمس ، وغير هذه الأمور من الكونيات إن علمها فيها ونعمت ، وإن جهلها لا يمنعه جهله من الانتفاع بها .

فالأمى الذي يعيش في الريف مثلاً ينتفع بالكهرباء ، وهو لا يعلم شيئاً عن طبيعتها وكيفية عملها ، ومع ذلك ينتفع بها ، مجرد أن يضع أصبعه على زرّ الكهرباء تُضيء له .

فلو أن الحق تبارك وتعالى أبان الآيات الكونية إبانة واضحة ربما صدّ العرب الذين لا يعرفون شيئاً عن حركة الكون ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مقاصد القرآن حول الآيات الكونية ؛ ولذلك سألوا رسول الله ﷺ عن الأهلّة ، كما حكى القرآن الكريم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

والأهلّة : جمع هلال ، وهو ما يظهر من القمر في بداية الشهر حيث يبدو مثل قلامة الظفر ، ثم يزداد تدريجياً إلى أن يصل إلى مرحلة البدر عند تمام استدارته ، ثم يتناقص تدريجياً أيضاً إلى أن يعود إلى ما كان عليه ، هذه عجيبة يرونها بأعينهم ، ويسألون عنها .

ولكن ، كيف رَدُّ عليهم القرآن ؟ لم يُوضح لهم القرآن الكريم كيف يحدث الهلال ، وأن الارض إذا حالتُ بين الشمس والقمر وحجبت عنه ضوء الشمس نتج عن ذلك وجود الهلال ومراحله المختلفة .

فهذا التفصيل لا تستوعبه عقولهم ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مثل هذه القضايا الكونية ؛ لذلك يقول لهم : اصبروا نظركم عن هذه ، وانظروا إلى حكمة الخالق سبحانه في الالهة :

﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

فردَّهم إلى أمر يتعلق بدينهم التقليدي ، فاهتمَّ ببيان الحكمة منها ، وفي نفس الوقت ترك هذه المسألة للزمن يشرحها لهم ، حيث سيجدون في القرآن ما يُعينهم على فهم هذا الموضوع .

إذن : قوله تعالى :

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

أى : من كل شيء تكليفى ، إن فعله المؤمن أثيب ، وإن لم يفعله يُعاقب ، أما الامور الكونية فيعطيهام منها على قدر وعيهم لها ، ويترك للزمن مهمة الإبانة بما يحدث فيه من فكر جديد .

لذلك نرى القرآن الكريم لم يفرغ عطاءه كله في القرن الذى نزل فيه ، فلو فعل ذلك لاستقبل القرون الأخرى بغير عطاء ، فالحقول تتفتح على مرَّ العصور وتتفتح عن فكر جديد ، ولا يصح أن يظلَّ العطاء الأول هو نفسه لا يتجدد ، لا بدَّ أن يكون لكل قرن عطاء جديد يناسب ارتفاعات البشر في علومه الكونية .

والرسول ﷺ حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل ، أى : يُلْقَحُونَهُ . وهو ما يُعرف بعملية الإخصاب ، حيث يأخذون من الذكر ويضعون فى الأنثى ، فماذا قال لهم ؟ قال : لو لم تفعلوا لأمّرت ، ففى الموسم القادم تركوا هذه العملية فلم يُثمر النخل ، فلما سئل ﷺ فى ذلك قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »^(١) .

فهذا امر دنيوى خاضع للتجربة ووليد بحث معملى ، وليس من مهمة الرسول ﷺ توضيح هذه الأمور التى يتفق فيها الناس وتتفق فيها الأهواء ، إنما الأحكام التكليفية التى تختلف فيها الأهواء ، فحسمها الحق بالحكم .

فمثلاً فى العالم موجاتٌ مادية تهتم بالاكتشافات والاختراعات والاستنباطات التى تُسخر أسرار الكون لخدمة الإنسان ، فهل يختلف الناس حول مُعطيات هذه الموجة المادية ؟ هل نقول مثلاً : هذه كهرباء أمريكانى ، وهذه كهرباء روسى ؟ هل نقول : هذه كيمياء إنجليزى ، وهذه كيمياء ألمانى ؟

فهذه مسألة وليدة العمل والتجربة يتفق فيها كل الناس ، فى حين تجدهم يختلفون فى أشياء نظرية ويتحاربون من أجلها ، فهذه اشتراكية ، وهذه رأسمالية ، وهذه وجودية ، وتلك علمانية .. الخ ، فجاء الدين ليحسم ما تختلف فيه الأهواء .

لذلك نرى كل معسكر يحاول أن يسرق ما توصل إليه المعسكر الآخر من اكتشافات واختراعات ، ويرسل جواسيسه ليتابعوا أحدث

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٦٢) من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ مرّ بقوم يُلْقَحُونُ . فقال : لو لم تفعلوا لأمّرت . فخرج شيعياً فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

ما توصل إليه غيرهم ، فهل يسرقون الأمور النظرية أيضاً ؟ لا .. بل على العكس تجدهم يضعون الحواجز والاحتياطات لكي لا تنتقل هذه المبادئ إلى بلادهم وإلى أفكار مواطنهم .

وقد جعل الرسول ﷺ من نفسه مثالاً ونموذجاً لتوضيح هذه المسألة ، مع أنه قد يقول قائل : لا يصح في حق رسول الله أن يُشير على الناس بشيء ويتضح خطأ مشورته ، إنما الرسول هنا يريد أن يُوصل قاعدة في نفوس المتكلمين في شئون الدين : إياكم أن تُقحموا أنفسكم في الأمور المادية العملية التطبيقية ، فهذه أمور يستوى فيها المؤمن والكافر .

ولذلك عندما اكتشف العلماء كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس اعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم في قضية لا تدخل للدين فيها ، وقد حذرهم رسول الله ﷺ من ذلك .

وما قولكم بعد أن صعد العلماء إلى كواكب أخرى ، وصوروا الأرض ، وجاءت صورتها كروية فعلاً ؟ فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين باباً لا تستطيعون غلقه .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٨٩)

[النحل]

الحق تبارك وتعالى وصف القرآن هنا بأنه (هُدًى) ، فإذا كان القرآن قد نزل تبياناً فكان التوافق يقتضى أن يقول : وهادياً ، لكن لم يصف القرآن بأنه هاد ، بل هُدًى ، وكأني نفس الهدى : لأن هادياً ذات ثبوت لها الهداية ، إنما هُدًى : يعنى هو جوهر الهدى ، كما

نقول : فلان عادل . وفى المبالغة نقول : فلان عدل . كأن العدل مجسم فيه ، وليس مجرد واحد ثبتت له صفة العدل .

وكذلك مثل قولنا عالم وعليم ، وقد قال تعالى :

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦) [يوسف]

فما معنى الهدى ؟ هو الدلالة على الطريق الموصّل للغاية من أقرب الطرق .

﴿وَرَحْمَةً﴾ مرة يُوصَف القرآن بأنه رحمة ، ومرة بأنه :

﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ..﴾ (٨٢) [الاسراء]

والشفاء : أن يُوجد داء يعالجه القرآن ، والرحمة : هى الوقاية التى تمنع وجود الداء ، وما دام القرآن كذلك فَمَنْ عمل بمنهجه فقد بُشِّرَ بالثواب العظيم من الله تعالى ، الثواب الخالد فى نعيم دائم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِى الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠)

للحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ثلاثة أوامر : العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى . وثلاثة نواه : عن الفحشاء والمنكر والبغى . ولما نزلت هذه الآية قال ابن مسعود : أجمعُ آيات القرآن للخير هذه

الآية^(١) لأنها جمعت كل الفضائل التي يمكن أن تكون في القرآن الكريم .
ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون^(٢) كان رسول الله ﷺ يحب له أن
يسلم ، وكان يعرض عليه الإسلام دائماً ، ورسول الله ﷺ لا يحب عرض
الإسلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشيماً تحسن في الإسلام .

وكانه - ﷺ - ضنَّ بهذه المخايل أن تكون في غير مسلم ، لذلك
كان حريصاً على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه ، إلا أن سيدنا
عثمان بن مظعون تريت في الأمر ، إلى أن جلس مع الرسول ﷺ في
مجلس ، فراه رفع بصره إلى السماء ثم تنبه ، فقال له ابن مظعون :
ما حدث يا رسول الله ؟ فقال : إن جبريل - عليه السلام - قد نزل
على الساعة بقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩٠)

قال ابن مظعون - رضى الله عنه : فاستقر حب الإيمان في قلبي
بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير^(٣) .

ثم ذهب فأخبر أبا طالب ، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن
مظعون في هذه الآية قال : يا معشر قريش آمنوا بالذي جاء به
محمد ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق^(٤) .

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٢٨٩٢/٥) .

(٢) هو : عثمان بن مظعون الجمعي . أبو السائب ، صحابي ، كان من حكماء العرب في
الجاهلية ، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، هاجر إلى أرض الحبشة مرتين . شهد بدرًا . لما
مات جاءه النبي ﷺ فقبله ميتاً ، حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان . [الاعلام
للزركلي ٢١٤/٤] .

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٥٩/٥) وعزاه لأحمد والبخاري في الأدب وابن أبي
حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وكذا أورده الواحدي في
أسباب النزول (١٦١) .

(٤) أورده القرطبي في تفسيره (٢٨٩١/٥) أن أبا طالب قال : اتبعوا ابن أخي ، فواه إنه
لا يأمر إلا بأحسن الأخلاق .

وَيُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَعْرُضُ نَفْسَهُ عَلَى قِبَاثِلِ الْعَرَبِ ، وَكَانَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ ، قَالَ عَلِيٌّ : فَإِذَا بِمَجْلِسٍ عَلَيْهِ وَقَارٌ وَمَهَابَةٌ ، فَاقْبَلْ عَلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَدَعَاهُمْ إِلَى شَهَادَةِ آلِهِ إِلَّا اللَّهَ وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ مَقْرُونُ بْنُ عَمْرٍو وَكَانَ مِنْ شِيْبَانِ ابْنِ ثَعْلَبَةَ فَقَالَ : إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَدْعُونَا يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟ فَقَالَ ﷺ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

[النحل]

فَقَالَ مَقْرُونُ : إِنَّكَ دَعَوْتَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ ، أَفَكَتَ^(٢) قُرَيْشٍ إِنْ خَاصَمْتُكَ وَظَاهَمْتُ عَلَيْكَ .

أَخَذَ عَثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ هَذِهِ الْآيَةَ وَنَقَلَهَا إِلَى عِكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ ، فَأَخَذَهَا عِكْرَمَةُ وَنَقَلَهَا إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنْ آيَةٌ نَزَلَتْ عَلَى مُحَمَّدٍ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، فَأَتَكَ^(٣) الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ - أَيٌّ : فَكَّرَ فِيمَا سَمِعَ - وَقَالَ : وَاللَّهِ إِنْ لَهُ لِحَلَاوَةٌ ، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ ، وَإِنْ أَعْلَاهُ لَمُثْمَرٌ ، وَإِنْ أَسْفَلُهُ لَمُفْدِقٌ ، وَإِنَّهُ يعلو ولا يُعلَى عَلَيْهِ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ بَشَرٍ^(٤) .

وَمَعَ شَهَادَتِهِ هَذِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ ، فَقَالُوا : حَسْبُكَ أَنَّهُ شَهِيدٌ لِلْقُرْآنِ وَهُوَ كَافِرٌ .

(١) الْإِفْكَ : الْكُذْبُ وَالْإِثْمُ . وَالْأَفْكَ : الَّذِي يَأْفُكُ النَّاسَ أَيُّ يَصُدِّمُهُمْ عَنِ الْحَقِّ بِيَاظِهِ . وَالْمَافُوكُ : الْمَافُونَ وَهُوَ ضَعِيفُ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : الْفَكَ] .

(٢) فَكَّرَ فِي الشَّيْءِ : وَافَكَّرَ فِيهِ وَتَفَكَّرَ . بِمَعْنَى وَاحِدٍ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : فَكَّرَ] .

(٣) أَوْرَدَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٨٩٢/٥) .

وهكذا دخلت هذه الآية قلوب هؤلاء القوم ، واستقرت في أفئدتهم ؛ لأنها آية جامعة مانعة ، دعت لكل خير ، ونهت عن كل شر .

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۖ ﴾ (٩٠) [النحل]

ما العدل ؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميل ؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين ، لذلك سُمي الحاكم العادل مُنْصِفاً ؛ لأنه إذا مَثَلَ الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصف تكوينه ، وكأنه قَسَمَ نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيَّدَ شعرة ، هذا هو الإنصاف .

ومن أجل الإنصاف جُعِلَ الميزان ، والميزان تختلف دِقَّتُهُ حَسَبَ الموزون ، فحساسية ميزان البُرِّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً ، وتتناهى دَقَّةُ الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية ، حيث أقلَّ زيادة في الميزان يمكن أن تحوّل الدواء إلى سُمٍّ ، وقد شاهدنا تطوراً كبيراً في الموازين ، حتى أصبحنا نزن أقلَّ ما يمكن تَصَوُّره .

والعدل دائر في كل أفضية الحياة من القمة في شهادة ألا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فالعدل مطلوب في أمور التكليف كلها ، في الأمور العقدية التي هي عمل القلب ، وكذلك مطلوب في الأمور العملية التي هي أعمال الجوارح في حركة الحياة .

فكيف يكون العدل في الأمور العقدية ؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود

إله في الكون ، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقاً ، وآخرون يقولون بتعدد الآلهة ، هكذا تناقضت الأقوال وتباعدت الآراء ، فجاء العدل في الإسلام ، فالإله واحد لا شريك له ، مُنَزَّهٌ عَمَّا يُشَبِّهُ الصَّوْاث ، كما وقف موقف العدل في صفاته سبحانه وتعالى .

فَلِلَّهِ سَمْعٌ ، ولكن ليس كاسماع المحدثات ، لا تنفى عنه سبحانه مثل هذه الصفات فنكون من المعطلة ، ولا نُشَبِّهُهُ سبحانه بغيره فنكون من المشبهة ، بل نقول : ليس كمثل شيء ، ونقف موقف العدل والوسطية .

كذلك من الأمور العقيدية التي تجلّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار ، حيث اختار موقفاً وسطاً بين مَنْ يَقُولُ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَفْعَلُ أَفْعَالَهُ بِاخْتِيَارِهِ دُونَ دَخْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي أَعْمَالِ الْعَبْدِ ؛ وَلِذَلِكَ رَتَّبَ عَلَيْهَا ثَوَابًا وَعِقَابًا . وَمَنْ يَقُولُ : لَا ؛ بَلْ كُلُّ الْأَعْمَالِ مِنْ اللَّهِ وَالْعَبْدُ مُجْبَرٌ عَلَيْهَا .

فيأتي الإسلام بالعدالة والوسطية في هذه القضية فيقول : بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التي خلقها الله فيه للاختيار .

وفي التشريع والاحكام حدث تباين كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام - في القصاص مثلاً : في شريعة موسى حيث طغت المادية على بني إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام :

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (١٥٢)

[النساء]

فهم لا يفهمون البغيث ولا يقتنعون به ، فكان المناسب لهم

الْقَصَاصِ وَلَا يَدُّ ، وَلَوْ تَرَكَهُمْ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ لَكُنَّ فِيهِمُ الْقَتْلُ ، فَهَم لَا يَنْتَهُونَ إِلَّا بِهَذَا الْحُكْمِ الرَّادِعِ : مَنْ قَتَلَ يُقْتَلُ ، وَالْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ .

وقد تعدَّى بنو إسرائيل في طلبهم رؤية الله ، فكونك ترى الإله تناقض في الألوهية : لأنك حين تراه عينك فقد حددته في حيز .

إذن : كونه لا يرى عَيْنَ الكمال فيه سبحانه وتعالى . وكيف نطمع في رؤيته جَلَّ وَعَلَا ، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته ، فالروح التي بين جَنَبَيَّ كُلِّ مَنْأَا نعرف عن طبيعتها وعن مكانها من الجسم ، وبها نتحرك ونزاول أعمالنا ، وبها نفكر ، وبها نعيش ، آمين هي ؟!

فإذا ما فارقت الروح الجسم وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس في مواراتها التراب . هل رأيت هذه الروح ؟ هل سمعتها ؟ هل أدركتها بأى حاسة من حواسك ؟!

فإذا كانت الروح وهي مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها ، فكيف بمن خلق هذه الروح ؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً ، وهو معنى من المعانى التي يدعيها كل الناس ، ويطلبون العمل بها . هذا الحق ما شكله ؟ ما لونه ؟ طويل أم قصير ؟! فإذا كنّا لا نستطيع أن نتصور الحق وهو مخلوق لله سبحانه ، فكيف نتصور الله ونطمع في رؤيته ؟!

ومن إسراف بنى إسرائيل فى العادية أن جعلوا لله تعالى فى التلمود جماعة من النقباء ، وجعلوه سبحانه قاعداً على صخرة يُدلى رِجْلُهُ فى قصعة من المرمر ، ثم أتى حوت .. الخ .. سبحانه الله ؛
ألهذا الحد وصلت بهم العادية ؟

ومن هنا كان الكون فى حاجة إلى طاقة روحية ، تكون هى أيضاً مُسرفة فى الروحانية ليحدث نوع من التوازن فى الكون ، فجاءت شريعة عيسى - عليه السلام - بعد مادية مُفرطة وإسراف فى الموسوية ، فكيف يكون حُكم القصاص فيها وهى تهدف إلى أن تسمو بروحانيات الناس ؟

جاءت شريعة عيسى عليه السلام تُهدىء الموقف إذا حدث قتل ، فيكفى أن قُتل واحد ولنستبقى الآخر ولا نثير ضجة ، ونهيج الاحقاد والثرة بين الناس ، فدعت هذه الشريعة إلى العفو عن القاتل .

ثم جاء الإسلام ووقف موقف العدل والوسطية فى هذا الحكم ، فآقرَّ القصاص ودعا إلى العفو ، فأعطى وليَّ المقتول حقَّ القصاص ، ودعاه فى نفس الوقت إلى العفو فى قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ..

[البقرة]

﴿ (١٧٨) ﴾

ونلاحظ هنا أن القرآن جعلهم إخوة ليرقق القلوب ويُزيل الضغائن .

وللقصاص في الإسلام حكمٌ عالية ، فليس الهدف منه أن يُضخم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ .. ﴾ (١٧٩)

[البقرة]

فمن أراد أن يحافظ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين .

وحينما يُعطى ربُّنا تبارك وتعالى حقَّ القصاص لوليِّ المقتول ويُمكنه منه تبرُّد ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر في العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكم الغلُّ من الصدور ويُطفئ نار النار بين الناس .

ولذلك نرى في بعض البلاد التي تنتشر فيها عملية الثأر يأتي القاتل حاملاً كفته على يده إلى وليِّ المقتول ، ويضع نفسه بين يديه مُعترفاً بجريمته : ها أنا بين يديك أقتلني وهذا كفني .

ما حدث ذلك أبداً إلا وعفا صاحب الحق ووليُّ الدم ، وهذا هو العدل الذي جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال .

هذا العفو من وليِّ الدم أداةٌ بقاء ، ووسيلة محبة ، فحين نعطي حقَّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصبحت حياة القاتل هبةً من وليِّ الدم ، فكانه استأنسه واستبقاه بعفوه عنه ، وهذا جميل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حقن دم ابننا .

موقف آخر لعدالة الإسلام ووسطيته نراها في حكم الحيض مثلاً ، ففي شريعة موسى - عليه السلام - يُخرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد .

وفى شريعة عيسى - عليه السلام - لا مانع من وجودها فى البيت ، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها .

فجاء الإسلام بالعدل فى هذه القضية فقال : تبقى المرأة الحائض فى بيتها لا تخرج منه ، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض ، فقال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢٢٢)

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية فى حياتنا ، والتى هى عصب الحياة ، والتى بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والملبس وغيره ، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج ، وكل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج ، وإلى حركة استهلاك ، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة ، ولو توقف أحدهما لحدث فى المجتمع بطالة وفساد .

وبناء عليه وزَّع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد ، فما أعرفه أنا أخدم به الكل ، وما يعرفه الكل يخدمنى به ، وهكذا تستمر حركة الحياة .

والكون الذى تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتراودك فيه آمال ، فإن شاركت فى حركة الحياة واكتسبت المال الذى هو عصب الحياة فعليك أن توازن بين متطلباتك العاجلة وآمالك فى المستقبل .

فلو أنفقت جميع ما اكتسبت فى نفقاتك الحاضرة فقد ضيعت على نفسك تحقيق الآمال فى المستقبل ، فلن تجد ما تبنى به بيتاً مثلاً ، أو تشتري به سيارة ، أو ترتقى بمستواك ببعض كماليات الحياة .

وهذا ما نسميه الإسراف .

وفى المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شيء ، وكذلك لا يليق بك التقشير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب ، ولا تنفق إلا ما يمسك الرمق ؛ لأنك فى هذه الحالة لن تساهم فى عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً فى بطلالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجاً دقيقاً فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٢٩)

[الإسراء]

أى : لا تُمسك يدك بخلًا وتقتيراً ، فتكون ملوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بسطاً يصل إلى حد الإسراف والتبذير ، فيلوثك تحقيق الآمال وتتحسر حينما ترى المقتصد قد حقق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقى هو فى حياته وأنت مُعَدَم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أن تدخر جزءاً من كسبك يمكنك أن ترتقى به حينما تريد .

ولذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْرَاقَ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٢٧)

[الإسراء]

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْعُرُوا ^(١) وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ

(١) قتر الرجل على عياله - ضيق عليهم فى النفقة . [القاموس القويم ٩٩/٢] .

قَوَامًا (١٦٧) ﴿

[الفرقان]

إذن : فالعدل أمر دائر في كل حركات التكليف ، سواء كان تكليفاً عقدياً ، أو تكليفاً بواسطة الأعمال في حركة الحياة ، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال ، ومن هنا قالوا : خَيْرُ الْأُمُورِ الْوَسْطُ .

وقوله : ﴿ وَالْإِحْسَانُ .. (١٦٨) ﴾

[النحل]

ما الإحسان ؟

إذا كان العدل أن تأخذ حَقَّكَ ، وأن تُعاقِبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبْتَ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ .. (١٦٩) ﴾

[البقرة]

وقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. (١٧٠) ﴾

[النحل]

فالإحسان أن تتركَ هذا الحق ، وأن تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجهِ الله ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَالَمِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٧١) ﴾

[آل عمران]

والناس في الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستعداده الخُلُقِي .

وأول هذه المراتب كظم الغيظ ، من كظمِ القُرْبَةِ المملوءة ،

فالإِنسان يكظم غَيْظَه في نفسه ، ويحتمل ما يَعْتَلج بداخله على المذنب دون أن يتعدى ذلك إلى الانفعال والردّ بالمثل ، ولكنه يظل يعاني ألم الغيظ بداخله وتتأجج ناره في قلبه .

لذلك يحسُن الترقى إلى المرتبة الأعلى ، وهي مرتبة العفو ، فيأتى الإنسان ويقول : لماذا أدعُ نفسي فريسة لهذا الغيظ ؟ لماذا أشغل به نفسي ، وأقاسى ألمه ومرارته ؟ فيميل إلى أن يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه ، فيعفو عمن أساء إليه ، ويُخرج المسألة كلها من قلبه .

فإن ارتقى الإنسان في العفو ، سعى إلى المرتبة الثالثة ، وهي مرتبة أن تُحسن إلى من أساء إليك ، وتزيد عما فرضَ لك حيث تنازلتَ عن الردّ بالمثل ، وارتقيتَ إلى درجة العارفين بالله ، فالذى اعتدى اعتدى بقدرته ، وانتقم بما يناسبه ، والذى ترقى في درجات الإحسان ترك الأمر لقدرة الله تعالى ، وأيّن قدرتك من قدرة ربك سبحانه وتعالى ؟

إذن : فالإحسان أجمل بالمؤمن ، وأفضل من الانتقام .

لكن كيف يصل الأمر إلى أن تعفو عمن أساء ، بل إلى أن تُحسن إليه ؟

نقول : هَبْ أن لك ولدين اعتدى أحدهما على الآخر وأساء إليه ، فماذا يكون موقفك منهما ؟ وإلى أيهما يميل قلبك ؟

لا شك أن القلب هنا يميل إلى المعتدى عليه ، وقد يتعدى الأمر

إلى أن تُرضيه بهدية وتُريه من حنانك والطفك ما يُذهب عنه ما يُعاني ، والسبب في ذلك إساءة أخيه له فهي التي عطفت قلبك إليه ، وعادت عليه بالهدايا والالطاف .

إذن : من الطبيعي أن يُحسن المعتدي عليه إلى المعتدي ، وأن يشكر له أن تسبب له في هذه النعم ؛ ولذلك يقول الحسن البصري - رحمه الله : أفلا أحسن لمن جعل الله في جانبي ؟

فالإحسان : أن تصنع فوق ما فرض الله عليك ، بشرط أن يكون من جنس ما فرض الله عليك ، ومن جنس ما تعبدنا الله به ، فمثلاً تعبدنا الله بخمس صلوات في اليوم والليلة فلا مانع من الزيادة عليها من جنسها ، وكذلك الأمر في الزكاة والصيام والحج . والإحسان هنا يكون بزيادة ما فرضه الله علينا .

وقد يكون الإحسان في الكيفية دون زيادة في العمل ، فلا أزيد مثلاً عن خمس صلوات ، ولكن أحسن ما أنا بصدد من الفرض ، وأتقن ما أنا فيه من العمل ، وأخلص في ذلك عملاً بعدد جبريل عليه السلام - حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان ، فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١).

فعليك أن تستحضر في عبادتك ربك عز وجل بجلاله وجماله وكماله ، فإن لم تصل إلى هذه المرتبة فلا أقل من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك ، وهذه كافية لأن تُعطي العبادة حقها ولا تسرق منها ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه

مسلم في صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فَاللَّصُّ لَا يَجْرُؤُ عَلَى سُرْقَةِ الْبَيْتِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَهُ يَرَاهُ ، فَإِذَا
كُنَّا نَفْعَلُ ذَلِكَ مَعَ بَعْضِنَا الْبَعْضَ فَيَخْشَى أَحَدُنَا نَظَرَ الْآخَرِينَ ، أَيْلِقُ
بِنَا أَنْ نَتَجَرَّأَ عَلَى اللَّهِ وَنَحْنُ نَعْلَمُ نَظْرَهُ إِلَيْنَا ؟

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي :

« يَا عِبَادِي ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي لَا أَرَاكُمْ فَالْخُلُوفُ فِي
إِيمَانِكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي أَرَاكُمْ ، فَلِمَ جَعَلْتُمُونِي أَهْوَنَ
الْناظِرِينَ إِلَيْكُمْ ؟ »

وقال بعضهم^(١) في معنى العدل والإحسان :

العدل : أَنْ تَسْتَوِيَ السَّرِيرَةُ مَعَ الْعَلَانِيَةِ .

والإحسان : أَنْ تَعْلُو السَّرِيرَةُ وَتَكُونَ أَفْضَلَ مِنَ الْعَلَانِيَةِ .

والمعنى : إِنْ عَلَتْ الْعَلَانِيَةُ عَلَى السَّرِيرَةِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ .. ﴾ (٦٠)

[النحل]

إِيتَاءٌ : أَيْ إِعْطَاءٌ .

قَالُوا : لِأَنَّ الْعَالَمَ حَلَقَاتٌ مَقْتَرَنَةٌ ، فَكُلُّ قَادِرٍ حَوْلَهُ أَقْرَبَاءُ ضُعْفَاءُ
مُحْتَاجُونَ ، فَلَوْ أَعْطَاهُمْ مِنْ خَيْرِهِ ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ مِمَّا أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) قاله سفيان بن عيينة فيما نقله القرطبي عنه في تفسيره (٢٨٩٢/٥) وقال ابن العربي :

- العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه .
والاجتناب للزواجر ، والامتناع للأوامر .

- وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، ولزوم الفئاعة في كل حال
ومعنى .

- وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الضيافة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف
من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إسائة إلى أحد بقول ولا فعل ، لا في سر
ولا في علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى .

لَعَمَ الْخَيْرِ كُلِّ الْمَجْتَمَعِ ، وما وجدنا مُعَوِّزًا محتاجًا ؛ ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله ، كل قادر يُعْطَى مِنْ حَوْلِهِ .

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل ، فلا نرى في مجتمعنا فقيرًا ، وقد حُثَّتْ الآية على القريب ، وَحُثِّنَتْ عَلَيْهِ الْقُلُوبُ ؛ لأن البعيد عنك قريب لغيرك ، وداخل في دائرة عطاء أخرى .

وقد يكون الفقير قريباً لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا ، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس .

وقالوا : المراد هنا قرابة النبي ﷺ ؛ لأن قرابة النبي ﷺ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الزَّكَاةُ الَّتِي أُحِلَّتْ لغيرهم من الفقراء ، وأصبح لهم مِيزَةٌ يمتازون بها عن قرابة الرسول ، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله ﷺ في حاجة إلى الزكاة ، وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَاؤُكُمْ أَصْحَابَ رَحِمٍ ، فَلَا تَنسُوا أَنْ قَرَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْلَى مِنْ أَرْحَامِكُمْ ، كما قال تعالى :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..﴾ (٤١) [الاحزاب]

هذه هي مجموعة الأوامر الواردة في هذه الآية ، وإنَّ مجتمعاً يُنْفَذُ مِثْلُ هَذِهِ الْأَوَامِرِ وَيَتَحَلَّى بِهَا أَفْرَادُهُ ، مجتمع ترتقي فيه الاستعدادات الخلقية ، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو ، بل إلى الإحسان ، مجتمع نعم فيه النعمة ، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان .

إن مجتمعاً فيه هذه الصفات لمجتمع سعيد آمن يسوده الحب والإيمان والإحسان ، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها .

وقوله :

﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ .. (٤٠) ﴾ [النحل]

وهذه مجموعة من النواهي تمثل مع الاوامر السابقة منهجاً قرآنياً قوياً يضمن سلامة المجتمع ، وأولى هذه النواهي النهي عن الفحشاء أو الفاحشة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذي سماه القرآن فاحشة ، فهي إذن الزنا ، أو كل شيء يخدش حُكماً من أحكام الله تعالى ، ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الانساب وبه تدنسُ الاعراض ، وبه يشكُّ الرجل في أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك نصُّ عليه القرآن صراحة في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٧) ﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء في الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذي يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أن يُجاهر به ، كانه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصح ، ولا ينبغي لأحد أن يطلع عليه . (والمنكر) هو الذنب الذي يتجرأ عليه صاحبه ، ويُجاهر به ، ويستنكره الناس .

إذن : لدينا هنا مرتبتان من الذنب :

الأولى : أن صاحبه يتحرج أن يعرفه المجتمع فيستره في نفسه ، وهذا هو الفحشاء .

والثانية: ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع ، وهذا هو المنكر .
(والبغى) هو الظلم فى أى لون من ألوانه ، وهو داخل فى
أشياء كثيرة أعظمها ما يقع فى العقيدة من الشرك بالله ، كما قال
تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٢ ﴾ [لقمان]

والظلم هنا أن تسلب الحق - تبارك وتعالى - صفة من صفاته ،
وتشرك معه غيره وهو خلقك ورزقك ، ومنه ظلم الرسول ﷺ حيث
لم يُجرب عليه فى يوم من الأيام أن قال خطبة أو ألقى قصيدة ، كما
لم يُجرب عليه الكذب أو غيره من الصفات الذميمة ، ومع هذا كله
قالوا عنه حينما نزل عليه القرآن كذاب وساحر ومجنون ، وأى ظلم
أعظم من هذا ؟

ومن الظلم ظَلَمَ الإنسان لنفسه حينما يُحقّق لها شهوة عاجلة
ومُتعة زائفة ، تُورثه نداماً وحسرة وألماً أجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم
نفسه ظلماً كبيراً وجَرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فضلاً عن ظلم الإنسان
لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله .

إنّ : الآية انتظمت مجموعة من الأوامر والنواهي التى تضمن
سلامة المجتمع بما جمعت من مكارم الاخلاق ، والاخلاق أعم من أن
تكون فى الاعتقادات ، وأعم من أن تكون فى المعجزة إيماناً بها ،
وأعم من أن تكون فى التكاليف ، وأعم من أن تكون فى أمر لا حدّ
فيه ولا حكم ولا إثم .

وقوله :

﴿ يَعْظُمُكُمْ ١٠٠ ﴾ [النحل]

الوعظ : تذكير بالحكم ، فعندنا أولاً إعلام بالحكم لكي نعرفه ، ولكنه عُرِضَ لَأَنْ نَغْفَلَ عَنْهُ ، فيكون الوعظ والتذكير به ، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتى لا نغفل .

وعادة لا تكون العظة إلا فيما له قيمة ، ومادام الشيء له قيمة فلا تصطفى له إلا مَنْ تَحِبُّ ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - يحب خلقه وصنَّعته ؛ لذلك يَعْظُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ باستمرار لكي يكونوا دائماً على الجادة ليتمتعوا بنعم المسبَّب في الآخرة ، كما تمنعوا بنعمة الأسباب في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩١)

الوفاء : أَنْ تَقِيَ بِمَا تَعَاهَدْتَ عَلَيْهِ ، والعهود لا تكون في المفروض عليك ، إنما تكون في المباحات ، فانت حرٌّ أَنْ تَلْقَانِي غداً وأنا كذلك ، لكن إذا اتفقنا وتعاهدنا على اللقاء غداً في الساعة كذا ومكان كذا فقد تحول الأمر من المباح إلى المفروض ، وأصبح كُلُّ مَنَّا ملزماً بأن يفي بعهده ؛ لأن كل واحد منا عطل مصالحه ورثب أموره على هذا اللقاء ، فلا يصح أَنْ يَفِيَ أَحَدُنَا وَيُخْلِفَ الْآخَرُ ، لأن ذلك يتسبب في عدم تكافؤ الفرص ، ومعلوم أن مصالح العباد في الدنيا قائمة على الوفاء بالعهد .

سورة النحل

وقد ينظر البعض إلى الوفاء بالعهد على أنه ملزمٌ به وحده ،
أو أنه عبءٌ عليه دون غيره ، لكنه في الحقيقة عليك وعلى غيرك ،
فكما طَلَب منك الوفاء طلبه كذلك من الآخرين ، فكلُّ تكليف لك
لا تنظر إليه هذه النظرة ، بل تنظر إليه على أنه لصالحك .

بك الحال ، وإذا تبدَّل غِنَاكَ فَقْرًا ، فكما أَخَذْنَا مِنْكَ فِي حَالِ الْغِنَى
سَنُعْطِيكَ فِي حَالِ الْفَقْرِ ، وهكذا يجب أن تكون نظرَتنا إلى الامور
التكليفية .

وقوله تعالى :

﴿ بِعَهْدِ اللَّهِ .. (٩١) ﴾

[النحل]

عهد الله : هو الشيء الذي تعاهد الله عليه ، وأول عَهْدٍ لك مع الله
تعالى هو الإيمان به ، وما نُمِتَ قَدْ آمَنْتَ بِاللَّهِ فَانْظُرْ إِلَى مَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ
وَمَا يَكْلِفُكَ بِهِ ، وإياك أن تُخْلَ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ ؛ لأن الاختلالَ فِي أَى
أمر تكليفى من الله يُعَدُّ نَقْصًا فِي إيمانك ؛ لأنك حينما آمَنتَ بِاللَّهِ
شَهِدْتَ بِمَا شَهِدَ اللَّهُ بِهِ لِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (١٨) ﴾

[آل عمران]

فأول مَنْ شَهِدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ ، وهذه شهادة الذات
للذات (والملائكة) أى : شهادة المشاهدة (وأولوا العلم) أى :
بالدليل والحجة .

إنن : فأول عَهْدٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّكَ آمَنتَ بِهِ إِلَهًا حَكِيمًا
قَادِرًا خَالِقًا مُرَبِّيًا ، فاستمع إِلَى مَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَمِعْ
وَتُنْفَذْ فَأَعْلَمَ أَنَّ الْعَهْدَ الْإِيمَانِيَّ الْأَوَّلَ قَدْ اخْتَلَّ .

ولذلك ، فالحق - تبارك وتعالى - لَمْ يُكَلِّفْ الْكَافِرَ ، لَأنه ليس بينه
وبينه عهد ، إنما يُكَلِّفُ مَنْ آمَنَ ، فتجد كل آية من آيات الاحكام تبدأ
بهذا النداء الإيمانى :

[البقرة]

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٨٢)﴾

كما في قوله تعالى :

[البقرة]

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٢)﴾

فيا مَنْ آمَنَتْ بِي رَبِّكَ ، ورضيتني إلهاً اسمع مِنِّي ؛ لأنني سأعطيك
قانون الصيانة لحياتك ، هذا القانون الذي يُسعدك بالمسبب في
الآخرة بعد أن أسعدك بالأسباب في الدنيا .

وقوله :

[النحل]

﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .. (٩١)﴾

الْأَيْمَانُ : جمع يمين ، وهو الحلف الذي نحلفه ونؤكد عليه
فنقول : والله ، وعهد الله .. الخ . إذن : فلا يليق بك أن تنقضَ
ما أكَّدته من الأيمان ، بل يلزمك أن تُوفِّي بها ؛ لأنك إن وفَّيت بها
وُفِّي لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر
إلى المقابل .

وكذلك العهد بين الناس بعضهم البعض مأخوذ من باطن العهد
الإيماني بالله تعالى ؛ لأننا حينما نتعاهد نُشهد الله على هذا العهد ،
فنقول : بيني وبينك عهدُ الله ، فنُدخل بيننا الحق سبحانه وتعالى
لنؤثِّق ما تعاقدنا عليه ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

[النحل]

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا .. (٩١)﴾

أى : شاهداً ورقيباً وضامناً .

وقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩١)

[الغزل]

أى : اعلم أن الله مُطَّلِع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكِنُّه الصدور ، فاحذر حينما تُعطى العهد أن تعطيه وأنت تنوى أن تخالفه ، إياك أن تُعطى العهد خِداً ، فربُّك سبحانه وتعالى يعلم ما تفعل .

ثم يُعَقِّب الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ أَتَخَذُونَ آيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٩٢)

الحق تبارك وتعالى يضرب لنا في هذه الآية مثلاً توضيحياً للذين ينتقضون العهد والأيمان ، ولا يُوفون بها ، بهذه المرأة القرشية الحمقاء ربيعة بنت عامر ، وكانت تأمر جواريتها بغزل الصوف من الصبح إلى الظهر ، ثم تأمرهنَّ بنقض ما غزلنه من الظهر حتى العصر^(١) ، والمتأمل في هذا المثل يجد فيه دروساً متعددة .

أولاً : ما الغزل ؟

(١) الانكاث : جمع نَكَثَ ، وهو الغزل يُحَلُّ بعد فتلته وإحكامه . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٤] .
(٢) الدُّخْل : المكر والخديعة والغدر وما يقوله من فسد باطنه وساءت سريرته . [القاموس القويم ٩/ ٢٢٤] .

(٣) أورده القرطبي في تفسيره (٢٨٩٧/٥) وعزاه للفراء . قال القرطبي حكاه عبد الله بن كثير والسدي ولم يسميا المرأة . وقال مجاهد وقتادة : ذلك ضرب مثل لا على امرأة معينة .

الْفَزْلُ عملية كان يقوم بها النساء قديماً ، فَكُنْ يُحْضِرُنَ الماده التي تصلح للفزل مثل الصوف أو الوبر ومثل القطن الآن ، وهذه الاشياء عبارة عن شعيرات دقيقة تختلف في طولها من نوع لآخر يُسمونها التيلة ، فيقولون « هذه تيلة قصيرة » ، « وهذه طويلة » .

والْفَزْلُ هو ان نُكُونُ من هذه الشعيرات خَيْطاً طويلاً معتداً وانسيابياً دون عُقْدٍ فيه لكي يصلح للنسج بعد ذلك ، وتتم هذه العملية بآلة بدائية تسمى المفزل . تقوم المرأة بخلط هذه الشعيرات الدقيقة ثم بَرَمَها بالمفزل ، ليخرج في النهاية خيوطاً طويلاً مُنْسَابٌ متناسق لا عُقْدٌ فيه .

والآية هنا ذكرت المرأة في هذا العمل : لانه عمل خاص بالنساء في هذا الوقت دون الرجال . فكانت المرأة تكن في بيتها وتمارس مثل هذه الصناعات البسيطة التي تكون منها اثاث بيتها من فرش وملابس وغيره .

والى الآن نرى المرأة التي تحافظ على كرامتها من زحمة الحياة ومُعْتَرِك الاختلاط ، نراها تقوم بمثل هذا العمل النسائي .

وقد تطور المفزل الآن إلى ماكينة تريكو أو ماكينة خياطة ، مما يُيسِّر للنساء هذه الاعمال ، ويحفظهن في بيوتهن ، وينشر في البيت جَوْكاً من التعاون بين الام واولادها ، وأمامنا مثلاً مشروع الاسر المنتجة حيث تشارك المرأة بنجزء كبير في رُقَى المجتمع ، فلا مانع إذن من عمل المرأة إذا كان عملاً شريفاً يحفظ عليها كرامتها ويصون حرمتها .

فالقرآن ضرب لنا مثلاً بعمل المرأة الجاهلية ، هذا العمل الذي يحتاج إلى جهد ووقت في الغزل ، ويحتاج إلى أكثر منه في نَقْضه وفكّه ، فهذه عملية شاقة جداً ، وربما أمرت الجوارى بفك الغزل والنسيج أيضاً ؛ ولذلك أطلقوا عليها حمقاء قريش .

وقوله :

﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ .. ﴾ (٩٦)

[النحل]

كلمة قوة هنا تدلنا على المراحل التي تمرُّ بها عملية الغزل ، وكما هي شاقة ، بداية من جَزِّ الصوف من الغنم أو الوبر من الجمال ، ثم خلط أطراف كل تيلة من هذه الشعيرات ، بحيث تكون طرف كل تيلة منها في وسط الأخرى لكي يتم التلاحم بينها بهذا المزج ، ثم تدير المرأة المغزل بين أصابعها لتخرج لنا في النهاية بضعة سنتيمترات من الخيط ، ولو قارننا بين هذه العملية اليدوية ، وبين ما توصلت إليه صناعة الغزل الآن لتبين لنا كم كانت شاقة عليهم .

فكان القرآن الكريم شبه الذي يُعطى العهد ويؤتاه بالأيمان المؤكدة ، ويجعل الله وكيلاً وشاهداً على ما يقول بالتي غزلت هذا الغزل ، وتحملت مشقته ، ثم راحت فنقضت ما أنجزته ، وفكّت ما غزلته .

وكذلك كلمة (قوة) تدلنا على أن كل عمل يحتاج إلى قوة ، هذه القوة إما أن تُحرك الساكن أو تُسكن المتحرك ؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ .. ﴾ (٩٦)

[البقرة]

لأن ساكن الخير نريد أن نحركك إليه ، ومتحرك الشر نريد أن نكفك عنه .

وهذه يسمونها في علم الحركة (قانون العطالة) المتحرك يظل متحركاً إلى أن يعرض له شيء يُسكنه ، والساكن يظل ساكناً إلى أن يعرض له شيء يُحركه .

ومن هنا يتعجب الكثيرون من الأعمار الصناعية التي تدور أعواماً عدة في الفضاء : ما الوقود الذي يُحرك هذه الأعمار طوال هذه الأعوام ؟

والواقع أنه لا يوجد وقود يحركها ، الوقود في مرحلة الانطلاق فقط ، إلى أن يخرج من منطقة الهواء والجذب ، فإذا ما استقر القمر أو السفينة الفضائية في منطقة عدم الجذب تدور وتتحرك بنفسها دون وقود ، فهناك الشيء المتحرك يظل متحركاً ، والساكن يظل ساكناً .

والحق - تبارك وتعالى - بهذا المثل المشاهد يُحذرننا من إخلاف العهد ونقضه ؛ لأنه سبحانه يريد أن يصون مصالح الخلق ؛ لأنها قائمة على التعاقد والتعاهد والأيمان التي تبرم بينهم ، فعن خان العهد أو نقض الأيمان لا يُوثق فيه ، ولا يُطمأن إلى حركته في الحياة ، ويُسقطه المجتمع من نظره ، ويعزله عن حركة التعامل التي تقوم على الثقة المتبادلة بين الناس .

[النحل]

وقوله : ﴿ أَكْثَلًا ۖ ۝٩٢ ﴾

جمع نكث ، وهو ما نُقض وحلّ فتله من الغزل .

وقوله :

﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ۖ ۝ (٩٢) ﴾ [النحل]

الدُّخْلُ : أَنْ تَدْخُلَ فِي الشَّيْءِ شَيْئًا أَدْنَى مِنْهُ مِنْ جَنْسِهِ عَلَى سَبِيلِ الْغِشِّ وَالْخَدَاعِ ، كَانَ تَدْخُلَ فِي الذَّهَبِ عِيَارَ ٢٤ قِيرَاطًا مَثَلًا ذَهَبًا مِنْ عِيَارِ ١٨ قِيرَاطًا ، أَوْ كَانَ تُدْخَلُ فِي اللُّوزِ مَثَلًا نَوَى الْمَشْمَشِ عَلَى أَنَّهُ مِنْهُ . فَكَانَ الْأَيْمَانُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْحَقِّ وَالْوَفَاءِ يُعْطِيهَا صَاحِبُهَا وَهُوَ يَنْوِي بِهَا الْخَدَاعَ وَالْغِشَّ ، فَيَحْلِفُ لِمُصَاحِبِهِ وَهُوَ يَقْصِدُ تَنْوِيمَهُ وَالتَّغْرِيرَ بِهِ .

وقوله :

﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ۖ ۝ (٩٣) ﴾ [النحل]

هذه هي العلة في أَنْ نَتَّخِذَ الْأَيْمَانَ دَخَلًا فِيمَا بَيْنَنَا ، الْأَيْمَانُ الزَّائِفَةُ الْخَادِعَةُ : ذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِي بَاعَ نَوَى الْمَشْمَشِ مَثَلًا عَلَى أَنَّهُ لَوْزٌ ، فَقَدْ أَرْبَى أَيُّ : أَخَذَ أَزِيدَ مِنْ حَقِّهِ وَنَقَصَ حَقَّ الْآخَرِينَ ، فَالْعِلَّةُ إِذَنْ فِي الْخَدَاعِ بِالْأَيْمَانِ الطَّمَعِ وَطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَى حِسَابِ الْآخَرِينَ .

وَقَدْ تَأْتَى الزِّيَادَةُ بِصُورَةٍ أُخْرَى ، كَانَ تُعَاهَدُ شَخْصًا عَلَى شَيْءٍ مَا ، وَأَدْبِتَ لَهُ بِالْعَهْدِ وَالْأَيْمَانِ وَالْمَوَاقِيقِ ، ثُمَّ عَنْ لَكَ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ سِوَاهُ كَانَ بِالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ أَوْ بِالْإِغْرَاءِ ، فَتَنَقَّضَ الْعَهْدُ الْأَوَّلُ لِأَنَّ الثَّانِيَّ أَرْبَى مِنْهُ وَأَزِيدَ .

(١) قَالَ مُجَاهِدٌ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ : نَزَلَتْ فِي الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانَتْ الْقَبِيلَةُ مِنْهُمْ إِذَا حَالَفتْ أُخْرَى ، ثُمَّ جَاءَتْ إِحْدَاهُمَا قَبِيلَةٌ كَثِيرَةٌ قُوَّةً فِدَاخَلَتْهَا خَدَرَتْ الْأَوَّلَى وَتَنَقَّضَ عَهْدُهَا وَرَجَعَتْ إِلَى هَذِهِ الْكِبَرَى [تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ ٢٨٩٨/٥] .

وفى مثل هذه المواقف يجب أن يأخذ الإنسان حذره ، فمن يُدريك لعله يفعل بك كما فعلت ، ويُكّال لك بنفس المكيال الذى كُلتَ به لغيرك ، فاحذر إذا تجرأت على خلق الله أن يُجرىء الله عليك من يسفك من نفس الكاس .

وإذا كنت صاحب حرفة أو صناعة ، فإياك أن تغشّ الناس ، وتذكّر أن لك عندهم مصالح ، وفى أيديهم لك حرف وصناعات ، فإذا تجرأت عليهم جرّاهم الله عليك ؛ لأنه سبحانه يقول : أنا القيوم ، أى : القائم على أمركم ، فناموا أنتم فانا لا أنام ، فهذه مسألة يجب أن نلاحظها جيداً .

مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى النَّاسِ جَرَّاهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ أَخْلَصَ عَمَلَهُ وَاتَّقَنَهُ قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ أَنْ يُتَّقَنُوا لَهُ حَاجَتَهُ .

وقوله :

﴿ إِنَّمَا يَلْتَوِكُمُ اللَّهُ بِهِ... (٩٢) ﴾

[النحل]

أى : يختبركم الله تعالى بهذا العهد ، فهو سبحانه يعلم ما أنتم عليه ساعة أن عقدتم العهد ، أفى نيتكم الوفاء ، أم فى نيتكم الغدر والخداع ؟

وهب أنك تتوى الوفاء ثم عرض لك ما حال بينك وبينه ، فإله سبحانه يعلم حقائق الأمور ولا يخفى عليه شيء .

إن : الابتلاء هنا لا يعنى النكبة والبلاء ، بل يعنى مجرد الاختبار والنكبة والبلاء على الذى يفشل فى الاختبار ، فالعبرة هنا بالنتيجة .

وقوله :

﴿ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٩٢)

[النحل]

فيوم القيامة تجتمع الخصوم ، وتتكشف الحقائق ، ويأتى القضاء فيما اختلفنا فيه فى الدنيا ، وهب أن إنساناً عمى على قضاء الأرض فى أشياء ، نقول له : إن عميت على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء ، وانتظر يوماً نجتمع فيه ونحكم هذه المسائل^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣)

لو حرف امتناع لامتناع . أى : امتناع وجود الجواب لامتناع وجود الشرط ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٢٢)

[الانبياء]

فقد امتنع الفساد لامتناع تعدد الآلهة .

فلو شاء الله لجعل العالم كله أمة واحدة على الحق ، لا على

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٧١٢) كتاب الاقضية (٤) من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فلتقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار » .

الضلال ، أمة واحدة في الإيمان والهداية ، كما جعل الأجناس الأخرى أمة واحدة في الانصياع لمرادات الله منها .

ذلك لأن كل أجناس الوجود المخلوقة للإنسان قبل أن يفد إلى الحياة مخلوقة بالحق خلقاً تسخيرياً ، فلا يوجد جنس من الأجناس تأبى عما قصد منه ، لا الجماد ولا النبات ولا الحيوان .

كل هذه الأكوان تسير سيرة سليماً كما أراد الله منها ، والعجيب أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد المختل في الكون ، ذلك لما له من حرية الاختيار ، يفعل أو لا يفعل .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾

[الحج]

هكذا تسجد كل هذه المخلوقات لله دون استثناء ، إلا في الإنسان فقال تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾

[الحج]

فلماذا حدث هذا الاختلاف عند الناس ؟ لأنهم أصحاب الاختيار ، فيستطيع الواحد منهم أن يفعل أو لا يفعل ، هل هذه المسألة خرجت عن إرادة الله ، أم أرادها الله سبحانه وتعالى ؟

قالوا بأن الله زاول قدرته المطلقة في خلق الأشياء المسخرة ، بحيث لا يخرج شيء عما أريد منه ، وكان من الممكن أن يأتي

الإنسان على هذه الصورة من التسخير ، لكنه في هذه الحالة لن يزيد شيئاً ، ولن يضيف جديداً في الكون ، أليست الملائكة قائمة على التسخير ؟

فالتسخير يُثبت القدرة لله تعالى ، فلا يخرج عن قدرته ولا عن مراده شيء ، لكن الاختيار يثبت المحبوبة لله تعالى ، وهذا فرقٌ يجب أن نتدبره .

فمثلاً لو كان عندك عبدان أو خادمان أحدهما سعيد ، والآخر مسعود ، فأخذت سعيداً وقيدته إليك في حبل ، في حين تركت مسعوداً حراً طليفاً ، وحين أمرت كلا منهما لبس وأطاع ، فأى طاعة ستكون أحب إليك : طاعة القهر والتسخير ، أم الطاعة بالاختيار ؟

فكان الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وكرمه بأن جعله مختاراً في أن يطيع أو أن يعصى ، فإذا ما أتى طائعاً مختاراً ، وهو قادر على المعصية ، فقد أثبت المحبوبة لربه سبحانه وتعالى .

ولا بد أن تتوافر للاختيار شروطٌ . أولها : العقل ، فهو آلة الاختيار ، كذلك لا يُكلف المجنون ، فإذا توفّر العقل فلا بد له من النضج والبلوغ ، ويتم ذلك حينما يكون الإنسان قادراً على إنجاب مثله ، وأصبحت له ذاتية مولده .

وهذه سمة اكتمال الذات ؛ فهو قبل هذا الاكتمال ناقص التكوين ، وليس أهلاً للتكليف ، فإذا كان عاقلاً ناضجاً بالبلوغ واكتمال الذات ، فلا بد له أن يكون مختاراً غير مكره ، فإن أكرهه على الشيء فلن يسأل عنه ، فإن اختل شرط من هذه الثلاثة فلا معنى للاختيار ، وبذلك يضمن الحق تبارك وتعالى للإنسان السلامة في الاختيار .

والحق تبارك وتعالى وإن كرم الإنسان بالاختيار ، فمن رحمته به أن يجعل فيه بعض الأعضاء اضطرارية مُسَخَّرَةٌ لا دَخْلَ له فيها .

ولو تأملنا هذه الأعضاء لوجدناها جوهرية ، وتتوقف عليها حياة الإنسان ، فكان من رحمة الله بنا أن جعل هذه الأعضاء تعمل وتؤدي وظيفتها دون أن نشعر .

فالقلب مثلاً يعمل بانتظام في اليقظة والنعاس دون أن نشعر به ، وكذلك التنفس والكلى والكبد والأمعاء وغيرها تعمل بقدرته سبحانه مُسَخَّرَةٌ ، كالجماد والنبات والحيوان .

ومن لطف الله بخلقه أن جعل هذه الأعضاء مُسَخَّرَةٌ ، لأنه بالله لو أنت مختار في عمل هذه الأعضاء ، كيف تتنفس مثلاً وأنت نائم ؟

إذن : من رحمة الله أن جعلك مختاراً في الأعمال التي تعرض لك ، وتحتاج فيها إلى النظر في البدائل ؛ ولذلك يقولون : الإنسان أبو البدائل . فالحيوان مثلاً وهو أقرب الأجناس إلى الإنسان ليس لديه هذه البدائل ولا يعرفها ، فإذا أدبته حيواناً فإنه يؤذيك ، وليس لديه بديل آخر .

ولكن إذا أدبته إنساناً ، فيحتمل أن يرد عليك بالمثل ، أو بأكثر مما فعلت ، أو أقل ، أو يعفو ويصفح ، والعقل هو الذي يرجح أحد هذه البدائل .

إذن : لو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلها ، كما قال تعالى :

﴿ أَنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٣١)

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك ، بدليل قوله :

﴿وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.. (٩٣)﴾ [النحل]

وهذه الآية يقف عندها المتمحكون ، والذين قَصُرَتْ أنظارهم في فهم كتاب الله ، فيقولون : طالما أن الله هو الذي يضل الناس ، فلماذا يُعَذِّبهم ؟ وتتعجب من هذا الفهم لكتاب الله ونقول لهؤلاء : لماذا أخذتم جانب الضلال وتركتم جانب الهدى ؟ لماذا لم تقولوا : طالما أن الله بيده الهداية ، وهو الذي يهدي ، فلماذا يدخلنا الجنة ؟

إذن : هذه كلمة يقولها المسرفون : لأن معنى :

﴿يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.. (٩٣)﴾ [النحل]

أى : يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال ، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية ، مثل ما يحدث عندنا في لجان الامتحان ، فلا نقول : اللجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً ، فليست هذه مهمتها ، بل مهمتها أن تنتظر أوراق الإجابة ، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك .

وكذلك الحق - تبارك وتعالى - لا يجعل العبد ضالاً ، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضال : فالمعنى إذن : يحكم بضلال مَنْ يشاء ، ويحكم بهدى مَنْ يشاء ، وليس لأحد أن ينقل الأمر إلى عكس هذا الفهم ، بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿وَلَتَسألُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)﴾ [النحل]

فالعبد لا يُسأل إلا عما عملت يداه ، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار في العمل ، وكيف تسأل عن شيء لا تدخل لك فيه ؟ فلنفهم - إذن - عن الحق تبارك وتعالى مُرَادُهُ من الآية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤)

وردت كلمة الدُّخْلُ في الآية قبل السابقة وقلنا : إن معناها : أن تُدْخَلَ في الشيء شيئاً أدنى منه من جنسه على سبيل الغش والخداع ، وإن كان المعنى واحداً في الآيتين فإن الآية السابقة جاءت لتوضيح سبب الدُّخْلِ وعلته ، وهي أن تكون أمة أربى من أمة ، ويكسب أحد الأطراف على حساب الآخر . أما في هذه الآية فجاءت لتوضيح النتيجة من وجود الدُّخْل ، وهي :

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ..﴾ (٩٤)

[النحل]

ففي الآية نَهْيٌ عن اتخاذ الأيمان للغش والخداع والتدليس ؛ لأن نتيجة هذا الفعل فساد يأتي على المجتمع من أساسه ، وفقد للثقة المتبادلة بين الناس والتي عليها يقوم التعامل ، وتُبنى حركة الحياة ، فالذي يُعطى عهداً ويُخلفه ، ويحلف يميناً ويحنث^(١) فيه يشتهر عنه أنه مُخلف للعهد ناقض للميثاق .

وبناءً عليه يسحب الناس منه الثقة فيه ، ولا يجرؤ أحد على

(١) حنث في يمينه : لم يَفِ باليمين . [القاموس القويم ١/ ١٧٥] .

الصَّفَقُ^(١) معه ، فيصبح مَهِينًا يَنْفُضُ الناسُ أَيْدِيَهُمْ مِنْهُ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ آمِينًا وَأَهْلًا لِلثِّقَةِ وَمَحَلًّا لِلتَّقْدِيرِ^(٢) .

هذا معنى قوله تعالى :

﴿ فَتَزِلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا .. ﴾ (١١)

[النحل]

وبذلك يسقط حَقُّهُ مع المجتمع ، ويحقيق به سوء فعله ، ويجنى بيده ثمار ما أفسده في المجتمع ، وبانتشار هذا الخُلُق السيء تتعطل حركة الحياة ، وتضيع الثقة والأمانة .

إذن : هذه زَلَّةٌ وَكِبْوَةٌ بعد ثبات وقوة ، بعد أَنْ كَانَ أَهْلًا لِلثِّقَةِ صاحب وفاء بالعهود والمواثيق يُقْبَلُ عليه الناس ، وَيُحِبُّونَ التعامل معه بما لديه من شرف الكلمة وَصِدْقِ الوعد ، فإذا به يتراجع للوراء ، ويتقهقر للخلف ، ويفقد هذه المكانة .

ولذلك نجد أهل المال والتجارة يقولون : فلان اهتزَّ مركزه في السوق أى : زَلَّتْ قدمه بما حدث منه من نَقْضٍ للعهود ، وَجِثَتْ في

(١) تصافقوا . تبايعوا . وصفق يده بالبيعة والبيع وعلى يده صفقا : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . [لسان العرب - مادة : صفق] .

(٢) أخرج أبو داود في سننه (٢٢٨١) والبيهقي في السنن الكبرى (٧٨/٦) وكذا في السنن الصغرى (٢٢٠١) والحاكم في مستدركه (٥٢/٢) من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل . أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه . فإذا خانه خرجت من بينهما » .

قال الطيبي رحمه الله : « الشركة عبارة عن اختلاط أموال بعضهم ببعض بحيث لا يتميز ، وشركة الله تعالى إياهما على الاستعارة ، كانه تعالى جعل البركة والفضل والربح بمنزلة المال المخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثهما » . نقله شمس الدين العظيم آبادي في عون المعبود (١٧٠/٥) .

الايمان وغير ذلك مما لا يليق بأهل الثقة في السوق ، ومثل هذا ينتهى به الامر الى أن يعلن إفلاسه في دنيا التعامل مع الناس

أما الوفاء بالعهود والمواثيق والأيمان فيجعل قدمك في حركة الحياة ثابتة لا تتزعزع ولا تهتز ، فتري مال الناس جميعاً ماله ، وتجد اصحاب الاموال مقبلين عليك يضعون أموالهم بين يديك ، بما تتمتع به من سمعة طيبة ونزاهة وأمانة في التعامل .

ولذلك ، فالتشريع الإسلامى حينما شرع لنا الشركة راعى هذا النوع من الناس الذى لا يملك إلا سمعة طيبة وأمانة ونزاهة ووفاء ، هذا هو رأس مالهم ، فإن دخل شريك بما لديه من رأس المال ، فهذا شريك بما لديه من شرف الكلمة وشرف السلوك ، ووجاهة بين الناس ، وماضٍ مشرف من التعامل .

وهذه يسمونها « شركة الوجوه والاعيان » وهذا الوجيه في دنيا المال والتجارة لم يأخذ هذه الوجاهة إلا بما اكتسبه من احترام الناس وثقتهم ، وبما له من سوابق فضائل ومكارم .

وكذلك ، قد نرى هذه الثقة لا في شخص من الاشخاص ، بل نراها في ماركة من الماركات أو العلامات التجارية ، فنراها تُباع وتُشتري ، ولها قيمة غالية في السوق بما نالته من احترام الناس وتقديرهم ، وهذا أيضاً نتيجة الصدق والالتزام والامانة وشرف الكلمة .

وقوله تعالى :

﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)﴾

[النحل]

السوء : أى العذاب الذى يسوء صاحبه فى الدنيا من مهانة واحتقار بين الناس ، وكساد فى الحال ، بعد أن سقط من نظر المجتمع ، وهدم جسر الثقة بينه وبين مجتمعه .

وقوله تعالى :

﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. (٩٤)﴾

[النحل]

الحديث هنا عن الذين ينقضون العهود والأيمان ولا يوفون بها ، فهل فى هذا صدٌّ عن سبيل الله ؟

نقول : أولاً إن معنى سبيل الله : كل شئ يجعل حركة الحياة منتظمة تُدار بشرف وأمانة وصدق ونفاذ عهد .

ومن هنا ، فالذى يُخلف العهد ، ولا يفى بالمواثيق يعطى للمجتمع قدوة سيئة تجعل صاحب المال يضمنُ بعاله ، وصاحب المعروف يتراجع ، فلو أقرضت إنساناً وغدرَ بك فلا أظنك مُقرضاً لآخر .

إذن : لا شك أن فى هذا صدّاً عن سبيل الله ، وتزهيداً للناس فى فعل الخير .

وقوله تعالى :

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٥)﴾

[النحل]

فبالإضافة إلى ما حاقَ بهم من خسارة فى الدنيا ، وبعد أن زلّت بهم القدم ، ونزل بهم من عذاب الدنيا ألواناً ما زال ينتظرهم عذاب عظيم أى فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية ينهانا ويحذّرنا : إياك أن تجعل عهدَ الله الذي أكدته للناس ، وجعلت الله عليه كفيلاً ، فبعد أن كنت حُرّاً في أن تعاهد أو لا تعاهد ، فبمجرد العهد أصبح نفاذه واجباً ومفروضاً عليك .

أو : عهد الله - أى - شرعه الذى تعاهدت - على العمل به والحفاظ عليه ، وهو العهد الإيمانى الأعلى ، وهو أن تؤمن بالله وبصدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتلتزم بكل ما جاء به الرسول من أحكام ، إياك أن تقابله بشيء آخر تجعله أغلى منه ؛ لأنك إن نقضت عهد الله لشئ آخر من متاع الدنيا الزائل فقد جعلت هذا الشئ أغلى من عهد الله ؛ لأن الثمن مهما كان سيكون قليلاً .

ثم يأتى تعليل ذلك فى قوله :

﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ [النحل]

فالخير في الحقيقة ليس في متاع الدنيا مهما كثر ، بل فيما عند الله تعالى ، وقد أوضح ذلك في قوله تعالى :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ (٩٦) [الأنحل]

ولنا وقفة مع قوله تعالى :

﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..﴾ (٩٥)

فهذا أسلوب تأكيد بالقصر بإعادة الضمير (هو) ، فلم يَقُلِ الحق سبحانه إنما عند الله خير لكم ، فيحتمل أن ما عند غيره أيضاً خير لكم ، أما في تعبير القرآن ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى : الخير فيما عند الله على سبيل القَصْرِ ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٨١)

[الشعراء]

فجاء بالضمير « هو » ليؤكد أن الشافي هو الله لوجود مظنة أن يكون الشفاء من الطبيب ، أما في الأشياء التي لا يُظَنُّ فيها للمشاركة فتأتى دون هذا التوكيد كما في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ (٨١)

[الشعراء]

فلم يقل : هو يميتنى هو يحيى : لأنه لا يميت ولا يحيى إلا الله ، فلا حاجة للتوكيد هنا .

ما الذى يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد ؟

الذى يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد أن يرى مصلحة سطحية فوق ما تعاقد عليه يجعله يخرج عما تعاقد عليه إلى هذه السطحية ، ولكنه لو عقل وتدبّر الأمر لعلم أن ما يسعى إليه ثمن بخس ، ومكسب قليل زائل إذا ما قارنه بما ادخر له فى حالة الوفاء : لأن ما أخذه حظاً من دنياه لا بدّ له من زوال .

والعقل يقول : إن الشيء ، إذا كان قليلاً باقياً بفضل الكثير الذى لا يبقى ، فما بالك إذا كان القليل هو الذى يفتنى ، والكثير هو الذى يبقى .

ومثال ذلك : لو أعطيتُك فاكهة تكفيك أسبوعاً أو شهراً فاكلتها في يوم واحد ، فقد تمتعتَ بها مرة واحدة ، وفاتك منها مُتَعٌ واكلاتٌ متعددة لو أكلتها في وقتها .

لذلك : فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهك أنْ ما عند الله هو الخير الحقيقي ، فجعل موازينك الإيمانية دقيقة ، فمن الحُق أن تتبع الكثير الباقي بالقليل الفانى :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ﴾ [النحل]

في الآية دِقَّةُ الحساب ، ودِقَّةُ المقارنة ، ودِقَّةُ حُلِّ المعادلات الاقتصادية .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

يُوضِّحُ الحق تبارك وتعالى أن حظَّ الإنسان من دُنْيَاه عَرَضٌ زائل ، فإِذَا أنْ تَفُوتَه بالموت ، أو يفوتك هو بما يجرى عليك من أحداث ، أما ما عند الله فهو بَاقٍ لا يفاد له .

﴿ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦) ﴾ [النحل]

كلمة ﴿ صَبَرُوا ﴾ تدلُّ على أن الإنسان سيتعرَّضُ لهزَّات نفسية نتيجة ما يقع فيه من التردد بين الوفاء بالعهد أو نقضه ، حينما يلوح

له بريق المال وتتحرك بين جنباته شهوات النفس ، فيقول له الحق تبارك وتعالى : اصبر .. اصبر لا تكن عَجُولاً ، وقارن المسائل مقارنة هادئة ، وتحمل كل مشقة نفسية ، وتغلب على شهوة النفس ؛ لتصل إلى النتيجة المحمودة .

فالتلميذ الذي يجتهد ويتعب ويتحمل مشقة الدرس والتحصيل يصبر على الشهوات العاجلة لما ينتظره من شهوات باقية آجلة ، فوراء الدرس والتحصيل غاية أكبر وهَدَفٌ أسمى .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦)﴾ [النحل]

أى : على مشقات الوفاء بالعهود .

﴿أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [النحل]

أى : أجراً بالزيادة فى الجزاء على أحسن ما يكون ؛ فالإنسان حين يعمل مفروضاً أو مندوباً فله الجزاء ، أما المباح فالمفروض ألا جزاء له ، ولكن فضل الله يجزى عليه أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾

الحق تبارك وتعالى يُعطينا قضية عامة ، هى قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، فالعهود كانت عادةً تقع بين الرجال ، وليس للمرأة

سُورَةُ النِّحْلِ

٨١٩

تَدْخُلُ فِي إِعْطَاءِ الْعَهْدِ ، حَتَّى إِذَا لَمَّا دَخَلْتُ فِي عَهْدٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ
يَوْمَ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ جَعَلَ وَاحِدًا مِنَ الصَّحَابَةِ يَبَايِعُ النِّسَاءَ نِيَابَةً عَنْهُ^(١)

إِذَنْ : الْمَرْأَةُ بَعِيدَةٌ عَنْ هَذَا الْمَعْتَرَكِ نَظَرًا لِأَنَّ هَذَا مِنْ خِصَائِصِ
الرِّجَالِ عَادَةً ، أَرَادَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَقُولَ لَنَا : نَحْنُ لَا نَمْنَعُ أَنْ
يَكُونَ لِلْأُنْثَى عَمَلٌ صَالِحٌ .

وَلَا تَظُنَّ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ مَنْسَحَبَةٌ عَلَى الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ ، فَالْعَمَلُ
الصَّالِحُ مَقْبُولٌ مِنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ ، شَرِيعَةٌ أَنْ يَتَوَقَّرَ لَهُ
الْإِيمَانُ ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى :

[النحل]

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ (١٧)

وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْعَمَلُ لَهُ جَدْوًى وَيَكُونُ مَقْبُولًا عِنْدَ اللَّهِ : وَلِذَلِكَ نَرَى
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ أَعْمَالًا صَالِحَةً ، وَيَخْدُمُونَ الْبَشَرِيَّةَ
بِالْإِخْتِرَاعَاتِ وَالْإِكْتِشَافَاتِ ، وَيَدَاوُونَ الْمَرْضَى ، وَيَبْنُونَ الْمَسْتَشْفِيَاتِ
وَالْمَدَارِسَ ، وَلَكِنْ لَا يَتَوَقَّرُ لَهُمْ شَرْطُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ .

فَنَرَى الْحَقَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَبْخُسُ هَؤُلَاءِ حَقَّهُمْ ، وَلَكِنْ يُعْجَلُ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا : لَا تَهْ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي أَجْرِ الْآخِرَةِ ، يَقُولُ تَعَالَى :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ
الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠)

[الشورى]

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

(١) ذَكَرَ ابْنُ مَشَامٍ فِي السِّيَرَةِ (٤٦٦/٢) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا كَانَ
يَأْخُذُ طَلِيقِينَ ، فَإِذَا أَفْرَرْنَ ، قَالَ : اذْمَعِنَ فَقَدْ بَايَعْتَكُنَّ .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾
[الزلزلة]

وهذا كله خاصٌ بأمور الدنيا ، فالذي يحسن شيئاً ينال ثمرته ، لكن في جزاء الآخرة نقول لهؤلاء : لا حَظَّ لكم اليوم ، وخذوا أجركم ممَّنْ عملتُمْ له فقد عملتُمْ الخير للإنسانية للشهرة وخلود الذكر ، وقد أخذتم ذلك في الدنيا فقد خلدوا ذكراكم ، ورفعوا شأنكم ، وصنعوا لكم التماثيل ، ولم يبخسوكم حَقَّكم في الشهرة والتكريم .

ويوم القيامة يواجههم الحق سبحانه وتعالى : فعلتم ليقال .. وقد قيل ، فاذهبوا وخذوا ممَّنْ عملتم لهم^(١) .

هؤلاء الذين قال الله في حقهم :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ^(٢) يَخْشُبُهَا الطَّمَانُ مَاءٌ جَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَرَجَدَ اللَّهُ عَذْبَهُ فُوقَهُمْ جَسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾
[النود]

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه . حتى ألقي في النار ، الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) وأحمد في مسنده (٢٢٢/٢) .

(٢) القاع والقيعة : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والاكمام . [القاموس القويم ١٣٧/٢] والسراب : ما تراءى في نصف النهار في الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء . [القاموس القويم ٣٠٨/١] .

يُفَاجَأُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ لَهُ إِلَهًا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَيَعْمَلَ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ وَمَرْضَاتِهِ .

إِنَّ : فالإيمان شَرْطٌ لقبول العمل الصالح ، فإذا ما توفر الإيمان فقد استوى الذَّكَرُ والانثى في الثواب والجزاء .

يقول تعالى :

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ (٩٧) ﴾ [النحل]

هذه هي النتيجة الطبيعية للعمل الصالح الذي يبتغى صاحبه وجه الله والدار الآخرة ، فيجمع الله له حظين من الجزاء ، حظًا في الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة^(١) ، وحظًا في الآخرة :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾

الاستعاذة : اللجوء والاعتصام بالله من شيء تخافه ، فأنت لا تلجأ ولا تعتصم ، ولا تستجير ولا تستنجد إلا إذا استشعرت في نفسك أنك ضعيف عن مقاومة عدوك .

فإذا كان عدوك الشيطان بما جعل الله له من قوة وسلطان ،

(١) نقل القرطبي في تفسيره خمسة أقوال في تأويل الحياة الطيبة :

الاول : الرزق الحلال ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء .

الثاني : القناعة ، قاله الحسن البصري وعلى بن أبي طالب .

الثالث : توفيقه إلى الطاعات ، فإنها تؤديه إلى رضوان الله . قال معناه الضحاك .

الرابع : الجنة ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد . قال الحسن البصري : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة .

الخامس : حلالة الطاعة ، قاله أبو بكر الوراق .

وما له من مداخل للنفس البشرية فلا حَوْلَ لك ولا قُوَّة في مقاومتها إلا أن تلجأ إلى الله القوي الذي خلقك وخلق هذا الشيطان ، وهو القادر وحده على رَدِّه عنك ؛ لأن الشيطان في معركة مع الإنسان تدور رحاها إلى يوم القيامة .

وقد أقسم الشيطان للحق تبارك وتعالى ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾

[ص]

فما عليك إلا أن تكون من هؤلاء ، ما عليك إلا أن ترتدى في حضن ربك عز وجل وتعتصم به ، فهو سبحانه القوى القادر على أن يدفع عنك ما لم تستطع أنت دفعه عن نفسك ، فلا تقاومه بقوتك أنت ؛ لأنه لا طاقة لك به ، ولا تدعه ينفرد بك ؛ لأنه إن انفرد بك وأبعدك عن الله فسوف تكون له الغلبة .

ولذلك نقول دائماً : لا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله ، أى : لا حول : لا تحول عن المعصية . ولا قوة . أى : على الطاعة إلا بالله .

ونحن نرى الصبي الصغير الذي يسير في الشارع مثلاً قد يتعرض لمن يعتدى عليه من أمثاله من الصبية ، أما إذا كان في صحبة والده فلا يجرؤ أحد منهم أن يتعرض له ، فما بالك بمن يسير في صحبة ربه تبارك وتعالى ، ويلقى بنفسه في حماية الله سبحانه ؟!

وفي مقام الاستعانة بالله نذكر قاعدة إيمانية علمنا إياها

سُورَةُ النِّجَالِ



الرسول ﷺ في حديثه الشريف : « من استعاذ بالله فاعيدوه »^(١) .

فيلزم المؤمن أن يعيد من استعاذ بالله ، وإن كان في أحب الأشياء إليه ، والرسول ﷺ يعطينا القدوة في ذلك ، حينما تزوج من فتاة^(٢) على قدر كبير من الحسن والجمال لدرجة أن نساءه غرن منها ، وأخذن في الكيد لها وزحزحتها من أمامهن حتى لا تغلبهن على قلب النبي ﷺ ، ولكن كيف لهن ذلك ؟

حاولن استغلال أن هذه الفتاة ما تزال صغيرة غرة ، تتمتع بسلامة النية وصفاء السريرة ، ليس لديها من تجارب الحياة ما تتعلم منه لؤماً أو مكرًا ، وهي أيضاً ما تزال في نشوة فرحتها بأن أصبحت أمًا للمؤمنين ، وتحرص كل الحرص على إرضاء النبي ﷺ فاستغل نساء النبي ﷺ هذا كله ، وقالت لها إحداهن : إذا دخلت على رسول الله فقولى له : أعوذ بالله منك ، فإنه يحب هذه الكلمة .

أخذت الفتاة هذه الكلمة بما لديها من سلامة النية ، ومحبة لرسول الله ، وحرص على إرضائه ، وقالت له : أعوذ بالله منك ، وهي لا تدري معنى هذه العبارة فقال ﷺ : « لقد عُدْتُ بمعاذ ، الحقى بأهلك »^(٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٠/١) ، وأبو داود في سننه (٥١٠٨) والنسائي في سننه (٨٢/٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « من استعاذ بالله فاعيدوه ، ومن سالكم بوجه الله فاعطوه » .

(٢) هي ابنة الجون . قال ابن حجر المصقلاني في الفتح (٢٥٧/٩) : « الصحيح أن اسمها أميمة بنت النعمان بن شراحيل الكلبية » .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٥٤ - ٥٢٥٧) ، وابن ماجه في سننه (٢٠٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

أى : ما دُمْتُ استعذت بالله فأنا قبلت هذه الاستعاذة : لأنك استعذت بمعاذ أى : بمن يجب علينا أن نتركك من أجله ، ثم طلقها النبى ﷺ امتثالاً لهذه الاستعاذة .

إذن : مَنْ استعاذ بالله لا بُدَّ للمؤمن أن يُعيذه ، ومن استجار بالله لا بُدَّ للمؤمن أن يكون جندياً من جنود الله ، ويجيره حتى يبلغ مأمته .
وفى الآية الكريمة أسلوب شرط ، اقترن جوابه بالفاء فى قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَعِذْ .. (٩٨) ﴾

[النحل]

فإذا رأيت الفاء فاعلم أن ما بعدها مترتبٌ على ما قبلها ، كما لو قلتَ : إذا قابلت محمداً فقلْ له كذا .. فلا يتم القول إلا بعد المقابلة . أما فى الآية الكريمة فالمراد : إذا أردت قراءة القرآن فاستعِذْ ؛ لأن الاستعاذة هنا تكون سابقة على القراءة ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾

[المائدة]

فالمعنى : إذا أردتُمْ إقامة الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، وكذلك إذا أردتَ قراءة القرآن فاستعِذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأن القرآن كلام الله .

ولو آمنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتكلم لعلمنا أن قراءة القرآن تختلف عن أى قراءة أخرى ، فأنت كى تقرأ القرآن تقوم بعمليات متعددة :

أولها : استحضار قداسة المنزل الذي آمنتَ به وأقبلتَ على كلامه .

ثانيها : استحضار صدق الرسول في بلاغ القرآن المنزل عليه .

ثالثها : استحضار عظمة القرآن الكريم ، بما فيه من أوجه الإعجاز ، وما يحويه من الآداب والأحكام .

إذن : لديك ثلاث عمليات تستعد بها لقراءة كلام الله في قرآنه الكريم ، وكل منها عمل صالح لن يدعك الشيطانُ تؤديه دون أن يتعرض لك ، ويؤسوس لك ، ويصرفك عما أنت مُقبلٌ عليه .

وساعتها لن تستطيع منعه إلا إذا استعنتَ عليه بالله ، واستعذتَ منه بالله ، وبذلك تكون في معية الله منزل القرآن سبحانه وتعالى ، وفي رحاب عظمة المنزل عليه محمد صدقاً ، ومع استقبال ما في القرآن من إعجاز وآداب وأحكام .

ومن هنا وجب علينا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل قراءة القرآن .

ومع ذلك لا مانع من حَمْل المعنى على الاستعاذة أيضاً بعد قراءة القرآن ، فيكون المراد : إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله .. أى : بعد القراءة ؛ لأنك بعد أن قرأت كتاب الله خرجتَ منه بزيادة إيمانٍ وتجليات ربانية ، وتعرضتَ لآداب وأحكام طُلِبَت منك ، فعليك - إذن - أن تستعيز بالله من الشيطان أن يفسد عليك هذا الزاد وتلك التجليات ، أو يصرفك عن أداء هذه الآداب والأحكام .

وقوله تعالى :

﴿ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾

[النحل]

أى : الملعون المطرود من رحمة الله : لأن الشيطان ليس مخلوقاً جديداً يحتاج أن تُجرِّبه لتعرف طبيعته وكيفية التعامل معه ، بل له معنا يسوابق عداً منذ أبينا آدم عليه السلام .

وقد حذر الله تعالى آدم منه فقال :

﴿ يٰٓآدَمُ إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ.. (١١٧) ﴾

[طه]

وسبق أن رُجم ولعن وأبعد من رحمة الله ، فقد هددنا بقوله :

﴿ لَأَحْتَكِنَ^(١) ذُرِّيَّتَهُ.. (٦٢) ﴾

[الإسراء]

إنن : هناك عداوة مسبقة بيننا وبينه منذ خلق الإنسان ، وإلى قيام الساعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءٰمَنُوا وَعَلَىٰ

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١١) ﴾

لحكمة أرادها الخالق سبحانه أن جعل للشيطان سلطاناً . أى :

تسلطاً .

(١) احتكك فلاناً : استولى عليه واستعماله إليه فلا يفرج عن طوعه على المجاز ، كأنه وضعه فى حنكه فلا يفلت منه . وقوله معناه : أى لاملكن أمرهم واستولى عليهم فلا يمحسون أمرى . [القاموس القويم ١/ ١٧٥] .

وكلمة (السلطان) مأخوذة من السَّليط ، وهو الزيت ^(١) الذي كانوا يُوقِدُون به السُّرُج والمصابيح قبل اكتشاف الكهرباء ، فكانوا يضعون هذا الزيت في إناء مغلق مثل السلطانية يخرج منه فتيلة ، وعندما توقد تمتص من هذا الزيت وتُضيء ؛ ولذلك سُمِّيَت الحجة سُلطاناً ؛ لأنها تنير لصاحبها وجه الحق .

والسلطان ، إما سلطان حجة تقنعك بالفعل ، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به . وإما سلطان قَهْرٍ وغلبة يجبرك على الفعل ويحكمك عليه قَهراً دون اقتناع به .

إذن : تنفيذ المطلوب له قوتان : قوة الحجة التي تُضيء لك وتُوضِّح أمامك معالم الحق ، وقوة القهر التي تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع وإن لم ترها .

والحقيقة أن الشيطان لا يملك أيًا من هاتين القوتين ، لا قوة الحجة والإقناع ، ولا قوة القهر . وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى على لسان الشيطان يوم القيامة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ^(٢) وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ

(١) قال ابن الأعرابي : السليط عند عامة العرب الزيت . وعند أهل اليمن : دهن السمس . وقال الزجاج : اشتقاق السلطان من السليط . والسليط ما يُضاه به . [لسان العرب - مادة : سلط] .

(٢) أى : بمفيتكم . والمصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة . والمصرخ هو المغيث . [تفسير القرطبي ٢٦٩٤/٥] .

﴿بِمَا أَشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

هذا حوار يدور يوم القيامة بعد أن انتهت المسألة وتكشفت الحقيقة ، وجاء وقت المصارحة والمواجهة . يقول الشيطان لأوليائه مُتَنَصِّلاً من المسؤولية : ما كان عندي من سلطان عليكم ، لا سلطان حجة تقنعكم أن تفعلوا عن رضا ، ولا سلطان قهر أجبركم به أن تفعلوا وأنتم كارهون ، أنا فقط أشرتُ ووسوستُ فأتيتموني طائعين .

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ (٢٣) [إبراهيم]

أى : نحن فى الخيبة سواء ، فلا أستطيع نجدتكم ، ولا تستطيعون نجدتى ؛ لأن الصُراخ يكون من شخص وقع فى ضائقة أو شدة لا يستطيع الخلاص منها بنفسه ، فيصرخ بصوت عال لعله يجد مَنْ يُغِيثُهُ وَيُخَلِّصُهُ ، فإذا ما استجاب له القوم فقد أصرخوه . أى : أزالوا سبب صُراخه .

إذن : فالمعنى : لا أنا أستطيع إزالة سبب صراخكم ، ولا أنتم تستطيعون إزالة سبب صُراخى .

وكذلك فى حوار آخر دار بين أهل الباطل الذين تكاثفوا عليه فى الدنيا ، وما هى المواجهة يوم القيامة :

﴿وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ (٣٠)﴾ [الصفات]

والمراد بقوله : (عَنْ الْيَمِينِ) أن الإنسان يزاول أعماله بكلتا

يديه ، لكن اليد اليمنى هي العُدة في العمل ، فأتيت به عن اليمين .
أى : من ناحية اليد الفاعلة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ (٢٠)

[الصفاف]

أى : فى انتظار إشارة منا ، مجرد إشارة ، فسارعتم ووقعتم
فيما وقعتم فيه .

فعلى مَنْ يكون تسلط الشيطان وتلك الغلبة والقهر ؟

يُوضَح الحق تبارك وتعالى أن تسلط الشيطان لا يقع على مَنْ
أمن به رباً ، ولجأ إليه واعتصم به ، وما دُمْتَ آمناً بالله فأنت فى
مَعِيَّتِهِ وحَفْظِهِ ، ولا يستطيع الشيطان وهو مخلوق لله تعالى أن
يتسلط عليك أو يظلمك .

إنن : الحصن الذى يقينا كَيْدَ الشيطان هو الإيمان بالله والتوكل
عليه سبحانه .

فعلى مَنْ إنن يتسلط الشيطان ؟

يُوضَح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ

وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (١٠)

معنى يتولونه : أى يتخذونه ولياً يطيعون أمره ، ويخضعون
لوسوسته ، ويتبعون خطواته :

﴿ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل]

أى : مشركون بالله ، أو يكون المعنى : وهم به أى بسببه أشركوا : لأنه أصبح له أوامر ونواه وهم يطيعونه ، وهذه هى العبادة بعينها ، فكانهم عبدوه من دون الله بما قدّموه من طاعته فى أمره ونهيه .

وقد سمى الله طريقة الشيطان فى الإضلال والغواية وسوسة ، والوسوسة فى الحقيقة هى صوت الحُلَى حينما يتحرك فى أيدى النساء ، فيحدث صوتاً رقيقاً فيه جاذبية وإغراء تهيج له النفس ، وكذلك الشيطان يدخل إليك عن طريق الإغراء والتزيين ، فإذا ما هاجت عليك نفسك وحدثتك بالمعصية تركك لها ، فعند هذه النقطة تنتهى مهمته .

ولكن ، هل النفس لا تفعل المعصية إلا بوسوسة الشيطان ؟

قالوا : لا ، فالنفس - والمراد هنا النفس الأمارة بالسوء - قد تفعل المعصية من نفسها دون وسوسة من الشيطان ، وقد يؤسوس الشيطان لها ، وينزعها نزغاً ويؤلبها ، ويؤزّين لها معصية ما كانت على بالها .

فكيف - إذن - يفرّق بين هاتين المعصيتين ؟

النفس حينما ترغب فى معصية أو شهوة تراها تقف عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، وإذا قاومت نفسك ، وحاولت صرفها عن هذه الشهوة ألحّت عليك بها ، وطلبتها بعينها ، فشهوة النفس إذن ثابتة : لأنها تشتهى شيئاً واحداً تلح عليه .

سُورَةُ الْفَجَلِ

٨٢٠٧

ولكن حينما يُوسُفُ الشَّيْطَانُ لك بشهوة فوجد منك مقاومة
وقدرة على مجابهته صرف نظرك إلى أخرى : لأنه يريدك عاصياً بأى
شكل من الأشكال ، فتراه يُزَيِّنُ لك معصية أخرى وأخرى ، إلى أن
ينال منك ما يريد .

ومن ذلك ما نراه فى الرشوة مثلاً - والعياذ بالله - فإن رفضت
رشوة المال زين لك رشوة الهدية ، وإن رفضت رشوة الهدية زين
لك الرشوة بقضاء مصلحة مقابلة .

وهكذا يظل هذا اللعين وراءك حتى يصل إلى نقطة ضعف فيك ،
إنن : فهو ليس كالنفس يقف بك عند شهوة واحدة ، ولكنه يريد أن
يوقع بك على أى صورة من الصور .

ولكى نقف على مداخل الشيطان ونكون منه على حذر يجب أن
نعلم أن الشيطان على علم كبير وصل به إلى صفوف الملائكة ، بل
سَمَّوه « طاووس الملائكة » ، ويمكن أن نقف على شيء من علم
الشيطان فى دقة قسَمه ، حينما أقسم للحق تبارك وتعالى أن يغوى
بنى آدم ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٧) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٨) ﴾

[ص]

هكذا عرف الشيطان أن يُقسم القسم المناسب ، فلم يقل : بقوتى
ولا بحجتى سأغوى الخلق ، بل عرف الله تعالى صفة العزة ، فهو
سبحانه عزيز لا يغلب ؛ لذلك ترك لخلق حرية الإيمان به ، فقال :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ (٢٩) ﴾

[الأنعام]

فالمعنى : فبعزتك عن خلقك : يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، سوف أدخل من هذا الباب لإغواء البشر ، ولكننى لا أجرو على الاقتراب ممن اخترتهم واصطفيتهم ، لن أتعرض لعبادك المخلصين ، ولا أدخل لى بهم ، ولا سلطان لى عليهم .

كذلك يجب أن نعلم أن الشيطان دقيق فى تخطيطه ، وهذا من مداخله وتلبيسه الذى يدعونا إلى الحذر من هذا اللعين . فالشيطان لا حاجة له فى أن يذهب إلى الخمارات مثلاً ، فقد كفاه أهلها مشقة الوَسْوسَةِ ، ووقروا عليه المجهود ، هؤلاء هم أولياؤه وأحبابه ومُريحوه بما هم عليه من معصية الله ، ولكنه فى حاجة إلى أن يكون فى المساجد ليُفسد على أهل الطاعة طاعتهم .

وقد أوضح هذه القضية وفطن إليها الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان ، وكان مشهوراً بالفطنة ، وعلى دراية بمداخل الشيطان وتلبيسه ، وكل هذا جعل له باعاً طويلاً فى الإفتاء ، وقد عرض عليه أحدهم هذه المسألة :

قال : يا إمام كان لدى مال دفنته فى مكان كذا ، وجعلتُ عليه علامة ، فجاء السُّيْلُ وطمس هذه العلامة ، فلم أهتم إليه ، فماذا أفعل ؟

فتبسّم أبو حنيفة وقال : يا بُنى ليس فى هذا علم ، ففى أى باب من أبواب الفقه سيجد أبو حنيفة هذه القضية ؟! ولكنى سأحتال لك .

وفعللاً تفتقتُ قريحة الإمام عن هذه الحيلة التى تدل على علمه وفقهه ، قال له : إذا جئت فى الليل فتوضّأ ، وقم بين يدي ربك

مُتَهَجِّدًا . وفى الصباح أخبرنى خبرك .

وفى صلاة الفجر قابله الرجل مُبْتَسِمًا . يقول : لقد وجدتُ
العال ، فقال : كيف ؟ قال الرجل : حينما وقفتُ بين يدي ربي فى
الصلاة تذكرت المكان وذهبتُ فوجدتُ مالى ، فضحك الإمام وقال :
والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تُتِمَّ ليلتك مع ربك .
ثم يقول الحق سبحانه :

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّيهِ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

قوله : ﴿ بَدَّلْنَا ﴾ ومنها : أبدلت واستبدلت ، أى : رفعت آية
وطرحتها . وجئت بأخرى بدلاً منها ، وقد تدخل الباء على الشيء
المترك ، كما فى قوله تعالى :

﴿ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ ۞ (٦١) ﴾ [البقرة]

أى : تتركون ما هو خير ، وتستبدلون به ما هو أدنى .

وما معنى الآية ؟ كلمة آية لها معانٍ متعددة منها :

- الشيء العجيب الذى يلفت الأنظار ، ويُبهر العقول ، كما نقول :
هذا آية فى الجمال ، أو فى الشجاعة ، أو فى الذكاء ، أى : وصل
فيه إلى حدٍّ يدعو إلى التعجب والانبهار .

- ومنها الآيات الكونية ، حينما تتأمل فى كون الله من حولك تجد آيات تدلُّ على إبداع الخالق سبحانه وعجيب صنعته ، وتجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقول تعالى عن هذا النوع من الآيات :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٢٧) [فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٢) [الشورى]

ونلاحظ أن هذه الآيات الكونية ثابتة دائمة لا تتبدل ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا...﴾ (٢٣) [الفتح]

- ومن معانى الآية : المعجزة ، وهى الأمر العجيب الخارق للعادة ، وتأتى المعجزة على أيدي الانبياء لتكون حجة لهم ، ودليلاً على صدق ما جاءوا به من عند الله .

ونلاحظ فى هذا النوع من الآيات أنه يتبدل ويتغير من نبي لآخر : لأن المعجزة لا يكون لها أثرها إلا إذا كان فى شيء نبغ فيه القوم : لأن هذا هو مجال الإعجاز ، فلو أتيناهم بمعجزة فى مجال لا علم لهم به لقالوا : لو أن لنا علماً بهذا لاتينا بمثلته : لذلك تأتى المعجزة فيما نبغوا فيه ، وعلموه جيداً حتى اشتهروا به .

فلما نبغ قوم موسى عليه السلام فى السحر كانت معجزته من

نوع السحر الذى يتحدى سحرهم ، فلما جاء عيسى - عليه السلام -
ونبغ قومه فى الطب والحكمة كانت معجزته من نفس النوع ، فكان
- عليه السلام - يبرىء الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله .

فلما بُعث محمد ﷺ ، ونبغ قومه فى البلاغة والفصاحة والبيان ،
وكانوا يقيمون لها الأسواق ، ويُعلقون قصائدهم على أستار الكعبة
اعتزازاً بها ، فكان لا بُدَّ أَنْ يتحدّاهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه
وهى القرآن الكريم ، وهكذا تتبدّل المعجزات لتناسب كلّ منها حال
القوم ، وتتحدّاهم بما اشتهروا به ، لتكون أدعى للتصديق وأثبت
للحجة .

- ومن معانى كلمة آية : آيات القرآن الكريم التى تُسمّيها حاملة
الاحكام ، فإذا كانت الآية هى الامر العجيب ، فما وجه العجب فى
آيات القرآن ؟

وجه العجب فى آيات القرآن أن تجدَ هذه الآيات فى أمة أمية ،
وأنزلت على نبي أميٍّ فى قوم من البدو الرُّحْل الذين لا يجيدون شيئاً
غير صناعة لقول والكلام الفصيح ، ثم تجدَ هذه الآيات تحمل من
القوانين والاحكام والآداب ما يُرهّب أقوى حضارتين معاصرتين ، هما
حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الرومان فى الغرب ، فنراهم
يتطلّعون للإسلام ، ويبتفنون فى أحكامه ما ينقذهم ، أليس هذا
عجيباً ؟

وهذا النوع الأخير من الآيات التى هى آيات الكتاب الكريم ، والتى
تُسمّيها حاملة الاحكام ، هل تتبدّل هى الأخرى كسابقتها ؟

نقول : آيات الكتاب لا تتبدل ؛ لأن أحكام الله المطلوبة ممن عاصر رسول الله ﷺ كالأحكام المطلوبة ممن تقوم عليه الساعة .

وقد سبق الإسلام باليهودية والمسيحية ، فعندنا أمر رسول الله ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة . اعترض على ذلك اليهود^(١) وقالوا : ما بال محمد لا يثبت على حال ، فيأمر بالشئ اليوم ، ويأمر بخلافه غداً ، فإن كان البيت الصحيح هو الكعبة فصلاتكم لبيت المقدس باطلة ، وإن كان بيت المقدس هو الصحيح فصلاتكم للكعبة باطلة .

لذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ... (١٠١)﴾
[النحل]

فالمراد بقول الحق سبحانه :

﴿آيَةٌ مَكَانَ آيَةٍ... (١٠١)﴾
[النحل]

أى : جئنا بآية تدل على حكم يخالف ما جاء فى التوراة ، فقد كان استقبال الكعبة فى القرآن بدل استقبال بيت المقدس فى التوراة .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ... (١٠١)﴾
[النحل]

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٥٧٤/٢) مرسلًا من حديث الزهري أن القبلة حُرِّفَتْ نحو المسجد الحرام فى رجب على رأس ستة عشر شهرًا من مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وأن اليهود أنشأت تقول : قد اشتاق الرجل إلى بلده ، وبيت أبيه ، وما لهم حتى تركوا قبلتهم يصلون مرة وجهاً ، ومرة وجهاً آخر .

أى : يُنزل كل آية حَسَبَ ظُروفها : أمة وبيئة ومكاناً وزماناً .

وقوله : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۖ ﴾ (١٠١) [النحل]

أى : اتهموا رسول الله ﷺ بالكذب المتعمد ، وأن هذا التحويل من عنده ، وليس وَحياً من الله تعالى : لأن أحكام الله لا تتناقض . ونقول . نعم أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض فى الدين الواحد ، أما إذا اختلفت الأديان فلا مانع من اختلاف الأحكام .

إذن : فآيات القرآن الكريم لا تتبدل ، ولكن يحدث فيها نَسْخٌ ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ ﴾ (١٠٦) [البقرة]

واليك أمثلة للنسخ فى القرآن الكريم :

حينما قال الحق سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ۖ ﴾ (١٦) [التغابن]

جعل الاستطاعة ميزاناً للعمل ، فالمرشع سبحانه حين يرى أن الاستطاعة لا تكفى يُخَفِّفُ عَنَّا الحكم ، حتى لا يُكَلِّفَنَا فوق طاقتنا ، كما فى صيام المريض والمسافر مثلاً ، وقد قال تعالى :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢٨٦) [البقرة]

وقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ (٧) [الطلاق]

فليس لنا بعد ذلك أن نلوى الآيات ونقول : إن الحكم الفلانى لم تَعُدْ النفس تطيقه ولم يَعُدْ فى وُسْعنا ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم الوُسْعَ وَيُكَلِّفُ عَلَى قَدْرِهِ ، فإن كان قد كَلَّفَ فقد علم الوُسْعُ ، بدليل أنه سبحانه إذا وجد مشقة خَفَّفَ عنكم من تلقاء نفسه سبحانه ، كما قال تعالى :

﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا..﴾ (٦٦) [الأنفال]

ففى بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوتهم ، قال تعالى :

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ..﴾ (٦٥) [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى عشرة ، فحينما علم الحق سبحانه فيهم ضعفًا ، قال :

﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..﴾ (٦٦) [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى اثنين . فإله تعالى هو الذى يعلم حقيقة وسُعنا ، ويكلفنا بما تقدر عليه ، ويخفف عنا عند الحاجة إلى التخفيف ، فلا يصح أن نُثَقِم أنفسنا فى هذه القضية ، ونُقدِّر نحن الوسع بأهوائنا .

ومن أمثلة النسخ أن العرب كانوا قديماً لا يعطون الآباء شيئاً من المال على اعتبار أن الوالد مُنْتَه زاهب ، ويجعلون الحظ كله للأبناء على اعتبار أنهم المقبلون على الحياة .

وحينما أراد الحق سبحانه أن يجعل نصيباً للوالدين جعلها وصية فقال :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ^(١) لِلْوَالدَيْنِ..﴾ (١٨٥) [البقرة]

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢١١/١) : « اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين . وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية الموارث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت الموارث المقسمة فريضة من الله يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل مئة الموصى . »

فلما استقر الإيمان في النفوس جعلها ميراثاً ثابتاً ، وغير الحكم من الوصية إلى خير منها وهو الميراث ، فقال تعالى :

﴿وَلَا يُوْثِقُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ.. (١١)﴾ [النساء]

إذن : الحق تبارك وتعالى حينما يغير آية ينسخها بأفضل منها .

وهذا واضح في تحريم الخمر مثلاً ، حيث نرى هذا التدرج المحكم الذي يراعى طبيعة النفس البشرية ، وأن هذا الأمر من العادات التي تمكنت من النفوس ، ولا بد لها من هذا التدرج ، فهذا ليس أمراً عقدياً يحتاج إلى حكم قاطع لا جدال فيه .

فانظر إلى هذا التدرج في تحريم الخمر : قال تعالى :

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً (١) وَرِزْقاً حَسَناً (٢٧)﴾ [النحل]

أهل التذوق والفهم عن الله حينما سمعوا هذه الآية قالوا : لقد بيّن الله للخمر أمراً في هذه الآية : ذلك لأنه وصف الرزق بأنه حسن ، وسكت عن السكر فلم يصفه بالحسن ، فدل ذلك على أن الخمر سيأتي فيه كلام فيما بعد .

وحينما سئل ﷺ عن الخمر ردّ القرآن عليهم :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا.. (٢١٩)﴾ [البقرة]

(١) قال ابن عباس : السكر . الخمر . والرزق الحسن . جميع ما يؤكل ويشرب حلالاً من هاتين الشجرتين . قال ابن العربي : الصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة . فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء . وتحريم الخمر مدني . نقله القرطبي في تفسيره (٢٨٥٢/٥ ، ٢٨٥٤) .

جاء هذا على سبيل النصيح والإرشاد ، لا على سبيل الحكم والتشريع ، فعلى كل مؤمن يثق بكلام ربه أن يرى له مخرجاً من أسر هذه العادة السيئة .

ثم لوحظ أن بعض الناس يُصلى وهو مخمور ، حتى قال بعضهم في صلاته : أعبد ما تعبدون^(١) ، فجاء الحكم :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ.. (٤٣)﴾

[النساء]

ومقتضى هذا الحكم أن يصرفهم عن الخمر معظم الوقت ، فلا تتأتى لهم الصلاة دون سُكْرٍ إلا إذا امتنعوا عنها قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عودهم على تركها معظم الوقت ، كما يحدث الآن مع الطبيب الذي يعالج مريضه من التدخين مثلاً ، فينصحه بتقليل الكمية تدريجياً حتى يتمكن من التغلب على هذه العادة .

وبذلك وصل الشارع الحكيم سبحانه بالنفوس إلى مرحلة ألفت فيها ترك الخمر ، وبدأت تنصرف عنها ، وأصبحت النفوس مهيئة لتقبل التحريم المطلق ، فقال تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ.. (٩٠)﴾

[المائدة]

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٥٠٠/١) سبب نزول هذه الآية أن علي بن أبي طالب قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً ، قال فقروا : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ، فأنزل الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ.. (٤٣)﴾ [النساء] .

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿ ٨٢١٧ ﴾

إذن : الحق سبحانه وتعالى نسخ آية وحكماً بما هو أحسن منه .
والعجيب أن نرى من علمائنا مَنْ يتعصب للقرآن ، فلا يقبل القول
بالنسخ فيه ، كيف والقرآن نفسه يقول :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا .. ﴾ (١٠٦) [البقرة]

قالوا : لأن هناك شيئاً يُسمى البداء^(١) .. ففي النسخ كان الله
تعالى أعطى حكماً ثم تبين له خطؤه ، فعدل عنه إلى حكم آخر .

ونقول لهؤلاء : لقد جانبكم الصواب في هذا القول ، فمعنى
النسخ إعلان انتهاء الحكم السابق بحكم جديد أفضل منه ، وبهذا
المعنى يقع النسخ في القرآن الكريم .

ومنهم مَنْ يقف عند قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا .. ﴾ (١٠٦) [البقرة]

فيقول : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ فيها علة للتبديل ، وضرورة تقتضي
النسخ وهي الخيرية ، فما علة التبديل في قوله : ﴿ أَوْ مِثْلَهَا ﴾ ؟

أولاً : في قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ قد يقول قائل :
ولماذا لم يأت بالخيرية من البداية ؟

نقول : لأن الحق سبحانه حينما قال :

(١) قال السيوطي في الإتقان (٦٠/٣) : أجمع المسلمون على جوازه ، وأنكره اليهود ظناً
منهم أنه بداء ، كالذي يرى الراى ثم يبدو له ، وهو باطل لأنه بيان مدة للحكم كالأحكام
بعد الإمامة وعكسه . والمرض بعد الصحة وعكسه ، وذلك لا يكون بداء ، فكذا الأمر
والنهي ، وقال ابن كثير في تفسيره (١٥١/١) : المسلمون كلهم متفقون على جواز
النسخ في أحكام الله تعالى لما له في ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ.. (١٠٦)﴾ [آل عمران]

وهذه منزلة عالية في التقوى ، لا يقوم بها إلا الخواص من عباد الله ، شَقَّتْ^(١) هذه الآية على الصحابة وقالوا : وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

فنزلت :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ.. (١٠٦)﴾ [التغابن]

وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نسخت الآية الاولى مطلوباً ، ولكنها بقيت ارتقاء ، فَمَنْ ارَادَ أَنْ يَرْتَقِيَ بِتَقْوَاهُ إِلَى (حَقِّ تَقَاتِهِ) فيها ونعمت ، وأكثر الله من أمثاله جزاء خيراً ، وَمَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الاولى :

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ.. (١٠٦)﴾ [آل عمران]

وإن كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قلة ، في حين أن الثانية :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ.. (١٠٦)﴾ [التغابن]

وإن جعلت التقوى على قدر الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير ،

(١) قال سعيد بن جبیر : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم . فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين . ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ.. (١٠٦)﴾ [التغابن] فنسخت الآية الاولى ، ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٧٧/٤) .

ومن هنا كانت الثانية خيراً من الاولى ، كما نقول : قليل دائم خير من كثير منقطع .

أما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِثْلَهَا ﴾ أى : أن الاولى مثل الثانية ، فما وجه التغيير هنا ، وما سبب التبديل ؟

نقول : سببه هنا اختبار المكلف فى مدى طاعته وانصياعه ، إن نُقل من أمر إلى مثله ، حيث لا مشقة فى هذا ، ولا تيسير فى ذاك ، هل سيمتثل ويطيع ، أم سيجادل ويناقش ؟

مثل هذه القضية واضحة فى حادث تحويل القبلة ، حيث لا مشقة على الناس فى الاتجاه نحو بيت المقدس ، ولا تيسير عليهم فى الاتجاه نحو الكعبة ، الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله ^(١) ، فكان من الناس مَنْ قال : سمعاً وطاعة ونفذوا أمر الله فوراً دون جدال ، وكان منهم مَنْ اعترض وأنكر واتهم رسول الله بالكذب على الله .

ومن ذلك أيضاً ما نراه فى مناسك الحج مما سئله لنا رسول الله ﷺ حيث نُقبل الحاجر الأسعد وهو حجر ، ونرمى الجمرات وهى أيضاً حجر ، إذن : هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، بل هى لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾

[النحل]

بل : حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وتقرير كلام جديد ،

(١) وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبِهِ .. (١٢٥) ﴾ [البقرة] .

فالحق سبحانه وتعالى يلغي كلامهم السابق :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ .. ﴾ (١٠١)

[النحل]

ويقول لهم : لا ليس بمفتر ولا كذاب ، فهذا اتهمام باطل ، بل أكثرهم لا يعلمون .

وكلمة ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ هنا ليس بالضرورة أن تقابل بالاقبل ، فيمكن أن نقول : أكثرهم لا يعلمون . وأيضاً : أكثرهم يعلمون كما جاء في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨)

[الحج].

هكذا بالإجماع ، تسجد لله تعالى جميع المخلوقات إلا الإنسان ، فمنه كثير يسجد ، يقابله أيضاً كثير حق عليه العذاب ، فلم يقل القرآن : وقليل حق عليه العذاب .

وعلى فرض أن :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠١)

[النحل]

إذن : هناك أقلية تعلم صدق رسول الله ﷺ في البلاغ عن ربه ، وتعلم كذبهم وافتراءهم على رسول الله حينما اتهموه بالكذب ، ويعلمون صدق كل آية في مكانها ، وحكمة الله المرادة من هذه الآية . فمن هم هؤلاء الذين يعلمون في صفوف الكفار والمشركين ؟

قالوا : لقد كان بين هؤلاء قَوْمٌ أصحاب عقول راجحة ، وفهم
للأمور ، ويعلمون وجه الحق والصواب في هذه المسألة ، ولكنهم
أنكروها ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَعَلُوا بِهَا أَسَافَةً أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُتُوًّا ﴾ (١٤)

[النمل]

وأيضاً من هؤلاء أصحاب عقول يفكرون في الهدى ، ويرادهم
الإسلام ، وكان لديهم مشروع إسلام يُعدون أنفسهم له ، وهم على
علم أن كلام الكفار واتهامهم لرسول الله باطل وافتراء .

وأيضاً من هؤلاء مؤمنون فعلاً ، ولكن تنقصهم القوة الذاتية التي
تدفع عنهم ، والعصبية التي ترد عنهم كيد الكفار ، وليس عندهم
أيضاً طاقة أن يهاجروا ، فهم ما يزالون بين أهل مكة إلا أنهم
مؤمنون ويعلمون صدق رسول الله وافتراء الكفار عليه ، لكن لا قدرة
لهم على إعلان إيمانهم .

وفي هؤلاء يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ
أظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٢٤) هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ
عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ^(١) مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ
وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْنَتُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغِيرَ
عِلْمٍ .. (٢٥)

[الفتح]

أي : تدخلوا على أهل مكة وقد اختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن

(١) الهدى : هي الذبيحة تُهدى إلى الحرم في الحج . [القاموس القويم ٢/ ٢٠١] ومعكوفاً :

محبوساً عن أن يبلغ أماكن تحرره . [القاموس القويم ٢/ ٢٢] .

بالكافر ، فتقتلوا إخوانكم المؤمنين دون علم .

﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥)
[الفتح]

أى : لو كانوا مُمَيِّزِينَ ، الكفار فى جانب ، والمؤمنون فى جانب
لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

إذن : فإن كان أكثرهم لا يعلمون ويتهمونك بالكذب والافتراء فإن
غير الاكثريّة يعلم أنهم كاذبون فى قولهم :

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ..﴾ (١٠١)
[النحل]

وما داموا اتهموك بالافتراء فقلّ ردّا عليهم :

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٢)

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يرد على الكفار افتراءهم على
رسول الله ، واتهامهم له بالكذب المتعمد ، وأنه جاء بهذه الآيات من
نفسه ، فقال له : يا محمد قلّ لهؤلاء : بل نزلّه روح القدس .

والقدس : أى المطهر ، من إضافة الموصوف للصفة ، كما نقول :
حاتم الجود مثلاً . والمراد بـ « روح القدس » سفير الوحي جبريل
عليه السلام ، وقد قال عنه فى آية أخرى :

[الشعراء]

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾

وقال عنه :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾

[التكوير]

وقول الحق سبحانه :

﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .. (١٠٢) ﴾

[النحل]

أى : أن جبريل لم يأت بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، فمُحمد ﷺ لم يأت بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل ، فالقرآن من عند الله ، ليس افتراءً على الله ، لا من محمد ، ولا من جبريل عليهما السلام .

وقوله تعالى :

﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

[النحل]

أى : ليُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا على تصديق ما جاء به الرسول من الآيات ، أن الله تعالى أعلم بما يُنزل من الآيات ، وأن كل آية منها مُناسبة لزمانها ومكانها وبيئتها ، وفي هذا دليل على أن المؤمنين طائعون مُتضاعون لله تعالى مُصدقون للرسول ﷺ في كُلِّ ما بلغ عن ربه تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْنِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٠٣)

وفى هذه الآية اتهام آخر لرسول الله ﷺ وافتراء جديد عليه ، لا يأنف القرآن من إذاعته ، فمن سمع الاتهام والافتراء يجب أن يسمع الجواب ، فالقرآن يريد أن يفضح أمر هؤلاء ، وأن يظهر إفلاس حججهم وما هم فيه من تخبط .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴾ (١٠٣) [النحل]

وقد سبق أن قالوا عن رسول الله « مجنون » وبرأه الله بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) [القلم]

والخلق العظيم لا يكون في مجنون : لان الخلق الفاضل لا يوضع إلا في مكانه ، بدليل قوله تعالى :

﴿ مَا أَنْتَ بِعِيمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (٢) [القلم]

وسبق أن قالوا : ساحر وهذا دليل على أنهم مغفلون يتخبطون في ضلالهم ، فلو كان محمد ساحراً ، فكلم لم يسحركم كما سحر المؤمنين به وتنتهى المسألة ؟

(١) الإلهام : الميل . يقال : لحد والحد . أى . مال عن القصد [تفسير القرطبي ٢٩٠٥/٥] .

وسبق أن قالوا « شاعر » مع أنهم أدري الناس بفنون القول
شِعراً ونثراً وخطابة ، ولم يُجربوا على محمد ﷺ شيئاً من ذلك ،
لكنه الباطل حينما يكج في عناده ، ويتكبر عن قبول الحق .

وهنا جاءوا بشيء جديد يكذبون به رسول الله ، فقالوا :

﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

أى : أن رسول الله ﷺ يتردد على أحد اصحاب العلم ليعلمه
القرآن فقالوا^(١) : إنه غلام لبنى عامر بن لؤى اسمه (يعيش) ،
وكان يعرف القراءة والكتابة ، وكان يجلب الكتب من الأسواق ، ويقرا
قصص السابقين مثل عنبرة وذات الهمة وغيرها من كتب التاريخ .

وقد تضاربت أقوالهم في تحديد هذا الشخص الذى يزعمون أن
رسول الله ﷺ تعلم على يديه ، فقالوا : اسمه « عداس » وقال
آخرون : سلمان الفارسى . وقال آخرون : بلعام وكان حدادا روميا
نصرانيا يعلم كثيرا عن أهل الكتاب .. الخ .

والحق تبارك وتعالى يرد على هؤلاء ، ويظهر إفلاسهم الفكرى ،
وإصرارهم على تكذيب رسول الله ﷺ فيقول :

﴿ لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٤) ﴾

[النحل]

(١) قاله المهدوى عن عكرمة . [ذكره القرطبي في تفسيره ٢٩٠٤/٥] . وذكرت أقوال
أخرى . أنه غلام للفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانيا . ومنها : أنه غلام عتبة بن
ربيعه واسمه عداس . وقيل : عابس غلام حويطب بن عبد العزى . ويسار أبو فكيهة مولى
ابن الحضرمي . وكنا قد أسلمنا :

اللسان هنا : اللغة التي يُتحدَّث بها .

وَيُلْحِدُونَ إِلَيْهِ : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يُعَلِّم رسول الله ﷺ .

اعجمى : أى لغته خفية ، لا يُفصح ولا يُبين الكلام ، كما نرى الأجانب يتحدثون العربية مثلاً .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يقل (عجمى) ، لأن العجم جنس يقابل العرب ، وقد يكون من العجم مَنْ يجيد العربية الفصيحة ، كما رأينا سيبويه^(١) صاحب (الكتاب) أعظم مراجع النحو حتى الآن وهو عجمى .

أما الاعجمى فهو الذى لا يُفصح ولا يُبين ، حتى وإن كان عربياً . وقد كان فى قبيلة لؤى رجل اسمه زياد يُقال له « زياد الاعجمى » ، لأنه لا يُفصح ولا يُبين ، مع أنه من أصل عربى .

إذن : كيف يتأتى لهؤلاء الأعاجم الذين لا يُفصحون ، ولا يكادون ينطقون اللغة العربية ، كيف لهؤلاء أن يُعلِّموا رسول الله ﷺ وقد جاء بمعجزة فى الفصاحة والبلاغة والبيان ؟

كيف يتعلم من هؤلاء ، ولم يثبت أنه ﷺ التقى بأحد منهم إلا (عداس) يُقال : إنه قابله مرة واحدة ، ولم يثبت أنه ﷺ تردّد إلى معلم ، لا من هؤلاء ، ولا من غيرهم ؟

(١) سيبويه : هو عمرو بن عثمان الحرثي بالولاء . أبو بشر ، إمام النحاة . ولد فى إحدى قرى شيراز (١٤٨ م) ، قدم البصرة فلزم الخليل بن أحمد فسأقه . وسيبويه بالفارسية رائحة التفاح . توفي بشيراز ١٨٠ هـ عن ٢٢ عاماً (الاعلام - للزركلى ٨١/٥) .

سُورَةُ النحل

٨٢٢٧

كما أن ما يحويه القرآن الكريم من آيات وأحكام ومعجزات ومعلومات يحتاج في تعلّمه إلى وقت طويل يتلّمذ فيه محمد على يد هؤلاء ، وما جربتم على محمد شيئاً من هذا كله .

وهل يُعقل أن ما في القرآن يمكن أن يطويه صَدْرُ واحد من هؤلاء ١٩ لو حدث لكان له من المكانة والمنزلة بين قومه ما كان للنبي ﷺ من منزلة ، ولا شاروا إليه بالبنان ولذّاع صبيته ، واشتهر أمره ، وشيء من ذلك لم يحدث .

وقوله تعالى :

﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٠٣)

[النحل]

أى : لفته ﷺ ، ولغة القرآن الكريم عربية واضحة مُبينة ، لا لبس فيها ولا غموض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ

اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٠٤)

الحق تبارك وتعالى في قوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. ﴾ (١٠٤)

[النحل]

ينفى عن هؤلاء صفة الإيمان ، فكيف يقول بعدها :

﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. ﴾ (١٠٤)

[النحل]

أليسوا غير مؤمنين ، وغير مهتدين ؟

قلنا : إن الهداية نوعان :

- هداية دلالة وإرشاد ، وهذه يستوى فيها المؤمن والكافر ، فقد دل الله الجميع ، وأوضح الطريق للجميع ، ومنها قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .. ﴾ (١٧) [فصلت]

أى : أرشدناهم ودللناهم .

- وهداية المعونة والتوفيق ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن ، ومنها قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]

إذن : معنى :

﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. ﴾ (١٠٤) [النحل]

أى : هداية معونة وتوفيق .

ويصح أن نقول أيضاً : إن الجهة هنا مُنْفَكَّة إلى شيء آخر ، فيكون المعنى : لا يهديهم إلى طريق الجنة ، بل إلى طريق النار ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) [النساء]

بدليل قوله تعالى بعدها :

[النحل]

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾

ولأنه سبحانه في المقابل عندما تحدث عن المؤمنين قال :

[محمد]

﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا لَهُمْ (٩)﴾

أى : هداهم لها وعرفهم طريقها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾

كان الحق سبحانه وتعالى يقول : وإن افتريتم على رسول الله
واتهمتموه بالكذب فإن الكذب الحقيقى أن تُكذبوا بآيات الله ،
ولا تؤمنوا بها .

ونلاحظ في تذييل هذه الآية أن الحق سبحانه لم يقل : وأولئك
هم الكافرون . بل قال : الكاذبون . ليدل على شناعة الكذب ، وأنه
صفة لا تليق بمؤمن .

ولذلك حينما سئل رسول الله ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال :
« نعم » . لأن الله قال :

[المائدة]

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ .. (٣٨)﴾

فما دام قد شرع حكماً . وجعل عليه عقوبة فقد أصبح الأمر
وارداً ومحتمل الحدوث .

وَسُئِلَ : أَيَزْنِي الْمُؤْمِنُ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، لَأَنَّ اللَّهَ قَالَ :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. (٤) ﴾

[النور]

وَسُئِلَ : أَيْكَذِبُ الْمُؤْمِنُ ؟ قَالَ : لَا ^(١) .

والحديث يُوضِّحُ لَنَا فِظَاعَةَ الْكَذِبِ وَشَنَاعَتَهُ ، وَكَيْفَ أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْهَا عِقَابًا مَعْلُومًا فِي حِينٍ تَرَكَ عِقَابَ الْكَذِبِ لِيُبدَلَ عَلَى أَنَّهَا جَرِيمَةٌ أَعْلَى مِنَ الْعِقَابِ وَأَعْظَمُ .

إِذَنْ : الْكَذِبُ صِفَةٌ لَا تَتَلَقَّى بِالْمُؤْمِنِ ، وَلَا تُتَصَوَّرُ فِي حَقِّهِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا اشْتَهَرَ عَنْ وَاحِدٍ أَنَّهُ كَذَّابٌ لَمَّا اعْتَادَهُ النَّاسُ مِنْ كَذِبِهِ ، فَتَخْشَى أَنْ يَقُولَ بَرَّةٌ : أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَيَقُولُ قَاتِلْ : إِنَّهُ كَذَّابٌ وَهَذِهِ كَذِبَةٌ مِنْ أَكَاذِبِيهِ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ^(٢) :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٦) ﴾

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي مَوْطِئِهِ (ص ١٩٠) عَنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ سَلِيمٍ مَرْسَلًا .

(٢) سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : نَزَلَتْ فِي عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَخَذُوهُ وَأَبَاهُ يَاسِرًا وَأَمَّهُ سَمِيَّةَ وَصَهْبِيَّةَ وَبِلَالًا وَخَبَابًا وَسَلَامًا ، فَأَمَّا سَمِيَّةٌ فَإِنَّهَا رُبِّطَتْ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ ، وَوُجِئَ قَبْلُهَا بِحَرَّةٍ ، وَقِيلَ لَهَا : إِنَّكَ أَسْلَمْتِ مِنْ أَجْلِ الرِّجَالِ ، فَفَتَلَّتْ وَقَتَلَتْ زَوْجَهَا يَاسِرًا ، وَهَمَّا أُولُ قَتِيلَيْنِ قَتَلَا فِي الْإِسْلَامِ .

وَأَمَّا عِمَارٌ فَإِنَّهُ أَعْطَاهُمْ مَا أَرَادُوا بِلِسَانِهِ مَكْرَهُ ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَنِّ عِمَارًا كَفَرَ ، فَقَالَ كَلَّا ، إِنَّ عِمَارًا عَلَى إِيمَانٍ مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ ، وَاخْتَلَطَ الْإِيمَانُ بِلِجَمِهِ وَبِهِ ، فَاتَى عِمَارَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ : إِنَّ عِبَادًا لَكَ فَعَدَّ لَهُمْ بِمَا قُتِلَ ، فَانْزَلِ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ . ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ (ص ١٦٢)

وَتَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ (٢٩٠٧/٥) .

الحق سبحانه وتعالى سبق وأن تحدث عن حكم المؤمنين وحكم الكافرين ، ثم تحدث عن الذين يخلفون العهد ولا يوفون به ، ثم تحدث عن الذين افترؤا على رسول الله والذين كذبوا بآيات الله ، وهذه كلها قضايا إيمانية كان لابد أن تُثار .

وفي هذه الآية الكريمة يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان ليس مجرد أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فالقول وحده لا يكفي ولا بدُّ وأن تشهد بذلك ، ومعنى تشهد أن يُواطىء القلب واللسان كل منهما الآخر في هذه المقولة .

والماتمل لهذه القضية يجد أن القسمة المنطقية تقتضى أن يكون لدينا أربع حالات :

الأولى : أن يُواطىء القلب اللسان إيجاباً بالإيمان ؛ ولذلك نقول : إن المؤمن منطقي في إيمانه ؛ لأنه يقول ما يُضمّره قلبه .

الثانية : أن يُواطىء القلب اللسان سلباً أي : بالكفر ، وكذلك الكافر منطقي في كفره بالمعنى السابق .

الثالثة : أن يؤمن بلسانه ويُضمّر الكفر في قلبه ، وهذه حالة للمنافق ، وهو غير منطقي في إيمانه حيث أظهر خلاف ما يبطن ليستفيد من مزايا الإيمان .

الرابعة : أن يؤمن بقلبه ، وينطق كلمة الكفر بلسانه .

وهذه الحالة الرابعة هي المرادة في هذه الآية . فالحق تبارك وتعالى يعطينا هنا تفصيلاً لمن كفر بعد إيمان ، وما سبب هذا الكفر ؟ وما جزاؤه ؟

قوله :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ .. ﴾ (١٠٦)

[النحل]

هذه جملة الشرط تأخر جوابها إلى آخر الآية الكريمة ، لنقف أولاً على تفصيل هذا الكفر ، فإما أن يكون عن إكراه لا دُخُلَ للإنسان فيه ، فيُجبر على كلمة الكفر ، في حين قلبه مطمئن بالإيمان .

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ .. ﴾ (١٠٦)

[النحل]

ثم سكت عنه القرآن الكريم ليدلنا على أنه لا شيء عليه ، ولا بأس أن يأخذ المؤمن بالتقية ، وهي رخصة تقى الإنسان موارد الهلاك في مثل هذه الأحوال .

وفي تاريخ الإسلام نماذج متعددة أخذت بهذه الرخصة ، ونطقت كلمة الكفر وهي مطمئة بالإيمان .

وفي الحديث الشريف : « رفع عن أمتي : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه »^(١) .

ويذكر التاريخ أن ياسر أبا عمار وزوجه سُمية أول شهيدين في الإسلام ، فكيف استشهدا ؟ كانا من المسلمين الأوائل ، وتعرضوا لكثير من التعذيب حتى عرض عليهم الكفار النطق بكلمة الكفر مقابل

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٩٠٩/٥) : « والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء ، قاله القاضي أبو بكر بن العربي . وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح . قال : وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في الفوائد . وابن المنذر في كتاب الإقناع » .

الغفو عنهما ، فماذا حدث من هذين الشهيدين ؟ صدّعا بالحق وأصرّاً على الإيمان حتى نالا الشهادة في سبيل الله ، ولم يأخذا برخصة التقية .

وكان ولدهما عمار أول مَنْ أَخَذَ بِهَا ، حينما تعرّض لتعذيب المشركين .

وقد بلغ رسول الله ﷺ أن عمار بن ياسر كفر ، فانكر ﷺ هذا ، وقال :

« إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه ، وإن الإيمان في عمار قد اختلط بلحمه ودمه » ^(١) .

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله وهو يبكي ، ثم قص عليه ما تعرّض له من أذى المشركين ، وقال : والله يا رسول الله ما خلّصني من أيديهم إلا أني تناولتك ^(٢) وذكرت آلهتهم بخير ، فما كان من النبي ﷺ إلا أن مسح دموع عمار بيده الشريفة وقال له « إن عادوا إليك فقلّ لهم ما قلت » ^(٣) .

وقد أثارت هذه الرخصة غضب بعض الصحابة ، فراجعوا فيها

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية (١٣٩/١) من ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه » . وأورده الراهدي في أسباب النزول (ص ١٦٢) .

(٢) أي : أنه تناول رسول الله ﷺ بالسب والشتم وذكره بالشر .

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٧٠/٥) وعزاه لعبد الرزاق وابن سعد وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير . ثم تركوه ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال : ما وراءك شيء ؟ قال : شر . ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان ، قال : إن عادوا فعُدّ .

رسول الله ﷺ وقالوا : فما بال بلال^(١) ؟ فقال : « عمار استعمل رخصة ، وبلال صدع بالحق » .

ولا شك أن هاتين منزلتان في مواجهة الباطل وأهله . وأن الصدع بالحق والصبر على البلاء أعلى منزلة ، وأسْمَى درجة من الأخذ بالرخصة : لأن الأول آمن بقلبه ولسانه ، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه الكفر .

لذلك ، ففي حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادة بصدق نبوته ، فقال لرجل : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول في ؟ فقال الرجل في لباقة : وأنت كذلك ، يعني أخرج نفسه من هذا المأزق دون أن يعترف صراحةً بنبوة هذا الكذاب .

فقابل آخر وسأله : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : وما تقول في ؟ فقال الرجل متهمكاً : أجهر لأنى أصبحت أصم الآن ، وأنكر على مسيلمة ما يدعيه فكان جزاؤه القتل . فلما علم رسول الله ﷺ خبرهما قال : « أحدهما استعمل الرخصة ، والآخر صدع بالحق »^(٢) .

(١) وذلك أن بلالاً هانت عليه نفسه في الله ، فجعلوا يُعذّبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول : أحدّ أحدّ ، حتى ملّوه ، ثم كفّوه وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ، ويقعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخميمي مكة . نكروه القرطبي في تفسيره (٢٩٠٨/٥) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٧٢/٥) وعزاه لابن أبي شيبة عن الحسن أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ فاهوى إلى أذنيه فقال : إني أصم . فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم . فأرسله . فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال : « أما صاحبك فمخس على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة » وذكر ابن كثير في تفسيره (٥٨٨/٢) رواية تفيد أن الأول منهما هو حبيب بن زيد الأنصاري .

وقد تحدث العلماء عن الإكراه فى قوله تعالى :

﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ .. (١٠٦)﴾ [النحل]

وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها ، على النحو التالى :

- إذا أكره الإنسان على أمر ذاتى فيه . كان قيل له : اشرب الخمر وإلا قتلتك أو عذبتك قالوا : يجب عليه فى هذه الحالة أن يشربها وينجو بنفسه ؛ لأنه أمر يتعلق به ، ومن الناس من يعصون الله بشربها . فإن قيل له : اكفر بالله وإلا قتلتك أو عذبتك ، قالوا : هو مُخَيَّر بين أن يأخذ بالتقية هنا ، ويستخدم الرخصة التى شرعها الله له ، أو يضدع بالحق ويصمد .

- أما إذا تعلّق الإكراه بحق من حقوق الغير ، كان قيل لك : اقتل فلاناً وإلا قتلتك ، ففى هذه الحالة لا يجوز لك قتله ؛ لأنك لو قتلتَه لَقُتِلْتَ قصاصاً ، فما الفائدة إذن ؟ .

وبعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن حكم مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، يتحدث عن النوع الآخر :

﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا .. (١٠٦)﴾ [النحل]

أى : نطق كلمة الكفر راضياً بها ، بل سعيدة بها نفسه ، مُنْشِراً بها صدره ، وهذا النوع هو المقصود فى جواب الشرط .

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ [النحل]

فإن كانت الآيات قد سكنت عَنْ أَكْرَهَ ، ولم تجعل له عقوبة لأنه مكروه ، فقد بيّنت أن من شرح بالكفر صدرًا عليه غضب من الله أى : فى الدنيا . ولهم عذاب عظيم أى : فى الآخرة .

وكما رأينا فى تاريخ الإسلام نماذج للنوع الاول الذى أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، كذلك رأينا نماذج لمن شرح بالكفر صدراً ، وهم المنافقون ، ومنهم من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، ومنهم عبد الله ابن سعد بن أبى السرح من عامر بن لؤى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٠٧)

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ما استحقوه من العذاب السابق .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ .. ﴾ (١٠٧) [النحل]

استحب : أى أثر وتكلف الحب : لأن العاقل لو نظر إلى الدنيا بالنسبة لعمره فيها لوجدها قصيرة أحقر من أن تُحب لذاتها ، ولوجد الأغيار بها كثيرة تتقلب بأهلها فلا يدوم لها حال ، ينظر فإذا الأحوال تتبدل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى السقم ، ومن القوة إلى الضعف ، فكيف إذن تستحب الدنيا على الآخرة ؟

والحق تبارك وتعالى يريد منا أن نعطي كلاً من الدنيا والآخرة ما يستحقه من الحب ، فنحب الدنيا دون مبالغة فى حبها ، نحبها على أنها مزرعة للآخرة ، وإلا ، فكيف نطلب الجزاء والثواب من الله ؟ لذلك نقول : إن الدنيا أهم من أن تُنسى ، وأنفه من أن تكون غاية ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنْسَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. ﴾ (٧٧)

[الفصم]

ففهم البعض الآية على أنها دعوة للعمل للدنيا وأخذ الحظوظ منها ، ولكن المتأمل لمعنى الآية يجد أن الحق سبحانه يجعل الدنيا شيئاً هيناً مُعَرَّضاً للنسيان والإهمال ، فَيُذَكِّرُنَا بها ، ويَحُثُّنَا على أن نأخذ منها بنصيب ، فإنا لا أقول لك : لا تنسَ الشيء الفلانى إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَةٌ للنسيان ، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال فى الإسلام .

ويكفينَا وَصَفُ هذه الحياة بالدنيا ، فليس هناك وَصْفٌ أَقْلَ من هذا الوصف ، والمقابل لها يقتضى أن نقول : العُلْيَا وهى الآخرة ، نعم نحن لا ننكر قُدْرَ الحياة الدنيا ولا نبخسها حقها ، ففيها الحياة والحسَّ والحركة ، وفيها العمل الصالح والذكرى الطيبة .. إلخ .

ولكنها مع ذلك إلى زوال وفناء ، فى حين أن الآخرة هى الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التى لا يعترىها زوال ، ولا يهددها موت ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [المنكوت]

أى : الحياة الحقيقية التى يجب أن نحرص عليها ونحبها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤) ﴾ [الأنفال]

ما معنى (لِمَا يُحْيِيكُمْ) والقرآن يخاطبهم وهم أحياء يُرْزَقُونَ ؟
فألوا : يُحْيِيكُمْ أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا تزول .

وقوله :

﴿ عَلَى الْآخِرَةِ ۖ (١٠٧) ﴾

[النحل]

لقابل أن يقول : إن الآية تتحدث عن غير المؤمنين بالآخرة ، فكيف يُقال عنهم :

﴿ اسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ۖ (١٠٧) ﴾

[النحل]

نقول : من غير المؤمنين بالآخرة مَنْ قال الله فيهم :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ (٢٨) ﴾

[النحل]

وايضاً منهم مَنْ قال :

﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) ﴾

[الكهف]

إنن : من هؤلاء مَنْ يؤمن بالآخرة ، ولكنه يُفضل عليها الدنيا .

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) ﴾

[النحل]

أى : لا يهديهم هداية معونة وتوفيق . وسبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية دلالة ، ويستوى فيها المؤمن والكافر ، وهداية معونة خاصة بالمؤمن .

إذن : إذا نفيت الهداية ، فالمراد هداية المعونة ، فعدم هداية الله انصببت على الكافر لكونه كافراً ، فكان كفره سبق عدم هدايته ، أو نقول : لكونه كافراً لم يَهْدِهِ الله .

ولذلك يحكم الله على هؤلاء بقوله سبحانه :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ
وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٠٨)

طبع : أى ختم عليها ، وإذا تأملت الختم وجدت المقصود منه أن
الشيء الداخل يظل داخلاً لا يخرج ، وأن الخارج يظل خارجاً
لا يدخل .

وفرق بين ختم للبشر وختم ربنا سبحانه ، فقصارى ما تفعله أن
نختم الأشياء المهمة كالرسائل السرية مثلاً ، أو نريد إغلاق مكان
ما نختم عليه بالشمع الأحمر لتؤكد من غلقه ، ومع ذلك نجد من
يحتال على هذا الختم ويستطيع فضّه وربما أعاده كما كان .

أما إذا ختم الحق سبحانه وتعالى على شيء فلا يستطيع أحد
التحايل عليه سبحانه .

فالمراد - إذن - بقوله تعالى :

﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (١٠٨)

[النحل]

أن ما فيها من الكفر لا يخرج منها ، وما هو خارجها من
الإيمان لا يدخل فيها ؛ ذلك لأن القلب هو الوعاء الذى تصب فيه
الحواس التى هى وسائل الإدراكات المعلوماتية ، وأهمها السمع
والبصر .

فبالسمع تسمع الوحي والتبليغ عن الله ، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله في كونه وعجيب صنّعه مما يلفتك إلى قدرة الله ، ويدعوك للإيمان به سبحانه ، فإذا ما انحرفت هذه الحواس عما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهَا ، وبَدَلُ أَنْ تَمُدَّ الْقَلْبَ بِدَلَالِ الْإِيمَانِ تَعَطَّلَتْ وَخَلِيفَتَهَا .

فألسمع موجود كآلة تسمع ولكنها تسمع الفارغ من الكلام ، فلا يوجد سَمْعٌ اعْتِبَارِيٌّ ، وكذلك البصر موجود كآلة تُبْصِرُ ما حَرَّمَ اللهُ فلا يوجد بصر اعتباري ، فما الذي سيوصل إلى القلب - إذن - من خلال هذه الحواس ؟

فما دام القلب لا يسمع الهداية ، ولا يرى دلائل قدرة الله في كونه فلن نجد فيه غير الكفر ، فإذا أَرَادَ الْإِيمَانُ قُلْنَا لَهُ : لَا بُدَّ أَنْ تُخْرِجَ الْكُفْرَ مِنْ قَلْبِكَ أَوَّلًا ، فلا يمكن أن يجتمع كفر وإيمان في قلب واحد ؛ لذلك عندنا قانون موجود حتى في الماديات يسمونه (عدم التداخل) يمكن أن تشاهده حينما تملأ زجاجة فارغة بالماء ، فتري أن الماء لا يدخل إلا بقدر ما يخرج من الهواء .

فكذلك الحال في الأوعية المعنوية .

فإن أردتَ الإيمان - أيها الكافر - فأخرج أولاً ما في قلبك من الكفر ؛ واجعله مُجَرِّدًا مِنْ كُلِّ هَوًى ، ثم ابحث بمقلك في أدلة الكفر وأدلة الإيمان ، وما تصل إليه وتقتنع به أدخله في قلبك ، لكن أن تبحث أدلة الإيمان وفي جوفك الكفر فهذا لا يصح ، لا بُدَّ مِنْ إِخْلَاءِ الْقَلْبِ أَوَّلًا وَتَجْعَلَ الْأَمْرَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ (٤)

وفى الأثر : « لا يجتمع حب الدنيا وحب الله فى قلب واحد »^(١)
 لأن للإنسان قلباً واحداً لا يجتمع فيه نقيضان ، هكذا شاءت
 قدرة الله أن يكون القلب على هذه الصورة ، فلا تجعله مزدحماً
 بالمظروف فيه .

كما أن طبع الله على قلوب الكفار فيه إشارة إلى أن الحق سبحانه
 وتعالى يعطى عبده مراده ، حتى وإن كان مراده الكفر ، وكأنه
 سبحانه يقول لهؤلاء : إن كنتم تريدون الكفر وتحبونه وتنسجون له
 صدوركم فسوف أطبع عليها ، فلا يخرج منها الكفر ولا يدخلها
 الإيمان ، بل وأزيدكم منه إن أحببتم ، كما قال تعالى :

﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ ۝١٠ ﴾ [البقرة]

فهنيئاً لكم بالكفر ، وانهبوا غير مأسوف عليكم .

وقوله : ﴿ وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝١٨ ﴾ [النحل]

الغافل : مَنْ كان لديه أمر يجب أن يستنبه إليه ، لكنه غفل
 عنه ، وكأنه كان فى انتظار إشارة تنبه عقله ليصل إلى الحق .

ثم ينهى الحق سبحانه الكلام عن هؤلاء بقوله تعالى :

﴿ لَا جُرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ۝١٩ ﴾

(١) ورد فى معنى هذا عدة آثار .

- قال عيسى بن مريم : « كما لا يستقيم النار والماء فى إناء ، كذلك لا يستقيم حب
 الآخرة والدنيا فى قلب المؤمن » . أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » (ص ٢٤) .
 - وقيل ليونس بن متى : « يا يونس إذا أحب العالم الدنيا نزع متاجاتي من قلبه »
 أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » (ص ١٥٦) .

فَقُولْهُ تَعَالَى :

﴿ لَا جَرَمَ .. (١٠٩) ﴾

[النحل]

أى : حقاً ولا بُدَّ ، أولاً جريمة فى أن يكون هؤلاء خاسرين فى الآخرة ، بما اقترفوه من موجبات الخسارة ، وبما اتَّوَّأ به من حيثيات ترتَّبَ عليها الحكم بخسارتهم فى الآخرة ، فقد حقَّ لهم وثبت لهم ذلك .

والمتتبع للآيات السابقة يجد فيها هذه الحِثِّيات ، بدايةً من قَوْلهم عن رسول الله :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ .. (١٠٩) ﴾

[النحل]

وقولهم : ﴿ إِنَّمَا بَعَلَّمَهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾

[النحل]

وعدم إيمانهم بآيات الله ، وكونهم كاذبين مفترين على الله ، واطمئنانهم بالكفر ، وانشرار صدورهم به ، واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة .

هذه كلها حيثيات وأسباب أوجبت لهم الخسران فى الآخرة يوم تُصَفَّى الحسابات ، وتتكشف الأرباح والخسائر ، وكيف لا يكون عاقبته خُسْرَانًا مَنْ اقترف كل هذه الجرائم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنْ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا
ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) ﴾

سُورَةُ الْجَنَّةِ

٨٢٤٢

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَّابُونَ ۝١٥٠ ﴾ [النحل]

أى : ابتلوا وعذبوا عذاباً أليماً ؛ لأنهم أسلموا .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٥١ ﴾ [النحل]

من رحمة الله تعالى أن يفتح باب التوبة لعباده الذين أسرفوا على أنفسهم ، ومن رحمته أيضاً أن يقبل توبة مَنْ يتوب ؛ لأنه لو لم يفتح الله باب التوبة للمذنب لئیسَ من رحمة الله ، ولتحول - وإن أذنب ولو ذنباً واحداً - إلى مجرم يشقى به المجتمع ، فلم يرَ أمامه بركة أمل تدعوه إلى الصلاح ، ولا دافعاً يدفعه إلى الإقلاع .

أما إذا رأى باب ربه مفتوحاً ليل نهار يقبل توبة التائب ، ويففر ذنب المسيء ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »^(١) .

بل ويزيده ربنا سبحانه وتعالى من فضله إن أحسن التوبة ، وندم على ما كان منه ، بأن يُبدل سيئاته حسنات ، كما قال سبحانه :

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٠ ﴾ [الفرقان]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى . قال النووي فى شرح مسلم : « قال المازرى . المراد به قبول التوبة . وإنما ورد لفظ بسط اليد لأن العرب إذا رضی أحدهم الشيء بسط يده لقبوله . وإذا كرهه قبضها عنه . فخطبوا بأمر حسى يفهمونه ، وهو مجاز . فإن يد الجارحة مستحيلة فى حق الله تعالى » .

لو رأى المذنب ذلك كان أدعى لإصلاحه ، وأجدى فى انتشاله من الوهدة التى تردى فيها .

إذن : تشريع التوبة من الحق سبحانه رحمة ، وقبولها من المذنب رحمة أخرى ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨) ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ودلهم عليها ، ليتوبوا هم .

فإن اغترَّ مُفْتَرٌّ برحمة الله وفضله فقال : سأعمل سيئات كثيرة حتى يُبدِّلها الله لى حسنات . تقول له : ومن يدريك لعله لا تنطبق عليك شروط الذين يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وهل تضمن أن يمهلك الأجل إلى أن تتوب ، وأنت تعلم أن الموت يأتى بغتة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١١١)

قد يكون المعنى فى هذه الآية على اتصال بالآية السابقة ، ومتعلق بها ، فيكون المراد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١١٠) [النحل]

يحدث هذا :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا .. (١١١) ﴾ [النحل]

أى : يوم القيامة . أو يكون المعنى : اذكر يا محمد :

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ (١١١) [النحل]

وهل للإنسان أكثر من نفس ، فتجادل إحداهما عن الأخرى ؟

الحقيقة أن للإنسان نفساً واحدة في الدنيا والآخرة ، ولكنها تختلف في الدنيا عنها يوم القيامة ؛ لأن الحق سبحانه منحها في الدنيا الاختيار ، وجعلها حرة في أن تفعل أو لا تفعل ، فكان من النفوس : الطائعة ، والعاصية ، والمنصاعة ، والمكابرة .

فإذا ما وقفت النفس في موقف القيامة ، وواجهت الحق الذي كانت تخالفه علمت أن الموقف لا تفيد فيه مكابرة ، ولا حيلة لها إلا أن تجادل وتدافع عن نفسها ، فكان نفس القيامة تجادل عن نفس الدنيا في موقف ينادي فيه الحق تبارك وتعالى :

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) [غافر]

وقد حكى القرآن الكريم نماذج من جدال النفس يوم القيامة ، فقال تعالى :

﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٧٣) [الأنعام]

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ (٧٤) [الزمر]

﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا...﴾ (٢٩) [فصلت]

إذن : هي نفس واحدة ، تجادل عن نفسها في يوم لا تجزى فيه نفس عن نفس ، فكل مشغول بقربه ، مُحاسَب بذنبه ، كما قال تعالى :

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٢٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢٧)﴾
[عبس]

وقوله تعالى :

﴿وَتَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾
[النحل]

الحق سبحانه يعطينا لقطة سريعة للحساب والجزاء يوم القيامة ،
فالميزان ميزان عدل وقسطاس مستقيم لا يظلم أحداً .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾
[الزلزلة]

وقوله تعالى : ﴿وَتَوَفَّى... (١١١)﴾
[النحل]

يدلُّ على أن الجزاء من الله يكون وافياً ، لا نقص فيه ولا جور ،
فالجميع عبيد لله ، لا يتفاضلون إلا بأعمالهم ، فإنَّ رحمهم فبفضله ،
وإنَّ عذبهم فبعذله ، وقد قال تعالى :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾
[النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ
اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾

(١) رَغَدَ العيش . اتسع وطاب . وقوله : ﴿يُؤْتِيهَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمُهَا (٢٥)﴾ [البقرة] أى اكلا طيباً موسعاً عليكم فيه .

الحق سبحانه وتعالى. بعد أن تكلم عن الإيمان بالله والإيمان
بصدق رسوله في البلاغ عنه ، واستقبال منهج الله في الكتاب
والسنة ، وتكلم عن المقابل لذلك من الكفر واللجاج والعناد لله
والرسول والمنهج . أراد سبحانه أن يعطينا واقعا ملموسا في الحياة
لكل ذلك ، فنضرب لنا هذا المثل .

ومعنى المثل : أن يتشابه أمران تشابها تاما في ناحية معينة
بحيث تستطيع أن تقول : هذا مثل هذا تماما .

والهدف من ضرب الامثال أن يُوَضَّحَ لك مجهولا بمعلوم ، فإذا
كنت مثلا لا تعرف شخصا نتحدث عنه فيمكن أن نقول لك : هو مثل
فلان - المعلوم لك - في الطول ومثل فلان في اللون .. إلخ من
الصور المعلومة لك ، وبعد أن تجمع هذه الصور تُكوِّن صورة كاملة
لهذا الشخص الذي لا تعرفه .

لذلك ، فالشيء الذي لا مثيل له إياك أن تضرب له مثلا ، كما قال
الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ (٧٤) ﴾

[النمل]

لأنه سبحانه لا مثيل له ، ولا نظير له ، لا في ذاته ، ولا في
صفاته ، ولا في أفعاله ، وهو سبحانه الذي يضرب المثل لنفسه ، أما
نحن فلا نضرب المثل إلا للكائنات المخلوقة له سبحانه .

لذلك نجد في القرآن الكريم أمثالا كثيرة توضح لنا المجهول
بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوي بالأمر الحسي الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضرب به الله لنا مثلاً في الإنفاق في سبيل الله ، وأن الله يضاعف النفقة ، ويُخلف على صاحبها أضعافاً مضاعفة ، فانظر كيف صور لنا القرآن هذه المسألة :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾
[البقرة]

وهكذا أوضح لنا المثل الامر الغيبي المجهول بالامر المحسوس المشاهد الذي يعلمه الجميع ، حتى استقر هذا المجهول في الذهن ، بل أصبح امراً متيقناً شاخصاً امامنا .

والمتمامل في هذا المثل التوضيحي يجد أن الامر الذي وضحه الحق سبحانه أقوى في العطاء من الامر الذي أوضح به ، فإن كانت هذه الأضعاف المضاعفة هي عطاء الارض ، وهي مخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه وتعالى ؟

وكلمة (ضَرَبَ) مأخوذة من ضَرَبَ العملة ، حيث كانت في الماضي من الذهب أو الفضة ، ولخوف الغش فيها حيث كانوا يخلطون الذهب مثلاً بالنحاس ، فكان النقاد أي : الخبراء في تمييز العملة يضربونها أي : يختمون عليها فتصير معتمدة موثوقاً بها ، ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب الله مثلاً لشيء مجهول بشيء معلوم استقر في الذهن واعتُمد .

فقال تعالى في هذا المثل :

[النحل]

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً.. (١١٢)﴾

الهدف من ضرب هذا المثل أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشئى أنواع النعم فجدها ، ولم يشكره عليها ، ولم يؤدِّ حقَّ الله فيها ، واستعمل نعمة الله فى معصيته فقد عرَّضها للزوال ، وعرَّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة ، فقيد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها ، لذلك قال الشاعر :

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تَزِيلُ النِّعَمَ
وَحَافِظُ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الْإِلَهِ فَإِنَّ الْإِلَـهَ شَدِيدُ النَّقَمِ

ولكن ، القرية التى ضربها الله لنا مثلاً هنا ، هل هى قرية معينة أم المعنى على الإطلاق ؟ قد يراد بالقرية قرية معينة كما قال البعض إنها مكة^(١) ، أو غيرها من القرى ، وعلى كل فتعديدها أمر لا فائدة منه ، ولا يؤثّر فى الهدف من ضرب المثل بها .

والقرية : اسم للبلد التى يكون بها قرى لمن يمرُّ بها ، أى : بلد استقرار . وهى اسم للمكان فإذا حدث عنها يراد المكين فيها ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا.. (٨٧)﴾ [يوسف]

فالمراد : أسأل أهل القرية : لأن القرية كمكان لا تُسأل .. هكذا

(١) قاله ابن عباس ومجاهد . وقالت عائشة وحفصة رضى الله عنهما : هى المدينة . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٧٤/٥] وقال القرطبي فى تفسيره (٢٩٢١/٥) . قيل إنه مثل مضروب بأى قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى .

قال علماء التفسير ، على اعتبار أن في الآية مجازاً مرسلأ علاقته المحلية .

ولكن مع تقدُّم العلم الحديث يعطينا الحق تبارك وتعالى مدداً جديداً ، كما قال سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ۚ ۝٥٣ ﴾ [فصلت]

والآن نطالعنا الاكتشافات بإمكانية التقاط صور وتسجيل أصوات السابقين ، فمثلاً يمكنهم بعد انصرافنا من هذا المكان أن يُسجِّلوا جلستنا هذه بالصوت والصورة .

ومعنى ذلك أن المكان يعي ويحتفظ لنا بالصور والأصوات منذ سنوات طويلة ، وعلى هذا يمكن أن نقول : إن القرية يمكن أن تُسأل ، ويمكن أن تجيب ، فلديها ذاكرة واعية تسجِّل وتحتفظ بما سجَّلته ، بل وأكثر من ذلك يتطلعون لإعادة الصور والأصوات من بدء الخليقة على اعتبار أنها موجودة في الجو ، مُودعة فيه على شكل موجات لم تُفقد ولم تُضَع .

وما أشبه هذه الموجات باندياح الماء إذا ألقيت فيه بحجر ، فينتج عنه عدة دوائر تبعد عن مركزها إلى أن تتلاشى بالتدرج .

إذن : يمكن أن يكون سؤال القرية على الحقيقة ، ولا شك أن سؤال القرية سيكون أبلغ من سؤال أهلها ؛ لأن أهلها قد يكذبون ، أما هي فلا تعرف الكذب .

وبهذا الفهم للآية الكريمة يكون فيها إعجاز من إعجازات الاداء القرآني .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ۖ ﴾ (١١٢) [النحل]

آمنة : أى فى مَأْمَنٍ من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نعم الله تعالى على البلاد والعباد .

وقوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ۖ ﴾ (١١٢) [النحل]

أى : لديها مقومات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مُستقرّة مريحة ، والإنسان لا يطمئن إلا فى المكان الخالى من المنقّصات ، والذي يجد فيه كل مقومات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سرّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنّ الله تعالى على قريش قال :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فطالما شبعت البطن ، وأمنت النفس استقرت بالإنسان الحياة .

والرسول ﷺ يعطينا صورة مثلى للحياة الدنيا ، فيقول :

« مَنْ أَصْبَحَ مَعَافًى فِي بَدَنِهِ ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ ^(١) ، عنده قوت يومه ، فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها » ^(٢)

ويصف الحق سبحانه هذه القرية بأنها :

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ۖ ﴾ (١١٢) [النحل]

(١) السرب : النفس والمذهب . وقال ابن درستويه : وإنما المعنى آمن فى أهله وولده .

وقيل : السرب هنا القلب ، أى : آمن القلب . [لسان العرب - مادة : سرب] .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٢٤٩/٥) ، وابن حبان (٢٥٠٣ - موارد الطمان) من حديث

أبي الدرداء رضى الله عنه ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٨٩/١٠) وعزاه للطبرانى

وقال : « رجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم » .

معلوم أن الناس هم الذين يخرجون لطلب الرزق ، لكن في هذه القرية يأتي إليها الرزق ، وهذا يُرجِّح القول بأنها مكة ؛ لأن الله تعالى قال عنها :

﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبِى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾
[القصر]

ومن تيسر له العيش في مكة يرى فيها الثمرات والمنتجات من كل أنحاء العالم ، وبذلك تمت لهم النعمة واكتملت لديهم وسائل الحياة الكريمة الآمنة الهانئة ، فماذا كان منهم ؟ هل استقبلوها بشكر الله ؟ هل استخدموا نعمة الله عليهم في طاعته ومرضاته ؟ لا .. بل :

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ .. (١١٧) ﴾
[النحل]

أى : جحدت بهذه النعم ، واستعملتها في مصادمة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٨) ﴾
[النحل]

وكان في الآية تحذيراً من الحق سبحانه لكل مجتمع كفر بنعمة الله ، واستعمل النعمة في مصادمة منهجه سبحانه ، فسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ .. (١١٧) ﴾
[النحل]

من الذوق ، نقول : ذاق وتذوق الطعام إذا وضعه على لسانه وتذوقه . والذوق لا يتجاوز حلمات اللسان . إذن : الذوق خاص بطعم الأشياء ، لكن الله سبحانه لم يقل : أذاقها طعم الجوع ، بل قال :

[النحل]

﴿لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ... (١١٢)﴾

فجعل الجوع والخوف وكأنهما لباسٌ يلبسه الإنسان ، والمتأمل في الآية يطالع دقة التعبير القرآني ، فقد يتحول الجوع والخوف إلى لباس يرتديه الجائع والخائف ، كيف ذلك ؟

الجوع يظهر أولاً كإحساس في البطن ، فإذا لم يجد طعاماً عوض من المخزون في الجسم من شحوم ، فإذا ما انتهت الشحوم تغذى الجسم على اللحم ، ثم بدأ ينحت العظام ، ومع شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً ، وعلى الجلد هزالاً وذبولاً ، ثم ينكمش ويجف ، وبذلك يتحول الجوع إلى شكل خارجي على الجلد ، وكأنه لباس يرتديه الجائع .

وتستطيع أن تتعرف على الجوع ليس من بطن الجائع ، ولكن من هيئته وشحوب لونه وتغير بشرته ، كما قال تعالى عن الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض :

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِعْجَافًا .. (٢٧٢)﴾

[البقرة]

وكذلك الخوف وإن كان موضعه القلب ، إلا أنه يظهر على الجسم كذلك ، فإذا زاد الخوف ترتعد الفرائص ، فإذا زاد الخوف يرتعش الجسم كله ، فيظهر الخوف عليه كتوب يرتديه .

وهكذا جسّد لنا التعبير القرآني هذه الأحاسيس الداخلية ، وجعلها محسوسة تراها العيون ، ولكنه أدخلها تحت حاسة الذوق : لأنها أقوى الحواس .

وفي تشبيه الجوع والخوف باللباس ما يوحي بشمولهما الجسم

كله ، كما يلفه اللباس فليس الجوع فى المعدة فقط ، وليس الخوف فى القلب فقط .

ومن ذلك ما اشتهر بين المحبين والمتحدثين عن الحب أن محله القلب ، فنراهم يتحدثون عن القلوب ، كما قال الشاعر :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَسِيغُ مَوَدَّتِي فَأَحِسُّ مِنْهَا فِي الْفُؤَادِ دَبِييَا

فإذا ما زاد الحب وتسامى ، وارتقت هذه المشاعر ، تحول الحب من القلب ، وسكن جميع الجوارح ، وخالط كل الاعضاء ، على حد قول الشاعر :

لَا عُضْوٌ لِي إِلَّا وَفِيهِ صَبَابَةٌ فَكَأَنُّ أَعْضَائِي خُلُقَنَ قُلُوبًا

وقوله : ﴿بِمَا كَانُوا يَصْتَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

أى : أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدودهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله ﷺ بالصدود والجحود والنكران ، وتعرضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيئوا لقتله ، حتى دعا عليهم قائلاً :

« اللَّهُمَّ اشْدُدْ وِطَانَكَ عَلَى مُضِرِّ ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »^(١)

فاستجاب الحق سبحانه لنبيه ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ،

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد فى مسنده (٤٧٠/٢) ، ٥٠٢ .

(٥٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

حتى إنهم كانوا يأكلون الجيف ، ويخلطون الشعر والوبر بالدم فيأكلوه .

وظلوا على هذا الحال سبع سنين حتى ضَجُّوا ، وبلغ بهم الجَهْدُ والضَّنْكُ مُنتَهَاهُ ، فأرسلوا وفداً منهم لرسول الله ، فقالوا : هذا عملك برجال مكة ، فما بال صبيانها ونسائها ؟ فكان ﷺ يرسل لهم ما يأكلونه من الحلال الطيب .

أما لباس الخوف فتمثل في السرايا التي كان يبعثها رسول الله ﷺ من المدينة لترهبهم وتزعجهم ! ليعلموا أن المسلمين أصبحت لهم قوة وشوكة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

رأينا كيف كانت النعمة تامة على أهل مكة ، وقد تمتلئت هذه النعمة في كَوْنِهَا أمانة مطمئنة ، وهذه نعمة مادية يحفظ الله بها القالب الإنساني ، لكنه ما يزال في حاجة إلى ما يحفظ قِيَمَهُ وأخلاقه .

وهذه هي نعمة النعم ، وقد امتنَّ الله عليهم بها حينما أرسل فيهم رسولا منهم ، فما فائدة النعم المادية في بلد مهزوزة القيم ، مُنْحَلَّةُ الأخلاق ، فجاءهم رسول الله ﷺ لِيُقَوِّمَ ما اعوجَّ من سلوكهم ، وَيُصْلِحَ ما فسد من قِيَمِهِمْ ومبادئهم .

وقوله : ﴿ مِنْهُمْ ۖ ۝١١٢ ﴾

أى : من جنسهم ، وليس غريباً عنهم ، وليس من مطلق العرب ، بل من قريش أفضل العرب وأوسطها .

يقول تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ۖ ۝١١٣ ﴾ [النحل]

وكان المفترض فيهم أن يستقبلوه بما علموا عنه من صفات الخير والكمال ، وبما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة ، ولكنهم كما كفروا بالنعم العادية كفروا أيضاً بالنعم القيمية متمثلة في رسول الله ﷺ .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۖ ۝١١٤ ﴾ [النحل]

مَنْ الذى أخذهم ؟

لم تقل الآية : أخذهم الله بالعذاب ، بل : أخذهم العذاب ، كأن العذاب نفسه يشاق لهم ، وينقض عليهم ، ويسارع لأخذهم ، ففي الآية تشخيص يوحى بشدة عذابهم .

كما قال تعالى في آية أخرى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۖ ۝١٤٥ ﴾ [ق]

ثم يقول تعالى :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا ۚ ۝١١٤ نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۚ ۝١١٥ ﴾

(١) الضمير في (فكلوا) هنا يحتمل أمرين :

- ١ - أن يكون الخطاب للمؤمنين ، لياكلوا من الرزق الحلال الطيب . ومن الغنائم .
- ٢ - أن يكون الخطاب للمشركين . لأن النبي ﷺ بعث إليهم بطعام ، بعد أن أكلوا الجيف والكلاب الميتة والجلود . [تفسير القرطبي ٢٩٢٢/٥] بتصريف .

سُورَةُ النحل

٨٢٥٧

قُلْنَا : إِنْ الرُّسُولُ يَرْسِلُ إِلَيْكُمْ مِنْ بَيْنِ أَمْثَلِ الثَّمَرَاتِ أَنْ يَأْكُلُوهَا إِتْرَافًا وَبِطَافًا وَلَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْيَدُ الْيُمْنَىٰ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .
 كَانَ يَرْسِلُ إِلَيْهِمْ مَا يَأْكُلُونَ مِنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ رَحْمَةً مِنْهُ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

﴿ فَكُلُوا مِنْهُمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۖ ۝١١٤ ﴾ [النحل]

أى : أَنْ هَذَا الرِّزْقُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِي ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

﴿ حَلَالًا طَيِّبًا ۖ ۝١١٤ ﴾ [النحل]

ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ أَكْلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَلَا عَنْ أَكْلِ الْخَبِيثِ ، فَأَرَادَ أَنْ يُنَبِّهَهُمْ أَنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَهُمْ مِنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ الْهَنِئُءِ ، فَيَبْدِلُهُمُ الْحَلَالَ بِدَلِّ الْحَرَامِ ، وَالطَّيِّبَ بِدَلِّ الْخَبِيثِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ۖ ۝١١٤ ﴾ [النحل]

وَهَذَا إِشَارَةٌ تَحْذِيرٌ لَهُمْ أَنْ يَقَعُوا فِيهَا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ قَبْلُ مِنْ جُحُودِ النِّعْمَةِ وَنُكْرَانِهَا وَالْكَفْرِ بِهَا ، فَقَدْ جَرَّبُوا عَاقِبَةَ ذَلِكَ ، فَتَزَعَّ اللَّهُ مِنْهُمْ الْأَمْنَ ، وَالْبَسَهُمْ لِبَاسَ الْخَوْفِ ، وَتَزَعَّ مِنْهُمْ الشُّبُعَ وَرَغَدَ الْعَيْشِ ، وَالْبَسَهُمْ لِبَاسَ الْجُوعِ ، فَخَذُّوا إِتْنًا عِبْرَةً مِمَّا سَلَفَ :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِهَادًا تَعْبُدُونَ ۖ ۝١١٤ ﴾ [النحل]

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا

أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ

اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ ۝١١٥ ﴾

(١) الإملا . الصياح ورفع الصوت . وأهل بالذبيحة : ذكر اسم من نهى عنها له . [القاموس]

الحق سبحانه وتعالى بعد أن قال :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۖ ۝١١٤ ﴾ [النحل]

أراد أن يُكرِّر معنى من المعانى سبق ذكره فى البقرة والمائدة ،
فقال فى البقرة :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ بِهِ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ^(١) وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٧٢ ﴾ [البقرة]

وقال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهِ ۖ ۝٢ ﴾ [المائدة]

وهذه الاشياء كنتم تاكلونها وهى مُحَرَّمَةٌ عليكم ، والآن ما دُمنا
ننقذكم ، ونجعل لكم معونة إيمانية من رسول الله ، فكلوا هذه الاشياء
حلالاً طيباً .

ولكن ، لماذا كرِّر هذا المعنى هنا ؟

التكرار هنا لأمرين :

الاول : أنه سبحانه لا يريد أن يعطيهم صورة عامة بالحكم ، بل
صورة مُشَفَّصَةٌ بالحالة : لأنهم كانوا جَوَّعَى يريدون ما ياكلونه ،
حتى وإن كانت الجيف ، ولكن الإسلام يُحرِّم الميته ، فوضح لهم أنهم
بعد ذلك ستاكلون الحلال الطيب .

(١) أى . فى غير بغى ولا عدوان ، وهو مجاوزة الحد فلا إثم عليه فى أكل ذلك . وقال مقاتل
ابن حيان . . غير باغ ، يعنى : غير مستحل . وقال السدى . غير باغ . يبتغى فيه شهوته .
[تفسير ابن كثير ٢/٧٠٥] .

ثانياً : أن النص يختلف ، ففي البقرة :

﴿ وَمَا أَهْلٌ بِهِ لِنَعْرِ اللَّهَ .. ﴾ (١٧٣) [البقرة]

وهنا : ﴿ وَمَا أَهْلٌ لِنَعْرِ اللَّهَ بِهِ .. ﴾ (١١٥) [النحل]

وليس هذا من قبيل التفنن في الأسلوب ، بل المعنى مختلف تماماً ؛ ذلك لأن الإهلال هو رفع الصوت عند الذبح ، فكانوا يرفعون أصواتهم عند الذبح ، ولكن والعياذ بالله يقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ، فيهلون بأسماء الشركاء الباطلين . ولا يذكرون اسم الله الوهاب .

فمرة يهلون به لغير الله ، ومرة يهلون لغير الله به . كيف ذلك ؟ قالوا : لأن الذبح كان على نوعين : مرة يذبحون للتقرب للأصنام ، فيكون الأصل في الذبح أنه أهل لغير الله به . أى : للأصنام . ومرة يذبحون لياكلوا دون تقرب لأحد ، فالأصل فيه أنه أهل به لغير الله .

إن : تكرار الآية لحكمة ، وسبحان من هذا كلامه .

وقوله : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ .. ﴾ (١١٥) [النحل]

الاضطرار : ألا تجد ما تأكله ، ولا ما يقيم حياتك .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هنا رخصة عندما تلجئنا الضرورة أن نأكل من هذه الأشياء المحرمة بقدر ما يحفظ الحياة ويسد الجوع ، فمعنى (غَيْرَ بَاغٍ) غير متجاوز للحد ، فلو اضطررت وعندك ميعة

وعندك طعام حلال ، فلا يصح أن تأكل الميتة في وجود الحلال .

﴿ وَلَا عَادٍ (١١٥) ﴾

[النحل]

أى : ولا مُعْتَدٍ على القدر المُرْخَص به ، وهو ما يمسك الحياة ، ويسدُّ جوعك فقط ، دون شَبَعٍ منها .

ويقول تعالى :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) ﴾

[النحل]

وفى البقرة :

﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ.. (١٧٣) ﴾

[البقرة]

فالمعنى واحد ، ولكن هنا ذكر المغفرة والرحمة ، وهناك ذكر سببهما .

وتجدر الإشارة هنا إلى ما يتشددُّ به البعض من الملاحدة الذين يبحثون فى القرآن عن مَفْغَمَ ، فيقولون : طالما أن الله حرَّم هذه الأشياء ، فما فائدتها فى الكون ؟

نقول : انتظنون أن كل موجود فى الكون وُجد ليؤكل ، اليس له مهمة أخرى ؟ ومن ورائه مصلحة أخرى غير الأكل ، فإنَّ حرْم الإسلام أكله فقد أباح الانتفاع به من وجه آخر .

فالخنزير مثلاً حرَّم الله أكله ، ولكن خلقه لمهمة أخرى ، وجعل له دوراً فى نظافة البيئة ، حيث يلتهم القاذورات ، فهو بذلك يؤدِّي مهمة فى الحياة .

وكذلك الثعابين لا ناكلها ، ولها مهمة في الحياة أيضاً ، وهي أن تُجهز لنا السُّم في جوفها ، وبهذا السم تعالج بعض الداءات والأمراض ، وغير ذلك من الأمثلة كثير .

وكذلك يجب أن نعلم أن الحق سبحانه ما حرّم علينا هذه الأشياء إلا لحكمة ، وعلى الإنسان أن يأخذ من واقع تكوينه المادى وتجاربه ما يُقرب له المعانى القيمية الدينية ، فلو نظر إلى الآلات التى تُدار من حوله من ماكينات وسيارات وطائرات وخلافه لوجد لكل منها وقوداً ، ربما لا يناسب غيرها ، حتى فى النوع الواحد نرى أن وقود السيارات وهو البنزين مثلاً لا يناسب الطائرات التى تستخدم نفس الوقود ، ولكن بدرجة نقاء أعلى .

إذن : لكل شيء وقود مناسب ، وكذلك أنت أيها الإنسان لك وقودك المناسب لك ، وبه تستطيع أداء حركتك فى الحياة ، وأنت صُنّعت ربك سبحانه ، وهو الذى يُحدّد لك ما تأكله وما لا تأكله ، ويعلم ما يصلحك وما يضرّك .

والشيء المحرّم قد يكون مُحَرَّمًا فى ذاته كالميتة لما فيها من ضرر ، وقد يكون حلالاً فى ذاته ، ولكنه مُحَرَّم بالنسبة لشخص معين ، كأن يُمنع المريض من تناول طعام ما ؛ لأنه يضرّ بصحته أو يؤخّر شفاؤه ، وهو تحريم طارئ لحين زوال سببه .

وهو صورة أخرى للتحريم ، وهى أن يكون الشيء حلالاً فى ذاته ولا ضرر فى تناوله ، ومع ذلك تحرمه عقوبة ، كما تفعل فى معاقبة الطفل إذا أساء فنحرمه من قطعة الحلوى مثلاً .

إذن : للتحريم أسباب كثيرة ، سوف نرى أمثلة منها قريباً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السِّتَةُ كُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ
وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (١١٦)

معنى ﴿ تَصِفُ السِّتَةُ كُمُ الْكَذِبَ ﴾ : تُظهره على أوضح وجوهه ، فليس كلامهم كذباً فقط ، بل يصفه ، فمن لا يعرف الكذب فليعرفه من كلام هؤلاء .

والمراد بالكذب هنا قولهم :

﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ (١١٦)

[النحل]

فهذا كذب واقتراء على الله سبحانه : لأنه وحده صاحب التحليل والتحريم ، فبإياك أن تُحل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرّم شيئاً حسب هواك : لأن هذا افتراء على الله^(١) :

﴿ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ (١١٦)

[النحل]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (١١٦)

[النحل]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٩٢٤/٥) : « قال مالك : لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا : إياكم كذا وكذا . ولم أكن لأصنع هذا . ومعنى هذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل . وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الاعيان ، إلا أن يكون الباري تعالى يخبر بذلك عنه » .

فإن انطلى كذبهم على بعض الناس ، فآخذوا من ورائه منفعة عاجلة ، فعما قليل سيُفتضح أمرهم ، وينكشف كذبهم ، وتقطع مصالحهم بين الخلق .

ويصف الحق سبحانه ما يأخذه هؤلاء من دنياهم بأنه :

﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١٧)

أى : ما أخذتموه بكنبيكم وافترائكم على الله متاع قليل زائل ، سيحرمكم من المتاع الكثير الباقي الذى قال الله عنه :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ (٩٦)

[النحل]

ليس هذا فقط بل :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١٧)

[النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٨)

(١) وذلك فى سورة الانعام . لى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَالِ أَوْ مَا أَخَذَتْ بِعِظَمِ ذَلِكَ جَزَاءَهُمْ بِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الانعام] . فاليهود لا تاكل الإبل والنعام والأوز ولا كل شئ غير مشقوق الأصابع . وكذلك حرم عليهم الدمن إلا ما كان مختلطاً بعظم . (من تفسير ابن كثير ١٨٥/٢) بتصريف كثير .

بعد أن تكلمت الآيات فيما أحل الله وفيما حرّم ، وبُيِّنَتْ أن التحليل أو التحريم لله تعالى ، جاءت لنا بصورة من التحريم ، لا لأن الشيء ذاته مُحَرَّم ، بل هو مُحَرَّم تحريم عقوبة ، كالذى مثُلنا له سابقاً بحرمان الطفل من الحلوى عقاباً له على سوء فعله .

والذين هادوا هم : اليهود عاقبهم الله بتحريم هذه الأشياء ، مع أنها حلال في ذاتها ، وهذا تحريم خاصٌ بهم كعقوبة لهم .

وقوله تعالى :

﴿ مَا قُصِّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ .. (٦١٨) ﴾

[النحل]

المراد ما ذُكِرَ في سورة الانعام من قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾

[الانعام]

كل ذي ظفر : الحيوان ليس منفرج الأصابع ، والحوايا : هي المصارين والامعاء ، ونرى أن كل هذه الأشياء المذكورة في الآية حلال في ذاتها ، ومُحَلَّلَةٌ لغير اليهود ، ولكن الله حرّمها عليهم عقوبة لهم على ظلمهم وبغيهم ، كما قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْقِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْهَاطِلِ .. (١٦١) ﴾

[النساء]

أي : بسبب ظلمهم حرّمنا عليهم هذه الطيبات .

ذلك لان مَنْ اخذ حكماً افتراءً على الله فحرم ما أحل الله . أو حلّ ما حرم الله لا بد أن يُعاقبَ بمثله فيُحرّم عليه ما أحلّ لغيره ، وقد وقع الظلم من اليهود لأنهم اجتروا على حدود الله وتعاليمه ، وأول الظلم وقمته الشرك بالله تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٦٢)

[لقمان]

والظلم نقل الحق من صاحبه إلى غيره .

ومن ظلمهم : ما قالوه لموسى - عليه السلام - بعد أن عبر بهم البحر ، ومرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. ﴾ (١٧٨)

[الاعراف]

ومن ظلمهم : أنهم عبدوا العجل من دون الله .

ومن ظلمهم لموسى - عليه السلام - : أنهم لم يؤمنوا به . كما قال تعالى :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ (٨٢)

[يونس]

ومن ظلمهم :

﴿ وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّيَاءَ وَقَدْ تَنَهَوْنَا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (١٦١)

[النساء]

إنن : بسبب ظلمهم وأخذهم غير حقهم حرّم الله عليهم أشياء كانت حلالاً لهم ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٨)

[النحل]

ظلموا أنفسهم بأن أعطوا لأنفسهم متاعاً قليلاً عاجلاً ، وحرّموها من المتعة الحقيقية الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بُعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١١٩)

الحق سبحانه وتعالى يعطى عبده فرصة ، ويفتح له باب التوبة والرجاء ، فمن رحمته سبحانه بعباده أن شرع لهم التوبة من الذنوب ، ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم . ولو أغلق باب التوبة لتحوّل المذنب - ولو لمرة واحدة - إلى مجرم يُعربد في المجتمع ، ويفتح باب التوبة يقى الله المجتمع من هذه العريضة .

ويبين الرسول ﷺ مكانة التوبة فيقول :

« الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بارض فلاة^(١) فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ

(١) الفلاة - الصحراء الواسعة التي لا ماء بها ولا أنيس ، فهي أرض قفر لأنها فليت عن كل

خير . [لسان العرب - مادة : فلا]

هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها^(١) ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبيد وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح^(٢) .

وقوله تعالى في بداية الآية : ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على كثرة ما تقدم من ذنوب ، ومع ذلك غفرها الله لهم ليُبين لك البؤس الشاسع بين رحمة الله وإصرار العصاة على الكفران بالله ، وعلى المعصية .

وقوله تعالى : ﴿بِجَهَالَةٍ﴾

أى : بطيش ونحْمَق وسَفَه ، وجميعها داخلة فى الجهل بمعنى أن تعتقد شيئاً وهو غير واقع ، فالجهل هنا ليس المراد منه عدم العلم ، إنما الجاهل مَنْ كانت لديه قضية مخالفة للواقع وهو متمسك بها ، والمراد أن ينظر إلى خير عاجل فى نظره ، ويترك خيراً أجلاً فى نظر الشرع .

وقد ورد هذا المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ (١٧)﴾

[النساء]

بجهالة : يعنى فى لحظة سَفَه وطيش ، فالعاصى يعلم الحكم تماماً ، ولكنه فى غفلة عنه ، وعدم تبصُّر بالعواقب ، ولو فكَّر فى عاقبة أمره ما تجرأ على المعصية .

لذلك نقول : إن صاحب المعصية لا يُقدم عليها إلا فى غيبة العقل .

(١) الخطام : أن يأخذ حبلاً من ليف أو شعر أو كتان ، فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يلقد البعير ثم يُثْنَى على مُخْطَمِهِ . [اللسان - مادة : خطم] .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ولذلك قال ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »^(١)

ولو استحضر قسوة الجزاء لما أقدم على معصيته ، ولكن سفهه وطيشه يُغْلَفُ الجزاء ويستره عدم ويُزَيِّنُ له ما ينتظره من لذة ومتعة عاجلة .

وهَبْ أن شخصاً ألحَتْ عليه غريزة الجنس ، وهى أشرس الفرائز فى الإنسان ، فسكَّر فى الفاحشة والعياذ بالله ، وقبل أن يقع فى هذه الوهدة السحيقة أخذناه إلى موقد النار ، وذكرناه بما غفل عنه من جزاء وعقوبة هذه الجريمة.

بالله عليك ، ماذا تراه يفعل ؟ هل يُصِرُّ على جريمته ؟ لا ، لأنه كان ذاهلاً غافلاً ، وبمجرد أن تذكره يرجع .

إنّ طيشه وسفهه صرفه عن التفكير فى العاقبة وأذهله عن ردِّ الفعل ، وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجّلة .

وقوله : ﴿ لَمْ تَأْبُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ۖ ﴾ (١١٩) [النحل]

والتوبة هنا هى التوبة النصوح الصادقة ، التى ينوى صاحبها الإقلاع عنها وعدم العود إليها مرة أخرى ، ويعزم على ذلك حال توبته ، فإذا فعل ذلك قَبِلَ الله منه وتاب عليه .

ولا يمنع ذلك أن يعود للذنب مرة أخرى إذا ضَعُفَتْ نفسه عن المقاومة ، فإن عاد عاد إلى التوبة من جديد ، لأن الله سبحانه من

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) .

سُورَةُ النُّحْلِ

٨٢٦٩

أسمائه ﴿ التواب ﴾ أى : كثير التوبة ، فلم يقل: تائب بل تواب ،
فلا تنقطع التوبة فى حق العبد مهما أذنب ، وعليه أن يحدث لكل ذنب
توبة .

بل وأكثر من ذلك ، إذا تاب العبد وأحسن التوبة ، وأتى بالأعمال
الصالحة بدلاً من السيئة ، من الله عليه بأن يُبدل سيئاته حسنات ،
وهذه معاملة رب كريم غفور رحيم .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا كَغُفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل]

فيه إشارة لحرص النبى ﷺ علينا ، وأنه يسره أن يغفر الله لنا .
﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد غفور رحيم ، فكانه سبحانه يمتن على
نبيه ﷺ أنه سيففر للمذنبين من أمته .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً نبيه إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا
وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٢٠]

بعد أن ذكرت الآيات طرفاً من سيرة اليهود ، وطرفاً من سيرة
أهل مكة تعرضت لخليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

والسؤال : لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء ؟

ذلك لانه أبو الأنبياء ، وله مكانته بين الأنبياء ، والجميع يتمحكون
فيه ، حتى المشركون يقولون : نحن على دين إبراهيم ، والنصارى
قالوا عنه : إنه نصرانى . واليهود قالوا : إنه يهودى .

فجاءت الآية الكريمة تحلل شخصية إبراهيم عليه السلام ،
وتوضّح مواصفاتها ، وتردّد وتبطل مزاعمهم في إبراهيم عليه السلام ،
وهاكم مواصفاته :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً.. (١٢٠)﴾

[النحل]

أُمَّة : الأمة في معناها العام : الجماعة ، وسياق الحديث هو
الذي يُحدّد عددها ، فنقول مثلاً : أمة الشعراء . أى : جماعة
الشعراء ، وقد تكون الأمة جماعة قليلة العدد ، كما في قوله
تعالى :

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ.. (٢٣)﴾

[القصاص]

فسمى جماعة من الرعاة أمة : لانهم خرجوا لغرض واحد ، وهو
سقى دوابهم .

وتُطلق الأمة على جنس في مكان ، كامة الفرس ، وأمة الروم ،
وقد تُطلق على جماعة تتبع نبياً من الانبياء ، كما قال سبحانه :

﴿وَأَنَّ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾

[فاطر]

وحين نتوسّع في معنى الأمة نجدها في رسالة محمد ﷺ تشمل
جميع الامم : لانه أرسل للناس كافة ، وجمع الامم في أمة واحدة ،
كما قال تعالى :

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (٩٦)﴾

[الانبياء]

ومعنى أمة واحدة . أى : جامعة لكل الامم .

سُورَةُ النِّحْلِ

٨٢٧١

فالمعنى - إنن - أن إبراهيم - عليه السلام - يقوم مقام أمة كاملة : لأن الكمالات المطلقة لله وحده ، والكمالات الموهوبة من الله لخلق في الرسل تُسمى كمالات بشرية موهوبة من الله .

أما ما دون الرسل فقد وُزعت عليهم هذه الكمالات ، فآخذ كل إنسان واحداً منها ، فهذا آخذ الحلم ، وهذا الشجاعة ، وهذا الكرم ، وهكذا لا تجتمع الكمالات إلا في الرسل .

فإذا نظرت إلى إبراهيم - عليه السلام - وجدت فيه من المواهب ما لا يوجد إلا في أمة كاملة .

كذلك رسولنا محمد ﷺ حينما حدد موقعه بين رسالات الله في الأرض يقول :

« الخير في - وهذا هو الكمال البشري الذي أعطاه الله إياه - وفي أمتي »^(١) .

أي : أن كل واحد منهم آخذ جزءاً من هذا الكمال ، فكان كماله ﷺ مبعثر في أمته كلها .

لذلك حين تتتبع تاريخ إبراهيم - عليه السلام - في كتاب الله تعالى تجد كل موقف من مواقفه يعطيك حصلة من خصال الخير ، وصفة من صفات الكمال ، فإذا جمعت هذه الصفات وجدت أنها لا توجد إلا في أمة بأسرها ، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير .

(١) قال ابن حجر العسقلاني . لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القاري في « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطي في « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) . والعجلوني في كشف الخفاء (٤٧٦/١) .

ومن معانى أمة : أنه عليه السلام يقوم مقام أمة فى عبادة الله وطاعته .

وقوله : ﴿ قَانَتْ لِلَّهِ ۖ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : خاشعاً خاضعاً لله تعالى فى عبادته .

﴿ حَنِيفًا ۖ (١٢٠) ﴾ [النحل]

الحنف فى الأصل : الميل ، وقد جاء إبراهيم - عليه السلام - والكون على فساد واعوجاج فى تكوين القيم ، فمال إبراهيم عن هذا الاعوجاج ، وحاد عن هذا الفساد .

والحق سبحانه وتعالى لا يبعث الرسل إلا إذا طم الفساد ، إذن : ميله عن الاعوجاج والفساد ، فمعناه أنه كان مستقيماً معتدلاً على الدين الحق ، مائلاً عن الاعوجاج حائذاً عن الفساد .

ثم ينهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

وهذه هى الصفة الرابعة لخليل الله إبراهيم بعد أن وصفه بأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، وجميعها تنفى عنه الشرك بالله ، فما فائدة نفى الشرك عنه مرة أخرى فى :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

يجب أن نفرّق بين أنواع الشرك ، فمنه الشرك الأكبر ، وهو أن تجعل لله شركاء ، وهو القعة فى الشرك . ومنه الشرك الخفى ، بأن تجعل للأسباب التى خلقها تدخل فى تكوين الأشياء .

فَالَايَةُ هُنَا : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠) [النحل]

أى : الشرك الخفى ، فالأوصاف السابقة نفتت عنه الشرك الأكبر ، فأراد سبحانه أن ينفى عنه شرك الأسباب أيضاً ، وهو دقيق خفى .

ولذلك عندما أُلقيَ - عليه السلام - فى النار لم يلتفت إلى الأسباب وإن جاءت على يد جبريل - عليه السلام - ، فقال له حينما عرض عليه المساعدة : أما إليك فلا^(١) . فأين الشرك الخفى - إذن - والأسباب عنده معدومة من البداية ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿شَاكِرًا لِأَنْعِمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢١)

قوله تعالى : ﴿شَاكِرًا لِأَنْعِمِهِ﴾ (١٢١) [النحل]

فيه تلميح لأهل مكة الذين جحدوا نعمة الله وكفروها ، وكانت بلدهم آمنة مطمئنة ، فلا يليق بكم هذا الكفر والجحود ، وأنتم تدعون أنكم على ملة إبراهيم - عليه السلام - فإبراهيم لم يكن كذلك ، بل كان شاكرًا لله على نعمه .

وقوله : ﴿اجْتَبَاهُ﴾ (١٢١) [النحل]

اصطفاه واختاره للنبوة ، واجتباء إبراهيم - عليه السلام - كان عن اختبار ، كما قال تعالى :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (١٢٤) [البقرة]

أى : اختبره ببعض التكاليف ، فأتَمَّها إبراهيم على أكمل وجه ، فقال له ربه :

(١) أورده القرطبي فى تفسيره (٤/١٨٢) فى تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء] من حديث أبى بن كعب . وأن إبراهيم عليه السلام قال : حسبي من سؤالي طمعه بحالى .

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ (١٢٤) [البقرة]

ولكنه لحبه أن تتصل الإمامة في ذريته قال :

﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ ﴾ (١٢٤) [البقرة]

فعدّل الله له هذه الرغبة ، وصحّح له ، بأن ذريتك سيكون منها الظالم ، فقال :

﴿ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۖ ﴾ (١٢٤) [البقرة]

لذلك تعلم إبراهيم - عليه السلام - من هذا الموقف ، وأراد أن يحتاط لنفسه بعد ذلك ، فعندما أراد أن يطلب من ربه أن يرزق أهل مكة من الثمرات قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ ﴾ (١٢٦) [البقرة]

فصحّح الله له أيضاً هذا المطلب ، فالموقف هنا مختلف عن الاول ، الاول كان في إمامة القيم والدين ، وهذه لا يقوم بها ظالم ، أما هذه فرزق وعطاء ربوبية يشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصي ، فالجميع في الرزق سواء ، فقال تعالى :

﴿ وَمَنْ كَفَرَ ۖ ﴾ (١٢٦) [البقرة]

أى : سارزق الكافر أيضاً^(١) .

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم يمجّرها على المؤمنين دون الناس ، فلنزل الله (وَمَنْ كَفَرَ) أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، لأخلق خلقاً لا أرزقهم ؟ امتنعهم قليلاً ثم اضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير . ثم قرأ ابن عباس : ﴿ كَلَّا نَبْدُ لَهُمْ ذُرِّيَّتًا مِنْ غَضَاءٍ وَكَانَ غَضَاءُ رَبِّكَ فُحْشًا ۖ ﴾ [الإسراء] . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٧٥) .

وهنا تتجلى عظمة الربوبية التي تُربى الأنبياء ، وتصنعهم على عَيْنِهَا ، فكل مواقف الأنبياء تتجمع فى النهاية ، وتعطينا خلاصة الكمال البشرى .

ويدل على دقة إبراهيم - عليه السلام - فى أداء ما طُلب منه موقفه فى بناء البيت ، فبعد أن نلَّه الله على مكانه أخذ يُزيح عنه آثار السيول ، ويكشف عن قواعده ، وكان يكفى إبراهيم لتنفيذ أمر ربه أن يرفع البناء إلى ما تناله يده من ارتفاع ، ولكنه أحب أن يأتى بالأمر على أتمّ وجوهه ؛ وينفذه بدقة واحتياط ، ففكر أن يأتى بحجر مرتفع ، ويقف عليه ليزيد من ارتفاع البناء ، فجاء بالحجر الذى هو مقام إبراهيم ، كل ذلك وولده يساعده ؛ لذلك لما أتى بالحجر جاء بحجر لا يرفعه إلا رجلان .

وكذلك موقفه الإيمانى وتخليه عن الأسباب ، حينما ترك زوجه هاجر وصغيره إسماعيل فى وادٍ غير ذى زرع ، وفى مكان خالٍ من مقومات الحياة وأسباب العيش^(١) .

إنه لا يؤمن بالأسباب ، إنما يؤمن بمُسبِّبها ، وطالما أنه سبحانه موجود فسوف يُوفّر لهم من الأسباب ما يحفظ حياتهم ؛ لذلك حينما سأله هاجر : أهذا منزل أنزلكه الله أم من عندك ؟

فلما علمت أنه من الله قالت : إذن لن يضيعنا . وكان إيمان

(١) وذلك قوله تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٧)

إبراهيم نضح على زوجته ، وملا قلبها يقيناً في الله تعالى .

وقوله سبحانه :

﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) ﴾

[النحل]

كيف .. بعد كل هذه الاوصاف الإيمانية تقول الآيات (وَهَدَاهُ) اليست هذه كلها هداية ؟

نقول : المراد زانه هداية ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾

[محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ﴾

الحق سبحانه يُبَيِّنُ أن جزاء إبراهيم - عليه السلام - عظيم في الدنيا قبل جزاء الآخرة ، والمراد بحسنة الدنيا محبة جميع أهل الأديان له ، وكثرة الأنبياء في نريته والسيرة الطيبة والذكر الحسن .

وما نحن نتحدث عن صفاته ومناقبه ونفخر ونعتز به . وهذا العطاء من الله لإبراهيم في الدنيا ؛ لأنه بالغ في طاعة ربه وعبادته .

وقد طلب إبراهيم - عليه السلام - من ربه هذه المكانة ، فقال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ

[الشعراء]

فِي الْآخِرِينَ (٨٤) ﴾

حُكْماً : أى : حكمة أضع بها الأشياء في مواضعها .

سُورَةُ النحل

٨٢٧٧

ولسان صدق : هو الذكر الطيب والثناء الحسن بعد أن أموت .

وقوله تعالى :

﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٢)

[النحل]

فإن كان هذا جزاءه في الدنيا ، فلا شك أن جزاء الآخرة أعظم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣)

الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعضاً من صفات الخليل إبراهيم من كونه أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ، وأنه شاكر لأنعمه ، واجتباه ربه وهده .. إلخ قال :

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (١٢٣)

[النحل]

يا محمد :

﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (١٢٣)

[النحل]

كان قمة مناقب إبراهيم وحسناته أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل أن تتبع ملته .

وملة إبراهيم : أي شريعة التوحيد .

ثم يؤكد الحق سبحانه براءة إبراهيم من الشرك فيقول :

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣)

[النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٢٤)

بعد أن تحدث الحق سبحانه عن إبراهيم أبى الأنبياء ، وذكر جانباً من صفاته ومناقبه تكلم عن بنى إسرائيل فى قضية خالفوا فيها أمر الله بعد أن طلبوها بأنفسهم ، وكان القرآن يقول لهم : لقد زعمتم أن إبراهيم كان يهودياً ، فما هى صفات إبراهيم ، فماذا عن صفاتكم أنتم ؟ وأين أنتم من إبراهيم عليه السلام ؟

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً عن مخالفتهم لربهم فيما يأمر به ، وأنهم ليسوا كل إبراهيم فى اتباعه ، فيذكر ما كان منهم فى أمر السبت .

و (السبت) هو يوم السبت المعروف التالى للجمعة السابق للأحد ، والسبت مأخوذ من سَبَتَ يَسْبِتُ سَبْتًا . يعنى : سكن واستقر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سَبَاتًا ﴾ (٩)

[النبا]

ذلك أن بنى إسرائيل طلبوا يوماً يرتاحون فيه من العمل ، ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى - عليه السلام - أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذى أتم الله فيه خلق

الكون في ستة أيام ، وهو اليوم الذي اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت وقالوا :

إن الله خلق الدنيا في ستة أيام بدأها بيوم الأحد ، وانتهى منها يوم الجمعة ، وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أن نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أن يتبعوا اليهود في يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام في يوم الجمعة ، واختاروا يوم الأحد على اعتبار أنه أول بدء الخلق .

أما أمة محمد ﷺ فقد اختار لها الله يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة^(١) .

إذن : اليهود طلبوا يوم السبت واختاروه للراحة من العمل والتفرغ للعبادة ، فهذا مطلبهم ، وقد وافقهم ربهم سبحانه وتعالى عليه ، وأمرهم أن يتفرغوا لعبادته في هذا اليوم ، وافقهم ليُبين لجاجتهم وعنادهم ، وأنهم لن يُوفُوا بما التزموا به وإن اختاروه بأنفسهم ، ووافقهم ليقطع حجتهم ، فلما اختار لهم يوماً لا يعترضوا عليه ، ولكن هاهم يختارونه بأنفسهم .

كما أن قصة السبت مع اليهود جاءت لتخدم قضية عقديّة عامة ،

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٨٥٦) كتاب الجمعة من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما أنهما قالَا : قال رسول الله ﷺ « أَضَلَّ اللهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فِهْدَانَا لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَجُعِلَ الْجُمُعَةُ وَالسَّبْتُ وَالْأَحَدُ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبِعُوا لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضَى لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ » .

هي أن الآيات التي تأتي مُصَدِّقَةً للرسل في البلاغ عن الله تعالى قد تكون من عند الله وباختياره سبحانه ، وقد تكون باختيار المرسل إليهم أنفسهم ، وقد كان من بنى إسرائيل أن كذبوا بهذه وهذه ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء]

أي : لكونهم يقترحون الآية ثم يكذبونها ، فأمروهم تكذيب في تكذيب .

وقصة السبت ذُكِرَتْ في مواضع كثيرة ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَاسْتَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ^(١) الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١٦٣)

[الأعراف]

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله كعادتهم ، وأخلفوا ما التزموا به ، وذهبوا للصيد في يوم السبت ، فكادهم الله وأغاضهم ، فكانت تأتيتهم الحيتان والأسماك تطفو على سطح الماء كالشرار ، ولا يفتقون منها بشيء إلا الحسرة والأسف ، فيقولون : لعليها تأتي في الغد فيخيب الله رجاءهم :

﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ (١٦٣)

[الأعراف]

وقد سَمَّى القرآن الكريم ذلك منهم اعتداءً : لأنهم اعتدوا على ما شرع الله ، قال تعالى :

(١) اختلف المفسرون في تحديد هذه القرية ، فقال ابن عباس : هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة . وقال ابن شهاب الزهري : هي طبرية . وقال سعيد بن جبير : هي مدين . أوردها السيوطي في الدر المنثور (٥٨٧/٣) .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾
[البقرة]

وقوله تعالى :

﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ (٦٥)﴾ [النحل]

كلمة (اخْتَلَفُوا) تُرعى بوجود طائفتين متناقضتين في هذه القضية ، والحقيقة أن الخلاف لم يكن بين اليهود بعضهم البعض ، بل بينهم وبين نبيهم الذي اختار لهم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت ، فجعل الله الخلاف عليهم .

فالمعنى : إِنَّمَا جَعَلَ السبت حُجَّةً عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ : لانه أثبت عدوانهم على يوم العبادة ، فبعد أن اقترحوه واختاروه انقلب حُجَّةٌ عليهم ، ودليلاً لإدانتهم .

ولو تأملنا قوله :

﴿عَلَى الَّذِينَ (٦٥)﴾ [النحل]

نجد أن كلمة (عَلَى) تدلُّ على الفوقية أى : أن لدينا شيئاً أعلى وشيئاً أدنى : فكان السبت جاء ضد مصلحتهم ، وكان خلافهم مع نبيهم انقلب عليهم .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ (٦)﴾ [الرعد]

(٦) أى : فى يوم الجمعة . اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبى ﷺ أمر باتباع الحق ، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود . [قاله القرطبي فى تفسيره ٢٩٢٧/٥] .

يؤولها بعضهم على معنى (مع ظلمهم) نقول : المعنى صحيح ،
ولكن المعية لا تقتضى العلو ، فلو قلنا : مع ظلمهم فالمعنى أن
المغفرة موجودة مع الظلم مجرد معية ، أما قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ ۖ ﴾ (٦)

[الرعد]

أى : أن المغفرة عكّت على الظلم ، فالظلم يتطلب العقاب ، ولكن
رحمة الله ومغفرته عكّت على أن تُعامل الظالم بما يستحق ، فرحمة الله
سبقت غضبه ، ونفس الملحظ نجده فى قول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٣٩)

[إبراهيم]

فالكبر كان يقتضى عدم الإنجاب ولكن هبة الله علت على سنة الكبر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَدِّ لَهُمُ بِالْقِيَمَةِ ۚ وَهُوَ أَحْسَنُ إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ
عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٢٥)

فبعد أن تحدثت الآيات عن النموذج الإيمانى الأعلى فى الإنسان فى
شخص أبى الأنبياء إبراهيم ، وجعلت من أعظم مناقبه أن الله أمر خاتم
رسله باتباعه ، أخذت فى بيان الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله .

قوله : ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ۖ ﴾ (١٢٥)

[النحل]

الحق تبارك وتعالى لا يُوجّه هذا الأمر بالدعوة إلى رسوله ﷺ إلا وهو
يعلم أنه سيُنَفَّذَ ما أمر به ، وسيقوم بأمر الدعوة ، ويتحمل مسئوليتها .

﴿ادْعُ﴾ : بمعنى دَلَّ الناس وارشدهم .

﴿سَبِيلَ رَبِّكَ﴾ (١٢٥) [النحل]

السبيل هو الطريق والمنهج ، والحكمة : وَضَعَ الشيء في موضعه المناسب ، ولكن لماذا تحتاج الدعوة إلى الله حكمة ؟

لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَنْ انحرف عن هذا المنهج ، وَمَنْ انحرف عن منهج الله تجده أَلْفَ المعصية وتعود عليها ، فلا بُدَّ لك أَنْ تَرْفُقَ به لِتُخْرِجَهُ عما أَلْفَ وتقيمه على المنهج الصحيح ، فالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره ، لأنك تجمع عليه شدتين :

شدة الدعوة والعنف فيها ، وشدة تركه لما أحبَّ وما أَلْفَ من أساليب الحياة ، فإذا ما سلكتَ معه مَسَلَكَ اللين والرفق ، وأحسنْتَ عَرَضَ الدعوة عليه طاولك في أَنْ يترك ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهي .

ومعلوم أن النصيح في عمومته ثَقِيل على النفس ، وخاصة في أمور الدين ، فإياك أن تُشعر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو أفضل منه ، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص ، أو تخرجه أمام الآخرين ؛ لأن كل هذه التصرفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية ، فهذه الطريقة تثير حفيظته ، وربما دَعَتْهُ إلى المكابرة والعناد .

وهذه الطريقة في الدعوة هي المرادة من قوله تعالى :

﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (١٢٥) [النحل]

ويُروى في هذا المقام - مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة

الحسنة - قصة دارت بين الحسن والحسين رضى الله عنهما ، هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغى أن يكون عليه الداعية .

فَيُروى أنهما رآيا رجلاً لا يُحسن الوضوء ، وأرادا أن يُعلّماه الوضوء الصحيح دون أن يجرحا مشاعره ، فما كان منهما إلا أنهما افتتعا خصومة بينهما ، كل منهما يقول للآخر : أنت لا تُحسن أن تتوضأ ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أن يرى كلا منهما يتوضأ ، ثم يحكم : أيهما أفضل من الآخر ، وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، بعدها جاء الحكم من الرجل يقول : كل منكما أحسن ، وأنا الذى ما أحسنتُ .

إنه الوعظ فى أعلى صورة ، والقُدوة فى أحكم ما تكون .

مثال آخر للدعوة يضربه لنا الرسول ﷺ ، حينما أتاه شاب فى قُوّة شبابيه ، يشتكى عدم صَبْرِهِ عن رغبة الجنس ، وهى - كما قلنا - من أشرس الغرائز فى الإنسان .

جاء الشاب وقال : « يا رسول الله إئذن لى فى الزنا » .

هكذا تجرأ الشاب ولم يُخَفِ علّته ، هكذا لجأ إلى الطبيب ليطلب الدواء صراحة ، ومعرفة العلة أول خطوات الشفاء . فماذا قال رسول الله ؟

انظر إلى منهج الدعوة ، كيف يكون ، وكيف استلّ رسول الله ﷺ الداء من نفس هذا الشاب ؟ فلم يزجره ، ولم ينهره ، ولم يؤذنه ، بل أخذه وربّت على كتفه فى لطف ولين ، ثم قال :

« أتحبّه لامك ؟ قال : لا يا رسول الله ، جُعِلْتُ فِدَاكَ . قال : فكذلك الناس لا يحبونه لامهاتهم ، قال : أتُحبّه لاختك ؟

قال : لا يا رسول الله جُعِلَتْ فِدَاكَ ، قال : « فكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يَحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ » .

وهكذا حتى ذكر العمة والخالة والزوجة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدر الشاب ودعا له : « اللَّهُمَّ نَقِّ صَدْرَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ » فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزني ، وهو يقول : فوالله ما هَمَّتْ نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا ، إِلَّا ذَكَرْتُ أُمِّي وَأَخْتِي وَزَوْجَتِي ^(١) .

فلنتأمل هذا التلطف في بيان الحكم الصحيح ، فمعالجة الداءات في المجتمع تحتاج إلى فقه ولباقة ولين وخُصْنٌ تصرف ، إننا نرى حتى الكفرة حينما يصنعون دواءً مُرّاً يظفونه بغلالة رقيقة حلوة المذاق ليستسيغها المريض ، ويسهل عليه تناوله . وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب في هذه المسألة .

ويقول أهل الخبرة في الدعوة إلى الله : النصيح ثقيل فلا تُرْسِلْهُ جَبَلًا ، وَلَا تَجْعَلْهُ جَدَلًا .. وَالْحَقَائِقُ مُرَّةٌ فَاسْتَعِيرُوا لَهَا خُفَّةَ الْبَيَانِ .

وكان ﷺ إذا سمع عن شيء لا يرضيه من ذنب أو فاحشة في مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف ، ويقول : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/٥ . ٢٥٧) ، والطبراني في معجمه الكبير (٨/ ١٩٠ . ٢١٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبِي وَظَهِّرْ قَلْبِي وَحَصِّنْ فَرْجِي » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٠١) كتاب النكاح من حديث أنس رضي الله عنه أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر . فقال بعضهم : لَا أَنْزُوجُ النِّسَاءَ . وقال بعضهم : لَا أَكُلُ اللَّحْمَ . وقال بعضهم : لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ . نحمد الله وأثنى عليه فقال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا ، لَكِنِّي أَصْلِي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأَغْطِرُ وَأَنْزُوجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » .

ويكتفى بالتوجيه العام دون أن يجرح أحداً من الناس على حد قولهم في الامثال : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

ومن ذلك ما كان يلجا إليه العقلاء في الريف حينما يتعرض أحد للسرقة ، أو يضيع منه شيء ذو قيمة ، فكانوا يعلنون عن فقد الشيء الذي ضاع أو سرق ويقول : ليلة كذا بعد غياب القمر سوف نرمي التراب .

ومعنى « نرمي التراب » أن يحضر كل منهم كمية من التراب يلقيها أمام بيت صاحب هذا الشيء المفقود ، وفي الصباح يبحثون في التراب حتى يعثروا على ما فقد منهم ، ويصلوا إلى ضالّتهم دون أن يُفتضح الأمر ، ودون أن يُجرّج أحد ، وربما لو واجهوا السارق لانكر وتعتدت المسألة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۝١٢٥ ﴾ [النحل]

والجدل مناقشة الحجج في قضية من القضايا ، وعلى كلّ من الطرفين أن يعرض حجّته بالتى هي أحسن . أى : فى رفق ولين ودون تشنج أو غطرسة .

ويجب عليك فى موقف الجدل هذا ألا تُغضب الخصم ، فقد يتمحك فى كلمة منك ، ويأخذها ذريعة للانصراف من هذا المجلس .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾ [النحل]

[النحل]

قد يتساءل البعض : ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله ؟

يريد الحق سبحانه أن يبين لنا حساسية هذه المهمة ، وأنها تُبنى على الإخلاص لله في توجيه النصيحة ، ولا ينبغي للداعية أبداً أن يَغْشُ في دعوته ، فيقصد من ورائها شيئاً آخر ، وقد تقوم بموعظة وفي نفسك استكبار على الموعوظ ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه .

ومن الناس - والعياذ بالله - مَنْ يجمع القشور عن موضوع ما ، فيظن أنه أصبح عالماً ، فيضر الناس أكثر مما ينفعهم .

إذن : إنَّ قُبْلَ الْغَشِّ فِي شَيْءٍ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَغْشُ بِاللَّهِ فِي اللَّهِ ؛ لَأنَّه سبحانه وتعالى أعلم بمنَّ يضل الناس ، ويصدهم عن سبيل الله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه ^(١) :

﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ

لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦)

نلاحظ أن هذا المعنى ورد في قوله تعالى :

﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ..﴾ (١٩٤)

[البقرة]

(١) سبب نزول الآية : روى الدارقطني عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه . رأى حمزة قد شق بطنه . واصطلم أنفه . وجُذعت أذناه . فقال : « لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلن مكانه بسبعين رجلاً . فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى ﴿وَصَبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ..﴾ (١٢٧) [النحل] فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد . ذكره القرطبي في تفسيره (٢/٣٩٢٨) والواحدى في « أسباب النزول » (ص ١٦٢) .

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية في رد الاعتداء :

﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلٍ...﴾ (١٢٦) [النحل]

و ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ...﴾ (١٩١) [البقرة]

إنن : الحق سبحانه ، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل ، إلا أنه جعله صعباً من حيث التنفيذ ، فَمَنْ الذي يستطيع تقدير المثلية في الرد ، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء ، ودون زيادة في العقوبة ، وكان في صعوبة تقدير المثلية إشارة إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها ، كما قال تعالى :

﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) [النحل]

فقد جعل الله في الصبر سعة ، وجعله خيراً من رد العقوبة ، ومقاساة تقدير المثلية فيها ، فضلاً عما في الصبر من تأليف القلوب ونزع الأحقاد ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) [فصلت]

ففي ذلك دَفْعٌ لشراسة النفس ، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) [النحل]

الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : في الصبر وعدم رد العقوبة بمثلها إنهاءً للخصومات ،

وراحة للمجتمع أن تفرغه سلسلة لا تنتهى من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظَلَمَ من الخلق ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى فى جواره ؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله فى معيته وحفظه ؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدّه الله للمظلوم لَضُنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر فى القرآن الكريم يجد تشابهاً فى تذييل بعض الآيات .

يقول تعالى :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [القمان]

وفى آية أخرى :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دقة التعبير القرآنى .

ولما كانت المصائب التى تصيب الإنسان على نوعين :

النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أصيب فى صحته أو تعرض لجائحة فى ماله ، أو انهار بيته .. إلخ .

وفى هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بالـمـ الفقد ولذعة الخسارة ، لكن لا ضعف فيها على أحد .

إنن : الصبر على هذه الأحداث قريب : لأنه ابتلاء وقضاء وقدر ،
فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى تأكيد ، ويناسبه قوله تعالى :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان]

أما النوع الآخر : فهو المصائب التي تقع بفعل فاعل ، كالقتل
مثلاً ، فإلى جانب الفقد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج
غضبك ، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر في هذه أصعب
وحمل النفس عليه يحتاج إلى تأكيد كما في الآية الثانية :

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

فاستعمل هنا لام التوكيد : لأن الصبر هنا شاق ، والفرصة متاحة
للشيطان ليؤلب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد .
كما نلاحظ في الآية الأولى قال : (وَأَصْبِرْ) .

وفي الثانية قال : (صَبَرَ وَغَفَرَ) لأن أمامه غريماً يدعو له لأن
يغفر له .

ويُحكى في قصص العرب قصة اليهودى المرابى الذى أعطى
رجلاً مالا على أن يردّه فى أجل معلوم ، واشترط عليه أن لم يف
بالسداد فى الوقت المحدد يقطع رَطلًا من لحمه ، ووافق الرجل ،
وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه .

فرفع اليهودى الأمر إلى القاضى وقص عليه ما بينهما من اتفاق ،
وكان القاضى صاحب فطنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ،
وأمر له بسكين . وقال : خُذْ من لحمه رَطلًا ، ولكن فى ضربة

واحدة ، وإن زاد عن الرطل أو نقص أخذناه من لحملك أنت .

ولما رأى اليهودى مشقة ما هو مُقَدِّم عليه أثر السلامة وتصالح مع خصمه ،

والسؤال الآن : ما علاقة^(١) هذه الآية :

﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ... (١٢٦)﴾ [النحل]

بما قبلها :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (١٢٥)﴾ [النحل]

الدعوة إلى الله منهج يلفت الإنسان - خليفة الله في أرضه - أن يلتزم بمنهج الله الذى استخلفه ، ووضع له هذا المنهج لينظم حركة حياته ، والداعية يواجه هؤلاء الذين يفسدون فى الأرض ، ويحققون لانفسهم مصالح على حساب الغير ، والذى يحقق لنفسه مصلحة على حساب غيره لا بُدَّ أن يكون له قوة وقدرة ، بها يطفى ويستعلى ويظلم .

فإذا جاء منهج الله تعالى ليعدل حركة هؤلاء ويخرجهم مما ألفوه ، وينزع منهم سلطان الطغيان والظلم ، ويسلبهم هذا السوط الذى يستفيدون به ، فلا بُدَّ أن يُجَادِلُوهُ وَيَصَادِمُوهُ وَيَقْفِرُوا فى وجهه ، فقد جمع عليهم شدة النصيح والإصلاح ، وشدة ترك ما ألفوه .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٩٢٨/٥) . المعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسناً ، لأنها تتدرج الرتب من الذى يُدعى ويوعظ ، إلى الذى يجادل ، إلى الذى يُجَازَى على فعله ، ولكن ما روى الجمهور أثبت . وذلك فى أن هذه الآية مدنية .

فعلى الداعية - إنن - أن يتحلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتي هي أحسن ، فإذا ما تعدى أمرهم إلى الاعتداء على الداعية ، إذا ما استشرى الفساد وغلبت شراسة الطباع ، فسوف نحتاج إلى أسلوب آخر ، حيث لم يعد يُجدي أسلوب الحكمة .

ولا بد لنا أن نقف الموقف الذى تقتضيه الرجولة العادية ، فضلاً عن الرجولة الإيمانية ، وأن يكون لدينا القدرة على الرد الذى شرعه لنا الحق سبحانه وتعالى ، دون أن يكون عندنا لد في الخصومة ، أو إسراف فى العقوبة .

فجاء قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ... (١٤٦) ﴾

[النحل]

وفى الآية تحذير أن يزيد الرد على مثله ، وبذلك يتعلم الخصوم أنك خاضع لمنهج رباني عادل يستوى أمامه الجميع ، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإن العقاب بالمثل لا يتعداه ، ولعل ذلك يلفتهم إلى أن الذى أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها ، بل هدأها ودعاها إلى العفو والصفح ، ليكون هذا أدعى إلى هدايتهم .

وهذا التوجيه الإلهي فى تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجه إلى أمته ﷺ توجه إليه ﷺ فى تصرف خاص ، لا يتعلق بمؤمن على عموم إيمانه ، ولكن بمؤمن حبيب إلى رسول الله ، وصاحب منزلة عظيمة عنده ، إنه عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضى الله عنه .

فقد مثل به الكفار فى أحد ، وشقت هند بطنه ، ولاكت كبده ،

فشقَّ الأمر على رسول الله ﷺ ، وأثّر في نفسه ، وواجه هذا الموقف بعاطفتين : عاطفته الإيمانية ، وعاطفة الرحم والقربة فهو عمه الذي آزره ونصره ، ووقف إلى جواره ، فقال في انفعاله بهذه العاطفة :

« لئن أظهرني الله عليهم لأمتلنّ بثلاثين رجلاً منهم »^(١) .

ولكن الحق سبحانه العادل الذي أنزل ميزان العدل والحق في الخلق هدًى من رَوْعِهِ ، وعدل له هذه المسألة ولأمته من بعده ، فقال :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ... (١٢٦) ﴾ [النحل]

والمعامل للأسلوب القرآني في هذه الآية يلحظ فيها دعوة إلى التحنن على الخصم والرافة به ، فالمتحدث هو الله سبحانه ، فكل حرف له معنى ، فلا تأخذ الكلام على إجماله ، ولكن تأمل فيه وسوف تجد من وراء الحرف مراداً وأن له مطلوباً .

لماذا قال الحق سبحانه : (وَإِنْ) ولم يستخدم (إِذَا) مثلاً ؟

إن عاقبتهم : كان المعنى : كان يحب ألا تعاقبوا .

أما (إِذَا) فتفيد التحقيق والتأكيد ، والحق سبحانه يريد أن يُحنن القلوب ، ويضع ردَّ العقوبة بمثلها في أضيق نطاق ، فهذه رحمة حتى مع الأعداء ، هذه الرحمة تُحبِّبهم في الإسلام ، وتدعوهم إليه ، وبها يتحوّل هؤلاء الأعداء إلى جنود في صفوف الدعوة إلى الله .

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٥٩٢/٢) وعزاه لمحمد بن إسحاق في السيرة .

كما أن في قوله : (عَاقِبْتُمْ) دليل على أن رد العقوبة يحتاج إلى قوة واستعداد ، كما قال تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [الأنفال]

كانه يقول : كونوا دائماً على استعداد ، وفي حال قوة تمكنكم من الرد إذا اعتدى عليكم ، كما أن في وجود القوة والاستعداد ما يردع العدو ويهربه ، فلا يجروا على الاعتداء من البداية ، وبالقوة والاستعداد يُحفظ التوازن في المجتمع ، فالقوى لا يفكر أحد في الاعتداء عليه .

وهذا ما نراه الآن بين دول العالم في صراعها المحموم حول التسلح بأسلحة فاتكة .

وكلمة : ﴿مَا عَوْقَبْتُمْ بِهِ ۚ﴾ [١٢٦]

نلاحظ أن الرد على الاعتداء يُسمى عقوبة ، لكن الاعتداء الأول لماذا يُسمى أيضاً عقوبة ؟

قالوا : لأن هذه طريقة في التعبير تسمى « المشاكلة »^(١) ، أي : جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة .

ومن ذلك قوله تعالى :

(١) المشاكلة مصطلح من مصطلحات بديع القرآن معناه : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صهيته تحفيظاً أو تقديراً . [الانتظار : ١٩٠ ، ١٩١]

[الشورى]

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۚ﴾

لأن رد السيئة لا يُسمى سيئة .

ولسائل فى هذه القضية أن يسأل : طالما أن الإسلام يسعى فى هذه المسألة إلى العفو ، فلماذا لم يُقرره من البداية ؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل ؟

نقول : لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أمن كل إنسان فيه على نفسه وعرضه وماله .. إلخ . وهذا الأمن لا يتأتى إلا بقوة تحفظه ، كما أن للمجتمع توازناً ، هذا التوازن فى المجتمع لا يُحفظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات ، وتضمن أن تكون حركة الإنسان فى المجتمع دون ظلم له .

كما أن للحق سبحانه حكمة سامية فى تشريع العقوبة على الجرائم ، فهذه الشارع الحكيم أن يَحُدَّ من الجريمة ، ويمنع حدوثها : فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرأ على جريمته ، ففى تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحفظ لسلامته وأمنه .

ونرى البعض يعترض على عقوبة الردة ، فيقول : كيف تقتلون من يرتد عن دينكم ؟ وأين حرية العقيدة إذن ؟

نقول : فى تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضيق لمنافذ الدخول فى هذا الدين ، بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة ، فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمره الحرية يدخل

أو لا يدخل ، لا يغصبه أحد ، ولكن ليعلم أنه إذا دخل ، فحكم الردة معلوم^(١) .

إذن : شرع الإسلام العقوبة ليحفظ للمجتمع توازنه ، وليعمل عملية ردع حتى لا تقع الجريمة من البداية ، لكن إذا وقعت يلجأ إلى علاج آخر يجتث جذور الغلّ والأحقاد والضغائن من المجتمع .

لذلك سبق أن قلنا عن عادة الأخذ بالثأر في صعيد مصر : إنه يظل في سلسلة من القتل والثأر لا تنتهى ، وتفرّع المجتمع كله ، حتى الأمنيين الذين لا جريرة لهم ، وتنمو الأحقاد والكراهية بين العائلات في هذا الجو الشائك ، حتى إذا ما تشجّع واحد منهم ، فأخذ كفنه على يديه وذهب إلى ولى القتل ، وألقى بنفسه بين يديه قائلاً : ها أنا بين يديك وكفنتى معى ، فاصنع بى ما شئت ، وعندها تأبى عليهم كرامتهم وشهامتهم أن يثاروا منه ، فيكون العفو والصفح والتسامح نهاية لسلسلة الثأر التى لا تنتهى .

ثم يقول الحق سبحانه^(٢) :

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧)

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : من بدل دينه فاقتلوه . أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/١ ، ٢٨٣) ، والبخارى في صحيحه (٢٦٧/١٢) - فتح البارى) ، وابن ماجه في سننه (٢٥٢٥) ، وكذا الترمذى (١٤٥٨) .
(٢) قال ابن زيد : هي منسوخة بالقتال . وجمهور الناس على أنها محكمة . أى : اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المثل . [تفسير القرطبي ٢٩٢٠/٥] .

بعد أن ذكرت الآيات فضل الصبر وما فيه من خيرية ، وكان الآية السابقة تمهد للأمر هنا (وَأَصْبِرْ) لياتمر الجميع بأمر الله ، بعد أن قدم لهم الحثيثيات التي تجعل الصبر شجاعة لا ضعفاً ، كما يقولون في الحكمة : من الشجاعة أن تجبُن ساعة .

فإذا ما وسوس لك الشيطان ، وأغراك بالانتقام ، وثارت نفسك ، فالشجاعة أن تصبر ولا تطاوعهما .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ .. ﴾ (١٢٧) [النحل]

من حكمة الله ورحمته أن جعلك تصبر على الأذى ؛ لأن في الصبر خيراً لك ، والله هو الذي يُعينك على الصبر ، ويمنع عنك وسوسة الشيطان وخواطر السوء التي تهيج غضبك ، وتجرك إلى الانتقام .

والحق سبحانه وتعالى يريد من عبده أن يتجه لإنفاذ أمره ، فإذا علم ذلك من نيته تولى أمره وأعانته ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]

إياك أن تعتقد أن الصبر من عندك أنت ، فالله يريد منك أن تتجه إلى الصبر مجرد اتجاه ونية ، وحين تتجه إليه يُجَنِّدَ الله لك الخواطر الطيبة التي تُعينك عليه وتيسره لك وترضيك به ، فيأتي صبرك جميلاً ، لا سخط فيه ولا اعتراض عليه .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. ﴾ (١٢٧) [النحل]

لقد امتنَّ الله على أمة العرب التي استقبلت دعوة الله على لسان رسوله ﷺ ، بأن بعث فيهم رسولا من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسْبَهُ ونَسَبَهُ وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان ﷺ مُحِباً لقومه حريصاً على هدايتهم ، كما قال تعالى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾
[التوبة]

أى : تعز عليه مشقتكم ، ويؤلمه عنتكم وتعيبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص : الضنُّ بالشئ ، فكانه ﷺ يضمن بقومه .

وقد أوضح هذا المعنى فى الحديث الشريف :

« إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فانا أخذ بحجزكم^(١) وانتم تقحمون فيه »^(٢) .

لذلك حزن رسول الله ﷺ على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنك إذا أحببت إنساناً أحببت له ما تراه من الخير ، كمن ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدلَّ عليها من يحب من أهله ومعارفه .

كذلك لما ذاق رسول الله ﷺ حلاوة الإيمان أحب أن يُشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية .

(١) حُجْزَةُ الإنسان : مَقْعَدُ السراويل والأزار . واحتجز بالإزار إذا شدَّه على وسطه ، فاستعاره للاتجاه والاعتصام والتمسُّك بالشئ والتعلق به . [لسان العرب - مادة حجز] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) كتاب الفضائل ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والحق سبحانه وتعالى هنا يُسَلِّي رسوله ، ويخفف عنه ما صَدِمَ
في قومه ، يقول له : لا تحزن عليهم ولا تُحْمَلْ نفسك فوق طاقتها ،
فما عليك إلا البلاغ ، ويخاطبه ربه في آية أخرى :

﴿ فَلَمَّا كَانَ خِزْيُ نَفْسِكَ عَلَى آلَائِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [٦]

[الكهف]

أى : لا تكن مهلكاً نفسك أسفاً عليهم .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [١٢٧]

[النحل]

الضيق : تاتى بالفتح وبالكسر ، ضَيْقٌ ، ضَيْقٌ^(١) .

والضيق : أن يتضاءل الشيء الواسع أمامك عما كنت تُقَدِّرُه .
والضيق يقع للإنسان على درجات ، فقد تضيق به بلده فينتقل إلى
بلد آخر .

وربما ضاقت عليه الدنيا كلها ، وفي هذه الحالة يمكن أن تسعه
نفسه ، فإذا ضاقت عليه نفسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، كما
قال تعالى عن الثلاثة^(٢) الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ۖ (١٦٨) ﴾

[التوبة]

(١) قال الفراء : الضَيْقُ ما ضاق عنه صدرك . والضَيْقُ ما يكون في الذي يتسع ويضيق .

مثل الدار والثوب . وقال ابن السكيت : هما سواء . [تفسير القرطبي ٢/٥ : ٢٩٢] .

(٢) هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع . تخلفوا عن رسول الله ﷺ في
غزوة تبوك دون عذر ، فعوقبوا بأن هجرهم المسلمون نحواً من خمسين ليلة بأيامها
وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولكنهم صبروا لأمر الله وثبتوا
حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم مع رسول الله ﷺ في تخلفهم وأنه كان عن غير عذر .

[تفسير ابن كثير ٢/٢٩٩] بتصريف .

فالحق سبحانه ينهى رسوله ﷺ أَنْ يَكُونَ فِي ضَيْقٍ مِنْ مَكْرِ الْكَفَّارِ : لَأَنَّ الَّذِي يَضِيقُ بِأَمْرٍ مَا هُوَ الَّذِي لَا يَجِدُ فِي مَجَالِ فِكْرِهِ وَبِدَائِلِهِ مَا يَخْرُجُ بِهِ مِنْ هَذَا الضَّيْقِ ، إِنَّمَا الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّ لَهُ مَنَفَذًا وَمَخْرَجًا فَلَا يَكُونَ فِي ضَيْقٍ .

فالمعنى : لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ يَا مُحَمَّدُ ، فَاللهُ مَعَكَ ، سَيَجْعَلُ لَكَ مِنَ الضَّيْقِ مَخْرَجًا ، وَيُرِدُّ عَلَى هَؤُلَاءِ مَكْرَهُمْ :

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٢٠)

[الأنفال]

ولذلك يقول : لَا كَرْبَ وَأَنْتَ رَبِّ . فَسَاعَةً أَنْ تَضِيقَ بِكَ الدُّنْيَا وَالْأَهْلَ وَالْأَحْبَابَ ، وَتَضِيقَ بِكَ نَفْسُكَ فَلْيَسْعُكَ رَبُّكَ ، وَلِتَكُنْ فِي مَعِيَتِهِ سُبْحَانَهُ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (٢٤٨)

هذه قضية معية الله لِمَنْ اتَّقَاهُ ، لِمَنْ اتَّقَى الله فَهُوَ فِي جِوَارِهِ وَمَعِيَتِهِ ، وَإِذَا كُنْتَ فِي مَعِيَةِ رَبِّكَ فَمَنْ يَجْرُؤُ أَنْ يَكِيدَكَ ، أَوْ يَمْكُرُ بِكَ ؟

وفى رحلة الهجرة تتجلى معية الله تعالى وتتجسد لنا فى الغار ، حينما أحاط به الكفار ، والصَّدِيقُ يَقُولُ لِلرَّسُولِ ﷺ : لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَأَى ، فَيَجِيبُهُ الرَّسُولُ ﷺ وَهُوَ وَاثِقٌ بِهَذِهِ الْمَعِيَةِ :

« يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللهُ تَالِثَهُمَا » ^(١) .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٢) . ومسلم فى صحيحه (٢٢٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

فما علاقة هذه الإجابة من رسول الله بما قال أبو بكر ؟

المعنى : مادام أن الله ثالثهما إذن فهما في معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، فمن كان في معيته كذلك لا تدركه الأبصار .

وقوله : ﴿ اتَّقُوا ۖ (١٢٨) ﴾ [النحل]

التقوى في معناها العام : طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومن استعملاتها نقول : اتقوا الله ، واتقوا النار ، والمعامل يجد معانها يلتقى في نقطة واحدة .

فمعنى « اتق الله » : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وحاجزاً يحميك ، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه : لأن للحق سبحانه صفات رحمة ، فهو : الرؤوف الرحيم الغفور ، وله صفات جبروت فهو : المنتقم الجبار العزيز ، فاجعل لنفسك وقاية من صفات الانتقام .

ونقول : اتقوا النار ، أى : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، إذن : المعنى واحد ، ولكن جاء مرةً باللازم ، ومرةً بلازم اللازم .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

المحسن : هو الذى يلزم نفسه فى عبادة الله بأكثر مما ألزمه الله ، ومن جنس ما ألزمه الله به ، فإن كان الشرع فرض عليك خمس صلوات فى اليوم والليلى ، فالإحسان أن تزيد ما تيسر لك من النوافل ، وإن كان الصوم شهراً رمضان ، فالإحسان أن تصوم من باقى الشهور كذا من الايام ، وكذلك فى الزكاة ، وغيرها مما فرض الله .

لذلك نجد أن الإحسان أعلى مراتب الدين ، وهذا واضح في حديث جبريل حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(١) .

والآية الكريمة تُوحِي لنا بأن الذين اتقوا لهم جزاء ومعية ، وأن الذين هم محسنون لهم جزاء ومعية ، كُلٌّ على حسب درجته ؛ لأن الحق سبحانه يعطى من صفات كماله لخلقهِ على مقدار معيتهم معه سبحانه ، فالذى اكتفى بما فرض عليه ، لا يستوى ومن أحسن وزاد ، لا بُدَّ أن يكون للثاني مزية وخصوصية .

وفى سورة الذاريات يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾

[الذاريات]

لم يقل « مؤمنين » ؛ لأن المؤمن يأتي بما فُرض عليه فحسب ، لكن ما وجه الإحسان عندهم ؟

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال ابن حجر فى الفتح (١٢٠/١) : « [إحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود . بأن يلقب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه . وهو قوله « كأنك تراه » . وأن يستحضر أن الحق مطلع عليه برى كل ما يعمل . وهو قوله « فإنه يراك » .

سُورَةُ الْفَتَلِ

83.2

يقول تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾
[الذاريات]

وكلها أمور نافلة تزيد عما فرض الله عليهم .

ويجب أن ننتبه هنا إلى أن المراد من قوله تعالى :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾
[الذاريات]

ليست الزكاة ، بل هي الصدقة ، لأنه في الزكاة قال سبحانه :

﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ .. (٧٤) ﴾
[المعارج]

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

لو تأملنا خواتيم سورة النحل لوجدناها مقدمة طبيعية لأحداث سورة الإسراء^(١) ، ولوجدنا توافقاً وتناسباً في ترتيب هاتين السورتين ، فقد خُتِمَتِ النحل ببيان حُكْمِ رَدِّ الْعُقُوبَةِ بِعَمَلِهَا ، ثم أمرت رسول الله ﷺ بالصبر وبيّنتُ جزاء الصابرين ، ونهتُ رسول الله عن الضيق من مكر الكفار .

نستشف من هذا أن رسول الله ﷺ سيستقبل أحداثاً تحتاج إلى صبر وشدائد ، تحتاج إلى سعة صدر ، وكان هذه التوجيهات جاءت بمقابلة مناعات إيمانية ، تُحصِّنُ رسول الله وتُعَدُّهُ لما هو مُقْبِلٌ عليه من أحداث في سورة الإسراء ، وكأنها إشارات لما سيحدث من شدائد حتى لا يُفاجأ رسول الله بها ، ولا تأتيه على غرة .

هذه المناعات التي جاءت في نهاية سورة النحل أشبه بما نلجأ إليه في حفظ سلامة البنية وسلامة القالب ، حينما نضاف من

(١) سورة الإسراء ، هي السورة (١٧) في ترتيب المصحف ، وعدد آياتها (١١١) آية . وهي سورة مكية ، إلا ثلاث آيات :

- قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحْسَنُ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرْمَلْنَا إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ ۖ ﴾ [الإسراء]

- قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَتَّقُونَ عِلَالَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴾ [الإسراء]

- قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء]

وببدايتها يبدأ الجزء (١٥) من القرآن .

ولسورة الإسراء أسماء أخرى . منها سورة سبجلن ، سورة بنى إسرائيل .

الامراض ، إنه ما نسميهِ بالتطعيم ضد المرض ، فيأخذ الجسم من هذا الطَّعمُ حصانة تحميه إذا هاجمه المرض .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يُعطي رسوله هذه التحصينات ، حتى يواجه الاحداث والشدائد القادمة بصبر وجَدَد ، ويعلم أن الله تعالى لن يخذله ، ولن يتخلى عنه ، فما أرسل الله رسولا وخذله أبداً ، فإن خذله الناس ، وضاقَتْ عليه الدنيا بما رَحُبَتْ وجد العلجاء في معيته سبحانه وتعالى .

وفعلاً نزلت الشدائد برسول الله ﷺ ، وكانت قمة هذه الاحداث عند فَقْدِ عمه أبى طالب ، وزَوْجِه خديجة في عام واحد ، ولقسوة هذا عليه سماه « عام الحزن » .

ففقد ﷺ بموت عمه الحماية الخارجية التي كانت تدفع عنه أذى المشركين ، وتصدد عنه صناديد قريش ، وفقد بموت زوجته الحماية الداخلية والعلجاء الذي كان يأوى إليه ، حيث كانت تواسيه وتهدئهُ من رَوْعِه في أول نزول الوحي عليه . وتُبَيَّن له بفقهِه أن ما يجده في الغار من علامات النبوة ، وأن الله لن يتخلى عنه ويقول له : « والله إنك لتصل الرحم ، وتغيث الملهوف ، وتحمل الكل^(١) ، وتعين على نواشب الدهر^(٢) »

نعم لقد كان عام حزن فعلاً ، فقد فيه السكن الخارجى والداخلى معاً ، فأين يذهب ﷺ .

فما عاد يشعر بأمنٍ في مكة ، ففكَّر في أهل الطائف ، عَسَاه يجد الامن والامان بينهم ، ولكنَّه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد

(١) الكلّ الذى هو عيال وثقل على صاحبه . والكلّ . اليتيم . [اللسان - مادة كل] .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها في كتاب بدء الوحي .

الذات ، فلا ذات كذاته ، ولا فى الصفات فلا صفات كصفات ، ولا فى الأفعال ، فليس فى أفعال خلقه ما يُشبه أفعاله تعالى .

فإن قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك عن عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس عن عدم ، وهو ذاتى فيه سبحانه .

فذااته سبحانه لا مثيل لها ، ولا شبهة فى ذوات خلقه . وكذلك إن قيل : لك سَمْعٌ والله سمع . فنزه الله أن يُشابه سمعه سمعك ، وإن قيل : لك فعل ، والله فعل فنزه الله أن يكون فعله كفعلك .

ومن معانى (سُبْحَانَ) أى : أتعجب من قدرة الله .

إذن : كلمة (سُبْحَانَ) جاءت هنا لتشير إلى أن ما بعدها أمر خارج عن نطاق قدرات البشر ، فإذا ما سمعته إياك أن تعترض أو تقول : كيف يحدث هذا ؟ بل نزه الله أن يُشابه فعله فعل البشر ، فإن قال لك : إنه أسرى بنبيه محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة ، مع أنهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، فإياك أن تنكر .

فربك لم يقل : سَرَى محمد ، بل أسرى به . فالفعل ليس لمحمد ولكنه لله ، وما دام الفعل لله فلا تُخضعه لمقاييس الزمن لديك ، ففعل الله ليس علاجاً ومزاولة كفعل البشر .

ولو تأملنا كلمة (سُبْحَانَ) نجدها فى الأشياء التى ضاقت فيها العقول ، وتحيرت فى إدراكها وفى الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) ﴿يس﴾

فالازواج أى : الزوجين الذكر والانثى ، ومنهما يتم التكاثر فى النبات ، وفى الإنسان وقد فسر لنا العلم الحديث قوله : ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ بما توصل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما السالب والموجب الذى يساوى الذكر والانثى : لذلك قال تعالى :

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٦)﴾

[الذاريات]

ومنها قوله تعالى :

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾

[الروم]

فَمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ، ويرى كيف يحلُ الظلام محلّ الضياء ، أو الضياء محل الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أن يقول : سبحان الله .

ومنها قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٨)﴾

[الزخرف]

هذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وردت فيها كلمة (سبحان) فى خلال السور وفى طيات الآيات .

و (سُبْحَانَ) اسم يدلُّ على الثبوت والدوام ، فكان تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزه ، كما نقول فى الخلق ، فاش خالق ومُتصف بهذه الصفة قبل أن يخلق شيئاً .

وكما نقول : فلان شاعر ، فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، فلو لم يكن شاعراً ما قالها .

(١) أقرن الشيء : قدر عليه وأطاقه وأخضعه وسخّره . كأنه مع آخر فى قرن واحد

[القاموس القويم ١١٤/٢] .

إذن : تنزيه الله ثابت له قبل أن يوجد مَنْ يُنَزِّهه سبحانه ، فإذا
وُجِدَ المنزه تحول الأسلوب من الاسم إلى الفعل ، فقال سبحانه :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝١﴾ [الحشر]

وهل سَبَّحَ وسَكَتَ وانتهى التسبيح ؟ لا ، بل :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... ۝١﴾ [الجمعة]

على سبيل الدوام والاستمرار ، وما دام الأمر كذلك والتسبيح
ثابت له ، وتُسَبِّحُ له الكائنات في الماضي والحاضر ، فلا تتقاعس
انت أيها المكلف عن تسبيح ربك ، يقول تعالى :

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى]

وقوله : (أُسْرَى) من السُّرَى ، وهو السير ليلاً ، وفي الحِكَمَ :
(عند الصباح يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى) .

فالحق سبحانه أسرى بعبد ، فالفعل لله تعالى ، وليس لمحمد ﷺ
فلا تَقَسُّ الفعل بمقياس البشر ، ونَزَّهَ فعل الله عن فعلك ، وقد استقبل
أهل مكة هذا الحدث استقبال المكذِب . فقالوا : كيف هذا ونحن
نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وهم كاذبون في قولهم : لأن رسول
الله لم يدَّع أنه سَرَى بل قال : أُسْرَى بي .

ومعلوم أن قَطْعَ المسافات يأخذ من الزمن على قدر عكس القوة
التمثلة في السرعة . أي : أن الزمن يتناسب عكسياً مع القوة ، فلو
أردنا مثلاً الذهاب إلى الاسكندرية سيختلف الزمن لو سَرْنَا على
الأقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة ، فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ،

فما بالك لو نسب الفعل والسرعة إلى الله تعالى ، إذا كان الفعل من الله فلا زمن .

فإن قال قائل : مادام الفعل مع الله لا يحتاج إلى زمن ، لماذا لم يأت الإسراء لمحة فحسب ، ولماذا استغرق ليلة ؟

نقول : لأن هناك فرقاً بين قطع المسافات بقانون الله سبحانه وبين مرآة عُرِضَتْ على النبي ﷺ في الطريق ، فرأى مواقف ، وتكلم مع أشخاص ، ورأى آيات وعجائب ، هذه هي التي استغرقت الزمن .

وقلنا : إنك حين تنسب الفعل إلى فاعله يجب أن تعطيه من الزمن على قدر قوة الفاعل . هَبْ أَنْ قَائِلًا قَالَ لَكَ : أَنَا صَعِدْتُ بِابْنِي الرُّضَيْعِ قِمَّةَ جَبَلٍ « إفرست » ، هل تقول له : كيف صعد ابنك الرضيع قِمَّةَ « إفرست » ؟

هذا سؤال إنن في غير محله ، وكذلك في مسألة الإسراء والمعراج يقول تعالى : أَنَا أُسْرِيْتُ بَعْدَى ، فمن أراد أَنْ يُحِيلَ المسألة وَيُنْكَرَهَا ، فليعرض على الله صاحب الفعل لا على محمد .

لكن كيف فانت هذه القضية على كفار مكة ؟

ومن تكذيب كفار مكة لرسول الله ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج ناخذ رَدًّا جميلاً على هؤلاء الذين يخوضون في هذا الحادث بعقول ضيقة وبإيمانية سطحية في عصرنا الحاضر ، فيطالعونا بأفكار سقيمة ما أنزل الله بها من سلطان .

ونسلمع منهم مَنْ يقول : إن الإسراء كان مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد .

ونقول لهؤلاء : لو قال محمد لقومه : أنا رأيتُ في الرؤيا بيت المقدس ، هل كانوا يُكذِّبونه ؟ ولو قال لهم : لقد سبحتُ رُوحى الليلة حتى أتتُ بيت المقدس ، أكانوا يُكذِّبونه ؟ أتُكذِّب الرُّؤى أو حركة الأرواح ؟!

إنن : فى إنكار الكفار على رسول الله وتكذيبهم له دليل على أن الإسراء كان حقيقة تمت لرسول الله ﷺ بروحه وجسده ، وكان الحق سبحانه أذخر الموقف التكميلى لمكذبي الامس ، ليرد به على مُكذِّبى اليوم .

وقوله سبحانه :

﴿يَعْبُدْهُ ۖ (١٧)﴾

[الإسراء]

العبد كلمة تُطلق على الروح والجسد معاً ، هذا مدلولها ، لا يمكن أن تُطلق على الروح فقط .

لكن ، لماذا اختار الحق سبحانه لرسوله ﷺ هذه الصفة بالذات ؟

نقول : لأن الله تعالى جعل فى الكون قانوناً عاماً للناس ، وقد يُخرق هذا القانون أو الناموس العام ليكون معجزةً للخاصة الذين ميّزهم الله عن سائر الخلق ، فكان كلمة (عبده) هى حيثية الإسراء .

أى : أسرى به : لأنه صادق العبودية لله ، ومادام هو عبده فقد أخلص فى عبوديته لربه ، فاستحق أن يكون له ميّزة وخصوصية عن غيره ، فالإسراء والمعراج عطاء من الله استحقَّه رسوله بما حقَّق من عبودية لله .

وَفَرَّقَ بَيْنَ الْعِبُودِيَةِ لِلَّهِ وَالْعِبُودِيَةِ لِلْبَشَرِ ، فَالْعِبُودِيَةُ لِلَّهِ عِزٌّ وَشَرَفٌ
يَأْخُذُ بِهَا الْعَبْدُ خَيْرَ سَيِّدِهِ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَعِزًّا وَكِدْتُ بِاخْتُمُصِي أَطَا الثَّرِيًّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا
أما عبودية البشر للبشر فنقص ومذلة وهوان ، حيث يأخذ السيد
خير عبده ، ويحرمه ثمرة كدّه .

لذلك ، فالمتتبع لآيات القرآن يجد أن العبودية لا تأتي إلا في
المواقف العظيمة مثل :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۚ ۝١ ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ۚ ۝١٩ ﴾ [الجن]

ويكيفك عزًا وكرامة أنك إذا أردت مقابلة سيدك أن يكون الأمر في
يدك ، فما عليك إلا أن تتوضأ وتنوي المقابلة قائلاً : الله أكبر ، فتكون
في معية الله عز وجل في لقاء تحدد أنت مكانه وموعده ومُدَّتُهُ ،
وتختار أنت موضوع المقابلة ، وتظل في حضرة ربك إلى أن تنتهي
المقابلة متى أردت .

وما أحسنَ مَا قَالَ الشَّاعِرُ :

حَسَبْتُ نَفْسِي عِزًّا بِأَنِّي عَبْدٌ يَحْتَفِي بِي بِلَا مَوَاعِيدَ رَبِّ
هُوَ فِي قُدْسِهِ الْأَعَزِّ وَلَكِنْ أَنَا أَلْقَى مَتًى وَأَيْنَ أَحِبُّ

فما بالك لو حاولت لقاء عظيم من عظماء الدنيا ؟ وكم أنت مُلاقٍ
من المشقة والعنت ؟ وكم دونه من الحجاب والحراس ؟ ثم بعد ذلك
ليس لك أن تختار لا الزمان ولا المكان ، ولا الموضوع ولا غيره .

وقد كان الرسول ﷺ وهو المتخَلَّقُ باخلاق الله إذا سلَّم على أحد لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده^(١) .

وقوله : ﴿لَيْلًا... (١)﴾ [الإسراء]

سبق أن قلنا : إن السُّرى هو السير ليلًا ، فكانت هذه كافية للدلالة على وقوع الحدث ليلًا ، ولكن الحق سبحانه أراد أن يؤكد ذلك ، فقد يقول قائل : لماذا لم يحدث الإسراء نهارًا ؟

نقول : حدث الإسراء ليلًا ، لتظل المعجزة غيبًا يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله ﷺ ، فلو ذهب في النهار لراه الناس في الطريق ذهابًا وعودة ، فتكون المسألة - إذن - حِسِّيَّة مشاهدة لا مجال فيها للإيمان بالغيب .

لذلك لما سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد وقال : إن صاحبكم يزعم أنه أُسْرى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، فمنهم مَنْ قلب كُفْيَه تعجبًا ، ومنهم مَنْ أنكر ، ومنهم مَنْ ارتد .

أما الصَّدِّيق أبو بكر فقد استقبل الخبر استقبالَ المؤمن المصدق ، ومن هذا الموقف سُمِّي الصديق ، وقال قولته المشهورة : « إن كان قال فقد صدق »^(٢) .

(١) عن أنس رضي الله عنه قال ما رأيت رجلاً قط أخذ بيد رسول الله ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو ينزع يده . أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في « أخلاق النبي » (ص ٢٩) .

(٢) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٦١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما أُسْرى بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه . فقالوا : هل لك في صاحبك يزعم أنه أُسْرى به في الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لأن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتُصدِّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم . إنى لأصدق به ما هو أبعد من ذلك ، أصدق به خير للسماء في غدوة أو راحة . فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق . وكذا أخرجه الحاكم في مستدرکه (٢/٦٢) . وقال : « صحيح الإسناد . ولم يخرجاه » .

إذن : عمدته أن يقول رسول الله ، وطالما قال فهو صادق ، هذه قضية مُسَلَّم بها عند الصَّدِّيقِ رضى الله عنه .

ثم قال : « إِنَّا لَنُصَدِّقُهُ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ هَذَا ، نُصَدِّقُهُ فِي خَيْرِ السَّمَاءِ (الوحي) ، فكيف لا نُصَدِّقُهُ فِي هَذَا ؟ »

إذن : الحق سبحانه جعل هذا الحادث مَحَكًّا للإيمان ، ومُحَصِّصًا لليقين الناس ، حتى يغربل مَنْ حول رسول الله ، ولا يبقى معه إلا أصحاب الإيمان واليقين الثابت الذي لا يهتز ولا يتزعزع .

لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ۚ ﴾ [الإسراء]

وهذا دليل آخر على أن الإسراء لم يَكُنْ مناماً ، فالإسراء لا يكون فتنة واختباراً إلا إذا كان حقيقة لا مناماً ، فالمنام لا يُكْذِبُهُ أحد ولا يختلف فيه الناس .

لكن لماذا قال عن الإسراء (رُؤْيَا) يعنى المنامية ، ولم يقل رُؤية ، يعنى البصرية ؟

قالوا : لأنها لما كانت عجيبة من العجائب صارت كأنها رؤيا منامية ، فالرؤيا محل الأحداث العجيبة .

وورد في الإسراء أحاديث كثيرة تكلم فيها العلماء : أكان بالروح والجسد ؟ أكان يقظة أم مناماً ؟ أكان من المسجد الحرام أم من بيت أم هانئ^(١) ؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء ، ونُوضِّح ما فيها من تقارب .

(١) هي : أم هانئ بنت أبي طالب الهاشمية ابنة عم النبي ﷺ . قيل : اسمها فاختة ، فاطمة . هند . والأول أشهر . وكانت زوج هبيرة بن عمرو المخزومي . [الإصابة في تمييز الصحابة (٢٨٧/٨)] .

فمن حيث : أكان الإسراء بالروح فقط أم بالروح والجسد ؟ فقد أوضحنا وَجْهَ الصواب فيه ، وأنه كان بالروح والجسد جميعاً ، فهذا مجال الإعجاز ، ولو كان بالروح فقط ما كان عجبياً ، وما كذبه كفار مكة .

أما مَنْ ذهب إلى أن الإسراء كان رؤياً منام ، فيجب أن نلاحظ أن أول الوحي لرسول الله ﷺ كان الرؤيا الصادقة ، فكان ﷺ لا يرى رؤياً إلا وجاءت بخلق الصبح^(١) ، فرؤيا النبي ﷺ ليست كرؤيانا ، بل هي صدق لا بُدَّ أن يتحقق . ومثال ذلك ما حدث ، مَنْ إرادة الله له رؤيا الفتح .

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ٢٧ ﴾ [الفتح]

وقد أخبر ﷺ صحابته هذا الخبر ، فلما ردُّهم الكفار عند الحديبية ، فقال الصحابة لرسول الله : ألم تُبشِّرنا بدخول المسجد الحرام ؟ فقال : ولكن لم أقل هذا العام^(٢) .

لذلك يسمون هذه الرؤى رؤى الإناس ، وهي أن يرى النبي ﷺ

(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » أخرجه البخاري في صحيحه (٣ ، ٢٢٩٢) كتاب بدء الوحي .

(٢) أورد هذا ابن كثير في تفسيره (٢٠١/٤) ولفظه أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ومطوف به ؟ فقال ﷺ : « بلى ، أفأخبرت أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال عمر : لا . فقال النبي ﷺ : « فإنك آتية ومطوف به » .

الشيء مناماً ، حتى إذا ما تحقق لم يُفاجأ به ، وكان له أنس به .
وما دام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح فلا بد أن هذه الرؤيا
ستأتى واقعاً وحقيقة ، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى على سبيل
التذكرة بذلك الإيناس .

إذن : مَنْ قال : إن الإسراء كان مناماً نقول له : نعم كان رؤيا
إيناس تحققت في الواقع ، فلدينا رؤى الإيناس أولاً ، ورؤى التذكير
بالنعمة ثانياً ، وواقع الحادث في الحقيقة ثالثاً ، وبذلك نخرج من
الخلاف حول : أكان الإسراء يقظة أم مناماً ؟

وحتى بعد انتهاء حادث الإسراء كانت الرؤيا الصادقة نوعاً من
التسلية لرسول الله ﷺ ، فكان كلما اشتدت به الأهوال يُريه الله تعالى
ما حدث له ليُبَيِّنَ له حفاوة السماء والكون به ﷺ : ليكون جُلُوداً
يتحمل ما يلاقى من التعنت والإيذاء .

أما من قال : إن الإسراء كان من بيت أم هانئ ، فهذا أيضاً ليس
محلاً للخلاف ؛ لأن بيت أم هانئ كان مُلاصقاً للمطاف من المسجد
الحرام ، والمطاف من المسجد .

إذن : لا داعى لإثارة الشكوك والخلافات حول هذه المعجزة ؛ لأن
الفعل فعل الحق سبحانه وتعالى ، والذي يحكيه لنا هو الحق سبحانه
وتعالى ، فلا مجال للخلاف فيه .

وقوله تعالى :

﴿مَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا.. (١)﴾

[الإسراء]

المسجد الحرام هو بيت الله : الكعبة المشرفة ، وسُمِّي حراماً ؛
لأنه حُرِّمَ فيه ما لم يحُرِّمَ في غيره من المساجد . وكل مكان
يخصص لعبادة الله نسميه مسجداً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ (١٨) ﴾ [التوبة]

ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد ، أنه بيت الله
باختيار الله تعالى ، وغيره من المساجد بيوت الله باختيار خلق الله ؛
لذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

وقد يُراد بالمسجد المكان الذي تسجد فيه ، أو المكان الذي
يصلح للصلاة ، كما جاء في الحديث الشريف : « .. وَجُعِلَتْ لِي
الارض مسجداً وطهوراً » ^(١) .

أي : صالحة للصلاة فيها .

ولا بُدَّ أن تُفَرَّقَ بين المسجد الذي حُيِّزَ وَخُصِّصَ كمسجد
مستقل ، وبين أرض تصلح للصلاة فيها ومباشرة حركة الحياة ،
فالعامل يمكن أن يصلح في مصنعه ، والفلاح يمكن أن يصلح في
مزرعته ، فهذه أرض تصلح للصلاة ولمباشرة حركة الحياة .

أما المسجد للصلاة ، أو ما يتعلق بها من أمور الدين كتفسير
آية ، أو بيان حكم ، أو تلاوة قرآن .. إلخ ولا يجوز في المسجد
مباشرة عمل من أعمال الدنيا .

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي :
نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي
أبركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ، ولم تحل لأحد قبلي . وأعطيت الشفاعة .
وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى في صحيحه
(٢٢٥٠) ومسلم في صحيحه (٥٢١) .

سُورَةُ الْأَشْرَاءِ

○ ٨٣٢١ ○

لذلك حينما رأى النبي ﷺ رجلاً ينشد ضالته في المسجد ، قال له : « لا رُدُّها الله عليك » ^(١) وقال لمن جلس يعقد صفقة في المسجد : « لا بارك الله لك في صفقتك » ^(٢) .

ذلك لأن المسجد خُصَّص للعبادة والطاعة ، وفيه يكون لقاء العبد بربه عز وجل ، فإياك أن تشغل نفسك فيه بأمور الدنيا ، ويكفى ما أخذته منك ، وما أنفقتَه في سبيلها من وقت .

والمسجد لا يُسمَّى مسجداً إلا إذا كان بناءً مستقلاً من الأرض إلى السماء ، فأرضه مسجد ، وسماؤه مسجد ، لا يعلوه شيء من منافع الدنيا ، كمن يبنى مسجداً تحت عمارة سكنية ، ودَعَا من نيته عندما خُصَّص هذا المكان للصلاة : أكانت نيته لله خالصة ؟ أم لمأرب دنيوى ؟
وقد قال تعالى :

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) [الجن]

فمثل هذا المكان لا يُسمَّى مسجداً ؛ لأنه لا تنطبق عليه شروط المسجد ، ويعلوه أماكن سكنية يحدث فيها ما يتنافى ووقدسية المسجد ، وما لا يليق بحُرمة الصلاة ، فالصلاة في مثل هذا المكان كالصلاة في أى مكان آخر من البيت .

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة قال . قال رسول الله ﷺ . « من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك . فإن المساجد لم تبني لهذا . »

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أبيع الله تجارك » أخرجه الترمذى في سننه (١٢٢١) وقال : « حديث حسن غريب . »

لذلك يحرم على الطيار غير المسلم أن يُحَلِّقَ فوق مكة : لأن جوَّ الحَرَمِ حَرَمٌ .

وقوله تعالى :

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى..(١)﴾ [الإسراء]

في بُعْدِ المسافة نقول : هذا قصيٌ . أي : بعيد . وهذا أقصى أي : أبعد ، فالحق تبارك وتعالى كأنه يلفت أنظارنا إلى أنه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجدٌ آخر قصيٌ ، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله ﷺ .

فالمسجد الأقصى : أي : الأبعد ، وهو مسجد بيت المقدس .

وقوله سبحانه : ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ..(١)﴾ [الإسراء]

البركة : أن يُؤْتَى الشيء من ثمره فوق المأمول منه ، وأكثر مما يُظَنُّ فيه ، كأن تُعد طعاماً لشخصين ، فيكفي خمسة أشخاص ، فتقول : طعام مبارك .

وقول الحق سبحانه :

﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ..(١)﴾ [الإسراء]

دليل على المبالغة في البركة ، فإن كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى ، فالبركة فيه من باب أولى ، كان تقول : مَنْ يعيشون حول فلان في نعمة ، فمعنى ذلك أنه في نعمة أعظم .

لكن بأي شيء بارك الله حوله ؟

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى ببركة دنيوية ، وبركة دينية :

بركة دنيوية بما جعل حوله من أرض خصبة عليها الحدائق

سُورَةُ الْاِنْمَارِ

٨٢٢٢

والبساتين التي تحوى مختلف الثمار ، وهذا من عطاء الربوبية الذى يناله المؤمن والكافر .

وبركة دينية خاصة بالمؤمنين ، هذه البركة الدينية تتمثل فى أن الاقصى مهّد الرسالات ومهبط الانبياء ، تعطّرت ارضه بأقدام إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى ، وفيه هبط الوحى وتنزلت الملائكة .

وقوله : ﴿لِرَبِّهِ مِنْ آيَاتِنَا .. (١)﴾
اللام هنا للتعطيل .

كان مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس أن تُرى رسول الله الآيات ، وكلمة : الآيات لا تُطلق على مطلق موجود ، إنما تطلق على الموجود العجيب ، كما نقول : هذا آية فى الحُسْن ، آية فى الشجاعة ، فالآية هى الشئ العجيب .

والله عز وجل آيات كثيرة منها الظاهر الذى يراه الناس ، كما قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.. (٣٧)﴾ [فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٧)﴾ [الشورى]

والله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله ﷺ خصوصية ، وأن يُرى من آيات الغيب الذى لم يَرَهُ أحد ، ليرى ﷺ حفاوة السماء به ، ويرى مكانته عند ربه الذى قال له :

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)﴾ [النحل]

لأنك فى سعة من عطاء الله ، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك أهل السماء فى الملا الأعلى ، وإن كنت فى ضيق من الخلق فأنت فى سعة من الخالق .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١)

[الإسراء]

أى : الحق سبحانه وتعالى .

السمع : إدراك يدرك الكلام . والبصر : إدراك يدرك الأفعال والمرائى ، فكل منهما ما يتعلق به .

لكن سميع وبصير لمن ؟

جاء هذا فى ختام آية الإسراء التى بَيَّنَّتْ أن الحق سبحانه جعل الإسراء تسليية للرسول ﷺ بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم ، وكان معركة دارت بين رسول الله والكفار حدثت فيها أقوال وأفعال من الجانبين .

ومن هنا يمكن أن يكون المعنى : (سَمِيعٌ) لاقوال الرسول (بَصِيرٌ) بأفعاله ، حيث آذاه قومه وكذبوه والجؤوه إلى الطائف ، فكان أهلها أشد قسوة من إخوانهم فى مكة ، فعاد مُنْكَرًا دامياً ، وكان من دعائه :

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته امرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (١) .

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤١٩ ، ٤٢٠) . والبيهقى فى « دلائل النبوة » .

فَالله سَمِيعٌ لِقَوْلِ نَبِيِّهِ ﷺ . وَبَصِيرٌ لِفَعْلِهِ .

فَقَدْ كَانَ ﷺ فِي أَشَدِّ ظُرُوفِهِ حَرِيصًا عَلَى دَعْوَتِهِ ، فَقَدْ قَابِلَ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ مِنَ الطَّائِفِ عَبْدًا ، فَأَعْطَاهُ عَنْقُودًا مِنَ الْعَنْبِ ، وَأَخَذَ يَحَاوِرُهُ فِي النُّبُوءَاتِ وَيَقُولُ : أَنْتَ مِنْ بَلَدِ نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ^(١) .

أَوْ يَكُونُ الْمَعْنَى : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ ، حِينَمَا آذَوْا سَمْعَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَذَّبُوهُ وَتَجَهَّمُوا لَهُ ، وَبَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ حِينَمَا آذَوْهُ وَرَمَوْهُ بِالْحَجَارَةِ .

الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَعَرَّضَ لِحَادِثِ الْإِسْرَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ ، فَذَكَرَ بَدَايَتَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَنَهَايَتَهُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ، وَبَيْنَ الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ ذَكَرَ كَلِمَةَ الْآيَاتِ هَكَذَا مُجْمَلَةً .

وَجَاءَ ﷺ فَيُفَسِّرُ لَنَا هَذَا الْمَجْمَلَ ، وَذَكَرَ الْآيَاتِ الَّتِي رَأَاهَا ، فَلَوْ لَمْ يَذْكُرْ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَى مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَقُلْنَا : وَأَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتُ ؟

فَالْقُرْآنُ يَعْطِينَا اللَّقِطَةَ الْمُلْزِمَةَ لِبَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ :

﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ وَقُرْآنُهُ (١٧) فَإِذَا قُرْآنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ (١٩)﴾ [الْقِيَامَةِ]

إِذَنْ : كَانَ لَا بُدَّ لِمُتَكَمِّلِ صُورَةِ الْإِسْرَاءِ فِي نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولَ الرَّسُولُ ﷺ مَا قَالَ مِنْ أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ .

(١) هَذَا الْعَبْدُ يُسَمَّى عَدَّاسَ ، وَهُوَ غُلَامٌ نَصْرَانِيٌّ ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ أَهْلُ أَيْ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ ، وَمَا دِينُكَ ؟ قَالَ : نَصْرَانِيٌّ ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَيْنَوَى . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ قَرْيَةُ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى . فَقَالَ لَهُ عَدَّاسُ : وَمَا يَدْرِيكَ مَا يُونُسُ ابْنُ مَتَّى ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ذَاكَ أَخِي ، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ . فَكَتَبَ عَدَّاسُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَبْلِ رَأْسِهِ وَيَدِيهِ وَقَدَمَيْهِ . [السيرة النبوية لابن هشام ٤٢١/٢]

لكن يأتى المشكُّونَ وضعافَ الإيمانِ يبحثونَ فى أحاديثِ الإسراءِ
عن ماخذٍ ، فيعترضونَ على المرائى التى رآها رسولُ الله ، وسألَ
عنها جبريلُ عليه السلام .

فكان اعتراضهم أن هذه الأحداث فى الآخرة ، فكيف رآها
محمد ﷺ ؟

ونقول لهؤلاء : لقد قصُرتْ أفهامكم عن إدراكِ قدرةِ الله فى خلقِ
الكونِ ، فالكونُ لم يُخلَقْ هكذا ، بل خُلِقَ بتقديرِ أزلى له ، ولتوضيحِ
هذه المسألة نضرب هذا المثل :

هَبْ أنك أردتَ بناءَ بيتٍ ، فسوف تذهبُ إلى المهندسِ المختصِّ
وتطلبُ منه رَسْمًا تفصيليًا له ، ولو كنتَ ميسورَ الحالِ تقولُ له :
اعملْ لى (ماكيت) للبيتِ ، فيصنعُ لك نموذجًا مُصَفَّرًا للبيتِ الذى
تريدُه .

فالحق سبحانه خلق هذا الكونَ أزلاً ، فالأشياء مخلوقة عند الله
(كالماكيت) ، ثم يبرزها سبحانه على وَفْقِ ما قَدَّرَه .

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢)

[يس]

انظر : ﴿ أَنْ يَقُولَ لَهُ ﴾ كان الشئ موجوداً والله تعالى يظهره
فحسب ، لا يخلقه بداية ، بل هو مخلوق جاهز ينتظر الأمر ليظهر فى
عالم الواقع ؛ لذلك قال أهل المعرفة : أمور يُبدِئها ولا يبتدئها .

وإن كان الحق تبارك وتعالى قد ذكر الإسراء صراحة فى هذه
الآية ، فقد ذكر المعراج بالالتزام فى سورة النجم ، فى قوله تعالى :

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

٨٣٢٧

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَ مَا جَاءَتْهُ الْمَآوَىٰ (١٥)
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾

[النجم]

ففى الإسراء قال تعالى :

﴿لَنُرِيَنَّكَ مِنْ آيَاتِنَا.. (١)﴾

[الإسراء]

وفى المعراج قال :

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾

[النجم]

ذلك لان الإسراء آية أرضية استطاع الرسول ﷺ بما آتاه الله من الإلهام أن يدل على صدقه فى الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى : لان قومه على علم بتاريخه ، وأنه لم يسبق له أن رأى بيت المقدس أو سافر إليه ، فقالوا له : صفه لنا وهذه شهادة منهم أنه لم يره ، فتحدوه أن يصفه .

والرسول ﷺ حينما يأتى بمثل هذه العملية ، هل كان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس ، خاصة وقد ذهب إليه ليلاً ؟

إذن : صورته لم تكن واضحة أمام النبى ﷺ بكل تفاصيلها .
وهنا تدخلت قدرة الله فجلاه الله له ، فأخذ يصفه لهم كأنه يراه الآن .

كما أن الطريق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى طريق مسلك للعرب ، فهو طريق تجارتهم إلى الشام ، فاخبرهم ﷺ أن غيراً لهم فى الطريق ، ووصفها لهم وصفاً دقيقاً ، وأنها سوف تصلهم مع شروق شمس يوم معين .

وفعلأ تجمعوا فى صبيحة هذا اليوم ينتظرون العير . وعند الشروق قال أحدهم : ها هى الشمس أشرقت . فردَّ الآخر : وها هى العير قد ظهرت^(١) .

إذن : استطاع ﷺ أن يُدَلِّل على صدق الإسراء : لأنه آية أرضية يمكن التدليل عليها ، بما يَعْلَمُه الناس عن بيت المقدس ، وبما يعلمونه من غيرهم فى الطريق .

أما ما حدث فى المعراج ، فأيات كبرى سماوية لا يستطيع الرسول ﷺ التدليل عليها أمام قومه ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل ما يمكن الدليل عليه من آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصعود إلى السماء ، وإلا فهل صعد أحد إلى سدرة المنتهى ، فيصفها له رسول الله ؟

إذن : آية الأرض أمكن أن يُدَلِّل عليها ، فإذا ما قام عليها الدليل ، وثبت للرسول خَرَقَ نواميس الكون فى الزمن والمسافة ، فإنَّ حَدَّثَكُمْ عن شيء آخر فيه خَرَقَ للنواميس فصدِّقوه ، فكان آية الإسراء جاءت

(١) وقد أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٠٢/١) من حديث أم هانئ أن النبى ﷺ قال : آية ذلك أنى مررت ببعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حسَّ الدابة ، فندَّ لهم بغير ، فدللتهم عليه ، وأنا مُوجَّه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت ببعير بنى فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء . فكشفت غطاءه . وشربت ما فيه . ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن غيرهم الآن يصوب من البيضاء ثنية التنعيم ، يقدمها جمل أورق . عليه هزارتان . أحدهما سوداء . والأخرى برقاء . قالت : فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم . وسألوه عن الإناء . فأخبروه أنهم وضعوه مملوفاً ماء ثم غطوه . وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه . ولم يجدوا فيه ماء . وسألوا الآخرين وهم همكة ، فقالوا : صدق والله . لقد أنفَرنا فى الوادى الذى ذكر ، وندَّ له بغير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه . حتى أخذناه .

لِنُقَرِّبَ لِلنَّاسِ آيَةَ الْمَعْرَاجِ .

فالذى خرق له النواميس فى آيات الأرض من الممكن أن يخرق له النواميس فى آيات السماء ، فالله تعالى يُقَرِّبُ الْغَيْبِيَّاتِ ، التى لا تتركها العقول بالمحسَّات التى تتركها .

ومن ذلك ما ضربه إليه مثلاً محسوساً لمضاعفة النفقة فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف ، فاراد الحق سبحانه أن يُبَيِّنَ ذلك ويُقَرِّبَهُ للعقول ، فقال :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ مِنْ شَجَرٍ مَنْبُتٍ فِي كُلِّ صَبَإٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]

ومن لطف الله سبحانه بعقول خلقه أن جعل آيات الإسراء بالنص الملزم الصريح ، لكن آيات المعراج جاءت بالالتزام فى سورة النجم ؛ لذلك قال العلماء : إن الذى يُكذِّبُ بالإسراء يكفر ، أما مَنْ يُكذِّبُ بالمعراج فهو فاسق .

لكن أهل التحقيق يذهبون إلى تكفير مَنْ يُكذِّبُ المعراج أيضاً ؛ لأن المعراج وإن جاء بالالتزام فقد بيَّنه الرسول ﷺ فى حديثه الشريف ، والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا... (٧)﴾ [الحشر]

والمتمامل فى الإسراء والمعراج يجده إلى جانب أنه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، إلا أن لهم هدفاً آخر أبعد أثراً ، وهو بيان أن رسول الله ﷺ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللَّهِ ، وله معجزات ، وتُخَرِّقُ لَهُ الْقَوَانِينِ

والنواميس العامة ؛ ليكون ذلك كله تكريماً ودليلاً على صدق رسالته .

فالمعجزة : أمر خارق للعادة الكونية يُجْريه الله على يد رسوله ؛
ليكون دليلاً على صدقه ، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل - عليه
السلام - حيث ألقاه قومه فى النار ، ومن خواص النار الإحراق ، فهل
كان المراد نجاة إبراهيم من النار ؟

لو كان القصد نجاته من النار ما كان الله مكّنهم من الإمساك به ،
ولو أمسكوا فيمكن أن يُنزل الله المطر فيطفئ النار .

إذن : المسألة ليست نجاة إبراهيم ، المسألة إثبات خرق النواميس
لإبراهيم عليه السلام ، فشاء الله أن تظل النار مشتعلة ، وأن يُمسكوا
به ويرموه فى النار ، وتتوفر كل الأسباب لحرقه - عليه السلام .

وهنا تتدخل عناية الله لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين ، فمن
خواص النار الإحراق ، وهى خلق من خلق الله ، ياتمر بأمره ، فأمر
الله النار ألا تحرق ، سلبها هذه الخاصية ، فقال تعالى :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء]

وربما يجد المشككون فى الإسراء والمعراج ما يُقرب هذ المعجزة
لأفهامهم بما نشاهده الآن من تقدّم علمي يُقرب لنا المسافات ، فقد
تمكّن الإنسان بسلطان العلم أن يغزو الفضاء ، ويصعد إلى كواكب
أخرى فى أزمنة قياسية ، فإذا كان فى مقدور البشر الهبوط على
سطح القمر ، أتستبعدون الإسراء والمعراج ، وهو فعل لله سبحانه ؟!

وكذلك من الأمور التى وقفت أمام المعترضين على الإسراء

والمعراج حادثة شقّ الصدر التي حكاهما رسول الله ﷺ ، والمتأمل فيه يجده عملاً طبيعياً لإعداد الرسول ﷺ لما هو مُقبل عليه من أجواء ومواقف جديدة تختلف في طبيعتها عن الطبيعة البشرية .

كيف ونحن نفعل مثل هذا الإعداد حينما نسافر من بلد إلى آخر ، فيقولون لك : البس ملابس كذا . وخذ حقنة كذا لتسافر طبيعة هذا البلد ، وتتأقلم معه ، فما بالك ومحمد ﷺ سيلتقى بالملائكة وبجبريل وهم ذور طبيعة غير طبيعة البشر ، وسيلتقى بإخوانه من الأنبياء ، وهم في حال الموت ، وسيكون قاب قوسين أو أدنى من ربه عز وجل ؟ إذن : لا غرابة في أن يحدث له تغيير ما في تكوينه ﷺ ليستطيع مباشرة هذه المواقف .

وإذا استقرأنا القرآن الكريم فسوف نجد فيه ما يدلُّ على صدق رسول الله فيما أخبر به من لقاءه بالأنبياء في هذه الرحلة ، قال تعالى :

﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا . . (١٥)﴾ [الزخرف]

والرسول ﷺ إذا أمره ربه أمراً نفّذه ، فكيف السبيل إلى تنفيذ هذا الأمر : واسأل مَنْ سبقك من الرسل ؟

لا سبيل إلى تنفيذه إلا في لقاء مباشر ومواجهة ، فإذا حدثنا بذلك رسول الله في رحلة الإسراء والمعراج نقول له : صدقت ، ولا يتسلل الشك إلا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين .

فالفكرة في هذه القضية - الإسراء والمعراج - دائرة بين يقين

المؤمن بصدق رسول الله ، وبين تحكيم العقل ، وهل استطاع عقلك أن يفهم كل قضايا الكون من حولك ؟

فما أكثر الأمور التي وقف فيها العقل ولم يفهم كُنْهَهَا ، ومع مرور الزمن وتقدم العلوم رآها تتكشف له تدريجياً ، فما شاء الله أن يُظهره لنا من قضايا الكون يسر لنا أسبابه باكتشاف أو اختراع ، وربما بالمصادفة .

وما العقل إلا وسيلة إدراك ، كالعين والأذن ، وله قوانين محددة لا يستطيع أن يتعداها ، وإياك أن تظن أن عقلك يستطيع إدراك كل شيء ، بل هو محكوم بقانون .

ولتوضيح ذلك ، نأخذ مثلاً العين ، وهي وسيلة إدراك يحكمها قانون الرؤية ، فإذا رايت شخصاً مثلاً تراه واضح الملامح ، فإذا ما ابتعد عنك تراه يصغر تدريجياً حتى يختفي عن نظرك ، كذلك السمع تستطيع بأذنك أن تسمع صوتاً ، فإذا ما ابتعد عنك قلّ سمعك له ، حتى يتوقف إدراك الأذن فلا تسمع شيئاً .

كذلك العقل كوسيلة إدراك له قانون ، وليس الإدراك فيه مطلقاً .

ومن هنا لما أراد العلماء التغلب على قانون العين وقانون الأذن حينما تضعف هذه الحاسة وتعجز عن أداء وظيفتها صنعوا للعين النظارة والميكروسكوب والمجهر ، وهذه وسائل حديثة تمكن العين من رؤية ما لا تستطيع رؤيته . وكذلك صنعوا سماعة الأذن لتساعد على السمع إذا ضعفت عن أداء وظيفتها .

إن : فكل وسيلة إدراك لها قانونها ، وكذلك العقل ، وإياك أن تظن

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

٨٣٣٣

أن عقلك يستطيع أن يدرس كل شيء ، ولكن إذا حَدَّثَتْ بشيء فعقلك ينظر فيه ، فإذا وثقته صادقاً فقد انتهت المسألة ، وخذ ما حدثت به على أنه صدق .

وهذا ما حدث مع الصَّدِيق أبي بكر رضى الله عنه حينما حدثوه عن صاحبه ﷺ ، وأنه أُسْرِى به من مكة إلى بيت المقدس ، فما كان منه إلا أن قال : « إن كان قال فقد صدق » .

فالحجة عنده إذن قول الرسول ، وما دام الرسول قد قال ذلك فهو صادق ، ولا مجال لعمل العقل في هذه القضية ، ثم قال : « كيف لا أصدقه في هذا الخبر ، وأنا أصدقه في أكثر من هذا ، أصدقه في خبر الوحي يأتيه من السماء » ^(١) .

فتأية الإسراء - إذن - كانت آية أرضية ، يمكن أن يُقام عليها الدليل ، ويمكن أن يفهم الناس عنها أن القانون قد خُرق لمحمد في الإسراء ، فإذا ما أتى المعراج وخرق له القانون فيما لا يعلم الناس كان أدعى لتصديقه .

والمأمل في هذه السورة يجدها تسمى سورة الإسراء ، وتسمى سورة بنى إسرائيل ، وليس فيها عن الإسراء إلا الآية الأولى فقط ، وأغلبها يتحدث عن بنى إسرائيل ، فما الحكمة من ذكر بنى إسرائيل بعد الإسراء ؟

سبق أن قلنا : إن الحكمة من الكلام عن الإسراء بعد آخر النحل

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وكذا الحاكم في مستدركه (٢/٦٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٣٣٤

أن رسول الله ﷺ كان في ضيق مما يمكرون ، فأراد الحق سبحانه أن يُخَفِّفَ عنه وَيُسَلِّيه ، فكان حادث الإسراء ، ولما أَلَفَ بنو إسرائيل أن الرسول يُبْعَثُ إلى قومه فحسب ، كما رَأَوْا موسى عليه السلام .

فعندما يأتي محمد ﷺ ويقول : أنا رسول للناس كافة سيعترض عليه هؤلاء وسيقولون : إن كنتَ رسولا فعلا وسَلَمْنَا بِذلك ، فأنت رسول للعرب دون غيرهم ، ولا دَخَلَ لك ببني إسرائيل ، فلَمَّا رسالتنا وبيت المقدس عَمَ لنا .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يلفت بني إسرائيل إلى عموم رسالة محمد ﷺ ، ومن هنا جعل بيت المقدس قبلة للمسلمين في بداية الأمر ، ثم أسرى برسوله ﷺ إليه : ليدل بذلك على أن بيت المقدس قد دخل في مقدسات الإسلام ، وأصبح منذ هذا الحدث في حوزة المسلمين .

ثم يبدأ الحديث عن موسى عليه السلام وعن بني إسرائيل ، فيقول تعالى :

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝١﴾

قوله : ﴿ وَأَتَيْنَا ﴾ أى : أوحينا إليه معانيه ، كما قال تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ.. (٥٦)﴾

[الشورى]

فليس في هذا الامر مباشرة .

و (الكتاب) هو التوراة ، فلو اقترن بعيسى فهو الإنجيل ، وإن أطلق دون أن يقترن بأحد ينصرف إلى القرآن الكريم .

والوحي قد يكون بمعاني الأشياء ، ثم يُعبر عنها الرسول بالفاظه ، أو يعبر عنها رجاله وحواريوه بالفاظهم .

ومثال ذلك : الحديث النبوي الشريف ، فالمعنى فيه من الحق سبحانه ، واللفظ من عند الرسول ﷺ ، وهكذا كان الامر في التوراة والإنجيل .

فإن قال قائل : ولماذا نزل القرآن بلفظه ومعناه ، في حين نزلت التوراة والإنجيل بالمعنى فقط ؟

نقول : لأن القرآن نزل كتاب منهج مثل التوراة والإنجيل ، ولكنه نزل أيضاً كتاب معجزة لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، فلا تدخل لأحد فيه ، ولا بد أن يظل لفظه كما نزل من عند الله سبحانه وتعالى .

فالرسول ﷺ أوحى إليه لفظاً ومعنى القرآن الكريم ، وأوحى إليه معنى الحديث النبوي الشريف .

والحق سبحانه يقول :

[الإسراء]

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾ (٢)

فهذا الكتاب لم ينزل لموسى وحده ، بل ليُبلغه لبني إسرائيل ،

وليرسم لهم طريق الهدى إلى الله سبحانه ، وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرَّةٍ^(١) مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٤)﴾
[السجدة]

والهُدَى : هو الطريق الموصِّل للغاية من أقصر وجه ، وبأقل تكلفة ، وهو الطريق المستقيم ، ومعلوم عند أهل الهندسة أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين .

ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى خلاصة هذا الكتاب ، وخلاصة هذا الهدى لبني إسرائيل فى قوله تعالى :

﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢)﴾
[الإسراء]

ففى هذه العبارة خلاصة الهدى ، وتركيز المنهج وجماعه .

والوكيل : هو الذى يتولَّى أمرك ، وأنت لا تُولِّى أحداً أمرك إلا إذا كنت عاجزاً عن القيام به ، وكان مَنْ تُوكِّله أحكم منك وأقوى ، فإذا كنت ترى الأغيار تنتاب الناس من حولك وتستولى عليهم ، فالغنى يصير فقيراً ، والقوى يصير ضعيفاً ، والصحيح يصير سقيماً .

وكذلك ترى الموت يتناول الناس واحداً تلو الآخر ، فاعلم أن هؤلاء لا يصلحون لتولَّى أمرك والقيام بشأنك ، فربما وكَّلت واحداً منهم ففاجأك خبر موته .

إذن : إذا كنت لبيباً فوكل مَنْ لا تنتابه الأغيار ، ولا يدركه

(١) العرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢ / ٢٢٤]

الموت : ولذلك فالحق سبحانه حينما يُعلمنا أن نكون على وعى وإدراك لحقائق الأمور ، يقول :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (٥٨)

[الفرقان]

وما دام الامر كذلك ، فإياك أن تتخذ من دون الله وكيلاً ، حتى لو كان هذا الوكيل هو الواسطة بينك وبين ربك كالأنبياء ؛ لانهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم ، بل يناولونك ويبلغونك عن الله سبحانه .

ولذلك الحق سبحانه يقول :

﴿ وَكُنْ شَعْنًا لَّنْذَهْرٍ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. ﴾ (٨٦)

[الإسراء]

ولو شئنا ما أوحينا إليك أبداً ، فمن أين تأتي بالمنهج إذن ؟

وقد تحدث العلماء طويلاً في (أن) في قوله :

﴿ أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ (٢)

[الإسراء]

فمنهم من قال : إنها ناهية . ومنهم من قال : نافية ، وأحسن ما يقال فيها : إنها مفسرة لما قبلها من قوله تعالى :

﴿ وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى .. ﴾ (٢)

[الإسراء]

ففسرت الكتاب والهدى ولخصته ، كما في قوله تعالى :

﴿ فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا

[طه]

يَبْلَى ﴾ (١٢٠)

فقوله : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ ﴾ تفسر لنا مضمون وسوسة الشيطان .

ومثله قوله تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ ۝٧﴾ [القصص]

(فَإِنَّ) هُنَا مُفسَّرَةٌ لِمَا قَبْلُهَا . وَكَانَ الْمَعْنَى : وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ الْأُتَّخِذُوا مِنْ بَنِي وَكَيْلًا .

أَوْ نَقُولُ : إِنْ فِيهَا مَعْنَى الْمَصْدَرِيَّةِ ، وَإِنَّ الْمَصْدَرِيَّةَ قَدْ تُجْرَى بِحَرْفِ جَرٍّ كَمَا نَقُولُ : عَجِبْتُ أَنْ تَنْجَحَ ، أَيْ : مِنْ أَنْ تَنْجَحَ . وَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ هُنَا : وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ لِأَنْ لَا يَتَّخِذُوا مِنْ بَنِي وَكَيْلًا .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا ۝٢﴾

(ذُرِّيَّةٌ) مَنْصُوبَةٌ هُنَا عَلَى الْإِخْتِصَاصِ لِقَصْدِ الْمَدْحِ ، فَالْمَعْنَى : أَخَصَّكُمْ أَنْتُمْ يَا ذُرِّيَّةَ نُوحٍ ، وَلَكِنْ لِمَاذَا ذُرِّيَّةَ نُوحٍ بِالذَّاتِ ؟

ذَلِكَ لِأَنَّنَا نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْفِرْقِ ، وَحَافِظْنَا عَلَى حَيَاتِهِمْ ، وَأَنْتُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ ، فَلَا بُدَّ لَكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ اللَّهُ تَعَالَى ، أَنْ أَبْقَاكُمْ الْآنَ مِنْ بَقَاءِ آبَائِكُمْ .

فَكَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ بِأَنْ نَجَّى آبَاءَهُمْ مَعَ نُوحٍ ، فَلْيَسْتَمِعُوا إِلَى مَنْهَجِ اللَّهِ الَّذِي جَرَّبَهُ آبَاؤُهُمْ ، وَوَجَدُوا أَنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ تَكُونُ لَهُ النِّجَاةُ وَالْأَمْنُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

وَيَقُولُ تَعَالَى :

[الإسراء]

﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

أى : أن الحق سبحانه أكرم نبيته : لانه كان عبداً شكوراً ،
والعمل الصالح ينفع ذرية صاحبه ؛ ولذلك سنلاحظ ذرية نوح
بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبطون فى متاهات الحياة ، وسنرسل لهم
الهدى الذى يرسم لهم الطريق القويم ، ويُجنبهم الزلل والانحراف .

ودائماً ما ينشغل الآباء بالأبناء ، فإذا ما توفر للإنسان قوت يومه
تطلع إلى قوت العام كله ، فإذا توفر له قوت عامه قال : أعمل
لأولادى ، فترى خير أولاده أكثر من خَيْرِهِ ، وتراه ينشغل بهم ،
ويؤثرهم على نفسه ، ويترقى فى طلب الخير لهم ، ويودُّ لو حمل
عنهم كل تعب الحياة ومشاقها .

ومع ذلك ، فالإنسان عُرضة للأغيار ، وقد يأتيه أجله فيترك
وراءه كل شيء ؛ ولذلك فالحق سبحانه يدلنا على وَجْه الصواب الذى
ينفع الأولاد ، فيقول تعالى :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ
وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾

[النساء]

والحق تبارك وتعالى حينما يُعلمنا أن تقوى الله تتعدى بركتها إلى
أولادك من بعدك ، يعطينا مثلاً واقعياً فى قصة موسى والخضر
عليهما السلام - التى حكاها لنا القرآن الكريم .

والشاهد فيها أنهما حينما مرّا على قرية ، واستطعما أهلها فأبوا
أن يُضيفوهما ، وسؤال الطعام يدل على صدق الحاجة ، فلو طلب منك
السائل مالاً فقد اتهمه بكُنْزِهِ ، أما إذا طلب منك رغيفاً يأكله فلا شك

أنه صادق في سؤاله ، فهذا دليل على أنها قرية لثام لا يقومون بواجب الضيافة ، ولا يُقدِّرون حاجة السائل .

ومن هنا تعجب موسى - عليه السلام - من مبادرة الخضر إلى بناء الجدار الذي أوْشك على السقوط دون أن يأخذ أجره من هؤلاء اللثام :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ [الكهف]

وهنا يكشف الخضر لموسى حقيقة الامر ، ويظهر له ما أطلعه الله عليه من بواطن الأمور التي لا يدركها موسى عليه السلام ، فيقول :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ . (٨٧) ﴾ [الكهف]

فالجدار ملك للغلامين صغيرين لا يقدران على حماية مالهما من هؤلاء اللثام ، ولأن أباهما كان صالحاً سخر الله لهما مَنْ يخدمهما ، ويحافظ على مالهما .

إذن : فعلت هذا العمل أن أباهما كان صالحاً ، فأكرمهم الله من أجله ، وجعلهما في حيازته وحفظه .

وهنا قد يسأل سائل : ومن أين للغلامين أن يعلما بامر هذا الكنز عند بلوغهما ؟

والظاهر أن الخضر بما أعطاه الله من الحكمة بنى هذا الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث ينهدم بعد بلوغ الغلامين ، فيكونان قادرين على حمايته والدفاع عنه .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

٨٢٤١

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هذه القضية في آية أخرى ،
فيقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ^(١) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٢٦)
[الطود]

فكرامة للأباء نلحق بهم الأبناء ، حتى وإن قَصُرُوا في العمل عن
آبائهم ، فنزيد في أجر الأبناء ، ولا ننقص من أجر الآباء .

وقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٢٧) [الإسراء]

وشكور صيغة مبالغة في الشكر ، فلم يقل شاكر ؛ لأن الشاكر
الذي يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر العداوم
عليه ، وقالوا عن نوح عليه السلام : إنه كان لا يتناول شيئاً من
مُقَوِّمَاتِ حياته إلا شكر الله عليها . ولا تنعم بنعمة من ترف الحياة إلا
حمد الله عليها ، فإذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني من غير حول
منى ولا قوة ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني من غير حول
منى ولا قوة ، وهكذا في جميع أموره^(٢) .

(١) لأنه يلبثه حقه لنا . نقصه ولم يزد كمالاً . قال تعالى : ﴿لَا يَنْقُصُكُمْ شَيْئًا﴾ (٣٥)

[الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس اللغوي ٢/٢٠٩] .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٩٤١/٥) من قول عمران بن سليم قال : إنما سُمي نوحاً

عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني . وإذا شرب

قال : الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كسأني

ولو شاء لأعرأني . وإذا اجتذى قال : الحمد لله الذي حذأني ولو شاء لأحفأني . وإذا

قضى حاجته قال : الحمد لله الذي أخرج مني الأذى ولو شاء لحبسني في .

ويقول بعض العارفين : ما أكثر ما غفل الإنسان عن شكر الله على نعمه .

ونرى كثيراً من الناس قصارى جهدهم أن يقولوا : بسم الله في أول الطعام والحمد لله في آخره ، ثم هم غافلون عن نعم كثيرة لا تُعد ولا تُحصى ، تستوجب الحمد والشكر .

لذلك حينما يعقل الإنسان ويفقه نعم الله عليه ، ويعلم أن الحمد قيد للنعمة ، تجده يعمل ما نُسمّيه حمد القضاء مثل الصلاة القضاء أى : حمد الله على نعم فأتت لم يحمده عليها ، فيقول : الحمد لله على كل نعمة أنعمتْها علىّ يا ربّ ، ونسيت أن أحمّدك عليها ، ويجعل هذا الدعاء دأبه ودينه .

وقد يتعدى حمد الله لنفسه ، فيحمد الله عن الناس الذين أنعم الله عليهم ولم يحمده ، فيقول : الحمد لله عن كل ذى نعمة أنعمتْ عليه ، ولم يحمّدك عليها .

ولذلك يقولون : إن النعمة التى تحمد الله عليها لا تُسال عنها يوم القيامة ؛ لأنك أدّيتَ حقها من حمد الله والثناء عليه .

والحمد والشكر وإن كان شكراً للمنعم سبحانه وثناء عليه ، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٧)﴾

[إبراهيم]

فمن أراد الخير لنفسه وأحب أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ ﴾

قوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا ۝٤ ﴾

[الإسراء]

أى : حكمنا حكماً لا رجعة فيه ، وأعلنا به المحكوم عليه ،
والقاضى الذى حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى .

والقضاء يعنى الفصل فى نزاع بين متخاصمين ، وهذا الفصل
لا بُدَّ له من قاضٍ مؤهل ، وعلى علم بالقانون الذى يحكم به ،
ويستطيع الترجيح بين الأدلة .

إذن : لا بُدَّ أن يكون القاضى مؤهلاً ، ولو فى عُرف المتنازعين ،
ويمكن أن يكونوا جميعاً أميين لا يعرفون عن القانون شيئاً ، لكنهم
واثقون من شخص ما ، ويعرفون عنه قول الحق والعدل فى
حكومتهم ، فيرتضونه قاضياً ويحكمونه فيما بينهم .

ثم إن القاضى لا يحكم بعلمه فحسب ، بل لا بُدَّ له من بيعة على
المدعى أن يُقدمها أو اليمين على مَنْ أنكر ، والبيعة تحتاج إلى سماع
الشهود ، ثم هو بعد أن يحكم فى القضية لا يملك تنفيذ حكمه ، بل

(١) قضينا . أعلمنا وأخبرنا . قاله ابن عباس . وقال قتادة : حكمنا . وأصل القضاء الأحكام

للشئ والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا . [تفسير القرطبي ٢٩٤٢/٥] .

هناك جهة أخرى تقوم بتنفيذ حكمه ، ثم هو فى أثناء ذلك عُرضة للخداع والتدليس وشهادة الزور وتلاعب الخصوم بالاقوال والادلة .

وقد يستطيع الظالم أن يُعمى عليه الأمر ، وقد يكون لبقاً متكماً يستميل القاضى ، فيحوّل الحكم لصالحه ، كل هذا يحدث فى قضاء الدنيا .

فما بالك إذا كان القاضى هو رب العزة سبحانه وتعالى ؟

إنه سبحانه وتعالى القاضى العدل الذى لا يحتاج إلى بينة ولا شهود ، ولا يقدر أحد أن يُعمى عليه أو يخدعه ، وهو سبحانه صاحب كل السلطات ، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به ، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه .

وقد حدث هذا فعلاً فى قضاء قضاءه النبى ﷺ ، وهل القضاة أفضل من رسول الله ؟!

فى الحديث الشريف : « إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إلىّ ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن^(١) بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار »^(٢) .

فردّ ﷺ الحكم إلى ذات المحكوم له ، ونصحه أن يراجع نفسه وينظر فيما يستحق ، فالرسول ﷺ بشر يقضى كما يقضى البشر ، ولكن إن عميت على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء .

(١) ألحن بحجته أى أفطن له وأجمل . واللحن . اللفظنة [لسان العرب مادة لحن] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٢) كتاب الاقضية من حديث أم سلمة رضى الله عنها

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٨٢٤٥

ولذلك يقول ﷺ فيمن يستفتي شخصاً فيفتيه فتوى تخالف الحق وتجانب الصواب :

« استفت قلبك ، وإن أفتوك ، وإن أفتوك ، وإن أفتوك »^(١) .

قالها ثلاثاً ليلفتنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُميّزاً بقلبه بين الحلال والحرام ، وعليه أن يُراجع نفسه ويتدبر أمره .

وقوله : ﴿ فِي الْكِتَابِ .. ﴾ (١)

[الإسراء]

أى : فى التوراة ، كتابهم الذى نزل على نبيهم ، وهم محتفظون به وليس فى كتاب آخر ، فالحق سبحانه قضى عليهم . أى : حكم عليهم حكماً وأعلمهم به ، حيث أوحاه إلى موسى ، فبلغهم به فى التوراة ، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات استقبال منهج الله على السنة الرسل ، أيُنْفِذُونَهُ وَيَنْصَاعُونَ لَهُ ، أم يخرجون عنه ويفسدون فى الأرض ؟

وإذا كان رسولهم - عليه السلام - قد أخبرهم بما سيحدث منهم ، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرسول وهم مختارون ، فكان عليهم أن يخجلوا من ربهم عز وجل ، ولا يتمادوا فى تصادمهم بمنهج الله وخروجهم عن تعاليمه ، وكان عليهم أن يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به ، وأن يُطِيعُوا أَمْرَهُ .

(١) عن وابصة بن معبد أن رسول الله ﷺ قال له يا وابصة . استفت نفسك . البر ما اطمأن إليه القلب . واطمأنت إليه النفس . والإثم ما حاك فى القلب وتدد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك . أخرجه أحمد فى المسند (٢٢٨/٤) والدارمى فى سننه (٢٤٦/٢) .

وقوله تعالى :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..(٤)﴾

[الإسراء]

جاءت هذه العبارة هكذا مؤكدة باللام ، وهذا يعنى أن فى الآية قَسَمًا دَلُّ عليه جوابه ، فكان الحق سبحانه يقول : ونفسى لتفسدن فى الارض ، لأن القسم لا يكون إلا بالله .

أو نقول : إن المعنى : ما دُمنا قد قضينا وحكمنا حكمًا مؤكدًا ، لا يستطيع أحد الفكاك منه ، ففى هذا معنى القسم ، وتكون هذه العبارة جواباً لـ : قضينا ، : لأن القسم يجىء للتأكيد ، والتأكيد حاصل فى قوله تعالى :

﴿وَقَضَيْنَا..(٤)﴾

[الإسراء]

فما هو الإفساد ؟

الإفساد : أن تعتمد إلى الصالح فى ذاته فتُخرجه عن صلاحه ، فكلُّ شىء فى الكون خلقه الله تعالى لغاية ، فإذا تركته لىؤدى غايته فقد أبقيته على صلاحه ، وإذا أخلت به يفقد صلاحه ومهمته ، والغاية التى خلقه الله من أجلها .

والحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا على هذه الأرض خلق لنا مقومات حياتنا فى السماء والأرض والشمس والهواء .. إلخ وليس مقومات حياتنا فحسب ، بل واعد لنا فى كونه ما يُمكن الإنسان بعقله وطاقته أن يزيد الصالح صلاحاً ، فعلى الأقل إن لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فأبّق الصالح على صلاحه .

فمثلاً ، عندك بئر محفورة تخرج لك الماء ، فإما أن تحتفظ بها على حالها فلا تطمسها ، وإما أن تزيد في صلاحها بأن تبني حولها ما يحميها من زحف الرمال ، أو تجعل فيها آلة رفع للماء تضخه في مواسير لتسهل على الناس استعماله ، وغير ذلك من أوجه الصلاح .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ ۝٦١ ﴾ [مود]

أى : أنشأكم من الأرض ، وجعل لكم فيها مقومات حياتكم ، فإن أحببت أن تُثري حياتك فأعمل عقلك المخلوق لله ليفكر ، والطاقة المخلوقة في أجهزتك لتعمل في المادة المخلوقة لله في الكون ، فأنت لا تأتى بشيء من عندك ، فقط تُعمل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله ، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله ، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثري حياتك ، ويوفر لك الرفاهية والترقى .

فالذين اخترعوا لنا صهاريج المياه أعملوا عقولهم ، وزادوا الصالح صلاحاً ، وكم فيها من ميزات وفُرت علينا عناء رفع المياه إلى الأدوار العليا ، وقد استنبط هؤلاء فكرة الصهاريج من ظواهر الكون ، حينما رأوا السيل ينحدر من أعلى الجبال إلى أسفل الوديان ، فأخذوا هذه الفكرة ، وأفلحوا في عمل يخدم البشرية .

وكما يكون الإفساد في الماديات كمن أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوثات ، كذلك يكون في المعنويات ، فالمنهج الإلهي الذي أنزله الله تعالى لهداية الخلق والزمنا بتنفيذه ، فكونك لا تنفذ هذا المنهج ، أو تكتمه ، أو تُحرّف فيه ، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى .

ويقول تعالى لبنى إسرائيل :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ...﴾ (١)

[الإسراء]

وهل أفسد بنو إسرائيل في الأرض مرتين فقط ؟

والله إن كانوا كذلك فقد خلاهم ذم ، والامر إذن هين ، لكنهم أفسدوا في الأرض إفساداً كثيراً متعدياً ، فلماذا قال تعالى : مرتين ؟

تحدث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين^(١) ، وفي أي فترات التاريخ حدثتا ، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام ، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام ، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتُ منهم في حضن الإسلام .

فالحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الإسراء ذكر قصة بنى إسرائيل ، فدل ذلك على أن الإسلام تعدى إلى مناطق مُقدَّساتهم ، فأصبح بيت المقدس قبلة للمسلمين ، ثم أُسْرِى برسول الله ﷺ إليه ، وبذلك دخل في حوزة الإسلام ؛ لانه جاء مهيمناً على الأديان السابقة ، وجاء للناس كافة .

إذن : كان من الأولى أن يُفسَّروا هاتين المرتين على أنهما في

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور (٢٣٩/٥) آثاراً في تفسير هذه الآية ، فقال :

- أخرج ابن عساكر في تاريخه عن علي بن أبي طالب قال : الأولى : قتل زكريا عليه الصلاة والسلام . والآخرى : قتل يحيى عليه السلام

- وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية الموصلي قال : أفسدوا المرة الأولى ، فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم ، وأفسدوا المرة الثانية ، فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر .

حُضِنَ الْإِسْلَامُ : لَأَنَّهُمْ أَفْسَدُوا كَثِيرًا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَلَا دَخَلَ لِلْإِسْلَامِ
فِي إِفْسَادِهِمُ السَّابِقُ : لِأَنَّ الْحَقَّ سَبَّحَانَهُ يَقُولُ :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا ۝ (١٧) ﴾ [الْإِسْرَاءِ]

فَإِنْ كَانَ الْفُسَادُ مُطْلَقًا . أَيْ : قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْإِسْلَامَ فَقَدْ تَعَدَّدَ
فُسَادُهُمْ ، وَهَلْ هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ قَوْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ جَاوَزَ بِهِمُ الْبَحْرَ قَرَأُوا
جَمَاعَةً يَعْكِفُونَ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْعَجَلِ ، فَقَالُوا لِمُوسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۝ (١٣٨) ﴾ [الْأَعْرَافِ]

هَلْ هُنَاكَ فُسَادٌ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ مُثَلًّا
تَكْوِينِيَّةً وَأَسْوَةً سُلُوكِيَّةً ، وَحَرَّفُوا كِتَابَ اللَّهِ ؟

وَالنَّاظِرُ فِي تَحْرِيفِ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لِلتَّوْرَةِ يَجِدُ أَنَّهُمْ حَرَّفُوهَا مِنْ وَجْهِ
كَثِيرَةٍ وَتَحْرِيفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَمَنْ التَّوْرَةَ مَا نَسُوهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۝ (١٣) ﴾ [الْمَائِدَةِ]

وَالَّذِي لَمْ يَنْسُوهُ لَمْ يَتْرَكُوهُ عَلَىٰ حَالِهِ ، بَلْ كَتَمُوا بَعْضَهُ ، وَالَّذِي
لَمْ يَكْتُمُوهُ لَمْ يَتْرَكُوهُ عَلَىٰ حَالِهِ ، بَلْ حَرَّفُوهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ يُعْرِضُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۝ (١٣) ﴾ [الْمَائِدَةِ]

وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ بِهِمْ عِنْدَ هَذَا النِّسْيَانِ وَالْكَتْمَانِ وَالتَّحْرِيفِ ، بَلْ
تَعَدَّى إِلَىٰ أَنْ أَتَوْا بِكَلَامٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، وَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ،
قَالَ تَعَالَى :

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْعَرُوا بِهِ نَعْمًا قَلِيلًا...﴾ (٧٩)

[البقرة]

فهل هناك إفساد في منهج الله أعظم من هذا الإفساد ؟

ومن العلماء مَنْ يرى أن الفساد الأول ما حدث في قصة طالوت وجالوت في قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ^(١) لَهُمْ أَمْعٌ لَنَا مَلِكًا يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا...﴾ (٢٤٦)

[البقرة]

فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضوه وحكموا به ، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصلوا منه ولم يقاتلوا .

ويرون أن الفساد الثاني قد حدث بعد أن قويت دولتهم ، واتسعت رقعتها من الشمال إلى الجنوب ، فأغار عليهم بختنصر وهزمهم ، وفعل بهم ما فعل .

وهذه التفسيرات على أن الفسادين سابقان للإسلام ، والأولى أن

(١) اختلف في تحديد من هو هذا النبي على أقوال منها :

- إنه يوشع بن نون . قاله قتادة .

- إنه شمعون . قاله السدي .

- إنه شمويل . قاله مجاهد ووهب بن منبه . ذكره ابن كثير في التفسير (١/٣٠٠) .

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية (٢/١٠٥٦) : « لا يعني ذلك ، لأن القرآن لا يذكر في أي عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام » .

نقول : إنهما بعد الإسلام ، وسوف نجد في هذا ربطاً لقصة
بنى إسرائيل بسورة الإسراء .

كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الإسلام حينما جاء كان يستشهد بأهل الكتاب على
صدق محمد ﷺ ، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين
كفروا ، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين في المدينة
كانوا يقولون لهم : لقد أظلم زمان نبي يأتي فنتبعه ، ونقتلكم به قتل
عاد وإرم^(١) .

لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : إنهم ينكرون عليك أن الله
يشهد ومن عنده علم الكتاب ، فمن عنده علم الكتاب منهم يعرف
بمجيئك ، وأنت صادق ، ويعرف علامتك ، بدليل أن الصادقين منهم
آمنوا بمحمد ﷺ .

ويقول أحدهم^(٢) : لقد عرفت حين رأيته كمعرفتني لابني ، ومعرفتني
لمحمد أشد ، لأنه قد يشك في نسبة ولده إليه ، ولكنه لا يشك في
شخصية الرسول ﷺ لما قرأه في كتبهم ، وما يعلمه من أوصافه ،
لأنه ﷺ موصوف في كتبهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

إذن : كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا ، وكانوا

(١) قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة] .

(٢) هو : عبد الله بن سلام . قال له عمر : اتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم
وأكثر . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٩٤) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/٢٥٧)
للثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس .

مستشرفين لمجيئه ، وعندهم مقدمات لبعثته ﷺ .

ومع ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴾ (٨٩)

[البقرة]

فلما كفروا به ، ماذا كان موقفه ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة ؟

في المدينة أبرم رسول الله ﷺ معهم معاهدة يتعايشون بموجبها ، ووفى لهم رسول الله ما وُفوا ، فلما غدروا هم ، واعتدوا على حرمة المسلمين وأعراضهم ، جاس^(١) رسول الله ﷺ خلال ديارهم ، وقتل منهم من قتل ، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وإلى خيبر ! وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ (٧)

[الحشر]

وهذا هو الفساد الأول الذي حدث من يهود بني النضير ، وبني قَيْنَقَاع ، وبني قريظة ، الذين خانوا العهد مع رسول الله ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ونص الآية القادمة يؤيد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام .

(١) جاسوا : ذهبوا وجاموا في الأرض . وفي الصحاح : جاسوا خلال الديار أي : قطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه . [لسان العرب - مادة : جوس] .